المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أس الشرور

عرض للتعصب، والأصولية واختلال موازين القوى بين الجنسين

تأليف: شارون ج. ميهاريس
علياء رافع
راشيل فاليك
جينى إيدا شيير

ترجمة: سهام عبد السلام
مراجعة: سارة عنانى
تقديم: هدى زكريا

1685

أسّ الشرور

عرض للتعصب، والأصولية واختلال موازين القوى بين الجنسين

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1685
- أسّ الشرور
- نخبة
- سهام عبد السلام
- سارة عنانى
- هدى زكريا
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Root of All Evil:
An Exposition of Prejudice, Fundamentalism and Gender Imbalance
By Sharon G. Mijares, Aliaa Rafea,
Rachel Falik and Jenny Eda Schipper

Authorized translation of the English edition © 2007 Imprint Academic.
This translation is Published and sold by permission of Imprint
Academic, the owner of all rights to Publish and sell the same.
©The National Center for Translation 2011
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

أسّ الشرور

عرض للتعصب، والأصولية، واختلال موازين القوى بين الجنسين

تأليف: شارون ج. ميهاريس
علياء رافع
راشيل فاليك
جيني إيدا شيير
ترجمة: سهام عبد السلام
مراجعة: سارة عناني
تقديم: هدى زكريا

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أسّ الشرور: عرض للتعصب والأصولية واختلاف موازين القوى بين الجنسين / تأليف: شارون ج . ميهاريس.. وآخرون، ترجمة: سهام عبد السلام، مراجعة : سارة عنانى، تقديم : هدى زكريا

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠

٤٢٨ ص، ٢٤سم

١ – التعصب الدينى ٢ – المسلمون واليهود

٣ – الخير والشر ٤ – النزاع العربى الإسرائيلى

(أ) ج . ميهاريس؛ شارون. (مؤلف مشارك)

(ب) عبد السلام، سهام (مترجم)

(جـ) عنانى، سارة (مراجع)

(د) زكريا ، هدى (مقدم)

(هـ) العنوان ٢٩١١,١

رقم الإيداع ٢١٢٥٤ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N- 978- 977- 704 - 364- 9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

شكر و عرفان.. 11

استهلال: بقلم د/ إسماعيل سراج الدين.. 15

تصدير: بقلم الأخت جوان شيتيستار (من راهبات وسام القديس بينديكت)

مقدمة المترجمة

مقدمة أ. د. هدى زكريا

المقدمة.. 47

الفصل الأول: قصص الخير والشر

انفصال السماء عن الأرض.. 83

أساطير الخلق: قصص الطبيعة والهداية.. 89

الثالوث الهندوسي: قصص سورة الغضب والتكريس.. 95

أساطير الصين القديمة وخرافاتها.. 100

الشنتوية: الديانة الأصلية لليابان.. 103

قدماء المصريين: حلم إقامة الفردوس على الأرض.. 105

التأثيرات اليونانية.. 108

الجذور الشرق أوسطية القديمة.. 110

سقوط الشيطان من الجنة: الشر في اليهودية، والمسيحية، والإسلام.. 115

الخلاصة.. 123

الفصل الثاني: ممارسة الفرد للعنف باسم إلهه

مؤسسو الديانات وتوازن القوى بين الرجال والنساء.. 132

لا سمع ولا امتثال للنصح: رسالة الأنبياء.. 136

القصة اليهودية.. 139

القصة المسيحية.. 149
القصة الإسلامية.. 158
القصة الهندوسية.. 166
القصة البودية: سبيل التراحم.. 169
حكايات سكان أمريكا الأصليين.. 174
المعتقدات الدينية ومشكلة الطاعة.. 177
الخلاصة.. 182

الفصل الثالث: من منا المختار؟

النشوء والارتقاء والعدوان.. 188
ما دون العقل المنطقي.. 192
الأمراض الاجتماعية والخصومة بين الأشقاء.. 195
منظور أنثروبولوجي.. 198
الدين، والحروب، والتنافس على المقام الأول.. 199
الأصولية الراديكالية: تهديد خطير لبقاء الانسانية.. 209
الخلاصة.. 218

الفصل الرابع: حكايات الديموقراطية والقوة والفساد صدام الدين والسياسة في الولايات المتحدة الأمريكية

رؤية للعالم في إطار الانساق.. 223
الشعوب والامم الأولى: الديموقراطية وروحانية السكان الأصليين لأمريكا........ 228
الفصل بين الكنيسة والدولة.. 233
قوة الرموز ومشكلات الرأسمالية.. 237
قدرنا: عبء الرجل الأبيض.. 239
نضالات النساء من أجل المساواة في الحقوق.. 243
نظام عالمي جديد: العولمة، وتسييد التجارة، والجشع.. 245
صدام الحضارات.. 250
الأحلام والواقع.. 255

الخلاصة .... 2?7

الفصل الخامس: الانشقاقات والصراعات لعالمية مزيد من حكايات السياسة والدين

الاستعمار الكولونيالي والتوسع الاوروبي 266
شعبان وأرض واحدة: إسرائيل و فلسطين 270
إنشاء الدولة اليهودية .... 2?2
الثمن الباهظ للسيادة 277
الامتزاج بين المؤثرات الدينية والسياسة 279
العمل العسكري والحقوق الفلسطينية 289
انفصال الديانات واستقلال كل ديانة بدولة الهند وباكستان 293
كشمير 295
جمهورية الصين الشعبية الشيوعية والتغيير: 297
الإسلام: خلط الدين بالقانون 300
نهوض الحضارات الإسلامية وسقوطها 301
حركات الإصلاح والنكوص 302
الشريعة الإسلامية 304
إفريقيا: الصدام بين الديانات والسياسة والثقافة 309
إثيوبيا وإريتريا 310
أزمة السودان 311
نيجيريا: مشكلة تطبيق الشريعة 314
الخلاصة .... ?17

الفصل السادس- هرمجدون ام نموذج جديد؟

المنظور الأفقي والمنظور الرأسي

الصحة النفسية السليمة 331
إدخال جانب الظل فى حياتنا 332
شفاء جراح الماضى 335
عدل ميزان التاريخ: خلق ثقافة متوازنة فيما يخص العلاقات بين النوعين 340

الدين والنوعان (الرجال والنساء).. 341
السياسة والنوعان (الرجال والنساء).. 350
شفاء جراح الدين... 362
تنزه البشر عن النقائص والقصة الجديدة... 366
خاتمة : مكان شاركت فيه المؤلفات بعضهن البعض في عملهن وأفكارهن
الجزء الأول.. 377
الجزء الثاني.. 393

إهــداء

نهدي هذا الكتاب لجميع أبرياء العالم، الذين واللاتي يعانون بسبب التعصب الأبوي

مع أمل في أن نغدو جميعا عائلة بشرية واحدة، ونخلق عالـمًا يسوده السلام

شكر وعرفان

لن يكتمل هذا الكتاب دون أن نوجه الشكر والعرفان لمن أسهمن وأسهموا بشكل أو بآخر في هذا المشروع. ندين نحن الأربع بالتقدير لمن ألهمنا من الناس على تنوعهم، وما علينا إلا التعبير عن تقديرنا جمعًا وأفرادًا لهؤلاء الناس.

تقول شارون: أود أن أقدم شكري وعرفاني بالأصالة عن نفسي لأستاذي وصديقي الصدوق سعدي نيل دوجلاس-كلوتز، وأن أعبر عن عميق امتناني لما يبذله من جهود لا تكل لإقرار السلام في الشرق الأوسط وفي العالم بأسره. إنه لقدوة استلهمتها في دراستي لهذا المجال. ما ابني، رافائيل ميهاريس. فقد أوضح لي الكثير من ثغرات النظام السياسي الحالي، كما اقترح عليَّ أن أدرس ما في الريج فبدا والعهد القديم من مواقف متعصبة. وبالمثل، تعلمت الكثير من الحوارات التي جرت بيني وبين جوناثان جرانوف الذي يعمل في معهد الأمن الكوكبي (جلوبال سيكيوريتي إنستيتيوت) حصلت نتيجة بحثي في هذه المجالات على خيوط أدخلتها في نسيج ما كتبته في هذا الكتاب. أود أيضا أن أتقدم بالشكر إلى ريف هال لنحرمان، الذي اقترح عليَّ أن أدرس *مكتبة نجع حمادي، التوراة الأخرى*، والأبحاث المتخصصة في التاريخ اليهودي – المسيحي. أما د. ناهد آنغا ود. علي كيانفار، مؤسسا الاتحاد الدولي للصوفية. فقد مكناني من الالتقاء بجوناثان جرانوف، وعلماء رافع، وغيرهما كثير من الصوفيين والصوفيات، والقساوسة المسيحيين ذوي الأخلاق الرفيعة، ممن نذروا أنفسهم وأنفسهن للعمل على التقريب بين الديانات. كما ألهمني أيضا بما كتبته في هذا الكتاب. وإني لأسعد أيضًا بعميق التقدير لهيثر هرفورد التي عرفتني على فيا. ليبك تي في، التي مكنتني من أن أعلم

ما الذي يجري حقًا في هذا العالم. أما صديقتي دانيا بريت، فقد راجعت المسودة الأولى، وقدمت لي الكثير من الاقتراحات التي خرجت بها بعد تفكير عميق، مما أفادني فى مراجعة العمل. وأهم ما أود التعبير عنه امتناني النابع من القلب لزميلاتى اللاتي شاركنني تأليف هذا الكتاب، فقد وثقن في رؤيتي، ووافقن عليها، وكرسن جهودهن من أجل هذا المسعى، على ما كان في ذلك من صعوبة في بعض الأوقات.

وتقول علياء: أدين بالعرفان للسيد علي رافع، أخي ومرشدي الروحي، الذي علمني كيف أنصت لصوت قلبي، وأستخدم ذهني وأناضل لأجعل من الدين والحياة وحدة متكاملة لا تتجزأ. ولولا إرشاده وتشجيعه المستمر لي لما تمكنت من إنجاز مثل هذا العمل المليء بالتحديات، الذي كان علي فيه أن أتغلب على الكثير من "المسلمات" التي تذخر بها ثقافتي، وأعيد التفكير فيها لأكشف ما فيها من نواحي الأصولية والتعصب. أود أيضا أن أشكر الأستاذة عائشة رافع، التي راجعت بعض أجزاء الكتاب، لأن الحوارات التي دارت بيننا مكّنتني من أن أرى الأمور بمزيد من الوضوح. أما د. مليكة مارتيني، التي سبق أن شاركتها في بحث سابق، فقد قرأت المقدمة، وكم شعرت بعظيم التقدير لتعليقاتها الثاقبة. كما أود التعبير عن امتناني للدكتور علي كيانفار و الدكتورة ناهد آنغا لما بذلاه من جهود مخلصة في تجميع الصوفيين من جميع أنحاء العالم. فقد أنشآ الاتحاد الدولي للصوفيين، وهو الاتحاد الموقر الذي التقيت من خلاله مع د. شارون ميهاريس، التي لولا لقائي بها ما شاركت في هذا المشروع. كما أود توجيه الشكر الى الشيخ أحمد عبد الرشيد على ما أبداه من ملحوظات وما أجراه معي من حوارات حول ما تضمنه المشروع من أفكار. ولا أجد من الكلمات ما يفي بشكري لشارون وتقديري لها. لقد فتحت لي بوابة واسعة مكّنتني من إنجاز ما كنت قد شرعت فيه؛ حيث إني كنت أحاول أن أجد من خلال عملي الروحاني والأكاديمي سبلا تساعدني على ازالة الحواجز

الثقافية الزائفة التي تعوق تواصل البشر، وإني لأشعر بعظيم التقدير لها لأنها فكرت في ضمي لهذا المشروع. لقد تعلمت الكثير من رؤيتها التي شخصت اس الفرقة والعداوة بين البشر. كم كان العمل معها ملهمًا! وعلى الرغم من أني لم ألتق براشيل وجيني شخصيًا، فإني أعتز بعلاقتنا، ولكم سعدت بالمشاركة معهن في تأليف هذا الكتاب. وأخيرا ولبس آخرًا، أود التوجه بالشكر لعائلتي لما قدمته لي من مساندة مستمرة.

وتقول راشيل: ادين بامتنان خاص لسيما وموشيه (زيجي)، والداي اللذين محضاني حبًا بلا شروط. وهما من أتباع تراث زئيفي جابونسكي. لقد احترم والداي دائما تفكيري المستقل، وعلَّماني أن أفضل الفضائل هي التراحم والتسامح. وأتقدم بشكر خاص لعالم الاجتماع والفيلسوف توم سيم، الذي قادتني معارفه السياسية الهائلة. وعينه النقدية، ومنظوره غير المنحاز إلى ما تجاوز قراءاتي في كيركيجارد-بوبر، وزين-تشومسكي-روي، وساعدتني على فهل أفكاري بصوتي المميز. وأهم ما في الامر اعتزازي بقيادة شارون التي صدرت عن رؤية واضحه، فما كان لهذا الكتاب أن يكتب دون إلهامها لنا لقد جمعتنا معا، مما مكننا من إنجاز رحلة الاستكشاف التي ضمناها هذا الكتاب، فالرحلات الناجحة دائما ما تكون بصحبة الآخرين.

وتقول جيني: كم أود التقدم بعظيم العرفان لشارون ميهاريس لدعوتها لي للمشاركة في هذا المشروع، فمنحتني بذلك فرصة عظيمة كي أنمو في اتجاه جديد سأظل ممتنة لها للأبد لهذه الهدية ولرؤيتها للموقع الذي يناسبني في هذا الكتاب. أود أن أتجه بعميق الشكر لزوجي، جون كينجزميل، لمساندته لي بلا كلل وتشجيعه لي طوال مشاركتي في تأليف هذا الكتاب. وأود أيضا أن أتقدم بالشكر والعرفان

لوالدي، لويس وروز شيبر، اللذين علّماني أن أعتقد أن جميع الناس سواسية، وأن أعمل من أجل الوصول لعالم يمثل هذه الحقيقة. وأنا ممتنة أيضا لشقيقي هنري، لوعده لي ألا يتبرأ مني، مهما كان ما سأكتبه.

ونحن جميعًا نكنُّ الامتنان لناشرنا، *إمبرينت أكاديميك*، ولمدير تحرير دار النشر، آنتوني فريمان، لكل ما قدمه لنا من مساندة. لقد وثق أنتوني بهذا الكتاب منذ بدأنا العمل فيه. إن روحه متآلفة حقًّا مع أرواحنا. ونحن أيضا ممتنات لزوجته جاكلين التي صنفت فهرست الكتاب، ولطاقم التحرير بدار إمبرينت أكاديميك، ولمن راجعوا كتاباتنا، ولمصممي غلاف الكتاب، جابو وباكو، اللذين عملا طويلا وبذلا جهدًا شاقًّا ليخرج غلاف هذا الكتاب بصورته المناسبة. وباختصار، لا نجد من الكلمات ما يفي د. إسماعيل سراج الدين حقه من الشكر على الوقت الذي أنفقه في قراءة كتابنا وكتابته لهذا الاستهلال المفعم بالتقدير لعملنا، آخذات في الاعتبار جدول عمله المزدحم بالمهام. يشمل امتناننا أيضا الأخت جوان شيتيستار للتصدير الجميل الذي كتبته لكتابنا. ونشكر جميع من أسهم معنا في هذا الكتاب.

استهلال

نحن نعيش في زمن المتناقضات. زمن يوجد فيه الثراء الفاحش مع الفقر المدقع. زمن يجمع ما بين الإنجازات التعليمية والعلمية الاستثنائية والتعصب والدجل. زمن يتجاور فيه الاعتراف بحقوق الإنسان بشكل غير مسبوق مع التمييز. في هذا الزمن الذي تذكى فيه نيران الكراهية بشكل فعال، ويروج لصدام الحضارات كأمر لا مفر منه، وتتعالى فيه أصوات من يرون تهديدًا في أي بادرة اختـــلاف، ينعشني أن أقـــرأ هذا الكتاب الذي ألفته أربع سيدات، لا يجمع بينهن إلا وعيهن المرهف بإنسانيتهن المشتركة، وترحابهن بالجهر بهذا الوعي. إنهن يجهرن بالقول دفاعا عن قيم يعتززن باعتناقها، وشجبا للنُهُج والممارسات التي يدركن أنها تنخر في هذه القيم وتدمرها.

إن كتاب شارون ميهاريس، وعلياء رافع، وراشيل فاليك وجيني إيدا شيبر رحلة جمعية في إنسانية الإنسان. إنهن يقدمن أنفسهن كمثال، ويدركن من أين أتين حتى صرن إلى ما هُنَّ عليه. إنهن يفتحن نوافذ لا تكتفي بالإطلال على المشهد العام، بل تطل أيضا على البشر الآخرين. وهن يدركن أن التحيز والمكابرة عدسات تشوه المنظور، ويدعين بإخلاص وشجاعة إلى نبذ التعصب، والأصولية، والإفراط في الاهتمام بمظاهر التدين الخارجية، وإلى العمل على إقرار الإنصاف بين الجنسين وحفظ كرامة الإنسان الفرد. وهن يطالبننا بأن نتحلى بالشجاعة المستمدة من قناعاتنا، وأن نعمل وفقا لها.

لقد أتت المؤلفات الأربع من خلفيات شديدة التباين. فبينهن مسلمة من مصر، ومسيحية متصوفة من أمريكا، ويهودية أمريكية، ويهودية من إسرائيل (لكنها تعيش حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية). وفي بحث المؤلفات عن خلفية مشتركة تجمعهن، تمكن من تجاوز اختلافاتهن. فهذا الكتاب إذن ثمرة حب، ورحلة لاستكشاف الذات وفهم الآخر. والمؤلفات يقدمن بكلماتهن وأفعالهن مثالاً عمليًا لجوهر الحب والتسامح يقع موقع القلب من جميع الديانات، وجميع التقاليد العظيمة، ويعمُّها.

لقد تبعت المؤلفات قلوبهن وعقولهن ليصلن إلى خلاصة فحواها، إن الكثير مما يعيب العالم المحيط بنا يرجع إلى الأصولية، والتعصب، واختلال موازين القوى بين الجنسين. وقد وجدت المؤلفات أرضية مشتركة تجمعهن على الرغم من تباين خلفياتهن، وتمكن من رفع قضية مشتركة ضد القوى التي يعتبرنها أس الشرور في العالم. إن سعيهن سعي ديني إلى حد بعيد، لكنه سعي من منظور مفتوح يشمل الجميع. والأمر كما يوضحنه، أن مسعاهن روحي في المقام الأول وليس دينيا بمعنى قبول سلطة أي بنية أو جماعة دينية.

إنهن ملتزمات بعمق بضمان ألا تجحف وجهة النظر الأبوية التي تسود الكثير من أنحاء العالم الآن بحقوق النساء بصفتهن بشر. إن أصداء الأمانة تتردد في جنبات كتابهن، كما تتردد فيه أصداء الرغبة في التعلم من الماضي بغية خلق مستقبل جديد. ونحن جميعا -ممن لا يسعدهم حال الدنيا الآن- نقدر الوقت الذي قضينه والجهد الذي بذلنه ليقاسمننا اهتمامهن بالبشر وتراحمهن معهم، ورحلة استكشافهن لذواتهن وللآخر. إن العالم بحاجة للكثيرات من أمثال هؤلاء المؤلفات الأربع الشجاعات.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

الإسكندرية، في أكتوبر ٢٠٠٦

تقديم لكتاب أسّ الشرور

هدى زكريا

(أستاذ علم الاجتماع السياسي بجامعة الزقازيق)

النوايا الطيبة لا تفرش الطريق إلى الفردوس في غالب الأحيان، هذا ما قد يستحضره قارئ كتاب "أس الشرور" كرد تلقائي علي آراء الكاتبات، فالكتاب يتميز بقدر هائل من المعلومات الخاصة بالأديان المختلفة التي تسوقها الكاتبات في محاولتهن النقدية لكشف أس الشرور الإنسانية، والذي يعرّفنه في الكتاب بأنه "أي تصرف محسوب يقصد به الحط من قدر إنسان أو إلحاق الأذى به"، ويضفن "أن اختلال موازين القوى بين الجنسين الناجمة عن النسق الأبوي هو الذي يدعم استمرار هذه الجريمة على مر الزمان" و"أنه الشر الذي تتسم به السلوكيات المتعصبة النابعة من الكبرياء بسبب علو المنزلة في سلم التراتب الهرمي. وهن يعتبرن النسق الأبوي "مثال التعصب الأولي والحط من شأن الآخرين، لذا تستمر الحروب لتأكيد علو مرتبة أحد الأطراف على الآخر". وتؤكد الكاتبات أنه إذا عدلت موازين القوى بين الجنسين فإن الإنسانية ستغير من وضعها الذي تكتنفه المصاعب لتحل العديد منها.

وكان من المنطقي أن تحرص الكاتبات على تقديم رؤية تحليلية للأحداث التاريخية، تتسم بالطابع الأخلاقي الذي يفرضه توجُّه الكتاب. ومن المنطلق الأمومي- المسئول عن إرساء سفينة البشرية المرتبكة في لجاج العنف المضطرب- وجهت الكاتبات لومًا كبيرًا للولايات المتحدة ومشروع القرن

الأمريكي، الذي حمل شرارات العنف لبوزعها على دول الشرق الأوسط، كل بحسب حاجة أمريكا وحليفاتها منه .ومن ثم جاء الاستيلاء على العراق والتمركز بقوات كبيرة في أفغانستان، وتهديد ايران وسوريا ودعم الالة العسكرية الإسرائيلية. ولقد جاء استعراض الكاتبات لبؤر العنف والدمار في العالم وافيا بحيث يمكن للكاتب أن يصبح مادة حية ومعبدة لرؤية بانورامية للدور الفاعل للأديان في تحريك السياسات، إن لم يكن في تصنيع" الدول والأمم كما في حالة إسرائيل وباكستان.

ولابد للقارئ أن يبذل جهدا كبيرا لكي يدرك أن انتماء نصف كاتباته إلى الديانة اليهودية، وانتماء ربعهن إلى إسرائيل قد شاب المشروع المشترك بينهن بعيوب يصعب قبولها أو التغاضي عنها، حيث جاء التركيز الواضح على المحرقة (الهولوكوست) واعتبارها السبب الرئيسي فيما مارسته آلة الحرب الصهيونية ضد شعب فلسطين. وحتى في هذه الحالة كان من الممكن أن يتم تبرير السلوك "الثأري" والعنيف لليهود اذا ما تم توجيهه ضد أوروبا وليس ضد الفلسطينيين العُزّل والمسالمين الذين تعايشوا مع اليهود المقيمين بينهم قبل عام النكبة ١٩٤٨، ولكن راشيل تكتفي بالتساؤل التبريري الساذج: "وأين كان العالم عندما قاد النازي يهود ألمانيا إلى المحرقة؟" وما كان عليها- وقد انتوت المشاركة في هذا المشروع الهادف إلى السلام- أن تتجاهل تماما بل وأن تنكر مذابح دير ياسين وكفر قاسم وقانا، وغيرها من الجرائم التي ستظل دماء شهدائها تطارد مرتكبيها الذين لم يتورعوا عن التفاخر بإعلان أدوارهم في تنفيذ هذه المذابح المتعمدة، ضد الأبرياء، مؤكدين أنه بإتمام مذبحة دير ياسين أعلنت دولة إسرائيل، وكيف حصل مجرم الحرب مناحم بيجين علي جائزة نوبل للسلام عقب توقيعه علي معاهدة كامب ديفيد مع مصر. أليس في هذا ما كان جديرا بالتساؤل: أين كانت ذاكرة اللجنة المانحة للجائزة؟.

وتؤكد راشيل في لهجة تقريرية أن إسرائيل دولة دفاعية لم تمارس أي تطهير عرقي (القضاء التام علي أية قومية أخرى)، الأمر الذي أثبتت حوادث

التاريخ وتقارير الأمم المتحدة عكسه تماما، إذ تجاوز عدد القوات الصهيونية التي استولت على الأراضي الفلسطينية ٦٠ ألف مقاتل؛ مما ينبئ بالنتيجة المتوقعة من مواجهة غير متكافئة بين أصحاب الحق محدودي العدد والعدة والمغتصبين المنظمين ذوي الحشود الهائلة، كما يتجاهل هذا الحديث الأرقام التي لو ذكرها الكتاب لاتضحت أمور كثيرة، منها أن مصر لم ترسل سوى سبعة آلاف جندي لوقوعها تحت الانتداب البريطاني بما لا يسمح لها بأن تصبح صاحبة جيش بالمعني المفهوم، فضلاً عن أن جولدا مائير كانت قد عقدت اتفاقًا سريًّا مع ملك الأردن آنذاك.

أما عن الحديث الملحّ عن الحلم الذي راود اليهود لمدة ألفي سنة للمجيء لأرض الميعاد فمغلوط ومردود عليه من الروايات العديدة التي ذكرت كيف طاردت العصابات الصهيونية يهود مصر لتدفعهم للهجرة القسرية لإسرائيل حتى أن بعض يهود مصر -وقد وجد نفسه مضطرًا لترك وطنا أحبه إلى بلاد لم يتصورها- قد فضّل حياة المنفى بعواصم أوروبا، ورفض بشدة إتمام الهجرة إلى أرض الميعاد المزعومة، وكان من هؤلاء اليهودي الشيوعي المصري يوسف حزان، الذي عاش منفيًا في باريس، وعندما مات منذ ثلاثة أعوام نعاه ما يزيد على مائة مثقف مصري من مختلف الديانات وقد وجهوا نعيهم له بصفته مصري وطني.

ودون أن تدرك الكاتبتان أنهما رغم الحرص البالغ علي إيهام القارئ بأنهما قد تجردتا من التحيزات التقليدية التي قامتا بانتقادها؛ فإن القارئ لا يلبث أن يكتشف أنهما قد أكدتا مصداقية الكثير من الحوادث والمواقف التاريخية المشكوك في صحتها. مثال ذلك ذكرهما أن أعداد اليهود الذين تعرضوا للهولوكوست ١١ مليون، رغم ادعائهما بأن يهود العالم كله لا يتجاوزون١٢ مليونًا، وأنهم بالمقارنة بأصحـــاب الـــديانات السماوية يمثلون ٣% من سكان العالم، فضلا عن التجاهل أو المرور مر الكرام علي المذابح التي مارستها الصهيونية تجاه الشعب الفلسطيني

منذ ثلاثينيات القرن، وهنا يبدو التحيز واضحا ليس فقط بما أعلنته الكاتبات من مواقف تجاه الأمور الكاشفة للتحيز، وإنما أيضا وبشكل واضح عندما تفيض الكاتبة الإسرائيلية في استعراض تفصيلي للمظالم التي تمس قومها أو من تنتمي إليهم من الجماعات. وعلى الرغم من تأكيد الكاتبات على فكرة الأساطير الدينية وما أضفته كل جماعة دينية على معتقداتها من قداسة، فإن الكاتبات لاينجحن في التجرد الذي زعمن أنه سبيلهن لخلاص البشرية من الشرور، فنرى راشيل تؤكد انتماءها كمواطنة إسرائيلية، وهذا حقها، ولكن أن تدعي أنها قد دخلت مشروع الكتاب بروح التسامح فأمر مشكوك فيه بعد أن لاحظنا أنها تنظر إلى الأشياء وتحكم عليها بعين الدولة العنصرية. وتمثل النزعة التبريرية للشر الذي تمارسه الصهيونية في الماضي والحاضر لدى راشيل منطقة ضعف في منهجها الذي اتبعته والذي عانى من "التجزيئية"، وهو منهج قاصر لا يسمح لمتبعيه بتكوين نظرة كلية شاملة، تعين أصحابها على التوصل إلى الحقائق، وربطها بعضها ببعض، وبالتالي فإن مسألة "فك" التاريخ وإعادة تركيبه بتصغير بعض الأحداث أو تجاهلها تماما، مع الحرص على اصطناع أحداث أخرى، والمبالغة في تداعياتها يجرد الكاتب من الموقف الأخلاقي الذي تمتع به نعوم تشومسكي في كتاباته، ومن هنا لا ينبغي أن تجرنا فكرة الرغبة في العيش بسلام بين الأطراف المتصارعة إلى الموافقة على قبول فكرة السلام المفتقد للعدالة أو الاستسلام للهيمنة، والتي تؤكد بقاء الأوضاع على ما هي عليه، والتي تصب في النهاية في صالح استمرار الشرير في ممارسة شرّه.

وهنا ينبهنا الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن إلى أن الرؤية التاريخية لا ترى الحاضر من الماضي إلا رؤية جدلية لا يكون الماضي فيها مجرد لحظة اختيارية منتقاة، بل هو كل الماضي الفاعل في الحاضر. ولهذا يهمنا أن نلفت النظر إلى أن الكاتبات الغربيات لم يتمكن من الإفلات من قبضة اللا وعي التاريخي، الذي كان يقف بالمرصاد لتطور وعيهن بالتاريخ، ومن ثم تتوارى الحقائق التاريخية وتنهار عندما تتجه الجماعات اليهودية للحديث عن ماضيها، يساعد في ذلك ما ورد في

كتابات "ويل ديورانت" والذي أكد أن الشريعة اليهودية الواردة في الأسفار الخمسة والتي لم تستطع الوفاء باحتياجات اليهود، ومعالجة الظروف التي عاشوها فيما سُمِّي بالشتات لم يتم تدوينها، وإنما تحولت إلى مجموعة روايات شفاهية مرنة وقابلة للتعديل حسب الرغبة!

وقد حرص الحاخامات على إرغام الأجيال اليهودية المتتالية على استظهار تلك الروايات، فصار الاضطراب في نقل التعاليم اليهودية هو القاعدة العامة، مرجعنا في هذا ويل ديورانت المؤرخ اليهودي، فكيف لم تتنبه الكاتبات إلى أنه لم يكن ينبغي عليهن الأخذ بالمضطرب والشفاهي المتغير، كمصدر تاريخي لا يقبل المناقشة ويُبنى عليه الأحكام. وذلك فضلاً عن الانتقائية الواضحة التي ميزت عمل الكاتبات عندما مارسن الاقتطاع من السياق التاريخي واقعة أو نصًا أو لحظة من الزمان ليضعنها في سياق آخر فتتحول الفترة المحدودة والقصيرة من حكم اليهود لفلسطين لتقتطع بلحمها وشحمها إلى سياق المرحلة التاريخية التي نعيشها، ويتم تعميمها باعتبارها المشروع النموذجي لبني إسرائيل في دولتهم الجديدة.

ورغم حرص علياء على الموضوعية والتجرد والتمسك بالغرض المعلن من الكتاب وذلك في قولها "أنا أعتبر كل صورة للذات تقف عثرة أمام العثور على جذورنا الإنسانية صورة زائفة، سواء نبعت هذه الصورة من الثقافات أو الديانات أو القوميات أو الانتماءات العنصرية أو النوع (من ذكر أو أنثى). فإن التزامها لم يصاحبه نفس الدرجة من التزام شريكاتها في المشروع والتي لولا دورها الذي لعبته كـ "رمانة الميزان" في الكتاب لفقد الكتاب قدرًا كبيرا من اعتداله ونبل مقصده.

والواقع أن روشتة العلاج التي تحرص الكاتبات علي الإفاضة فيها لا تجرؤ على المساس "بالتابو" الإسرائيلي، وتظل تلف وتدور دون أن تمد يدًا قوية لتهز الضمير العالمي ، وبذلك تجرنا إلى الاستمرار في المشكلة بعد أن تنهك القارئ الظامئ إلى الحل كما يطارد الضال في الصحراء السراب. وفي ظني أن ستيفن

لوكس في كتابه "القوة" ينبه إلى أن أفضل ممارسات القوة لا تستدعي أن يمارس أصحابها العنف المباشر الذي تسيل أثناءه الدماء. ومن هذه الممارسات تتبدى لنا بوضوح محاولة راشيل إقناع القارئ بتعبئة تحيزاته للوضع الراهن، بما يحتويه من ظلم وانعدام العدالة وهذا يذكرني بالحكم القضائي الشهير"يبقي الحال على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء". ومن الجائز أن نقبل استخدام لغة القوة في حالة قيام الحروب أو الصراعات، أما في حالة إعلان المتحدث عن توجه إنساني ونظرة حيادية فإنه لا يجوز أن يكشف في طيات حديثه عن استمراره في ممارسة التحيز الواضح، ورضاه عن ممارسات العنف والتدمير ممن يتحيز لهم رغم اعتراف الكاتبات بوجود أكثر من ١٠ آلاف فلسطيني في معسكرات الاعتقال الإسرائيلية دون تهمة محددة، إلى جانب ٨ آلاف أسير. ولقد اعتبرت راشيل حزب الله إرهابيا لمجرد أنه يمارس الحق الطبيعي في الدفاع عن الأراضي اللبنانية وقلبت الأوضاع بطريقة "ضربني وبكى وسبقني واشتكى"، وأظن أنه كان عليها الاستماع بحرص لنصيحة علياء بالحرص على الموضوعية والتجرد والتمسك بالغرض النبيل للكتاب. إن هذا التجرد الإنساني ليس حلمًا فلقد سبقتنا الفتاة الأمريكية اليهودية راشيل كوري ذات الثانية والعشرين ربيعًا، والتي مارست النشاط في مجال حقوق الإنسان وجاءت إلى الأراضي المحتلة لتساند الفلسطينيين، الذين كانت الجرافات الإسرائيلية تطردهم وتزيل منازلهم. وعندما ألقت بنفسها أمام البلدوزر لتعيق تدميره لأحد المنازل الفلسطينية لم يتردد السائق في سحق جسدها الغض! وجاءت تعليقات الحكومة الإسرائيلية أعنف من سلوك سائق البلدوزر القاتل، حتى تصبح الفتاة الشهيدة عبرة لمن لا يعتبر.

وكنت أود لو أن الكاتبات اللاتي أشرن إلى فيلم "ميونيخ" قد أشرن إلى فيلم "الجنة الآن"، والذي كان مرشحًا لجائزة أوسكار لولا الضغوط الصهيونية، والذي تكشف قصته الواقعية ببساطة ومرارة- في ذات الوقت- الموقف التراجيدي الذي يعيشه الشباب الفلسطيني في المخيمات التي دفعتهم إليها القضمة الكبيرة التي

قضمتها اسرائيل من الأراضي العربية على حد قول بن جوريون نفسه! فالسؤال المنطقي يقول: لماذا يتجه شباب يحبون الحياة ويتمنون الاستمتاع بها في ظل الحب والحرية إلى بيع الروح الغالية بتفجير أنفسهم في ساحات المدن الإسرائيلية؟ ففي الفيلم لا يجد الفتى الفلسطيني العائل الوحيد لأسرته سوى التضحية بالروح لغسل العار الذي لحق بعائلته نتيجة اجبار الاسرائيليين لوالده على خيانة أبيه، ويوضح الفيلم كيف تجعل السياسة الإسرائيلية ظهر الشباب الفلسطيني الحائط وتسلمهم بيدها إلى الأحزمة الناسفة التي تروع مواطنيها في النهاية في دائرة عنف لا تنتهي.

ولقد أدهشني بشدة أن تعلن الكاتبات صدمتهن في موقف جولدا مائير التي أعلنت رفضها وتجاهلها للشعب الفلسطيني صاحب الحق الطبيعي في دوام إقامته على أرضه، وبدلا من أن يرجعن موقف جولدا لتعصبها الصهيوني الذي وصل بها إلى حد القول "بأنه لا يوجد ما يسمى بالشعب الفلسطيني" فإن الكاتبات يتساءلن ببساطة: كيف فعلت جولدا هذا رغم كونها امرأة؟! وكأن النساء لا يتمثلن الأفكار والمعتقدات الشريرة لمجرد كونهن نساء!!

ونظرا لصدور كتاب "أس الشرور" قبل أحداث الهجوم الإسرائيلي المباغت على سكان قطاع غزة، والذي لم تتورع فيه القوات الإسرائيلية عن استخدام القنابل الفسفورية. وخلف أكثر من سبعة آلاف قتيل من المدنيين وضعفهم في العدد من الجرحى، وذلك بعد تدمير البنية التحتية بالكامل للقطاع المنكوب؛ لذا فإنني أقترح على الكاتبات اللاتي أثق في رغبتهن القوية في الاستمرار في أدائهن لدور إنساني نبيل لصالح الإنسانية، أن يصدرن جزءًا ثانيًا مكملاً لكتاب "أس الشرور" الذي يصبح الجزء الأول من المشروع الفكري الثري والقابل للتطوير. فلاشك أن الكتاب قد صدر عن مجموعة تعترف بعدم الاتفاق في شجاعة، ولكنها تسهم في تقليب التربة ونبش الماضي وفتح الجراح المزمنة. ولكن جرح غزة الذي أضاف عمقًا قد لا يندمل في ظل الظروف الراهنة ربما يساعد الكاتبات على إعادة النظر في ثوابت بعضهن بما يؤكد أن الضيق الشديد قد يسبق الفرج الذي يرينه بعيدًا ونراه قريبًا بإذن الله.

مقدمة المترجمة

من دواعي سروري أن أترجم كتابا يضم بين مؤلفاته عالمات في علم الأنثروبولوجيا، فأنا نفسي باحثة في هذا العلم، إلى جوار عملي بالترجمة. نادرًا ما أكتب مقدمات كمترجمة، لكني وجدت ضرورة في هذا الكتاب بالذات لكتابة مقدمة بقلمي. السبب أن المؤلفات الأربع ينتمين إلى ديانات وقوميات مختلفة، وجميعهن ذوات نزعة إنسانية، وهذا جميل. أما ما استوقفني فهو تناول الصراع العربي-الإسرائيلي بأقلام كل من شارون ميهاريس، الأمريكية المسيحية، وجيني شيبرد، الأمريكية اليهودية، وراشيل فالك، الإسرائيلية اليهودية، وعلياء رافع، المصرية المسلمة.

سأقسّم مقدمتي إلى بداية أسرد فيها بعض اختياراتي لحلول معينة في الترجمة دون غيرها، ثم أختمها ببعض آرائي فيما ورد بالكتاب عن الصراع العربي--الإسرائيلي وما كانت هوامش المترجمة (التي وضعت الكثير منها بالفعل) لتتسع له.

ملاحظات خاصة بالترجمة:

اخترت المحافظة للمترجمات على اختياراتهن بقدر الإمكان، ليمثل النص المكتوب بالعربية فكرهن المكتوب بالإنجليزية. لقد اختارت المؤلفات مثلاً إيراد أسماء الأنبياء غير مشفوعة بالصلوات والتسليمات كما اعتدنا في ثقافتنا،ولم يكن هذا تقليلاً من قدرهم، بل رفعًا لهم عن كل تكريم مضاف، فهم مكرمون بما هم كذلك.

نأتي بعد ذلك لترجمتي لأسماء أنبياء الديانات الإبراهيمية، وبالذات لأنبياء بني إسرائيل والنبي عيسى عليه السلام. لقد وردت أسماؤهم في النص الإنجليزي بالمنطوق العبري (إبراهام وليس إبراهيم، وإيزاك وليس إسحق مثلاً). ولكنني فضلت ترجمتها بالمنطوق العربي حتى لا يشعر القارئ بالغربة، ولعل هذا من المرات القليلة التي لم التزم فيها باختيارات المؤلفات اختيارًا لمنهج التقريب لا التغريب. استثنيت من هذا النبي عيسى عليه السلام. اتبعت في ترجمة اسم المسيح عيسى بن مريم المنطوق الذي ورد في النص الإنجليزي "يسوع"، إلا حيثما أشار الكتاب إلى المسيح باسم عيسى أو يشوع. اسم "يسوع" في أصله العبري هو "يشوع" الذي هو أيضاً تصغير "يهوشع". وهو في أصله العبري مكون من مقطعين مندمجين، هما "يهوه" الكائن الدائم الوجود الواجب الوجود وعلة كل وجود و" شع" وهو فعل عبري بمعنى "يخلص"، فيسوع يعنى "المخلص"؛ "يهوه المخلص أو" يهوه يخلص" أي الله المخلص. وعندما ترجم علماء اليهود العهد القديم إلى اللغة اليونانية نقلوا الاسم" يهوشع" وتصغيره "يسوع" إلى ***Isou*** إيسو وفي حالة الفاعل ***Isous***– إيسوس، ففي اليونانية لا فرق بين يسوع ويشوع ويهوشع فجميعهم واحد "إيسوس" ***Isous***. كما كان اسم يسوع، "إيسو" في اليونانية ينطق في الآرامية المحيطة بالجزيرة العربية "عيشو" باللهجة العراقية الشرقية ويبدو أن البعض كان ينطقه" عيسى"، ومن ثم نطق بالعربية أيضًا عسى أو العكس. وبالتالي فعيسى هو عيشو بالآرامية العراقية وإيسو في اليونانية ويسوع في العربية ويشوع في العبرية والسريانية. ولتعدد الخلفيات الثقافية والدينية للمؤلفات، حافظت لكل منهن على اختيارها في نطق اسم هذا النبي العظيم، حتى ولو على حساب بعض التعريب عن القارئ العربي، وهو في النهاية ليس تعريبا كاملا. فنحن نقرأ جميع هذه التسميات يوميًا في وسائل الإعلام والكتب.

أما عن منطوق لفظ الجلالة فقد التزمت بترجمة **God** بلفظ الإله، حيثما ورد في سياق الحديث عن الديانات الإبراهيمية أو غيرها، إلا حيثما حدد الكتاب أن الإله المقصود هو الله **Allah**، أو في الاقتباسات التي نقلتها حرفيا من النسخة العربية للكتاب المقدس بعهديه أو من القرآن، حيث يرد اسم الجلالة بلفظ الله.

ترجمت أسماء أي مدن وردت بالنص بلفظها الشائع في العربية، عدا مدينة أورشليم [القدس]، فقد حافظت للمؤلفات على اختيارهن في كتابة منطوقها بالعبرية (أورشليم)، لكني أضفت بين قوسين مربعين اسمها بالعربية [القدس]، ولعل في هذا تحيزًا مني بسبب حساسية وضع هذه المدينة في الصراع العربي-الإسرائيلي، وهو تحيز أراه مقبولا، فقد تعلمنا أن أفضل طريقة للتعامل مع تحيزاتنا أن نعلنها، كما أنه ليس خطأ على مستوى الترجمة، فالمدينة تعرف في اللغة العربية بالاسمين فعلاً.

وقد اخترت ترجمة **pride** بلفظ "نعرة" لأنه يشمل معاني اللفظ الإنجليزي في حين لا تغني بقية معاني الكلمة بالعربية عن بعضها البعض (كبرياء، وتيه، وغرور، وعجرفة، واستكبار، وتبجح) (في المعجم الوسيط: نعرة = كبر وخيلاء وعصبية). فالكلمة صحيحة بالعربية الفصحى، وجامعة لظلال معنى اللفظ الإنجليزي، على الرغم من أنها غير شائعة الاستخدام في وسائل الإعلام مثلاً.

ولما كانت المؤلفات يأخذن بمدخل المساواة بين الرجال والنساء **gender equality**، فقد كثر استخدامهن لمصطلح **gender**، الذي تصعب ترجمته بكلمة واحدة إلى اللغة العربية. فهو طبعًا ليس الجنس، لأن هذا المصطلح العربي يحيل إلى الطبيعة البيولوجية للذكور والإناث. وقد اختار المترجمون عدة حلول، منها نوع، والنوع الاجتماعي، والجنوسة (على وزن ذكورة وأنوثة). لم أسترح لمصطلح جنوسة المستجد على الساحة العربية، فهو غريب على الأذن، كما أنه مشتق من الجذر (جنس) الذي يحيل إلى المرجع البيولوجي. أما مصطلح النوع فكثيرًا ما يلتبس مع النوع في تقسيم الكائنات الحية **species**، وإذا اشتقت منه صفة

"نوعي" يلتبس هذا المصطلح مع الكلمة التي تحمل نفس النطق وتعني الاختصاص من العام *specific*. لذلك لم أجد حرجا في الأخذ بمدخل تفسير العبارات التي يرد فيها مصطلح *gender*، مثل المثال السابق (المساواة بين الرجال والنساء)، فهو فصيح لغويا، ومفهوم، ودقيق من حيث المعنى. وقس على هذا عبارات مثل (حقوق الرجال والنساء)، (ميزان القوة بين النساء والرجال) ... إلخ.

نقد تناول الكاتبات للصراع العربي- الإسرائيلي:

لهذا الكتاب خصوصية تميزه عن غيره من الكتب التي يشترك في كتابتها أكثر من مؤلف. تشرح علياء رافع هذه الخصوصية في القسم الثاني من خاتمة هذا الكتاب:

> **مشروعنا لا يشبه المشروعات الأخرى التي تكتب فيها كل مؤلفة فصولا منفصلة عما تكتبه غيرها، فقد اشتركنا جميعا في كتابة كل فصل من الفصول. كانت الخطة التفصيلية للكتاب ثمرة ذهن شارون، وهي التي صممت طريقة كتابة كل فصل، وبدأت كتابة كل فصل. ثم بدأنا في العمل معا فصلا بفصل، وأسهمت كل منا فيه وفقا للخطوط العامة التي أعدتها شارون والهدف الذي حددته.**

لذلك، يصعب في كثير من الأحيان تحديد أي رأي أو فكرة تخص أي مؤلفة من المؤلفات بعينها. لذلك، سأشير في نقدي للآراء الواردة بشأن الصراع العربي الإسرائيلي على أنها للمؤلفات (بصيغة الجمع)، عدا الحالات التي صرحت فيها واحدة أو أخرى منهن بآرائها الخاصة، وهذا لم يأت إلا أحيانًا في المقدمة والخاتمة.

تفند المؤلفات في الجزء الأكبر من الكتاب استخدام الكتب المقدسة لتبرير انتهاك حقوق الشعوب والإنسان. ففي الفصل الثاني مثلا ينقدن استخدام الصهاينة لسفر حزقيال ٣٦: ٢٤ لتبرير الاحتلال الإسرائيلي واستعادة إسرائيل ويقدمن تأويلاً مختلفا للآية التي تستغل في هذا التبرير:

> **تقول الآية: "وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتى بكم إلى أرضكم". ولهذه الآية قراءة أخرى غير أصولية بل وأكثر إنسانية على المستوى الروحاني تشير إلى تحرير الفرد من كل الصغائر (ومن أساليب الحياة التي تفصلنا عن الوحدة الروحية) بوعد الوصول إلى التحقق الروحاني الحق –العودة إلى الوطن الحق الموجود في القلب. ربما يساعد على شرح السبب في أن لفكرة "أرض الميعاد" مثل هذه القوة النموذجية البدئية في الفكر البشري.**

وتقدم المؤلفات شهادة نزيهة على أفعال النازي، التي قتل فيها اليهود وغيرهم، فيقلن:

> **وقد قتل فيما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ حوالي ١١ مليون شخص تقريبًا نتيجة لسياسة الإبادة العنصرية التي أخذ بها النازي. لقد أقنع هتلر أتباعه (والكثير منهم مسيحيون) أنه في سبيل الحصول على عنصر "آري" نقي، لابد من القضاء على كل من يحكم عليهم نظام حكمه بأنهم أقل قدرًا من هذا العنصر. حاول هتلر القضاء على اليهود، والغجر، والبولنديين وغيرهم من السلافيين، وشهود يهوه، وذوي الجنسية المثلية، ورجال الدين ذوي الآراء المخالفة للمسموح به، والشيوعيين، والاشتراكيين، والأعداء**

السياسيين، والمرضى العقليين. وقد كره هتلر اليهود على وجه الخصوص، واعتقد بضرورة تدميرهم.

ويصرحن بأنه "على الرغم من أن الكثير من اليهود يعتقدون أن إنشاء دولة إسرائيل الحديثة *استجابة من الرب لصلواتهم*، فإنها في الحقيقة *حلٌ صنعه الإنسان*".

ويستشهدن بالمفكر ناعوم تشومسكي الذي يحدد أهم أصحاب المصالح المستفيدين من إقامة دولة إسرائيل "منذ نهاية خمسينيات القرن العشرين، ازداد قبول الحكومة الأمريكية للنظرية الإسرائيلية القائلة بأن إسرائيل القوية ذخيرة قيِّمة للولايات المتحدة الأمريكية، تخدم كحاجز ضد التهديدات القومية الراديكالية الداخلية للمصالح الأمريكية، التي يمكن أن تحصل على مساندة من الاتحاد السوفييتي"، والتي ما زالت "سلاحًا عسكريًا قصد به مساندة المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط". كما يقلن إن واشنطن تعتبر "الدور الموكل لإسرائيل أهم للمصالح الأمريكية من إقرار السلام النهائي بين إسرائيل والعرب، بما في ذلك الفلسطينيين". وهن يدركن أن المصالح التي وقفت وراء إنشاء دولة إسرائيل وتقسيم أرض فلسطين قد لا تكون في مصلحة اليهود ولا العرب، إذ يقلن:

> **ربما كان من الممكن أن يسير الوضع في اتجاه أصح إذا كان الشعب اليهودي قد امتزج مع الشعب الذي كان يسكن الأرض بالفعل؛ لكن كان في حكومتي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا قوى سياسية ودينية قوية تساند تماما إنشاء ما سيصير حكومة إسرائيلية.**

وتعي المؤلفات أن من أسباب دعم أمريكا لإسرائيل أنها قصة ناجحة من وجهة النظر الأمريكية التي تحتفي بالقوة الفائقة. "ففي بحر نصف قرن أتت جماعة من الناس كان يغلب عليها صفة المهاجرين إلى منطقة متخلفة وخلقت فيها أمة ديموقراطية ذات مستوى حياة متقدم، واقتصاد يعتمد على التقنية العليا، وجيش محنك".

وتقدم المؤلفات نصا في الفصل الثالث من هذا الكتاب شهادة لعلّنا نحتاجها في أيامنا هذه التي يهدد فيها الصهاينة بهدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل الثالث محله، إذ يقدمن تأويلاً مختلفا للهيكل يفند دعاوى وممارسات الصهاينة التي يرينها جزءا من ممارسات جميع الأصوليات الدينية الرامية لتدمير الآخر:

> **ركز اليهود الصهاينة المتطرفون على إعادة بناء الهيكل. ناسين أنه استعارة مجازية للهيكل الحقيقي الموجود في القلب؛ أما المسيحيون الأصوليون الراديكاليون فقد ركزوا إلى حد بعيد على دمار العالم ونهايته، ناسين أن يسوع قال لهم إن مملكة السماء بداخلهم؛ أما الإسلاميون المتطرفون فيحلمون بطرق لتدمير من يختلف عنهم، متجاهلين أن الوحي المنزل على محمد أكد على أن التنويعات البشرية كلها طبيعية، مع تأكيده على التراحم والرحمة مع الآخرين. لقد فشل كل منهم في التركيز على التعاليم الحكيمة لأنبيائهم، الذين نصحوهم بأن حب بعضهم للبعض الآخر هو السلوك الذي يقع موقع القلب من الحياة الروحية.**

وعلى الرغم من كل هذا الوضوح للرؤية والموضوعية في رفض استخدام الدين لخدمة السياسة، وقعت المؤلفات أحيانًا فيما أراه تناقضًا داخليًا في فكرهن. فهن يقلن مثلاً في الفصل الخامس إن "الهوية اليهودية مغروسة بعمق في هذه البقعة من بقاع العالم، لأن فيها الموقع المقدس للهيكل الأول والهيكل الثاني"، وإن "المسجد الأقصى هو موقع الهيكل الأول والهيكل الثاني"، آخذات بذلك الديانة كهوية، والتوراة كتاريخ، مما يتناقض مع المنهج العلمي الذي اتبعنه في أجزاء أخرى من الكتاب، ومع التفسير الذي أوردنه للهيكل في الفقرة السابقة.

تأخذ المؤلفات بمنهج مناف للأصولية، بعد أن أوردن لها تعريفا ارتضينه. تقول المؤلفات في الفصل الأول: نعلم من اطلاعنا على معجم وبستر أن الأصولية بدأت لدى المسيحيين، خاصة وأنها أكدت على أن "عصمة التوراة لا تقتصر على شئون الإيمان والأخلاق، بل تمتد إلى كونها سجلاً تاريخيًا حرفيًا". وتعبر المؤلفات أيضا في الفصل الأول عن اقتناعهن بأن التوراة ليست مرجعًا تاريخيًا، ويقتبسن في هذا السياق عبارة لجاك مايلز مؤلف كتاب *سيرة الإله* ، يوضح فيها أن "الأسطورة، والخرافة والتاريخ تمتزج في التوراة ببعضها البعض على نحو لا نهائي"، وأن "مؤرخي التوراة لا يكفون عن فرزها". لكنهن يناقضن أنفسهن (كلهن أو بعضهن) أحيانًا إذ يتعاملن مع التوراة تعاملاً "أصوليًا"، حسب التعريف الذي ارتضينه لها والمأخوذ من معجم وبستر، إذ يتعاملن مع التوراة كسجل تاريخي، ويأخذنها مرجعا، ويرتبن على هذا نتائج تصب في الدفاع عن أوضاع سياسية حديثة، لا علاقة لها بأرض فلسطين التاريخية ولا ببني إسرائيل التاريخيين، بل بعرب ويهود زماننا المعاصر.

وعلى الرغم من أنهن قدَّمن في الفصل الخامس تحليلاً ثاقبًا للأصوليات، يأخذن فيه بنظريات الأنساق المفتوحة والمغلقة في العلوم الإنسانية، فيقلن إن

> **دولة إسرائيل التي يحكمها اليهود، و دولة باكستان التي يحكمها المسلمون، وإثيوبيا التي يحكمها المسيحيون، والسودان الذي يحكمه الإسلاميون لها جميعًا سمات مشتركة، فجميعها لها أنساق مغلقة يعيش فيه "الآخرون" بالكاد كأنساق فرعية، أو أنساق متداخلة. وتأخذ القوى الحاكمة فيها بمداخل تتمركز حول عِرق معين مختلطة بالعنصرية. وصارت الديانات راية يختفي تحتها التمركز حول العِرق والعنصرية**

لكنهن بعد أن قدمن هذا التحليل السياسي العلمي في المتن يقدمن في الحاشية رقم ٣ من هذا الفصل تفسيرًا لكون إسرائيل بالذات ذات نسق مغلق، بالرجوع إلى التوراة باعتبارها سجلاً تاريخيًا. تقول الحاشية:

في الواقع، ينتمي اليهود والعرب كلاهما إلى الأرض التي عرفت ذات مرة باسم يهودا (حيث إن إسحاق وإسماعيل كليهما كانا ابني إبراهيم)، لكن تدخل القوى السياسية التي تغذي المعارضة الدينية تمنع اليهود، والفلسطينيين المسيحيين منهم والمسلمين من العيش في تآلف.

راشيل فاليك أكثر المؤلفات التي تعاملت مع التوراة كمرجع تاريخي. راشيل إسرائيلية يهودية، تقيم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية ولدت في إسرائيل ونشأت بها، وخدمت في القوات الجوية الإسرائيلية برتبة ملازم. لقد قدرت لراشيل موقفها النقدي من أعدائها العرب، إذ تقول إن تجربتها في العمل بالجيش الإسرائيلي فتحت وعيها على جوانب أخرى، حين نظرت بعين الاعتبار لمن تحاربهم كأعداء لها "وكنت مثل الكثير من غيري من الجنود أرى تناقضا بين إدراكي لقوتي المميتة وإنسانية أعدائي". لكن هذا لم يمنع تحيزاتها التي أرى أنها أخلّت بالطابع العلمي للكتاب، إذ اتخذت التوراة مرجعًا لتأكيد مواقفها.

تقول راشيل عن عائلتها التي عاشت خارج إسرائيل (تسميه "الشتات") إنهم "كبروا بعيدًا عن أرض أسلافهم، مثلهم مثل معظم الشعب اليهودي بعد النفي البابلي". فهي تفترض أن أهلها من بني إسرائيل التاريخيين، وبالتالي تكون فلسطين "أرض أسلافهم"، باعتبار ما ورد بالتوراة. وهي تبرر نفسها في الجزء الأول من الخاتمة حين تقول: "لقد شعرت بدرجة ما أنني أمثّل إسرائيل، وأن من واجبي أن أوضح الطابع المعقد للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني".

لم تكن راشيل وحدها التي وقعت في هذا الخلط المنهجي، فقد ترددت النغمة التوراتية في أكثر من موضع في الكتاب لتفسير أوضاع سياسية، دون تحديد لصاحبة هذا الرأي. ففي الفصل الخامس ورد أن "اليهود، الذين ظلوا أقلية مخلوعة من جذورها لمدة قرون، يحكمون فلسطين الآن في ظل احتلال عسكري". في هذه العبارة افتراض بأن يهود أوروبا الحاليين لهم جذور تاريخية في فلسطين، دون النظر لأصول اليهود الحاليين الذين لم يكن لهم أي أسلاف في فلسطين، بل ينتمون إلى مختلف الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها.

ورد أيضًا في هذا الفصل أن إنشاء دولة إسرائيل مثّل للشعب اليهودي عودة لأرض الميعاد. وأن ذلك "قد مكن ذلك الشعب اليهودي من الشعور بإحساس حي بوجود مكان لهم في العالم، بعد أن تعرضوا للهولوكست وقرون من إساءة المعاملة في أراض أجنبية"، على الرغم من أن الكاتبات يوضحن فيما يخص إسرائيل بالذات الطابع السياسي الذي اصطبغت به إسرائيل منذ بدء نشأتها، حين يذكرن في الفصل الخامس أن

> **الإمبراطورية البريطانية مثلا شجعت هجرة اليهود إلى فلسطين التي كانت تحت الاحتلال، بينما تجاهلت مصالح السكان المحليين وتطلعاتهم. وهكذا خلقت وضعا تصير فيه الصراعات بين اليهود المهاجرين والعرب الفلسطينيين سكان الأرض الأصليين حتمية.**

وتجعل صاحبات الرأي الذي يذهب إلى أن إسرائيل هي أرض الميعاد من التوراة مرجعًا تاريخيًا لتبرير رأيهن، بناء على ذلك يعتبرن يهود اليوم نسل بني إسرائيل التوراتيين. يتضح هذا المنطق في الاقتباس التالي من الفصل الخامس "لابد لنا لكي نتناول القضية بإنصاف أن نأخذ في اعتبارنا التاريخ الفريد للشعب اليهودي الذي نفي دون أرض لحوالي ألفي عام". ولكي يكتمل المشهد، تعيد صاحبات هذه الرؤية تعريف أصحاب الحق على أنهم معتدون ومحتلون لأرض الغير بناء على

نفس المرجع التوراتي، كما يتضح من عبارة "ولابد أن نعترف في نفس الوقت بأن السكان الأصليين (الفلسطينيين) قد احتلوا فلسطين بشكل مستمر عبر فترة طويلة من الزمان"، وهي عبارة تبدو ظاهريًا كدفاع عن حق الفلسطينيين في نفس الأرض، لكنه حق لا يعلو على حق من يرينهم أصحاب الأرض الأصليين، ألا وهم الإسرائيليون.

واستمرارا لنفس الخلط المنهجي واستخدام التوراة كسجل تاريخي تقول المؤلفات إن لكل من الجماعتين (اليهود والعرب) حقًا متساويًا في ملكية الأرض، مستشهدات بسفر التكوين ١٥: ١٨ الذي ورد فيه أن الرب قال لإبراهيم إن الأرض قد منحت "لبذرته"، التي تشمل كلاً من إسماعيل وإسحاق.

وجيني إيدا شيبر هي المؤلفة الأخرى التي يقترن اسمها بتعاطفها الصريح مع دولة إسرائيل في خاتمة الكتاب، وهي أمريكية يهودية، أبيدت عائلتها الممتدة عن آخرها تقريبًا على يد النازي. تقول جيني في القسم الأول من الخاتمة إنها تتعاطف مع دولة إسرائيل بسبب ما عاناه يهود أوروبا في معسكرات الاعتقال وقتل الملايين منهم، وتعتقد أن الفلسطينيين ملزمون بتحقيق وجود دولة إسرائيل مصداقًا للعقلية التي يصدر عنها هذا الرأي:

> **إن هذه العقلية تبرر عمل كل ما هو ضروري لتأمين دولة إسرائيل التي توجد في خضم بحر من الكراهية، محاطة ببلدان متأهبة لتدميرها ... أما الفلسطينيون، فأملي أن يقدروا ضرورة الدولة لإسرائيل، بمراعاة تاريخ الاضطهاد المفعم بالرعب الذي عاشه الشعب اليهودي. لقد تقاسما هذه الأرض في الماضي، فتوجد إذن إمكانية لأن يعيدوا هذه السيرة مرة أخرى.**

لا مفر وسط كل هذا الخلط أن تنشب خلافات بين الكاتبات، اخترت أنا منها الخلاف حول الصراع العربي-الإسرائيلي لأتناوله في مقدمتي. اقترحت علياء رافع كتابة خاتمة للكتاب تبوح فيها الكاتبات بالخلافات التي حدثت بينهن وكيف حللنها، وإن كان الحل الذي اضطررن إليه هو أن يتفقن على ألا يتفقن. تقول علياء في القسم الثاني من الخاتمة:

في إحدى مرات نقاشنا شعرنا أنه من الأفضل أن نتفق على ألا نتفق ... وعلى الرغم من أني لم أرغب في أن تركز هذه الخاتمة كثيرًا على الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني، لأن موضوعه أوسع مما يمكن تغطيته بدقة هنا، فإننى يجب أن أؤكد أن المؤلفات الأربع قد وصلن إلى إجماع تمكننا به من الاعتراف بحقوق الفلسطينيين والإسرائيليين في الاستمرار في الوجود كأمتين تحترمان بعضهما البعض ... في الجزء الأول من الخاتمة، كانت راشيل في شدة الأمانة والشرف حين ذكرت حساسيتها نحو نقد سياسات إسرائيل ... حاولت أن أرى العالم بعيني راشيل. وهذا ما يحاول علماء الأنثروبولوجيا فعله طوال الوقت (وأنا واحدة منهم)، لكنهم يدركون أيضا استحالة سد جميع الفجوات بين ثقافة الباحث وثقافة الآخرين. ربما كان هذا هو سبب اتفاقنا على ألا نتفق.

تقول شارون في الخاتمة إن قضية الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي كانت القضية الوحيدة التي استدعت ردود فعل مختلفة داخل كل واحدة من المؤلفات، ولم يزعجها هذا، فقد أخذت بمعيار معروف في العلوم الأنثروبولوجية، إذ توقعت أن تتصرف كل مؤلفة مع قوميتها ودينها بعين نقدية "فلو لم نكن قادرات على مواجهة جزء الظل من أنفسنا، فستظل قدرتنا محدودة على حب ما يحدث خارج المنظور المحدود لثقافتنا حبًا صادقًا وفهمه". وقد كان الأمر صعبا على علياء وراشيل وجيني. فبينما تعتبر راشيل وجيني المقاومة المسلحة لإسرائيل إرهابًا، تراه علياء مقاومة مشروعة. تقول علياء ":

لا يمكنني الادعاء أني أتعاطف مع الفلسطينيين والإسرائيليين بنفس القدر. فأنا أصور الفلسطينيين كشعب يحاول أن يدافع عن حقه في البقاء كأمة في مساحة محدودة مما كان أرضه فيما سبق.

لكنها تتعاطف أيضا مع الجيل الشاب من الإسرائيليين لأنها ترى أن تصوير الآخر كشيطان لن يخدم قضية السلام

ما زلت أتعاطف مع الجيل الإسرائيلي الشاب الذى يوحد أفراده بين ذواتهم وبين أرض إسرائيل حيث يعيشون، ويشعرون أنهم يواجهون تهديدًا مستمرًا من جيرانهم، لا الفلسطينيين فقط، بل أيضا البلدان المجاورة. إن قوة الدولة وإفراطها الدائم في الاحتراس بأمل تجنب الهجمات لا تشبع حاجتهم للأمان.

لكنها تقول في المحصلة النهائية: " لا يمكنني أن أقبل تسمية من يدافعون عن أرضهم بالإرهابيين".

وترى شارون أن أيدي الجانبين ملوثة بالدماء، لكنها ترى أن مسئولية إسرائيل عن هذه الدماء أكبر من مسئولية الفلسطينيين:

شرح لي أصدقاء يهود الخوف الذي يشعر به الإسرائيليون لأنهم يعيشون في بلد صغير محاط بأعدائه. لكن كان من الواضح أن الإسرائيليين هم الذين يمتلكون القوة الأكبر، وأنهم لم يستخدموها من أجل الصالح.

وتعود راشيل في الجزء الثاني من الخاتمة إلى تأكيد عن اختلافها مع علياء وشارون. فتقول:

لقد اختلفت مع علياء وشارون. فأنا كإسرائيلية أعتقد أن حزب الله منظمة إرهابية، بسبب تكتيكات حرب العصابات التي يتبعها، واستخدامه للمدنيين، وهدفه النهائي الرامي إلى تدمير الأمة الإسرائيلية.

ولم يحل معضلة هذه الخلافات بين المؤلفات إلا اتفاقهن على ألا يتفقن. والكتاب الآن بين يدي القارئ/القارئة، ليطلعوا على تجربة فريدة تقدمها أربع مؤلفات مختلفات القوميات والديانات، يحاولن فيها كشف جذور التعصب والنعرات الدينية التي يرينها أس جميع الشرور.

المترجمة

سهام بنت سنية وعبد السلام

القاهرة

ديسمبر ٢٠٠٩

تصدير

بقلم الأخت جوان شيتيستار (من راهبات وسام القديس بينديكت)

نحن نعيش في عصر يقول فيه أكثر من ثلثي سكان الولايات المتحدة الأمريكية إن هذا البلد يسير في الاتجاه الخاطئ. ولم يتعداهم الصواب فيما يقولون. ففي بلدنا ما يربو على العشرة ملايين طفل وطفلة لا يغطيهم أي تامين صحي، والمخاطر تتهدد الضمان الاجتماعي، والعجز المالي على المستوى القومي أفدح مما كان في أي زمن مضى عبر تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنفقت بلايين الدولارات ببذخ أهوج على حرب شنت بلا سبب معقول، ومنينا بالفشل في خوض غمارها، وفي النهاية، زادت من تفشي الإرهاب بدلاً من أن تقضي عليه.

الوضع يبدو واضحًا: لقد حان الوقت حقًّا للتغيير. لكن لتغيير ماذا؟ أهو مجرد تغيير الإدارة التي التزمت بوضوح وغباء بمثل هذا الوضع؟ أم أن ما يستلزم التغيير ويتطلب الانتباه إليه أمر أعمق من السياسات الحالية؟.

الحقيقة أن نصف عامة الشعب الأمريكي على الأقل قد رأوا الحرب العراقية الحالية أمرًا بديهيًا في بداياتها. والكونجرس الأمريكي، الذي يقال إنه ممثل الشعب، وحارس النظام، وقصبة التوازن التي تكبح جماح السلطة الرئاسية، وافق على المقترحات الرئاسية التي صممت لجعل الحرب ممكنة في نظر الحزبين الديموقراطي والجمهوري دون أن ينبس أيهما ببنت شفة.

نتيجة لذلك، رفضوا تعميم الرعاية الصحية. وأنقصوا من البرامج الاجتماعية التي كان يمكنها أن تقدم على الأقل دعما لأطفال الفقراء. وقبلوا

الميزانية الحربية التي ستغدو أكبر دين حملته البلاد على عاتقها عبر تاريخها، وأورثوه عن طيب خاطر لأولادهم وأحفادهم. والأدهى أنهم وافقوا على ما يسمى مذهب بوش في الحرب الاستباقية، وهي فكرة فحواها أن الرئيس الأمريكي يمكنه أن يأمر بغزو أي بلد يراه، على أساس أن هذا البلد – ولـــو أنه لم يهاجمنا بعد – إلا أنه قد يفعل ذلك. وجعلوا منا نحن أنفسنا دولة إرهاب وتعذيب.

وهذا النظام المؤسف نبع بأكمله من سيناريو يشبه قصة آليس في بلاد العجائب، تنقلب فيه الأشياء رأسًا على عقب. إنه عذر مخيف في عرف العلوم السياسية، وطريقة متغطرسة غاشمة للتعامل مع العالم. إنه نوع من الإمبريالية السكيرة التي جن جنونها.

لقد ران ما يشبه اليأس على البلد. كيف صارت "أرض الأحرار ، ووطن الشجعان" إلى هذا الحال؟ كيف تأتىَّ للولايات المتحدة الأمريكية أن تصير جيش احتلال في أمة أجنبية؟، تقتل الآلاف المؤلفة من الأبرياء، وتدفن أبناءها وبناتها فلذات كبدها من الجنود مجانا؟ لا لغرض واضح، ولا لهدف عظيم ونبيل، ولا لأي سبب يمكن الدفاع عنه.

والأسوأ هو كيف يتأتى لأي حكومة أن تجعل شعبًا عاقلاً يقبل مثل هذا الأمر، ويشارك فيه، ويصفق له؟ لكننا فعلنا ذلك. وبأعداد كبيرة.

يبدو إذن أن المشكلة تكمن في سكان بلدنا بقدر ما تكمن في سياسييها الذين سمحوا لرئيس البلد أن يدهس بنعله المُثُل الأمريكية، وبطريقة أقرب ما تكون لأسلوب الخلاص على يد المسيح المنتظر.

قالت لنا حكومتنا إننا هببنا دفاعًا عن أنفسنا ضد أسلحة الدمار الشامل. لكن الحقيقة أن أسلحة الدمار الشامل لم تكن إلا أسلحتنا نحن. ثم قالوا لنا إن غرضنا الحقيقي هو زرع الديموقراطية الأمريكية في جميع أنحاء العالم. لكن أقل ما يمكن أن يقال عن زرع الديموقراطية بواسطة فوهات البنادق إنها عبارة مكونة من ألفاظ

متنافرة. إن نهجنا في تقديم الخلاص بأسلوب المسيح المنتظر تعتوره عيوب جسيمة، وتشوهات شديدة، ومفرط في الزيف.

ولذا، يظل الشك ينتابنا في أن ما أردناه حقًّا لم يكن إلا زرع قواعد عسكرية في الشرق الأوسط لتؤمن لنا انسياب البترول إلينا من بلدان لم يعد مسئوليها يضمنون وضعها في موضع الدول التابعة للإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

كيف يمكن التفكير في أي من هذه الأهداف في أمة تتحدث عن الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان؟

قد تقدم لنا قصة صوفية قديمة إجابة أقرب ما يكون للصحة على هذا السؤال. تقول القصة:

يقول لنا الولي الصوفي علي شاه إن الخضر – وهو معلم موسى – قد أبلغ البشرية تحذيرًا، إذ قال إنه سيأتي حين تختفي فيه من العالم أي مياه لم تخزن. وبعدها تنبع مياه أخرى، من يشرب منها يجن. ولن ينجو من هذا المصير إلا من خزنوا ماء لهذا الوقت العصيب.

ولم ينصت إليه إلا امرأة واحدة، جمعت ماء من بئر قديمة، وخزنتها، وانتظرت ما ستأتي به الأيام.

وفي ذات يوم، كفت جميع الجداول عن السريان، وجفت جميع الآبار؛ فشربت المرأة من المياه التي خزنتها. لكن حين بدا أن المياه قد عاودت انسيابها، خرجت المرأة للناس. المشكلة أنهم صاروا مختلفين الآن. كانوا يفكرون ويتكلمون ويتصرفون بطريقة مختلفة.

والأدهى أنهم ما عادوا يتذكرون ما كانوا عليه من قبل. والمشكلة أنها حين كانت تحاول أن تكلمهم عن مُثُلهم وممارساتهم ومبادئهم السابقة كانت تلمح في عيونهم أنهم يعتقدون أنها مجنونة.

وحين سئمت المرأة أخيرًا من وحدتها بسبب اختلافها، ومن تفكيرها المختلف عن تفكير جميع من هم غيرها، شرعت تشرب شربة قليلة من معين هذا، وتبتلع قدرًا من ماء ذاك. وبدأ الناس في النظر إليها تدريجيًا كمجنونة تتحسن حالتها، كإنسانة انتابتها نوبة عبثية وها هي تستعيد رشدها مرة أخرى.

كيف نفسر الفروق بين ما نقول إننا عليه كشعب وبين ما نفعله؟ يوجد تفسير بسيط، ألا وهو أنهم أخبرونا أننا يستحيل أن نخطئ. وشربنا المياه.

نحن الآن شعب أسكره شرب مياه جديدة، مياه القوة، ومياه الحرب، مياه الانتقام ومياه لبس ثوب الضحية. نحن مرضى حتى أعماق أرواحنا وتبدو علينا أعراض شرب هذه المياه. تحيط بنا الكراهية والغضب، الألم والانتقام، اليأس والتفكك.

إن السؤال الذي يأكل أرواحنا واضح: لماذا نفعل هذا؟ أهناك إجابة لهذا السؤال؟ أم أن هذه ببساطة "طبيعة الأشياء"؟.

إن الكتاب الذي بين أيدينا، *أس الشرور*، يعرض المشكلة الكامنة تحت المشكلة. إنه يقول باختصار إن العالم قد استحوذ عليه نوع من الأصولية يضرب جميع مأثورات الديانات الكبرى الموجودة على كوكب الأرض في سويداء قلبها.

ويقول أيضا إن المجتمعات التي يجمعها رابط بالأصولية الدينية قد قمعت مواهب النساء ونُهُجِهن، ومن ثم قمعت الخواص الأنثوية التي تحدُّ من سورة العنف.

ويقول الكتاب أخيرًا إن اختلال ميزان القوى بين الجنسين -الذي هو علامة على كل مؤسسة بشرية كبرى- نتيجة لقمع النساء ومواهبهن لابد من أن يُعْدَل إذا أراد الجنس البشري أن تقدر له النجاة مما هو عليه من عنف، وعنصرية، وخوف، وتعصب.

بل إن كتاب *أس الشرور* يتجاوز هذا إلى تقديم علم اللاهوت، والتاريخ، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، ونظرية النُسُق، بل والنماذج التي قدمها الأنبياء العظماء أنفسهم للمثول أمام محكمة التساؤلات.

إنه لعرض مدهش للمُثُل يدعمه العلم، مغروس في التاريخ، لكن الجماعات والقادة، والمؤسسات والأمم في كل مكان تتجاهله في خضم سباق القوة، والجشع، وتدمير الإنسانية.

يوجد جواب للسؤال عن السبب الذي يجعلنا نفعل هذا، ويوجد حل قريب المنال له. العائق الوحيد أمام ذلك الآن ليس إلا أنفسنا. فهل سنبذل قصارى جهدنا بعد ما عرفنا كل هذا لنغير العالم، مغيِّرين قلبًا في كل مرة، بادئين بقلبنا نحن؟.

ماذا يمكننا أن نفعل نحن النساء لتغيير هذا الوضع؟ نحن اللاتي نفهم النضال والصراع والضعف كما تفهمه قلة غيرنا، لكننا نفهم أيضًا أفضل من معظم الناس أن العنف لم ولن يُحَل أبدًا بالعنف.

لقد كان القطب الصوفي علي شاه على حق. فلو وجدنا أنفسنا ننزلق في عزلتنا ووحدتنا إلى شرب المياه الخاطئة، لابد لنا على الأقل ألا ننسى أبدًا أن من الجنون أن نحيد عن طريق الكلام برفق عن بعضنا البعض، والتصرف بحنوٍ تجاه بعضنا البعض، والتفكير باحترام في بعضنا البعض.

ومهما كان من يقول لنا عكس ذلك، لو أردنا أن نحافظ على قوانا العقلية، ولو أردنا لأطفالنا أن يكبروا بعقول وأجسام سليمة، ولو أردنا لبلداننا أن تزدهر، فلابد ألا نشرب مياه الانشقاق. لابد ألا نشرب مياه العنف.

ولابد أن نرفع عقيرتنا بالصياح حتى يسمعنا العالم بأسره قائلات: لا تشربوا الماء. ومهما فعلتم –باسم الله الرحمن الرحيم– لا تشربوا ماء الكراهية.

إن هذا الكتاب: *أس الشرور*، هدية لنا جميعًا. إنه يصحبنا إلى قمة الجبل لنعيد النظر إلى ما دعتنا إليه مأثوراتنا الدينية العظيمة. وهو يطالبنا بأن ندرك ما فعلناه بتلك الأوامر العظيمة ولماذا فعلنا بها هذا. وهو يرينا أننا لسنا حبيسي الكراهية والتدمير بحكم طبيعة بيولوجية جُبلنا عليها. ويرينا طريق الخروج من هذه الأهرامات الأبوية المخصصة للاتجار بالقوة.

إن هذا الكتاب يروي الروح ويمكننا من معاودة النمو.

جوان شيتيستار

(من راهبات وسام القديس بينديكت)

إيري، بنسلفانيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

تصور سقوطه من الفردوس – ليوسيفار، ابن النهار– يا له من لقب وياله من حق بالميلاد! أن يولد المرء من النهار يعني ضمنا أنه مخلوق من ضوء شفاف طاهر، وجميع ورود ملايين أفلاك النهار الدافئة تلون جوهره المشرق، ولمعة جميع الكواكب النارية تتألق في عينيه. بهي وعلوي، يقف على يمين الإله نفسه، هذا الملَك الأعلى الجليل، يقلب ناظريه اللذين لا يكلان في أعظم ما تمخضت عنه أفكار الإله وأحلامه من بهاء خلاق.

وعلى حين غرة، أدرك وجود عالم جديد صغير يلوح في أفق الأشياء الجنينية، ورأى فيه كائنًا يشكل نفسه ببطء كما لو كان سيتخذ هيئة تشبه الملاك. كائن ضعيف لكنه قوي، علوي لكنه أحمق، خليط متناقض غريب، قدر عليه أن يشق طريقه عبر مراحل الحياة جميعها، لكنه مستمر في امتصاص أنفاس الخالق وروحه التي ينبغي أن تمس الخلود الواعي –البهجة الأبدية.

ثم التفت ليوسيفار وقد انتابه غضب عارم لسيد الأفلاك، وتحداه بتمرده الأهوج، وهو يجهر صائحًا –"هل ستجعل من هذا المخلوق الضئيل البائس ملاكا يضاهي ملائكيتي؟ إني احتج عليك وأدينك! انظر، إذا خلقت الإنسان على صورتنا فلأدمرنه تماما، بوصفه غير ملائم لأن يشاركني بهاء حكمتك – عظمة حبك!".

ورد عليه الصوت العلوي بنبرات رهيبة وجميلة –"ليوسيفار، يا ابن النهار، ستعرف حق المعرفة أن ما ينطق به أمامي يستحيل أن يكون لغوًا أو يذهب سدى. لأن الإرادة الحرة هبة الخالدين؛ لذا، فما قلته لابد أن تفعله! اهبط –أيها الروح المتكبر– من علياء ملكوتك، أنت وصحبك، ولا تعد إلا حين يخلصك الإنسان نفسه! كل روح إنسانية تستسلم لغوايتك ستكون حاجزًا جديدًا يقوم بينك وبين السماء؛ و كل من يتمرد بمحض إرادته ويتغلب عليك، يرفعك درجة نحو منزلك الضائع! وحين ينبذك العالم، سأسامحك وأعيد استقبالك، لكن ليس حتى ذلك الحين."

م. **كوريللي**، أحزان الشيطان. ص: ٦٥–٦٦

المقدمة

ما القوة التي تدفع بالبشر لتدمير غيرهم من الشعوب، والأمم، وتدمير بيئتنا، متجاهلين نتائج فعلتهم والمعارف التي جمعتها البشرية عبر تطورها منذ آلاف السنين؟ يكشف تاريخنا أن المؤسسات الدينية، والسياسية، والاقتصادية دأبت على التآمر لتلطيخ سمعة الآخر، ووسمه بصبغة شيطانية، وتدميره، على الرغم من أن كافة الديانات الموجودة في العالم تحضنا على أن نحب ونحترم بعضنا البعض، وأن مؤسساتنا القانونية قد أنشئت لضمان المعايير الأخلاقية للعلاقات الاجتماعية.

لو أردنا أن نعيش كعائلة بشرية لابد أن تزداد مسئوليتنا عن أفعالنا، وأن نتخلص من التعصب الديني، والعنصري، والعِرقي، والنوعي (التعصب القائم على كون الفرد من نوع الرجال أو نوع النساء)، كما لابد أن نتخلص من القوة السياسية التي تقف وراءها دوافع أنانية، ومن الجشع الاقتصادي. يحتاج منا هذا الجهد إلى فحص متعمق لمختلف القوى التي تشكل دوافع سلوكيات البشر. يحذر مؤلف رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس القراء من أن "محبة المال أصل لكل الشرور ..." (١ تيموثاوس ٦: ١٠)، لكننا لو فحصنا السلوكيات المرتبطة بالجشع لتبدى لنا أن رغبة الشخص في التأكيد على أنه يماثل غيره في الجودة، أو يفوقه، فيكون من ثم في مصاف طبقة عليا هو أس الدافع إلى الرغبة في الثراء والتملك. توجد أسباب متنوعة تبرر الرغبة في احتلال منزلة عليا، وتضفي عليها صبغة المعقولية؛ فالانتماءات الدينية تؤكد صدق هذه الرغبة، كما تؤكدها الفوارق الطبقية، وهي تتأثر أيضا بمناهج الحياة العنصرية أو المتمحورة حول عِرق معين. من ثم، يشير هذا الكتاب إلى أن علامة أس الشر هي أي تصرف محسوب يقصد به الحط من

قدر إنسان آخر أو إلحاق الأذى به، وأن اختلال موازين القوى بين الجنسين التي جبلت عليها النسق الأبوية الهرمية تبقي على هذه الجريمة قائمة على مر الزمان.

لقد نبعت النظرية التي يعتمد عليها كتاب *أس الشرور*، كما نبع عنوانه من إمعان النظر في سقوط ليوسيفار من الجنة، وهي قصة عن التعصب والكبرياء[١]. إن هذه القصة من قصص الخلق مفعمة بالمعاني التي نجدها في مأثورات ديانات التوحيد. فهي تخبرنا عن سورة الغضب التي انتابت ليوسيفار عندما صور الإله آدم، البشر الذي على شكل الملائكة. توحي القصة مجازيا بأن تعصب مخلوق ضد آخر يغلق أمامه أبواب قلب إله السماوات (ومن هنا، يأتي "الهبوط من الجنة"). وهو أيضا مجاز يلمح إلى الشر الذي تتسم به السلوكيات المتعصبة النابعة من الكبرياء بسبب علو المنزلة في سلم التراتب الهرمي. إنه لموضوع يستحق المزيد من التمحيص، لأن الأبحاث التي أجريت عن نشوء السيادة الأبوية توحي بأن التعصب من المظاهر المتأصلة في جبلة الكبرياء الناتجة عن علو المنزلة في سلم التراتب الهرمي والناتجة عن اختلال موازين القوى بين الجنسين.

فإذا ألقينا نظرة على التاريخ لوجدنا أن التأثير الأبوي في الدين والثقافة والأسرة يتطلب هيكلاً هرميًا لترتيب المنزلة. إن الترتيب الهرمي يقع موقع القلب من النسق الأبوي. فلابد أن يقع دائمًا فرد، أو عنصر، أو أمة، أو ديانة في موقع أفضل من نظرائه- بل إن الروح تعتبر أسمى من الشكل(المادة) بينما هما الاثنان من مظاهر الخلق الرباني. إن النسق الأبوي مثال أولي للتعصب وعدم وضع الآخرين في الاعتبار؛ حيث إن النُسُق الأبوية -كما سيكشف هذا الكتاب- قد أنشأت نمطًا مستمرًا من العنف ضد الآخرين والتسيُّد عليهم. فالحروب مستمرة لتأكيد مرتبة أحد الأطراف باعتباره الحكومة العليا أو الإمبراطورية، وللتحكم في موارد كوكب الأرض. ويعتبر أحد العناصر في مرتبة عليا فوق الآخرين. أما العنصر الذي يقع في المرتبة الدنيا فتساء معاملته، وكثيرًا ما تتهدده الأخطار.

---

(١) سُمي ليوسيفار فيما بعد باسم الشيطان، وهو يعرف في الإسلام باسم إبليس.

ولكل عنصر وجوه تعصبه، أما النساء على وجه الخصوص فقد أنزلن إلى مرتبة أدنى. فالإناث يعتبرن أقل قيمة من الذكور في النسق الأبوي. وقد عزز الذكـور العنف المستمـر ضد كل من النساء والأطفال على مر التاريخ المسجل. لا يعني هذا القول بأن النسق الأبوي شر في حد ذاته، بل يعني أن تركيزه على نظام التراتب الهرمي و التسيد جعله قابلا للعديد من الخطايا. إنه نسق يعتوره الخطأ في صميم جبلته، كما يتضح من دأبه على تدمير الآخر.

يعتقد أن العنصر الهندو-أوروبي (المعروف أيضًا بالجنس الآري) قد بدأ عند حوالي الألفية الخامسة الميلادية(٢) في شن حملة عنف على نطاق واسع عبر أوروبا وآسيا. شملت هذه الحملة هزيمة شعب الهند المعروف باسـم الدرافيديين. وقد كانت الشعوب السامية المبكرة المعروفة باسم العبرانيين هي الأخرى شعوبًا من البدو الرحل الغزاة (*Eisler, 1987*). ومع نشأة النسق الأبوي، انتظمت معتقداته الدينية وفقًا لذلك النسق. فقد نشأ نظام الطوائف في الهند مع سيادة مانو المنتصر، وما ارتبط بانتصاره من أساطير. وديانة التوحيد المستجدة (التي ستتمخض في النهاية عن اليهودية) ادعت لنفسها بالمثل نسبًا أبويًا يحجب جميع ما عداه(٣).وفقًا لهذه الروايات، بدأ التاريخ بأكمله مع هذه الديانة.

لقد سردت ديانات العالم بلسان عقلية أبوية تزعم أنها تتحدث باسم الإله. وكثيرًا ما تزدري كل ديانة الديانات الأخرى باعتبارها ديانات ما أنزل الله بها من سلطان، أو باعتبارها ديانات أدنى قدرا، وذلك لينادي كل واحد بأن ديانته هي

(١) استخدمت المؤلفات عند ذكرهن للتواريخ في النص الإنجليزي حروف **CE** للدلالة على (منذ ميلاد المسيح [ميلادية])، و **BCE** (للدلالة على ما قبل ميلاد المسيح)، بدلاً من استخدام حروف **AD** و **BC** للدلالة على نفس الفترات التاريخية، حيث إن الحروف الأخيرة تدل على التأريخ بميلاد يسوع المسيح ووفاته. وقد أخذت المؤلفات بهذا النظام احترامًا للقراء من مختلف أقاليم العالم. ويرجع نظامًا التأريخ كلاهما إلى التقويم الجريجوري.

(٢) تحكم الشريعة اليهودية بأن الطفل المولود لأم يهودية هو الذي يعتبر يهوديا.

الديانة المثلى الوحيدة. وقد شجع هذا الاتجاه على نشوء الأصولية الراديكالية، وهو يمثل تهديدا معتبرًا ومتزايدا لمستقبل البشرية.

يشير تقرير منظمة هيومان رايتس ووتش لعام ٢٠٠٥ إلى أن السنوات الخمس الأخيرة شهدت حروبًا دينية في أيرلندا، وقبرص، والبلقان، ورواندا، وبورما، وسيريلانكا، ونيجيريا، والسودان، وإسرائيل-فلسطين، والفليبين (الميندانو)، وإندونيسيا. ويمكن أن نضيف لهذه القائمة أيضًا أحدث التفجيرات وأعمال القتل التي جرت بين المسلمين الشيعة والسنة في العراق. لقد أرهب الانتحاريون في الولايات المتحدة الأمريكية العيادات التي تجري عمليات الإجهاض بتهديدهم بتفجير أنفسهم فيها كقنابل بشرية، كما أن الأصولية المتوقدة حضت على أخذ الرهائن وضرب الأعناق.

وما إن نمعن النظر في هذه الأمثلة العديدة الدالة على اتساع نطاق استشراء العنف ضد أخوتنا وأخواتنا حتى ندرك أننا لم نتمثل القيم السامية التي ورثناها عبر تاريخنا الماضي من أنبيائنا، ونصوصنا المقدسة والعظماء الذين هم قدوة مثلى لنا، ولم نأبه بها. ومن المرجح أن العجز عن تمثل تلك القيم السامية وتطبيقها قد نتج عن اختلال موازين القوى بين الجنسين. فالمرأة قد جبلت على خاصية اكتساب المعنى من الصلات بالغير، لا من مجرد ذات النفس، وذلك بحكم سمات الأمومة التي تتميز بها، فهي أكثر اهتمامًا بوقع الأفكار والمعتقدات على الناس والبيئة. وهكذا، فإن الإنسانية إذا عدلت موازين القوى بين الجنسين فستنتقل من وضعها الحالي الذي تكتنفه المعضلات، وتحل الكثير منها في النهاية.

عناصر الاختلاف والاتفاق

تعاونت أربع نساء في تأليف هذا الكتاب بالتنسيق فيما بينهن. أتت كل واحدة منهن من خلفية ثقافية وديانة مختلفة عن الأخريات. لقد تمكننا من تجاوز المواقف

السياسية لحكومات بلداننا، الأمريكية منها، والإسرائيلية، والمصرية، وأجرينا فيما بيننا حوارًا يتسم بالاحترام والعناية في غضون اشتراكنا في تأليف هذه الوثيقة. ولقد أدركنا –بصفتنا نساء– أن ما لدينا من معرفة واهتمام لن يدعنا نقف جانبا ونشاهد مثل هذا التدمير للبشرية على نطاق كبير. كما أن كلاً منا لاحظت بشخصها الشر المعروف باسم التعصب، أو وقعت ضحية له، ونأمل أن نسهم ونعاون بالكتاب الذي ألفناه في تلافي هذا التعصب، نظرًا للطبيعة الحرجة للوضع العالمي الحالي. *شارون ميهاريس* أمريكية من خلفية صوفية مسيحية (والتصوف عمومًا). و*علياء رافع* أستاذة مصرية مسلمة (تعيش في مصر). *وراشيل فاليك* إسرائيلية يهودية، تقيم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية. وجي*ني ايدا شيير* أمريكية يهودية بالتطبع، أبيدت عائلتها الممتدة عن آخرها تقريبًا على يد النازي. وفيما يلي تصوير مختصر لكل منهن، ليتمكن القارئ/القارئة من فهم المؤثرات والدوافع التي وقفت خلف تعاوننا معًا وجعلتنا نتكاتف لنكتب هذا الكتاب.

شارون ميهاريس:

ترددت في طفولتي على كنائس بروتستانتية مختلفة، يحكمني في هذا الموقع الجغرافي لا الطائفة. لم يكن والديّ متدينين، فكنت حرة في اختيار الكنيسة التي أذهب لها. وفي بواكير مراهقتي أخذ وعيي يتزايد بوجود أشكال التعصب الكثيرة المتفشية في كل واحدة من هذه الكنائس. فمثلاً، كانت طائفة أو أخرى تعتقد أنها أعلى منزلة من طائفة أخرى يلعب أتباعها الورق أو لا يلعبون؛ أو يرقص سكان أبـــرشيتها أو لا يـــرقصون؛ أو لأن الأتباع يحضرون إلى الكنيسة في يوم السبت أو في يوم الأحد. وأدركت أن هذه الفوارق الطفيفة تكاد تكون لا علاقة لها بعلو المنزلة الحقيقي.

وقد كانت أسرتي التي نشأت في كنفها شديدة التعصب أيضًا. وربما دفعني تمردي المبكر ضد هذه الأوضاع المنافية للإنسانية إلى تكوين صداقات مع أناس من مختلف القوميات والأجناس؛ لكن حبي لغيري من البشر كان من دوافعي لهذا أيضا. اكتسبت في المدرسة الثانوية صداقات عديدة مع ناس من أصول إسبانية. وكنا نتبادل عبارات تنطق بالترحاب والدفء، مثل عبارة "بيتي هو بيتك"(*). لكن بعد مرور بضع سنوات، حين كنت في زيارة لعائلة في المكسيك، سمعتهم يتحدثون ضد "الهنود" (والسبب الأساسي إما لأن جلودهم أدكن لونًا أو لأنهم أفقر منهم). وسمعت أيضًا إشارات ضد الأمريكيين الذين من أصول إفريقية. وسمعت أن من المعتاد استهداف مثليي ومثليات النزعة الجنسية ومهاجمتهم / مهاجمتهن، بل وقتلهم/قتلهن. تعلمت في مراهقتي أن شيئًا من التعصب ضد الجماعات الأخرى يوجد عادة بين أفراد كل عنصر، أو جماعة عِرقية أو طائفة دينية.

وقد ظهرت معارضتي لمؤثرات التعصب لدى والديَّ والتعصب الثقافي أيضًا في علاقتي بشركاء حياتي. فطفلي الأول مثلاً من سلالة إسبانية، وقد ولد قبل بلوغي السابعة عشرة من عمري بشهر واحد. رفض والديَّ تبادل الحديث معي عند مولد هذا الطفل. كان بوسعي العودة لبيتهما، لكن بدون هذا الطفل "الهجين". واخترت أن أبقى لمدة ثلاثة شهور في قاعة الأحداث انتظارًا لبيت يمكنه أن يكفلنا كلينا.

وأثناء ولادة طفلي الثالث، أثرت في بعمق كلمات نطقها عفوا طبيب أثناء الساعة الأخيرة من عملية الولادة. كان الطبيب يعلم أن والد الطفل الغائب من أصل أمريكي-إفريقي. وقبل خروج الطفل ببرهة قصيرة سألني ما إذا كنت فكرت في عرض الطفل للتبني. طغى عليَّ ألم ممض ومهول عندما أدركت التعصب الاجتماعي المغروس في ثنايا كلماته. وسرعان ما احتضنت ولدي الحبيب بين

(*) كتبت هذه العبارة في النص الأصلي باللغتين الإسبانية والإنجليزية كما يلي: "*mi casa su casa*" *(my house is your house)*. المترجمة.

ذراعي، لكن منذ هذه اللحظة فصاعدًا حملت وعيًا مزق قلبي بقوة التعصب، واكب رغبتي في حماية ابني من نصل خنجره.

وحين بلغت السابعة والعشرين من عمري التقيت بمعلم روحاني جليل، وبدأت في تلقي تدريب مكثف على التصوف المسيحي. وبعد مرور عدة سنوات من التدريب الديني والتدريب على إقامة العلاقات، بدأت في التشكك في معتقداتي. هل تسمو أي ديانة حقًا على غيرها من الديانات؟ هل تقل قيمة النظرة البوذية إلى النيرفانا عن النظرة الكاثوليكية لملكوت السماوات (أو العكس)؟ هل يمكن أن يرجع سبب اختلاف منظور ديانة ما إلى وعي من يفسرها؟ ربما مثلت كل ديانة نظرة فريدة إلى المقدس وتعبيرًا فريدًا عنه *(Khan, 1984)*. ورفضت أن أشارك في المزيد من جنون الاعتقاد أن أي ديانة تقع في منزلة أعلى من غيرها، واخترت بدلاً من ذلك أن أعترف بأن معظم الناس قد وجدوا الديانة الصحيحة بالنسبة لهم. كيف يتأتى لنا أن نحد من عظمة الخالق؟.

مررت بتلك الخبرة فانبثق لدي وعي بما للكراهية والجهل من عواقب مدمرة، ودام معي هذا الوعي طوال حياتي؛ مما دفعني إلى دراسة هذا الموضوع. يبدو أن جذور التعصب تمتد في خوف الإنسان من كل ما هو مجهول أو غير مألوف، وأن الدافع الذي يغذيه هو الكبرياء القائمة على أساس ادعاء زائف بالعظمة وغياب الحب لبقية العائلة البشرية. أشعر أحيانًا بألم للطريقة التي عومل بها الأمريكيون الذين من أصل إفريقي في هذا المجتمع. كثيرًا ما كان بين طالباتي وطلابي في مقررات دراسات الدرجة الجامعية الأولى أو الدراسات العليا أمريكيون من أصل إفريقي. إني لأشعر بمزيج من الإعجاب بهؤلاء الطلاب والطالبات والعطف عليهم لما تحملوه من كفاح ليحصلوا على نفس الفوائد التي يحصل عليها غيرهم من أبناء وبنات الأعراق الأخرى بصفتها أمرًا مسلمًا به.

وأجد أحيانًا صعوبة في الاعتراف بأني مسيحية، لأن تعاليم يسوع مُثِّلَتْ بشكل ضعيف جدًا. إن مواعظ الجبل تصور طريق حياة سلميًا، وبسيطًا، ومليئًا

بالتعاطف، وهو طريق يتباين تباينًا حادًا مع الإيديولوجية المسيحية التي تدعم الحرب والشركات الكبرى، حيث يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرًا. لم يقل يسوع أبدًا "خذوا من الفقراء وأعطوا الأغنياء"، ألا وهي السياسة التي يشجعها اليمين الديني. إن تجربة مشاركتي في الكتاب قد جددت التزامي بتعاليم يسوع الأصلية، التي تتضح في سبله الشافية التي تعطي مثالاً عمليًا للعطف على الجميع وقبولهم.

علياء رافع:

نشأت وترعرعت ابنة لقطب صوفي في مصر، تحيطني طاقة حب ونور هائلة. كان لوالديّ طريقة شديدة الخصوصية في معاملة أطفالهما. كانا حريصين على حماية كرامتنا، وحريتنا، وخصوصيتنا. فوالدي مثلاً لم يأمرني أبدًا بالصلاة ولم يطالبني بفعل أي شيء. كان بدلاً من ذلك يقضي معنا وقتًا طويلاً، يناقشنا في مختلف القضايا، في الدين، والثقافة، والسياسة، والأدب، وغيرها من الموضوعات المهمة. نتيجة لذلك اكتسبت طريقة أن احترم الصلوات دون أن أعتبرها فرضًا. وقد ظهر نهجي في الحياة وتأسس حسِّي العام تدريجيًا من خلال حديثنا معًا. ومن هذه الأسس التي لا يعتورها الشك *لا إكراه في الدين*. ومن القيم الأخرى التي غرست فيَّ منذ نعومة أظفاري أنه لا يجب الحكم على أحد وفقا لانتمائه الديني. وصارت هذه القيم جزءًا لا يتجزأ من طريقة اتصالي بالعالم. وكان لتربيتي وقع هائل على اختياري للدراسة واتجاهاتي نحو الثقافات الأخرى.

كانت مصر خالية من الأصولية إبان سنوات مراهقتي. كان من بين جيراننا عائلة مصرية يهودية، وكنا نصادق أبناءها وبناتها ونلعب معهم. كان لرب هذه العائلة مشروع عمل مشترك مع مصري مسلم. كان اليهود يمتلكون الكثير من مشروعات الأعمال الكبيرة، وكانوا يحظون بالثناء لأمانتهم وحسن خدمتهم لعملائهم. لقد وجهنا النقد لتأسيس الدولة الإسرائيلية من منظور سياسي. لقد فهم

جيلنا الفارق الواضح بين الصهيونية واليهودية. لقد تعاطفنا مع الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم، وأصابتنا الفظائع التي تجري على الأرض المقدسة باليأس. كان تحرير فلسطين حلمًا عربيًا، لا حلما مصريًا فقط. لم تكن في طفولتنا نفكر فى القضية من حيث تعقيداتها الكثيرة، فكرنا فقط في أن استعادة حقوق الشعب الفلسطيني تشبه استعادة المرء لبيته ممن سرقه. وبمرور الوقت، ونتيجة لتكشف الحقائق الجديدة المتعلقة بأرض فلسطين المحتلة، اتضح في أذهاننا أكثر وأكثر ضرورة وجود حلٍّ يمكن الأمتين –الفلسطينيين و اليهود– من العيش والتمتع بحق تقرير المصير. وترجمت إلى العربية بسعادة عظمى وحماس منقطع النظير كتاب ناعوم تشومسكي *المثلث المشئوم* ***The Fateful Triangle***. احترمت هذا المثقف اليهودي احترامًا عظيمًا، فهويته الدينية لم تطغ على قدرته على إمعان النظر بعين الإنصاف والمطالبة بالمساواة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في حقوق الإنسان.

اخترت أن أدرس الفلسفة وعلم النفس، هادفة لفتح عقلي وقلبي لطرق أخرى في التفكير. وفيما بعد، اهتممت بعلم الأنثروبولوجيا، لأنه –بحكم التعريف– يتناول الثقافات الحية، وعرفت أن العلاقات بين الناس لا تقوم فقط على أساس الصفات الشخصية، بل أيضا على الكيفية التي تشكل بها المعايير والقيم الثقافية منظور الفرد. وقد جعلني هذا النهج ألمس أرض الواقع من حيث إدراكي أن معاملات البشر مع بعضهم البعض أكثر تعقيدًا مما اعتقدت فيما قبل.

وأثناء إقامتي في ويلز في بدايات سبعينيات القرن العشرين، استغللنا –زوجي وأنا– جميع الفرص الممكنة لنزداد علمًا بالديانات الأخرى. حضرنا اجتماعات البهائيين، وفتحنا أبواب بيتنا لشهود يهوه، والمبشرين المورمون، وتملكنا الفضول لمعرفة جماعات دينية أخرى. واهتداء بتعاليم والدي، سعينا لمعرفة المزيد عن ديننا بفتح قلوبنا لآراء الآخرين. كنا متأكدين من وجود أرضية مشتركة تجمع ما بين الأديان كلها. ولنقص خبرتنا في ذلك الحين، أدهشنا أن ندرك أن الآخرين كانوا مقتنعين بوجود طريق صحيح واحد، ولم يكونوا على استعداد للدخول في

مناقشات جادة. كان كل ما يريدونه أن يحولونا إلى اعتناق معتقداتهم. لقد خدعهم تفتحنا وتسامحنا، فاعتقدوا أننا فريسة سهلة. كان هذا أول لقاء لي مع التعصب الديني، أو ما نسميه اصطلاحًا بالأصولية. وقدر لي أن أدرك مدى شيوع وقوع مثل هؤلاء الناس في شرك إطار مرجعيتهم الذهنية، وتجاهلهم لهدي صوتهم الداخلي. كانوا لا يتمكنون إلا فيما ندر من الإنصات لوجهات نظر بعضهم البعض، وكان في كلماتهم خواء روحي. كان الله حاضرًا في حياتي بقوة عارمة من خلال تعاليم والدي، لكني لم أعتقد أبدًا بوجود طريق واحد يقود إلى الإله. من ثم أدهشني أن أرى الاتجاهات المتعصبة التي تغمر الناس "المتدينين"، بما فيهم المسلمون. وبعد أن قضيت ست سنوات في المملكة المتحدة، عدت إلى مصر لأجدها وقد صارت مصر أخرى غير التي تركتها.

وفي نهايات سبعينيات القرن العشرين، ونتيجة لسياسة السادات التي شجعت ما عرف في ذلك الحين باسم "الجماعات الإسلامية" على المشاركة في المجال السياسي، صار في مصر اتجاه متزايد نحو الأصولية. أكد هذا الاتجاه على الشكل على حساب المعنى. وجدت اهتمامًا متزايدًا بما يجب على المرء عمله ليكون مسلمًا بدلاً من الاهتمام بكيف ينهج المرء طريقه في الحياة. رأيت "الحجاب" بين الطالبات وقد صار ظاهرة تستحق الدراسة. أردت أن أعرف ما إذا كان التدين لدى هؤلاء النساء المحجبات يعني فقط أن ترتبط الواحدة منهن بزيٍّ معين، أم أن اهتمامهن باتباع ما يسمى بقواعد دينية معينة وراؤه المزيد مما يستدعي الفهم. الدين – كما تعلمته – يتعلق بقلب المؤمنة أو المؤمن، لا بما يرتديانه.

ولسوء الحظ، صار هذا الاتجاه المصطنع في التدين شائعًا وسط جماهير الشعب المصري الآن. أنا لست ضد ارتداء أوشحة تغطي الرأس كتعبير عن الاحتشام، لأني تعلمت أن احترم الآخرين وأكرم حريتهم في الاختيار. أنا ضد التصلب وفرض المرء لطريقة تفكيره على الآخرين.

وأدركت أن العالم الذي عشت فيه طفلة وشابة يتلاشى، وأن آفة التعصب تجتاحه بقوة؛ تلك الآفة التي تضرب بجذورها فيما مضى من تاريخ الجنس البشري. كما أدركت أن الأمر يتطلب جهدًا هائلاً للتخلص من هذه التراكمات التاريخية لتلك المنظورات ذات الأفق المحدود. وغدا أكبر اهتمام لي أن أزيح هذه الحواجز الزائفة التي تفصل بيننا كأسرة بشرية، وأن أبني روابط محبة بين البشر أينما كانوا. واستجابة لاقتناعي بهذا الأمر، كتبت مقالات وشاركت في تأليف كتب تتناول هذا الهدف. إن تجربتي كأستاذة زائرة في كلية البنات بجامعة راندولف ماكون(٤) قد أثبتت أن هدفي يمكن تحقيقه. أما كلية البنات بجامعة راندولف ماكون فهي كلية خاصة ليبرالية تقع بمنطقة لينشبيرج بولاية فيرجينيا. تدعو الكلية أساتذة ممن ينتمون لمختلف ثقافات العالم لتقديم مقررات تقدم للطالبات الأمريكيات تعليمًا عن "الآخرين". وقد اختارتني الكلية لأتولى التدريس عن الإسلام. وتوليت تدريس مقررين بينهما صلة متبادلة؛ أحدهما عن الإسلام والعالم الحديث، والآخر عن مصر ورسالتها الروحية التي لا تنقطع. وقد بنت العملية التفاعلية التي حدثت في تجربة التدريس تلك جسرًا من الفهم بيني كمسلمة مصرية وبين طالباتي اللاتي أتين من مختلف الخلفيات الثقافية الأمريكية ومن مختلف بلدان العالم. يلزمنا أن نزيل الحواجز الزائفة عن طريق تغيير سبل عملنا على أهدافنا وفحص المعاني التي نعطيها للحياة- فنتبع بذلك التوجيهات الأصيلة التي تقع موقع القلب من جميع الديانات.

---

(١) للحصول على مزيد من المعلومات انظري/انظر الموقع التالي على شبكة الإنترنت:
http://www.rmwc.edu/academics/quillian.asp

راشيل فاليك:

أنا يهودية وإسرائيلية. في بلدي، يغادر كل مولود جديد المستشفى ومعه شهادة ميلاد وكمامة ضد الغازات تناسب مقاس الرضع. وتخشى الأمهات اللحظة التي يبلغ فيها الطفل أو الطفلة الثامنة عشرة من العمر، حيث يدخل عندها الجميع -ذكورا وإناثا- في الخدمة العسكرية الإجبارية. إن حياة المواطن العادي تقوم على الخوف والحماية. في المدينة التي عشت فيها، كان في كل عمارة مخبأ للجوء إليه وقت القصف بالقنابل، وفي كل منزل على حدة غرفة أمان مدعمة بالأسمنت والأبواب الفولاذية. كان التهديد بالعنف من ثوابت حياتي.

لقد مررت بأهوال حربين قبل أن أتم السابعة من عمري، وهكذا، غرس في ذاكرتي إلى الأبد صوت عويل سارينة الإنذار، وتعبير الخوف المرتسم على وجه أمي. حين كنت في السادسة، درَّبوني على مراقبة جميع الحقائب التي تحمل على الظهر التي في المدرسة، تحسبًا لاحتمال وجود قنبلة مخبأة بها. ودائمًا ما كان ركوب المواصلات العامة تجربة خطرة. علّموني قواعد ركوب الأتوبيس. كل من يركب الأتوبيس ملزم بالانتباه للأمتعة، وإذا وجدت حقيبة بلا صاحب، كان جميع الركاب يعلمون أن عليهم مغادرة الأتوبيس.

عاشت عائلتي أصلاً في الشتات، وبالتحديد في المستعمرات المتناثرة المخصصة لليهود خارج إسرائيل. وقد كبروا بعيدًا عن أرض أسلافهم، مثلهم مثل معظم الشعب اليهودي بعد النفي البابلي. أتى بعض أفراد أسرتي إلى إسرائيل من بلدان عربية، كانوا فيها أقلية مكروهة. وقد نزح بعض أفراد الأسرة المحظوظين من أوروبا إلى إسرائيل بعد أن شهدوا مقتل أقاربهم بأيدي النازي. وقد أهلني سماعي لقصص أفراد عائلتي للاعتقاد بأني ملزمة بالدفاع عن وجود إسرائيل بجميع السبل الممكنة. حين بلغت الثامنة عشرة من عمري ارتديت زي التجنيد الموحد، وحملت سلاحًا، واستجبت للضغوط الاجتماعية التي حثتني على "تحقيق قدراتي" بأن أصير ضابطة في القوات الجوية. وكنت مثل الكثير من غيري من

الجنود أرى تناقضًا بين إدراكي لقوتي المميتة وإنسانية أعدائي. ربيت على التوائم مع الاعتقاد بأنه لا سبيل آخر لتأمين وجود الشعب الإسرائيلي على أرض إسرائيل إلا بالخدمة العسكرية الإجبارية. ولكن، على الرغم من التهديد بالعنف، والخوف المستمر، والتربية على التوائم مع النظام، لم أسترح أبدًا للاستجابة بالكراهية. كانت المستعمرة التي نشأت فيها تقع على حدود قرية فلسطينية. كنا نجاور تاريخًا من الوجود المشترك. في ذلك الحين، بني جدار أسمنتي بين القريتين، لم يكن بالتأكيد مما يساعد على التفاهم والسلام، ولا كان ليضمن الأمن، بل كان كل من الجانبين واقعًا في شرك دائرة مفرغة من الاغتراب، والرعب، والكراهية.

أنا أعيش الآن في أمريكا، وقد منحني هذا منظورًا جديدًا. أقابل فلسطينيين، وقد عرفتهم كآدميين، بينما لو كنت في إسرائيل لانتابني تجاههم الشك أو الخوف منهم. وللمفارقة، لقيت في أمريكا تعصبًا أكثر مما توقعت. كثيرًا ما سمعت تعليقات من نوع *اليهود يتحكمون في وسائل الإعلام* أو *اليهود جلبوا لنا العنف*. وتتبع هذه التعليقات شروح مسهبة تعممها على الشعب اليهودي وترسم له صورة نمطية. وقد أتاحت لي الإقامة في أمريكا أن أمر بتجربة كون *الآخر* كائنًا بشريًا، وكوني أنا *الآخر*.

ما زالت القذائف تستهدف القرى الفلسطينية، ومازالت القنابل تنفجر في الأسواق المزدحمة باليهود، لكني في هذه المرحلة من عمري لم أعد أقبل الإجابات السهلة التي ربيت على التوائم مع قبولها. لا يمكن أن يكون الرد على العنف والخوف بعنف مستمر.

إن إدراكي *للآخر* ككائن بشري يجعلني آمل في أن يحل التواصل المتزايد بين مختلف الأمم والديانات محل الخوف وسفك الدماء والعنف المستمرين. في خضم هذه الفوضى التي تعم كوكب الأرض، الأمر متروك لنا لنمسَّ *الآخر*، ومسئوليتنا الشخصية أن نغير هذه الحالة من الفوضى بقلوب وعقول متفتحة. ولابد أن تشمل استراتيجية تغيير الحال التي نأخذ بها مزيدًا من التقارب بيننا، ومشاركة

بعضنا البعض في قواسمنا المشتركة عن طريق كتاباتنا، وفنوننا، وتمنياتنا الطيبة، وإخلاصنا للحياة.

في بلدي- كما في بقية أنحاء العالم- يمكن للقذائف أن تصل إلى مسافات أطول الآن، ويمكن إلقاء القنابل الذرية بمنأى عن الناس أكثر من ذي قبل. ومع تباعد الناس عن بعضهم البعض، وازدياد عدم الألفة بالعدو، الذي صار أكثر خفاء، يزداد القتل والتدمير سهولة. لكننا حين نعرف غريمنا فعلاً، ونرى أفراده وجهًا لوجه، ونفهم ما ينتابهم شخصيًا من يأس نجد مزيدًا من الصعوبة في كراهيتهم، ولا نعود قادرين على تحمل قتلهم.

جيني إيدا شيبر:

كانت حياتي مليئة بالتحديات منذ حملت بي أمي. هرب والديَّ إبان الحرب العالمية الثانية من هولوكوست النازي بالفرار إلى فلسطين. وبعد الحرب، عادا إلى أوروبا للبحث عن عائلتيهما. لم يبق ولا فرد واحد من عائلتيهما في أوروبا. بقى والديَّ في مكان اسمه بيرجن-بيلسن كان فيما سبق معسكرًا للاعتقال والموت، وهناك حملت بي أمي. قضى والدايّ بضعة أشهر هناك قبل أن ينتقلا لمعسكر تهجير آخر في أبجيفر، بألمانيا الغربية، انتظارًا لفرصة للذهاب إلى أمريكا. وولدت في عام ١٩٥٠، وبعد ولادتي بستة أشهر انتقلنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وخلال العامين التاليين تنقلنا من مكان إلى آخر حين كان والديّ يحاولان التأقلم مع عالمهما الجديد. ولد أخي في فيرجينيا في عام ١٩٥٢. وبعد ستة شهور من ولادته عادت بنا أمي إلى فيينا، حيث كانت تأمل أن تنهي دراستها للطب التي انقطعت بسبب الحرب. وكان ما زال للنازي تأثير، يثبط همتها عن السعي لتحقيق

هدفها. أما والدي فكان يعمل في ذلك الحين في شركة فورد موتورز في ديترويت. وبعد سنتين لحقنا به هناك.

كبرت وأنا أعرف أن الأمور تسوء بشكل مروع. كانت حياتي في البيت شديدة التعاسة، لأن الشجار المرير بين والديَّ لم يكن ينتهي. فمهما حقق أبي من نجاح لم يكن قادرًا على الاستمتاع بنجاحه أبدًا. فكل شيء كان -بنص كلماته- "فات أوانه". كان يبصق الكلمات في غلٍّ شديد كما لو كان يبصق سمًّا. وفهمت شعوره بالمرارة واليأس، حتى وأنا في سن صغير. كان غضب والدي الذي لا ينقطع، وهو يتقلى في صمت، أو ينفجر على غير توقع يخلق جوا من الخوف والرعب في بيتنا. لم يخل الأمر أبدا من وجود خطأ ما.

أما أمي، فكانت – وفقًا للنمط الأنثوي كما رسمه النظام الأبوي – تكبت احتياجاتها، محاولة منها لإرضاء والديّ. صارت هي ضحية على الدوام، بينما صار هو المعتدي الانفعالي. صار والديّ سجيني دوريهما، يعيدان إدارة شريط الحرب في بيتنا على حين غرة. ولأنني أخذت عن أبي شطرًا من سلوكه الهوائي، كانت أمي أيضًا تحوّل عنفها إليَّ. كنت أعرف أنها تحبني، لكني عانيت بعمق من كلماتها القاسية. كان يبدو أن السعادة لا تجد مكانًا في أسرتنا. ولم أفهم إلا حين كبرت أننا عشنا في ظلال الهولوكست. كان لدى والديّ كليهما عقدة ذنب، سواء وعيا وجودها لديهما أم لم يعياه. وكانت هذه العقدة تتجلى في صمتهما التام عن ذكر الحرب أو موت جميع أفراد عائلتيهما.

لكن من جهة أخرى، كان والديّ اشتراكيين، وبهذه الصفة نقلا إلى أطفالهما أيديولوجية إنسانية. كانا قد تخليا عن قيود الديانة، واعتنقا -كمثقفين علمانيين- مثال العدالة الاجتماعية. وقد امتصصت مُثُلهما، ومع الوقت جعلت منها مُثُلي الخاصة.

ترعرعت في طفولتي وأنا أتعجب لوجود هذا القدر الكبير من الكراهية الذي تكنُه كل جماعة من الناس لغيرها من الجماعات. كان من الجلي أمامي أن ما نشترك فيه كبشر أكبر بكثير من مما بيننا من فوارق بسبب الديانة أو الهوية العنصرية. فلماذا لم يكن هذا واضحًا للجميع؟ لماذا لم يحب الناس بعضهم البعض أكثر من ذلك؟ لماذا يرتدون أقنعة ويختفون خلف الأدوار؟ كثيرًا ما كانت هذه التساؤلات تملأ عقلي. وحيث أنني قبلت ألمي الخاص وما أراه حولي من يأس، فقد فهمت أن الناس كانوا خائفين من قلوبهم.

وبصفتي يهودية نشأت بين ظهراني ثقافة مسيحية، شعرت بلدغ التعصب. كثيرًا ما شعرت بأني مستبعدة مما يشارك فيه الآخرون بعضهم البعض. ودهشت حين علمت أن يسوع كان يهوديًا! كيف يتأتّى للمسيحيين أن يعبدوا يهوديا ويكرهوا أصله في نفس الوقت، وهو مصدر ديانتهم ذات نفسها؟ وأذهلني أن المسيحيين لا يمارسون الحب الأخوي الذي يدعون إليه. كيف لهم أن يكرهوا السود، واليهود، والأعراق الأخرى ثم يقولون عن أنفسهم إنهم مسيحيون؟ لو كانوا يمارسون حقًّا ما علمهم إياه يسوع، لحظيت حياة كل إنسان بالقبول، والقيمة، والرعاية.

وقد قررت منذ وقت مبكر أنني سأثق في قلبي. نتيجة لذلك، كرست حياتي لمساعدة الناس على أن يثقوا في قلوبهم وتشجيعهم على إبراز قدراتهم الإبداعية المتأصلة فينا جميعًا. على الرغم من قلقي على الأحوال الحالية للعالم، فأنا قادرة على تقوية نفسي وغيري وشفاء جراحنا، من خلال الشعر الذي أكتبه، والرقص الذي أمارسه، واللوحات التي أرسمها. تشمل ممارستي لشفاء جروح النفس تشغيل الجسم وتعليم اليوجا لتحسين الصحة، والوصول للشفاء، والاكتمال.

لقد أتت المؤلفات الأربع من أماكن مختلفة، وهن يعتنقن ديانات مختلفة؛ لكننا جميعا جربنا التعرض للتعصب بسبب هويتنا وما نعتقده. لقد كنا نحن *الآخر*، ليس لأن اثنتين منا من بلدين متصارعين في الشرق الأوسط، بل لأننا نساء. ونحن أيضا لنا اهتمام عميق بحسن أحوال عائلتنا الإنسانية. لقد أدى بنا هذا الاهتمام إلى الانتباه بجد إلى السوابق التاريخية التي أدت إلى ما نحن فيه حاليا من سوء الأحوال.

إن الإدراك الإنساني (سواء المحدود منه أو المتسع) يلعب دورا جوهريا في تفسير المرء للعالم المادي. إن خواص مثل التعصب ليست إلا ثمرة للجهل تشكلت بالإدراك المحدود، والخوف، والمعتقدات التي عفا عليها الزمن المستمدة من التستوستيرون [هرمون الذكورة] عن أن العنف يضمن البقاء. وفي الكثير من الأحيان، يتمكن التعصب من الناس حين لا يفهمون الآخر (سواء باختيارهم أو بحكم ظروفهم). وبحكم أننا نساء ذوات ضمائر حية، فقد استدعينا لنرى الإنسانية المشتركة في وجوه جميع الناس، بغض النظر عن معتقداتهم، أو لونهم، أو دياناتهم. وبغض النظر عن اختلاف وجهات النظر القائمة على أساس النشأة الثقافية لكل منا، فقد وافقنا جميعًا على أن أي تعصب ضد المختلفين عنّا بسبب الدين، أو الطبقة، أو الأصل العِرقي، أو العنصر، أو السلوك الجنسي (كالمثلية الجنسية، وتعدد الزوجات مثلاً وما إلى ذلك) ينتهك الاحترام الذي يستحقه كل آدمي.

لو كنا نأمل في الوصول لاتفاق مشترك مع الآخرين وأن يرى كل منا الآخر جزءًا من عائلة إنسانية واحدة، علينا أن نحترم الجميع. لابد أن يطابق سلوكنا مُثُلنا.

ونحن أيضًا نساء مهتمات بأن نأسو جراح العائلة الإنسانية ونجعل من العالم مكانًا أكثر أمنًا لأطفالنا والأجيال القادمة. لقد أتينا، نحن مؤلفات هذا الكتاب من ثقافات وخلفيات دينية مختلفة، وهذا يكسر أسطورة التعصب الديني، والثقافي والعِرقي. لقد تمكنّا من التواصل متجاوزات المشكلات الثقافية، والمعضلات السياسية، والتحيز الديني. ونأمل أن نضرب بأنفسنا مثلاً للآخرين ونحن نستكشف التأثيرات السائدة للنظام الأبوي في كل ديانة من دياناتنا وهيكل من هياكلنا الثقافية.

الروحانية مقابل التدين

إن الصدام بين الأيديولوجيات الدينية يخيم علينا كسحابة سوداء. الأصوليات الدينية تظهر في جميع الديانات. والتعارض بينها يهدد حسن أحوالنا وأمننا جميعا. لقد نسى الأصوليون معاني تعاليمهم الدينية. تميز تحديد معنى الدين بوجود الكثير من الاحتكاكات. لاحظ الفيلسوف البريطاني برتراند راسل أن "جميع الديانات العظمى التي سادت قطاعات سكانية كبيرة قد شملت جمودًا عقائديًا بقدر أقل أو أكثر من غيرها، لكن "الدين" كلمة غير ذات معنى محدد" *(Russell, 1999, p. 48)*. فمثلاً، لدى الدين من جهة القدرة على شرح القلب اعترافًا بالمقدس؛ ومن جهة أخرى يمكن استخدامه كأداة للضبط الاجتماعي والسياسي للجماهير. وهذا الأخير يتعلق بالتأكيد بالتأثير الأبوي الذي يؤكد على طاعة سلطة عليا (خارج ذات الفرد).

وقد أدى التأثير الأبوي المستمر إلى ظهور أنواع متطرفة من الأصولية الدينية. والأصوليون، بغض النظر عن دياناتهم، يصورون الدين في صورة مفاهيم ثابتة تقاوم أي تغيرات وتعيش خارج تيار التاريخ. لقد تتبعت المؤرخة الدينية كارين أرمسترونج السمات العامة للأصوليات في كتابها *الجهاد من أجل الإله*، ولاحظت أن لها جميعًا نفس الهيكل العقلي. فمثلاً، تؤمن كل منها بأن أيديولوجياتها لا يأتيها الباطل أبدًا.

تقدم المؤلفات تعريفًا للدين يتجاوز الأصوليات. نحن مهتمات بالمعتقدات الدينية المغلوطة وما يتعلق بها من سلوكيات. إننا نفهم الدين على أنه الكشف عن أن جميع البشر، بل وكل الحياة مظاهر، للخلق الإلهي. من ثم، فجميع ما في الحياة مقدس. وفي أعمق المستويات، يمثل جميع الأنبياء والنصوص المقدسة رسالة عن هذه الوحدة وهديًا لمساعدتنا على اكتشافها في الكون. والحق إن فكرة "ديانات التوحيد" (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) زيف بالنسبة لكل مأثور ديني يميل نحو كيان لا متناه- مطلق.

وهذه العمومية هي الأساس الذي جرى عليه التعبير عن كل ديانة على حدة. إن هذه الحقيقة التي تقع موقع القلب من الأمر تجعل في الإمكان إيجاد أرضية روحانية مشتركة بين الناس على الرغم من نواحي الخصوصية في الثقافات. حين ينغمس الناس في الخصوصيات الاجتماعية، يفشلون في رؤية العموميات التي يشتركون فيها فيما وراء تنوع التعبيرات والرموز. لابد من ملاحظة أن النسق الأبوي علاقة خلقها المجتمع، وليست جزءًا من النظام الطبيعي كما يدعي الأصوليون.ومن المؤكد أن عملية البحث عن إجابات للتساؤلات حول معنى الوجود والغرض منه، واختبار وجود هذه الوحدة الإلهية ظاهرة مستمرة ومتكررة في تاريخ الجنس البشري. يتشارك الرجال والنساء بلا تمييز في هذه الخبرة، ولسوء الحظ، سجل التاريخ بادئ ذي بدء خبرة الذكور، متجاهلاً خبرة الإناث.

يرينا تاريخ البشرية أن الميل إلى البحث عن المعنى الذي يقع موقع القلب من الوجود قد ظهر مرارًا وتكرارًا في مختلف الثقافات، كما توجد أوجه شبه مشتركة بين ما فيها من خبرة روحانية. وبالمثل، تتجلى إشراقات بوذا في الخبرة الدينية لليو تولستوي(٥). كما أن خبرات أنبياء مثل إبراهيم ومحمد (على تنوعها) قد صارت معروفة لغيرهم. إن أنبياءنا العظماء لم يخضعوا بلا قيد ولا شرط للقيم، والأفكار، والمعتقدات الشائعة في عصورهم؛ بل سألوا الأسئلة الأزلية عن الوجود، وأظهروا معرفة داخلية بهذا الشأن، ثم زودوا أتباعهم بالمناهج التي تمكّن كل واحد منهم من اكتشاف دخيلة نفسه والإنصات إليها. أطلق الإسلام على هذا المنهج اسم "الحنيفية، أو الفطرة"، لأن جميع البشر يشتركون فيه. "فالدين" من هذا المنظور طريق، أو عملية، أو سبيل كل من يسلكه من البشر يكون دائمًا في حالة تحول روحاني. ولا يمكن إتمام عملية التحول المستمر تلك إلا عندما تتحرر الذات من التحيــزات القائمة على اختلاف النوع [من ذكر أو أنثى]، أو العنصر، أو اللون، أو الطبقة.

---

(١) انظري/انظر في هذا الصدد كتاب اعتراف وكتابات دينية أخرى.

وحيث إن الدين قد رُبِط بالمؤسسات الدينية المبنية على النسق الأبوي، فإن من يتبع سبيل الفطرة هذا يفضل تسميته بالسبيل الروحاني(١). إن اتسام المرء بالروحانية لا يشبه اتسامه بالتدين، فالروحانية أكثر ارتباطًا بمستوى أعلى من الاهتمام بالتصوف، وبمزيد من الاهتمام بتجربة المعتقدات لا بمجرد الخضوع لسلطة دينية معينة. وقد ربط الناس بين التدين واتباع قراءات مفروضة تضمها كتب مقدسة، والانتظام في المشاركة في الأشكال التقليدية من العبادات. وقد رفض الكثير من الناس هذا الشكل من التدين، لأنه يمنع في معظم الأحيان الوعي الحي بالوجود الإلهي بسبب تركيزه على السلم الهرمي للقيادة وخضوع الاتباع لها.

تكمن في أعماقنا نواة روحانية، أسماها مايستر إيكهارت، الفيلسوف المتصوف الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي "الشرارة الإلهية"، ويسميها بعض المسيحيين "الإله الذي يسكننا" أو "المسيح الذي بداخلنا". ويسمي الهندوس هذا المبدأ الذي يسكننا باسم "آتمان"، أو "بوروشا"، وهو صحوة وجود إلهي حي داخل كل منا. يعلمنا يسوع أن "مملكة السماء توجد داخلنا"، لكنَّ أتباعه المحافظين المتدينين تجاهلوا هذه التعاليم.

يشير هذا التمايز بين الدين والروحانية إلى البون الشاسع الذي ابتعدت به ممارسة الديانة عن التعاليم الأصلية التي تعني بتمكين جميع البشر روحانيًا، الأسود منهم والأبيض، الذكر منهم والأنثى. إن المساواة تقع موقع القلب من الدين

---

(١) كان مصطلحا (ديني) و (روحاني) يستخدمان كمترادفين إلى حد ما قبل القرن العشرين الميلادي. لكن عددًا من المثقفين الحديثين والقوى الثقافية الحديثة أظهرت الفوارق بين مجالي الحياة "الخاص" و"العام". وقد أدت زيادة هيبة العلم، وبصائر علماء التوراة الحديثين، وازدياد الوعي بالنسبية الثقافية إلى تزايد صعوبة استمرار الأمريكي المتعلم في الإبقاء على ولائه للمؤسسات الدينية دون قيد أو شرط. فبدأ الكثيرون في ربط الإيمان الصادق بالمجال "الخاص" للخبرة الشخصية للفرد لا بالمجال "العام" للمؤسسات، والعقائد والطقوس. وتزايد بالتدريج ربط كلمة روحاني بالمجال الخاص لفكر الشخص وخبرته، بينما ارتبطت كلمة ديني بالتدريج بالمجال العام الذي يشمل عضوية الشخص في المؤسسات الدينية، ومشاركته في الطقوس الرسمية. *(Fuller, 2002, p.)*.

الأصلي. لقد كان المقصود أن يكون السبيل الروحاني هو نفسه السبيل الديني. إن من يتمسكون بالمؤسسات الاجتماعية الأبوية يميلون إلى التأكيد على السلوكيات الخارجية، مع تجاهلهم لما يسكن القلب. فهم يعتقدون أن المرء يكفيه التردد على الكنيسة أو المسجد أو المعبد، لأن هذه العادات الاجتماعية تعتبر برهانًا على الالتزام الديني. إن في الفصل بين الدين والروحانية تناقضا. المقصود بجميع الرسالات الإلهية أن تهدي البشرية للجوانب الروحانية في حياة البشر بإشارتها إلى القـوة العظيمة التي تشملهم والتي عـرفت بأسماء مختلفة وفقًا لمختلف الثقافات. لا ينبغي رسم خط صارم يفصل بين "الدين" و "الروحانية". لكن من فصلوا بينهما لديهم تبرير، لأنهم يرون أن الدين صار مرادفًا للمؤسسات الدينية الأبوية، والعقيدة الجامدة التي تستخدمها هذه المؤسسات أداة للضبط. إن مؤلفات هذا الكتاب إذ يؤكدن على الجوانب الروحانية للتدين لا ينكرن تنوع التعبيرات التي تشير إلى كل ديانة على حدة، بل إنهن يحترمن جميع طرق التعبير عن هذه النواة الروحانية الموجودة داخل الإنسانية، وفي قلب الحياة كلها. وهذا يختلف عن ميل الجماعات المنتمية إلى عقيدة دينية معينة بحكم الميلاد أو بالاعتناق إلى الادعاء بأن عقيدتهم تمثل الحقيقة المطلقة، أو أنهم هم وحدهم الذين يمتلكون خطًا مباشرًا يصلهم بالله. وهم يفشلون في رؤية أن الله، والإله، وبراهما، والروح العظيم، والطاو جميعها رموز دالة على نفس الحقيقة.

يدرس هذا الكتاب كيف أثرت الأيديولوجيات الأبوية في فكرة علو الذات على الآخر ودعمتها. إن ادعاء الجماعات المختلفة بأنها الأفضل عن غيرها من الجماعات البشرية ظاهرة متكررة في الديانات النبوية وغير النبوية على حد سواء. يقوم هذا الادعاء أيضا على الاعتقاد بأن إحدى الجماعات تتميز بامتلاك الحقيقة المطلقة، وأفضل نسق للقيم. يفسر هذا الاتجاه الحروب التي لا تنتهي بين الهندوس والمسلمين في الهند، واليهود والعرب في الشرق الأوسط، والمسلمين والمسيحيين في الشرق الأوسط أيضا، والمسلمين والمسيحيين في السودان وإندونيسيا، وغيرها

من بقاع العالم. يتجلى شبه آخر في التحيز على أساس النوع، حيث تعتبر النساء عموما أقل منزلة من الرجال، مع الادعاء بأن انحطاط منزلتهن تعبير عن حقيقة أبدية مطلقة.

لكن إذا قبلنا بأننا جميعًا نشترك في الإنسانية، تكون حقوق الإنسان أكثر مجال يجري فيه الاعتراف بما هو مشترك بيننا. يبدو أن القبول بالاختلافات قد يمضي يدًا بيد مع البحث عما هو مشترك بيننا من جهة، والتعلم من بعضنا البعض من جهة أخرى. لكن الناس أهملوا إلى حد بعيد الاعتراف بهذا المشترك، وها نحن نقف الآن على حافة دمار يحتمل حدوثه نتيجة لهذا الإهمال. جرى حديثًا اجتماع بين لفيف من الروحانيين التقدميين، قال أحد المتحدثين البارزين فيه: "قد نكون الجيل الأول الذي يأخذ القرار بصدد ما إذا كنا سنغدو آخر الأجيال".

حقوق الإنسان وخسائره

فيما يلي أمثلة سجلتها منظمة هيومان رايتس ووتش المعنية بمراقبة حقوق الإنسان، والمفوض السامي لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة، ومنظمة العفو الدولية، والمحكمة الجنائية الدولية، وغير ذلك من الهيئات والمنظمات، وهي أمثلة توضح الحاجة إلى تغيير كبير في النموذج المتبع لحقوق الإنسان. لقد ارتُكِب عدد مهول من المذابح والدمار باسم التعصب الديني، والعنصري، والعرقي، وكثيرًا ما غذت سياسات الحكومات الأبوية وجشعها الاقتصادي نيران هذه الفظائع بالوقود. هذه الأمثلة تدعم وتوضح افتراضنا بوجود خطأ ما، وبانتشار عدم احترام الحياة البشرية على نطاق واسع. ونحن نعتقد أن هذه الأمثلة الإحصائية تدعم فكرة أن اختلال موازين القوى بين الجنسين قد دفعنا إلى حافة خطر تدميرنا لأنفسنا بأنفسنا.

تكشف دراسة هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان عن أن الدمار الناتج عن التعصب العنصري والديني قد طال جميع المناطق. كشفت الإحصائيات التي أجريت طوال أعوام ٢٠٠٤، و ٢٠٠٥، و ٢٠٠٦ عن استمرار انتهاكات حقوق

الإنسان التي أدت إلى تزايد أعداد اللاجئين والنازحين. وقد أدت الفوارق العرقية، والسياسية، والاقتصادية إلى تفاقم القتل والعنف باسم النعرات الدينية. لقد حادت المعتقدات والمعايير الأبوية عن طريقها وأصابها التشوش.

ترينا الدراسة المسحية لكوكبنا أن قائمة العنف البشري تبدو لا نهائية. مع بزوغ القرن الحادي والعشرين الميلادي، كان التعصب الديني والفساد السياسي قد أصابا جميع القارات بدرجات مختلفة. لقد استمرت إبادة الجماعات البشرية في دارفور، التي تصور على وجه الخصوص إحدى حكايات الفظائع البشرية التي تقشعر لها الأبدان. تقرر المحكمة الجنائية الدولية أن حوالي ٣٠٠٠٠٠ شخص قد قتلوا في إقليم دارفور بغرب السودان، كما نزح مليون شخص غيرهم من هذا الإقليم. ومنذ ذلك الحين، لاحظت منظمة هيومان رايتس ووتش المعنية بمراقبة حقوق الإنسان تصاعد العنف في دارفور وعواقبه على تشاد. وقد عجزت قوات الاتحاد الإفريقي عن حماية المدنيين المعرضين باستمرار للخطر على أيدي الميليشيات التي تدعمها الحكومة. أما النساء فيتعرضن للضرب والاغتصاب.

أما في منطقة البلقان، فما زال الناس يعثرون باستمرار على مقابر جماعية، يزعم أنها مليئة بجثث أصحاب الجنس الألباني (للعداوة بين الصرب والألبانيين جذور تاريخية نبتت في المقام الأول بسبب الفوارق الدينية). وقد شهدت أمم كثيرة تفجيرات إرهابية؛ وفي روسيا، والعراق وغيرهما من البلدان اختطف العسكريون مواطنين أبرياء وقتلوهم؛ كما وصلتنا حكايات التعذيب في سجن أبو غريب بالعراق وفي جوانتانامو. وقد استمرت التقارير الإخبارية الواردة من جميع أنحاء العالم إبان السنوات القليلة الماضية في إبراز هذه البشاعات. وفي غضون ذلك، استمر تصاعد التوتر في الشرق الأوسط، ولا تلوح أي بوادر أمل في توقف الاعتداءات الفلسطينية – الإسرائيلية إلا فيما ندر. ووفقًا لما جاء في تقرير منظمة العفو الدولية لعام ٢٠٠٥:

> **تزايد قتل الجيش الإسرائيلي للفلسطينيين، وتدميره للمنازل في الأرض الفلسطينية المحتلة. وقد مات حوالي**

> ٧٠٠ فلسطيني منهم ١٥٠ طفلا ، قتل معظم هؤلاء دون سند قانوني أثناء القصف العشوائي لمخيمات اللاجئين وغيرها من المناطق المكتظة بالسكان في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد قتل حوالي ١٠٩ إسرائيليا معظمهم من المدنيين، وبينهم ثمانية أطفال، في تفجيرات انتحارية، وقصف بالنيران، وهجمات بمدافع المورتار نفذتها جماعات فلسطينية مسلَّحة داخل إسرائيل وفي الأراضي المحتلة. وفي مايو ٢٠٠٤ دمر الجيش الإسرائيلي حوالي ٣٠٠ بيت، وأصاب حوالي ٢٧٠ بيتًا آخر في مخيم للاجئين برفح، مما أدى إلى تشريد ما يقرب من ٤٠٠٠ فلسطيني. وما زال السور/الجدار ومئات من نقاط التفتيش والحواجز التابعة للجيش الإسرائيلي في طول الأراضي المحتلة وعرضها تعرقل دخول الفلسطينيين إلى أرضهم، ومقار أعمالهم أو تمنعهم من دخولها، كما تعرقل وصولهم إلى الخدمات التعليمية والصحية وغيرها من الخدمات الضرورية.

يسهم في هذه الانتهاكات تاريخ مركب، لكن العجز عن دعم الفوارق الدينية والعرقية الفريدة يزيد الطين بلة. إن انسحاب إسرائيل مؤخرًا من الضفة الغربية لم يخفف من حدة العنف. فالمناضلون الفلسطينيون يرمون الأراضي الإسرائيلية بالنيران، وما زال الجنود الإسرائيليون يغتالون قادة المناضلين ويعتقلون من يتبوءون المناصب السياسية الفلسطينية. وقد أدى انتخاب حماس إلى مزيد من تعقد العلاقات. وقد رصدت منظمة العفو الدولية تنفيذ قانونين جديدين في يوليو ٢٠٠٥ زادا من التمييز ضد الفلسطينيين:

> في يوم واحد، هو ٢٧ يوليو ٢٠٠٥، أقر البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) قانونين جديدين هما: قانون

التعويضات المدنية/الجنح المدنية (مسئولية الدولة)، وقانون المواطنة والدخول إلى إسرائيل، وسينتج عنهما تصعيد التمييز ضد الفلسطينيين إلى مستوى جديد. والقانونان في شكلهما الحالي ينتهكان ما تلتزم به إسرائيل بحكم القانون الدولي، بما في ذلك اتفاقيات حقوق الإنسان، وإسرائيل من الدول الأعضاء بها، وهي ملزمة بإقرارها. ووفقًا لقانون التعويضات المدنية/الجنح المدنية (مسئولية الدولة) الجديد، يعتبر الفلسطينيون الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي العسكري، والبالغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة "سكان منطقة صراع". وبحكم هذا الوضع، يحرمون من حق المطالبة بالتعويضات عما يصيبهم من قتل، أو جروح أو إفساد للممتلكات على يد القوات الإسرائيلية.

لا تبدو أي علامات تراجع فيما يسمى بالحرب على الإرهاب، في ظل الأعمال المرعبة التي تحدث على جميع جبهات الحروب. وقد ورد في تقرير منظمة العفو الدولية أن القوات المحاربة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية قد قتلت أعدادا مهولة من المدنيين العراقيين الأبرياء بلا سند قانوني أثناء قصف الفالوجا والنجف وسامراء بالقنابل. كما قتلت الجماعات المسلحة والانتحاريون العديد من المدنيين الأبرياء. وقد قتل ما يربو على ٢٧٠٠ جندي أمريكي منذ بدأت الحرب في مارس ٢٠٠٣. وقد قتل عدد هائل من العراقيين، بينهم الكثير من الأطفال بسبب هذا العدوان الأخرق. ووفقا لما رصده موقع ***Antiwar.com***، أبلغ عن وفاة ما بين ٤٣٧٩٩ و ٤٨٦٣٩ عراقيًا، لكن الموقع لاحظ أيضًا أن مجلة *لانسيت* الطبيَّة البريطانية قد أبلغت عن أن ما يقدر بـــ ١٠٠٠٠٠ مدني قد فقدوا أرواحهم (وقد ارتفع هذا العدد في تقرير نشره علماء الوبائيات في مجلة *لانسيت* في أكتوبر

٢٠٠٦). يعيش موظفو الحكومة، والمهنيون، والصحفيون، والمتعاقدون على العمل في الأمن، وجنود الشرطة والجيش العراقيين في خطر داهم لا تبدو له نهاية منظورة، وقد فقد الكثير من هؤلاء أرواحهم.

وبالمثل، شهدت آسيا التي تتميز بالتعددية دمارًا باسم الدين. فقد قتل بضعة آلاف من المسلمين، وأرغم ١٠٠٠٠٠ مسلم على النزوح من المجتمعات المحلية التي يسودها الهندوس في ولاية جوجارات بغرب الهند في عام ٢٠٠٢. يزعم حزب بهاراتيا جاناتا (الجناح اليميني للحكومة) أنه يؤمن بالعلمانية لكنه اعتلى سدة السلطة بمؤازرته للنعرة الهندوسية. وقد أدى هذا الموقف إلى قتل أفراد الأقلية المسلمة. وفي الصين، وكوريا الشمالية، وفييتنام جرى اعتقال الأقليات الدينية، وقتلها، وأغلقت المساجد والمعابد والمدارس الكهنوتية الكاثوليكية في محاولة للتحكم في حضور الكاثوليك، والمسلمين، والمتمسكين بعقيدة فالون جونج. على الرغم من البنود الدستورية التي تحمي الحرية، فقد حرم البوذيون القابضون على زمام المقدرات الاجتماعية والسياسية في ميانمارا (بورما سابقا) ولاوس الأقليات من حقوقهم الأساسية في العبادة.

وفي غضون العقد الماضي تزايدت أعمال العنف بمعدلات ثابتة في الولايات المتحـــدة الأمـــريكية؛ مثل إطـــلاق النـــار في المدارس، وخطف الأطفال أو قتلهم (أو الجريمتان معًا) ونشوب القتال بين العصابات. وقد اتهمت الشرطة بارتكاب آلاف الأعمال الوحشية. وقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية منذ أحداث ١١ سبتمبر صعود شكل جديد من التمييز، وبالتحديد ضد العرب، سواء منهم المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو من مواطنيها.

وما زالت العبودية قضية مطروحة من قضايا حقوق الإنسان. تظهر العبودية المعاصرة في كثير من الأشكال. ورد في تقرير المفوض السامي لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة أن الممارسات الشبيهة بالعبودية تشمل بيع الأطفال، واستغلالهم في البغاء، وفي الأعمال الشاقة، وفي الصراعات المسلحة وغير ذلك

من أعمال يقع الأطفال ضحايا لها. تقدر منظمة العمل الدولية الأطفال الذين يستغلون في الأعمال الشاقة بما يزيد على ١٠٠ مليون طفل، يعملون في ظروف سيئة بأجور زهيدة، ونادرًا ما يجدون في أعمالهم الحب، أو البهجة أو وقتا للعب، وجميعها من احتياجات الطفل لينمو نموا صحيحًا.

وقد كان النوع (من رجل أو امرأة) ومازال من المجالات التي يظهر فيها القهر عبر عدد من الثقافات والديانات. أدت كراهية النساء إلى حدوث عنف مستمر ومتسع النطاق ضدهن، وقتلهن، والتحكم فيهن. وقد وجدت تفسيرات للأديان منافية للمنطق والعقل، أتاحت للرجال الادعاء بالسيادة على النساء. وعلى الرغم مما أتى به نشطاء حقوق النساء من تحسينات معتبرة في معاملة النساء ومساواتهن بالرجال، فإن تقارير منظمة العفو الدولية تقول إن العنف ضد النساء يتصاعد في جميع أنحاء العالم. تشمل قائمة هذا العنف اغتصاب النساء، وإيذائهن في السجون، وحرقهن بالأحماض، وقتلهن بسبب الدوطة، وتشويه أعضائهن الجنسية، وقتلهن لحماية "شرف" العائلة. وفي بعض الحالات قد يغتصب أحد رجال العائلة إحدى شاباتها، ثم تقتل العائلة الشابة لأنها لوثت شرف العائلة. إن العنف المنزلي متفش في جميع أنحاء العالم. تقدر منظمة العفو الدولية أن في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تضرب امرأة كل ١٥ ثانية، وتغتصب واحدة كل ست دقائق، وأنه خلال العام القادم سوف تباع أكثر من ١٥٠٠٠ امرأة في الصين ليعملن بالعبودية الجنسية، وستحرق ٢٠٠ امرأة بالأحماض في بنجلاديش لرفضهن للعرسان أو الأزواج، وستقع أكثر من ٧٠٠٠ امرأة ضحايا القتل بسبب الدوطة في الهند. وقد قتل ما يزيد على ٢٢٥ امرأة في جواتيمالا في الشهور الخمسة الأولى من عام ٢٠٠٥. ويصل عدد ضحايا القتل إلى أكثر من امرأة واحدة يوميًا، لا لشيء إلا لأنها امرأة.

كما أن النساء كثيرًا ما تنقصهن القوة السياسية لتنفيذ التغييرات الفعالة وذات المعنى، فمثلا، تبلغ نسبة ممثلات الشعب في المجالس التشريعية في الولايات

المتحدة الامريكية ١٣.٨% فقط، ولا تشغل النساء المراكز القيادية في أغنى ١٠٠٠ شركة إلا بنسبة ١،١%، كما اتسعت الفجوة بين أجور النساء والرجال في العقد الأخير. واتفاقية إنهاء جميع أشكال التمييز ضد النساء (السيداو) هي الاتفاقية الدولية الوحيدة الشاملة التي تنفرد بتناول حقوق النساء. وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة قد أخذت باتفاقية السيداو في عام ١٩٧٩، فإن رفض بلدان كالولايات المتحدة الأمريكية للتصديق عليها يساعد على استمرار انتهاك الحقوق الإنسانية للنساء.

إن الرعب من تأثير الأقوى على الجماهير أمر صادم. فوفقًا لقول ج. روميل(٧)، تعرض حوالي ١٧٠٠٠٠٠٠٠ رجل وامرأة وطفل للرمي بالرصاص، أو الضرب، أو التعـذيب، أو الإصابة بالسلاح الأبيض، أو الحرق، أو التجويع، او التجمـد بالجلـيد، أو الدهس، أو العمل حتى الموت، أو الدفن وهن/هم أحياء، او الإغراق في الماء، أو الشنق، أو القصف بالقنابل، أو القتل بأي طريقة أخرى من الطرق الكثيرة التي تنفذ بها الحكومات قتل المواطنين أو الأجانب العزل الذين لا حول لهم ولا قوة. بل قد تصل أعداد القتلى إلى حوالي ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ شخص. لقد دمر طاعون أسود حديث جنسنا البشري، وهو طاعون سببه القوة لا الجراثيم.

يمثل ما وصفناه سابقًا مثالاً ضئيلاً مما سجلته الوثائق من فظائع بشرية عبر آلاف السنين. لقد برهن التاريخ على حدوث أنماط متكررة من التدمير جرت بدم بارد علـى أساس الفوارق الدينية، والقبلية، والعنصرية، والنوعية (من رجال أو نساء) أو الاقتصادية. لكن هل ننصت للتاريخ ونطبق دروسه؟ ما مبررات المذابح المستمرة لأمم بأكملها؟ كثيرًا ما يكون المبرر الأمين الوحيد الذي نجده أن هذه الأمم أو الجماعات الدينية، أو النوعية (رجال أو نساء)، أو العرقية أو العنصرية مختلفة عنا. وعلى هذا الأساس تحاول الثقافة السائدة عمومًا إما أن تبيد من تعتبر

(١) انظري/انظر:
http://www.hawaii.edu/powerkills/DBG.CHAP1.htm

أنهم يشكلون لها تهديدًا أو أن تهبط بهم إلى مواقع أو بيئات تضعهم فيها تحت التحكم (مثل العبودية، أو التحفظ، أو الاستعمار، أو السجون أو الاحتلال).

بناء عالم أفضل

يوثق كتابنا ويدرس مجموعة متنوعة من سلوكيات التعصب ضد الآخر، التي تنشأ بفعل الرغبة في الوصول إلى العظمة المرتبطة بالمبادئ الأبوية. وفي دراستنا لتاريخنا الشفاهي والمكتوب يتضح لنا فشلنا في أن نجعل عالمنا مكانًا أفضل، على الرغم مما نعتنقه من مثل دينية وسياسية. هل كان داروين على حق؟ هل بقاء الأفضل (الأفضل والأكثر سيادة) هو الذي يضمن النجاح لقطاع صغير من البشرية؟ لقد كان المصير الواضح قوة حافزة لنمو الولايات المتحدة الأمريكية وهي تمتد غربًا، وهاهي الآن تقترح نظامًا عالميًا جديدا. والاستعمار الذي دعمته آراء دينية متمحورة حول عِرق بعينه قد أنزل الكثير من الدمار بالعالم، ولدينا البرهان على ذلك في الكثير من ساحات النضال في العالم. إن الدافع نحو العظمة قد خلق شعورا هائلا باليأس. تؤيد الأبحاث إمساك النساء بزمام القيادة، من حيث إن الأنثى قد جُبلت على صفات وخصائص معينة تجعلها أقل عرضة للفساد وأكثر اهتمامًا بمبدأ المساواة بين الناس والاهتمام بحسن أحوال العائلة البشرية بأسرها. إن الحكم الديني والسياسي الرشيد يقف على حافة تحول هائل، وستكون النساء ممسكات بعجلة قيادة التغيير

لقد غير عصر ما بعد الحداثة مسار التاريخ، بما شهده من سهولة السفر والتقدم التكنولوجي. لم نعد نعيش كجماعات عنصرية أو دينية أو عِرقية منعزلة عن غيرها من الجماعات. وتتزايد الحركات التي تعترف بأننا يمكن أن نحتفي بالتنوع لا أن ندمره. يمكننا أن نتعلم الاستمتاع بما بيننا من فوارق، بل وأن نحتفي بها. لقد حان الوقت لنجرب طرقًا محسنة لتفسير التعاليم الروحية واستخدامها، مع

دمج تأثيرات العلم والدين فيها. يمكننا أن نحل معضلتنا البشرية ونحن نعترف بوحدتنا، ونكتشف الموضوعات المشتركة بيننا ونتعلم العيش في تآلف مع بعضنا البعض.

لقد مر ما يزيد على مائة عام منذ أن دعا قيصر روسيا وملكة هولندا لعقد مجلس السلام الدولي الأول؛ وما زلنا في حاجة ماسة إلى الدعوة إلى البقاء معًا في علاقة حسن جوار. والكثير من الصراعات الموجودة في العالم والتي يزيد عددها على الثلاثين تضرب بجذورها في الفهم المنقوص للأبعاد السياسية، والقانونية، والأخلاقية، والمعنوية، والاقتصادية للحفاظ على التآلف الاجتماعي. ونحن نحتاج الآن أكثر مما ذي قبل إلى زرع السلام داخل أنفسنا، ومؤسساتنا، ومجتمعنا الكوكبي. إن التحليل النقدي للقضايا المحورية التي تفصلنا عن بعضنا البعض يناهض التعصب الذي يضرب بجذوره في الجهل ويؤدي إلى القهر. إن فضح التعصب الثقافي أداة لا تقدر بثمن يمكن أن تسهم في الإصلاح الاجتماعي.

ونحن نطلب من قراء وقارئات كتابنا هذا أن يتصوروا بشرية تحترم الحياة بأسرها. هذا ليس كتابا عن جماعة دينية، أو عنصرية، أو عرقية أو نوعية (من رجال أو نساء) بعينها ، بل كتاب عن حالة القلب الإنساني. ونحن إذ نمحص نتائج معتقداتنا وسلوكياتنا يمكننا أن نتعلم من الماضي ونخلق مستقبلاً جيدا يمكن أن يضمن عالمًا أفضل لأجيالنا القادمة.

الفصل الأول

قصص الخير والشر

نظمت البشرية نفسها منذ بدء تاريخها المسجل من خلال الاستعارات التي عبرت عنها فى قصصها المجازية. هذه الأمثولات أو الأساطير تمكن البشر من تحقيق التوازن مع قوى الطبيعة والتآلف معها، ومع بعضهم البعض. إنها تساعدنا على التعبير عن الصراعات الموجودة في الكون. وقد استخدمت تلك القصص أيضا لترويج الأيديولوجيات الجديدة، كالمساعدة على تصعيد المُثل الأبوية مثلا.

ننوي أن ندرس في هذا الفصل التحول الذي حدث في الأساطير مع بدء ظهور الديانات الابوية، وذلك لنحسن من فهمنا لتاريخنا الماضي، ومن ثم نتمكن من صنع المستقبل على نحو أفضل. وقد كان للترجمات الحرفية للنصوص المقدسة التي تتجاهل سياقها التاريخي عواقب وخيمة. فمثلاً، استخدم ذوو العقليات المتحجرة المتأثرون بالترجمات العقائدية الجامدة للنصوص المقدسة هذه الصور المجازية للتأكيد على عظمتهم وتعصبهم. لذا، من الأهمية بمكان أن نمحص السياق التاريخي لأساطيرنا المشتركة وما خلفها من رسائل لكي نحقق التآلف بين ثقافاتنا، بدلا من الصراع المستمر بينها. ومن شأننا أن نستفيد فائدة جمّة إذا محصنا بالدراسة دروس الماضي، وخلقنا مستقبلاً واعدا أكثر مما قد سلف، مستقبلاً مبنيا على أساس العلاقات المتساوية مع الجميع. لا يمكننا الاستمرار في تهديد بعضنا البعض وتهديد بيئتنا بالقوة العسكرية والأسلحة النووية دون أن نحصد النتائج المدمرة لهذا الغياب الشرير للاهتمام *بالآخر*. وعلى الرغم من استحالة عودتنا إلى

أنماط الحياة الماضية المصطبغة بالمثالية والأقل تعقيدًا، فإنه ما زال بوسعنا أن نتعلم ممن سبقونا كيف نخلق مستقبلاً أكثر صحة. لقد نقلت لنا التقاليد الشفاهية قصصهم، وسجل كتاب الطبيعة تاريخهم ليقرأه علماء الأنثروبولوجيا والحفريات في عصرنا الحديث. من نتائج هذا أننا نعلم الآن أن مجتمعات الصيادين وملتقطي الثمار الرحل المبكرة كانت أساسًا مجتمعات مساواة.

والحق إن اختلال ميزان المساواة الاجتماعية تطور قريب العهد بالحدوث في مسار نشوء البشرية وارتقائها، بدأ مع صعود نجم السيطرة الأبوية. وقد أشار بعض علماء الأنثروبولوجيا إلى أن ظهور تطورات فائض القيمة في الزراعة والتخزين قد سمح بظهور انعدام المساواة الاجتماعية *(Gardner, 1991)*. ويقول آخرون إن عدم المساواة في المجتمع قد بدأ مع غزوات الهندو-أوروبيين، المعروفين أيضا باسم الآريين. وبغض النظرْ عن العوامل المسببة لعدم المساواة، فقد مثلت هذه التغيرات الزراعية والمجتمعية نقلة من الوعي القائم على أساس أفقي إلى وعي قائم على أساس رأسي.

كانت البشرية المبكرة ترى الحياة من منظور أفقي، وكان هذا يعني لمجتمعات الرحل أن الحياة نفسها مقدسة. وقد تطلب الانتقال إلى المنظور الرأسي أن يتطلع المرء إلى الأعلى، نحو مثال، أو بطل، أو رمز يقع في قمة سلم ترتيب هرمي للمكانة، أو إله. وكان من عواقب هذا أننا فقدنا تأسسنا في المكان والزمان الراهنين، في الــ هنا والآن. يشير موريس بيرمان في كتابه "*الإله الرحال: دراسة في روحانيات الرحل* ***Wandering God: A Study in Nomadic Spirituality*** إلى أن هذا المثال الجديد للنظر إلى أعلى قد مثل نقطة بدء ما أسماه *مُركَّب السلطة المقدسة* ***the sacred authority complex*** *(Berman, 2000)*. لا يمكن أن يوجد المقدس إلا خارج الحياة وفيما يعلوها في سلم المكانة، وهكذا أعلن الانفصال بين السماء والأرض.

إن النسق الأبوي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، يمثل فيه الذكر السلطة العليا. يؤكد هذا النسق أن الأطفال ينتمون إلى سلالة الذكر لا سلالة الأنثى، ويستخدم شكلاً هرميا لترتيب المكانة. تنحو الترتيبات الهرمية في النسق الأبوي نحو الهياكل القائمة على أساس التعاظم على الآخرين. يسود الذكر على الأنثى، ويدعى عنصر أو امة العلو على الآخرين.

لا يمكننا التغاضي عن الشواهد الهائلة التي قدمتها البشرية على التطور المعماري، والعلمي، والفلسفي أثناء عنفوان النموذج الأبوي في سيره قدما، بما في ذلك إظهار المأثورات الدينية العالمية وتنظيمها. لقد حض الدين على التعاطف وغيره من الخصال النبيلة التي تقرب الإنسان من الإله، لكن أسسه الأبوية جلبت في نفس الوقت الكثير من الدمار. باختصار، ازدهرت الإنسانية كما عانت الكثير تحت حكم النسق الأبوي. وقد وضح المؤلف والفيلسوف كين ويلبر أننا لا يمكننا نبذ التراتب الهرمي وحده باعتباره طريقة متدنية لتنظيم الحياة، من حيث أن التراتب الهرمي عملية طبيعية من عمليات النشوء والارتقاء، تحتوي على أنماط مهمة للتطور.

يلمح ويلبر إلى أننا يستحسن ألا نركز على إدانة هذا النموذج التنظيمي، بل يجب أن نوجه طاقاتنا بتقرير الاتجاهات المرضية أو السائدة داخله وانتزاعها منه (Wilber, 1996). من الحقائق أن بعض الناس قد حازوا قدرا من المهارة المهنية والمعرفة أكثر من غيرهم. يوجد معلمون، ويوجد طلبة يسعون للتعلم منهم، ولا يمتلك جميع الناس قدرات آينشتاين. ويوجد بالمثل من وهبوا قدرًا أكبر من التعاطف، مثل المرحومة الأم تريزا ابنة كلكتا[1]. فعلو مراتب البعض عن غيرهم في الموهبة، والمعرفة، والشخصية أمر موجود.

---

(١) للأسف، لم تعارض الام تريزا الهيكل الابوي للكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من وعيها بتأثيره على الناس.

تظهر دلائل الاستخدام الإيجابي لمبادئ التراتب الهرمي في التنظيمات القبلية لسكان أمريكا الأصليين، من حيث إن غالبية القبائل كانت تختار زعيمها بسبب ما يبدو عليه من دلائل الحكمة . وقد دعت عالمات وعلماء النفس النسويات والنسويون أيضا إلى هيكل قوة مختلف تماما عن الهيكل الأبوي، هيكل يقوي فيه أحدنا الآخر أو الأخرى على النمو والتطور. ويشير المفكرون التقدميون الفاهمون لهذا المبدأ إلى أن تنظيما جديدا للبشرية يقوم على توازن القوى بين النوعين (الرجال والنساء) من شأنه أن يعطي دفعة لعالم المساواة، وبذا يقضي على التعاظم والمراتب المصطنعة التي غذت ثقافة التراتب الهرمي ذات الطرق القائمة على التعصب وحافظت على استمرار بقائها.

إن التعصب، واختلال موازين القوى بين النوعين (الرجال والنساء) والأصولية الصاعدة صور تمثيلية محورية لأنواع الطاعون الشريرة التي تهدد بقاءنا على قيد الحياة. إن صعود النسق الأبوي وسيادته عبر الستة آلاف سنة الأخيرة قد شجع على تفشي هذه الأنواع من الطاعون البشري. حين نفحص اتجاه *التعصب* يتضح لنا أن المشاعر والآراء الكارهة الموجهة ضد جماعات عنصرية أو دينية أو قومية منتشرة على نطاق واسع حقا. والنعرات أيضا لها علاقة وثيقة بجبلة التعصب. يمكن وصف هذه القوة الدافعة بأنها "إحساس عالٍ أو زائد عن الحد بكرامة المرء، أو أهميته، أو استحقاقه، أو عظمته *(Webster, 1989, p. 142)*. تبدو النعرة التي يتميز بها شخص ما عند أحد مستوياتها في حطِّه من قدر الآخرين، أو تصويرهم في هيئة أدنى منه، محاولة منه لرفع نفسه عنهم درجات. والتعصب هو رد الفعل لهذه النعرة. وهذان المفهومان يتعلقان بالنسق الأبوي بسبب إصراره على التنظيم ذي التراتب الهرمي. لابد أن يعلو أحد ما ويتدنى عنه الآخر. من ثم، يقترن التعصب والنعرة ببعضهما البعض اقترانا وثيقا. ومن الحقائق أن هذه القوى شديدة البأس قد تآمرت ضد ما يكمن في البشر من نبل منذ بدء التاريخ المسجل.

يمكن وصف ظاهرة *الأصولية* الأحدث ظهورًا بأنها عدم القدرة على فهم الحياة واحترامها فيما يتجاوز نظرة المرء المحدودة للعالم. ظهر هذا الاتجاه وتلك الطريقة لإدراك الدين أول ما ظهرا في العالم الغربي فى الحركة البروتستانتية الأمريكية التي بدأت في بواكير القرن العشرين، والتي يعتبر صعودها المستمر رد فعل للحداثة. نعلم من اطلاعنا على معجم وبستر أن الأصولية بدأت لدى المسيحيين، خاصة وأنها أكدت على أن "عصمة التوراة لا تقتصر على شئون الإيمان والأخلاق، بل تمتد إلى كونها سجلاً تاريخيًا حرفيا" ***(Webster, 2000, p. 531)***. لكن نفس هذه الظاهرة تبدت لدى المسلمين وتفسيرهم للنص القرآني المقدس. وقد ظلت الأصولية في صعود بخطوات ثابتة في جميع المأثورات الدينية في العالم بأسره. ومع دنو النسق الأبوي من نهايته شدد من قبضته على الأمور، والأصولية مظهر من مظاهر رد فعله الخائف من الحداثة.

من السمات العامة لجميع أنواع الأصولية اعتقادها بأن نسق عقيدتها لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فالأصوليات تعجز عن الانتحاء جانبًا والبحث داخل نفسها عن أشكال فهم فيها المزيد من المجاز وأعمق غورًا. والحق إننا قد نجد عقليات أصولية لا في الدين وحده، بل في العلم أيضًا، وفي السياسة، وغيرهما من العوالم. تحافظ الأصولية على نسق من التعالي على *الآخر* والتعصب ضده، وتدعم أفعالاً منافية للعدالة: عنصرية، وقومية، وطبقية ونوعية (بين الرجال والنساء).

واختلال موازين القوى بين الجنسين أقوى مثال على سمات القهر *المتمثلة* في النسق الأبوي، لأنها تتطلب خضوع الأنثى للذكر وتدّنيها عنه. لقد أمسك الرجال بزمام الاحتكار والسلطة في الشئون الإدارية والدينية منذ بدء ظهور النسق الأبوي. وفي العصر الحديث، رسم نظام طالبان صورة واضحة لاختلال موازين القوى بين الجنسين، يراها العالم بأسره بعيون وسائل الإعلام الحديثة. لم يك ظاهرًا للعيان إلا الذكور، حيث كانت النساء الأفغانيات مزدريات ومخفيات عن

الأنظار. خلق نظام طالبان تفسيراته الخاصة للتعاليم الإسلامية، وساد العنف والتدمير تصرفاته نتيجة لاختلال موازين القوى بين الجنسين بشكل متطرف. أظهر رجال طالبان إهمالهم واحتقارهم لأي شيء خارج أيديولوجيتهم الجامدة (لا يقتصر ذلك على تعاملهم العنيف مع النساء، بل يتعداه مثلاً إلى تحطيم الأعمال الفنية، بما في ذلك التماثيل البوذية الثرية الثمينة، وتحريم الموسيقى بجميع أشكالها).

لكن رجال طالبان لم يكونوا وحدهم من أخذوا بهذه الاتجاهات المخلّة بموازين القوى بين الجنسين. فقد تبعت مثلاً الملل الكاثوليكية والبروتستانتية المسيحية وصايا القديس بولس التي يقول فيها "لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن ان يتكلمن بل هن موصيات بأن(*)(٢) يخضعن كما يقول الناموس أيضا [اليهودية]؛ لكن إن كن يردن ان يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في الكنيسة" (١ كورنثوس، ١٤: ٣٤-٣٥). ونلاحظ أن هذه كانت شريعة يهودية تتوقع من الإناث أن يتمسكن بسيادة الرجال عليهن، وهكذا امتد هذا الخبل إلى نسيج اليهودية والمسيحية والإسلام على حد سواء.

ومنذ بدء ظهور السيادة الأبوية، ادعت جميع الديانات - من الشرق إلى الغرب- بسيادة الذكور على الإناث. وهذا الموقف لابد أن يتغير الآن.

(*) منطوق ... في الطبعة العربية للعهد الجديد الصادرة عن دار الكتاب المقدس "... بل يخضعن كما يقول الناموس ..." والكلمات الزائدة عن ذلك منقولة في النص الإنجليزي عن نسخة الملك جيمس كما توضح الحاشية رقم ١. كما أن الطبعة العربية لا تحتوي على شرح كلمة الناموس بأنها [اليهودية]، فهذا الشرح ورد في النص الإنجليزي (المترجمة).

(٢) الحروف المائلة موجودة بنسخة الملك جيمس، حيث لم تستخدم للتشديد، بل للإشارة إلى الكلمات التي لم تكن موجودة بالنص الإغريقي الأصلي لكنها أضيفت في النص الإنجليزي لنقل معناه

انفصال السماء عن الأرض

يمثل توازن القوى بين النوعين (النساء والرجال) عنصرًا مهمًا لاستعادة الإنسانية من على حافة هاوية الدمار. النساء مهيئات لقبول مبادئ المساواة بحكم ما جبلن عليه من خواص الأمومة واستمداد وجودهن من علاقتهن بغيرهن(٣). وتوجد شواهد مهمة توضح أن المجتمعات السابقه على الأبوية والمتمتعة بتوازن القوى بين الرجال والنساء قد عاشت في وئام أكثر من المجتمعات الخاضعة للحكم الابوي. ظهر النظام الأبوي منذ حوالي ستة آلاف سنة. وقد كشفت الاستكشافات الأنثروبولوجية عن أن ثقافة العهد الاول من العصر الحجري (حوالي ٢٠٠٠٠ + إلى ٨٠٠٠٠ ما قبل ميلاد المسيح. وثقافة العصر الحجري الحديث (حوالي ٨٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ما قبل ميلاد المسيح) كانتا في الأساس ثقافتي مساواة بين الناس *(Eisler, 1987)*. وتوحي الجبانات التي ترجع إلى هذه الفترة أيضا بوجود قيم ثقافية تأخذ بالمساواة بين الناس. فقد كشف التنقيب عن الجبانات مثلاً أن المتوفى لم تكن تدفن معه زوجاته، وأطفاله، وحيواناته وعبيده. (وقد وجدت هذه الظاهرة التي تشير إلى وجود قيم مرتبطة بالسيادة *[Eisler, 1987]* في جبانات العصور التالية التي سادتها الثقافات الأبوية).

لقد احترمت هذه الثقافات التي وجدت في عصور ما قبل التاريخ *الأم العظمى*. وقد وجد الأنثروبولوجيون والأثريون أثناء تنقيبهم عن المعابد والجبانات القديمة الكثير من الأيقونات التي تصور صورًا تمثيلية أنثوية للإله. لكن لم توجد

(٣) نتحدث هنا عن طبيعة النساء، مع تفهمنا أن النساء كثيرًا ما يكن عنيفات بسبب التأثيرات الأبوية التي انطبعت في أنفسهن. وبغض النظر عن هذا، توجد فروق هرمونية بين الذكور والإناث في صميم ما جبل عليه كل جنس من تكوين.

أي مؤشرات على خضوع الذكور للإناث او تدني منزلتهم عنهن. لم تدل المساكن والجبانات على وجود فوارق شاسعة بين المواطنين في الثروة والمكانة. وقد أكدت هذه الكشوف أيضا أن المعتقدات السابقة كانت مختلفة شديد الاختلاف عن ما لحقها في القصة اليهودية-المسيحية عن آدم وحواء والضلع، والهبوط من الجنة إلى الأرض (الذي تلام عليه حواء وتلعن بناتها من جنس الإناث) ***(Parrinder, 1971; Eliade, 1978)***. وتقدم هذه الكشوف شواهد على وجود نموذج شديد الاختلاف، إذ توحي دراسة الرسوم الموجودة على الأيقونات بأن النساء حظين بالاحترام بسبب قدرتهن على ولادة أطفال أحياء ***(Stone, 1976)*** وأن المجتمعات القديمة كانت تعيش أيضًا فيما يبدو في سلام أكثر مما تلاها من مجتمعات.

بدأ التحول إلى السيادة الأبوية في الظهور والتكشف عند حوالي عام ٤٠٠٠ فيما قبل ميلاد المسيح. وحيث إن النسق الأبوي قد قام على أساس حازم من الانحدار عن سلالة الذكور، فقد حدث تغير واضح في التنظيم الاجتماعي والمعتقدات الدينية مع ظهوره. لقد تطلبت الأيديولوجية الأبوية -بحكم طبيعتها- تصويرا تمثيليا ذكوريا للإله وتعريفا ذكوريا له، وشكلت قصص خلق جديدة من القصص القديمة. يلاحظ جاك مايلز مؤلف كتاب *سيرة الإله* ***God: A Biography***، الذي نال عنه جائزة بوليتزر، كيف أن "الأسطورة، والخرافة والتاريخ تمتزج في التوراة ببعضها البعض على نحو لا نهائي"، وأن "مؤرخي التوراة لا يكفون عن فرزها" ***(Miles, 1995, p. 13)***. لكن شيئا واحدا يظل ثابتا، ألا وهو أن التوراة قد فسرت من منظور أبوي وحيد الجانب.

يقول لنا المؤرخ الديني جيفري باريندر إنه إبان عصر الانتقال إلى النسق الأبوي " كانت الكثير من علوم نشأة الكون تتحدث عن فصل السماء عن الأرض بالقوة، وهما اللتان [كانتا] تعتبران متحدتين في اقتران جنسي ***(parrinder, 19771, p. 155)***. تجلت في هذه الأساطير المتغيرة بداية الفصل بين العقل والجسد، والذكر والأنثى، وضياع جميع بقايا الفردوس (الاتحاد). يعتقد باريندر وغيره من العلماء

أن صعود النسق الأبوي قد ارتبط أيضا ببزوغ فجر التبرير العقلاني، حيث إن أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة قد انعطفوا نحو الباطن (بعيدًا عن الحياة الجسدية والحسية) وإلى أعلى (وهي حركة نحو إضفاء المثالية على الفكر والعالم الذهنى). ومع تطوير هؤلاء الفلاسفة المبكرين لنظرياتهم حول المعاني والصور التمثيلية الباطنة للحياة، غدت الصور التمثيلية للحياة أهم من الحياة نفسها. فمثلاً، اعتبرت المسيحية التي أتت في عصور تالية لهؤلاء الفلاسفة أن الحياة الآخرة أهم من الحياة الدنيا هنا والآن. (ونحن نرى في زماننا أن هذا ربح حققته مؤسسة، يسفر عن وجه لا يحترم الحياة بأسرها). فتحت هذه التطورات الجديدة أبوابًا للفهم والتبصر، لكنها أيضا فصلتنا عن أجسادنا وعن الأرض. وهذا الفصل لم يحسِّن آدميتنا، يشهد على ذلك العنف المنزلي، وتدمير الثقافات الأخرى، واحتقار الأرض. وظهرت معتقدات دينية جديدة مع ما قام به العبرانيون من إعادة خلق للأساطير الكنعانية القديمة *(Miles, 1995)*، والسومرية القديمة *(Kramer, 1963)*. ويشرح جاك مايلز هذا فيقول إن "الإله الذي عبده الإسرائيليون القدامى قد نشأ كالتحام بين عدد من الآلهة الذين التقت بهم أمة من البدو الرحل أثناء تنقلاتها" *(Miles, 1995, p. 20)*.

لقد تجسدت خواص وشخصيات معبودين ذكور ومعبودات إناث (إيل، وبعل، أو تيامات وعشتاروت) في ربٍّ واحد، هو الإله.

لكن ثمن تزايد الوحي الممنوح للناس كان غاليًا. فمن جهة، كان مرور إبراهيم بتجربة الالتقاء المباشر بالإله تطورًا عظيمًا في الوعي الإنساني. لقد تجاوزت تجربته الصور الرمزية النموذجية(٤) التي كونت المعتقدات الوثنية. لقد

---

(٤) درس عالم النفس كارل جوستاف يونج (١٨٧٥-١٩٦١) علم الأديان المقارن، والأساطير، والأحلام، ووجد موضوعات مماثلة تظهر في الثلاثة. أدرك يونج وجود لاوعي جمعي تشترك فيه البشرية في الكون بأسره، وقال إن هذا اللا وعي الجمعي مفعم بقوى غريزية فطرية، ورموز، وتحل فيه أشكال من الأساطير. وأطلق يونج على هذه القوى الدافعة اللا واعية اسم

تمكن من أن يرى أن وراء جميع هذه النماذج من الصور التمثيلية وجودًا إلهيًا واحدًا. باختصار، حملته تجربة التنوير التي مر بها إلى الاتحاد الروحاني بالإله. لقد حاور إبراهيم الإله، واتحد بالذات الإلهية على المستوى الشخصي(٥). لقد فقد هذا الوحي نقاءه من حيث إنه اعتبر أن السبل الأخرى أدنى منه قدرا، وسرعان ما غدا حركة دينية تقوم على سيادة الذكور وهيكل التراتب الهرمي.

فمثلاً، تشير قصص التوراة إلى نساء بابل وغيرهن من الربات الإناث اللاتي تحلهن الثقافات الوثنية على أنهن "عاهرات"، وتهلل فرحًا بدمارهن. لكن هذه القصص وما تعلق بها من أحداث مثلت في الواقع عملية تحكم اجتماعي، مؤكدة أن الآخرين لابد أن يسايروا هذه الديانة الأبوية الجديدة. وسرعان ما بدت شواهد مشكلة الآخر، من حيث إن أي شخص يخرج عن الفهم العبري الجديد للإله يحكم عليه أتوماتيكيا بأنه خاطئ.

وأرست التفسيرات الأبوية قواعد دينية للسلوك الجنسي فيها إيماءات إيجابية وأخرى سلبية. مثَّل التأكيد على الإخلاص في الحياة الزوجية والعائلة خطوة إيجابية في علاقة البشر ببعضهم البعض، لكن وقوع الأنثى في قبضة تحكم السلطة الذكورية أشار إلى حدوث تغير تعس في العلاقات بين الجنسين. أرست التفسيرات الدينية الأبوية سياسات تحكمت على وجه الخصوص في الحياة الجنسية للأنثى وتملكها للمقتنيات. ومن يعصى هذه القواعد كان يحكم عليه بالموت (خاصة

الأنماط الفطرية ***archetypes***، وهي تركيبات نفسية تحتوي على نماذج سلوكية نفسية-بيولوجية ذات علاقة ببعضها البعض، تتكون من خواص معينة وتعبيرات معينة عن الوجود.

(٥) يعتقد أن إدراك إبراهيم للإله كان بداية ظهور ديانات التوحيد، على الرغم من أن بوسعنا القول بأن العبارة التي تقع موقع القلب من تعاليم الفيدا [الهندوسية القديمة] تقول "أنا هو ذاك"، وهي تشير بالتأكيد إلى تجربة اتحاد بالذات الإلهية.

العاصيات من النساء)، بل وما زال هذا يحدث في كثير من الأحيان. كانت النساء -وما زلن- يقعن ضحايا لهذه القواعد لمجرد أنهن نساء. ادعت القصص التي اختيرت للتوراة أن فقدان الفردوس كان نتيجة لأكل حواء للثمرة المحرمة، وظلت النساء يدفعن ثمن هذه الخرافة المغلوطة منذ أن وجدت. وكما سنرى في المثال التالي، أُدخلت في التوراة تعبيرات على الخرافات السابقة عليها بطريقة تجعلها تحطّ من شأن النساء.

يعتقد أن التاريخ قد بدأ مع الثقافة السومرية منذ ما يزيد على ٦٠٠٠ عام خلت. نقش السومريون أساطيرهم على شقف الفخار، مستخدمين البوص بمثابة الأقلام. تشمل أمثلة الأساطير السومرية المعروفة ملحمة جلجامش البطولية، وقصص الربة إينانا، ملكة السماء، المعروفة باسم نجمة المساء والصباح، وقرينها تموز.

ويبدو أن القصص السومرية قد أدمجت في القصص العبرية المجازية ذات المغزى الأخلاقي. فمثلاً، اكتشف عالم الحضارة السومرية صموئيل نوح كرامر نسخة سومرية مبكرة من "أسطورة الفردوس". كانت أرض ديلمون الأسطورية المعروفة بأرض الأحياء توصف بأنها أرض نقية، ونظيفة، يسطع فيها الضياء. وحين لاحظ إله الماء السومري إنكي أن أرض ديلمون قد أصابها الجفاف، طلب من رب الشمس أوتو أن يوصل لها الماء من كوكب الأرض. وبذا حول هذان الربان ديلمون إلى جنة مثقلة بالفواكه والمروج الخضراء. نجد هذه الصور وقد استدعيت في الإصحاح التالي من سفر التكوين "ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض" (سفر التكوين ٢:٦). وشرح كرامر أيضا أن موقع الفردوس السومري المسمى ديلمون كان يعتبر في [illegible] سومر. [illegible] لاحظ أنه يشبه فردوس التوراة الذي "يوصف بأنه جنة [illegible] سرور [illegible]، تنبع من مياهها أنهار العالم الأربعة التي تشمل دجلة والفرات، و[أنها] ربما [illegible] في الأصل مع ديلمون، الفردوس السومري" *(Kramer, 1963, pp. 148-149)*.

وكان كرامر يعتقد أيضًا أن هذه الأسطورة السومرية عن الفردوس تلقي مزيدًا من الضوء على النسخة التوراتية اللاحقة لها عن طرد آدم وحواء من جنة عدن، بعد أكل الثمرة المحرمة. في النسخة السومرية، تسببت نينهورساج ،الربة-الأم العظيمة لدى السومريين، في نمو ثمانية نباتات خاصة في الجنة. يقول كرامر: "لا تنجح هذه الربة في إيجاد هذه النباتات إلا بعد عملية معقدة الخيوط شملت ثلاثة أجيال من الربات، حمل بهن جميعا إله الماء وولدن ... دون ألم أو مشقة" (المرجع السابق). لم ترغب نينهورساج في أن يأكل أحد من هذه النباتات، لكن إنكي أكلها واحدة بعد الأخرى، فحكمت عليه نينهورساج بالموت. وسرعان ما بدأت صحة إنكي في التدهور بغزو مرض لثمانية أعضاء من جسمه، كان أحدها ضلعه. واقتنعت الربة-الأم أخيرًا بأن تشفي إنكي، فأجلسته بجوار فرجها بينما كانت تلد ثمان ربات (واحدة لكل عضو من الأعضاء المريضة) فأسبغن عليه تحسن صحته. ثم تقول الأسطورة لمستمعيها إن أحد الأعضاء، ألا وهو ضلعه، قد شفته الإلهة نين-تي "التي تصنع الحياة" أو "سيدة الضلع" (المرجع السابق). يعني المقطع المرسوم "تي *ti*" كل من "الحياة" و "الضلع". هذا المعنى المزدوج "سيدة الضلع" أو "السيدة التي تهب الحياة" يعطينا تورية سومرية عظيمة. ثم نقلت التورية السومرية إلى قصة فردوس آدم وحواء، حيث ربط بين حواء التي يعني اسمها "التي تصنع الحياة" وبين ضلع ***(Delgish, 1996)***. وقد أشار كرامر إلى أن اللعب على كلمتي "ضلع" و"حياة" قد ضاع في اللغة الجديدة التي كتبت بها التوراة ***(Mijares, 2003)***). وربما كان الأمر مجرد أن النسخة القديمة لم تدعم ظهور الأب بسبب تصويرها للأنثى تصويرًا تمثيليًا إيجابيًا.

من المهم أن نتذكر أن المجتمعات المبكرة كان لديها إحساس أفقي متجسد بالاتحاد مع العالم الطبيعي؛ وكان هذا الاتحاد يعتبر جزءًا من المقدس (توجد شواهد على ذلك في الثقافات الداخلية للشعوب الحديثة). وكما سنناقش فيما بعد في هذا الكتاب، أكدت الديانات الأبوية على السماء بشكل أكبر مما سبقها من ديانات،

وبمرور الوقت، نرى كيف أدى هذا الفصل بين السماء والأرض إلى التدمير المتزايد لبيئتنا. تكمن قيمة العلاقة السابقة مع الطبيعة في أنها تتضمن تلقائيا خدمة الإنسان للطبيعة التي تتعارض مع *سيطرته عليها*. حكمت هذه المجتمعات السابقة أساطير خلق أعطت معنى لعلاقة أهلها بالطبيعة وقواها التي كثيرًا ما تكون متعارضة، فتكون مناوئة وكريمة رحيمة. وقد قدمت القصص الرمزية لهذه المجتمعات أيضا هديًا أخلاقيًا فيما يخص العلاقة مع أشكال الخلق الأخرى.

أساطير الخلق:

قصص الطبيعة والهداية

لكي نحظى بفهم أفضل لنشأة المأثورات الدينية للعالم وتطورها يلزمنا أن نفهم أيضًا الوعي الإنساني البازغ كما صورته الأسانيد في أساطيرها القديمة. يشرح لنا الباحثون ودارسو الأساطير أن أساطير الخلق مثلت المحاولات الأولى للإنسانية للتصالح مع قوى الطبيعة المتنوعة. لكن على مستوى أعمق غورًا، كان الآلهة والإلهات أيضًا أنماطًا فطرية من الصور التمثيلية للخواص المتنوعة للتجلي الإلهي. إن السمات الإلهية للوحدانية المطلقة تظهر بجلاء. إن عالم الأنماط الفطرية للوعي يعترف بهذا التعبير، وهي النماذج التي تشكل قلب الوثنية وما فيها من أساطير خلق كثيرة تتعلق بنشأة الحياة، والخير والشر، وعالمي الجنة والجحيم. وعلى الرغم من وجود فوارق لا مراء فيها بين مختلف الثقافات، توجد بينها أيضًا أوجه تشابه. تمثل تلك الأساطير أيضًا تشوق الروح البشرية للتآلف والتوازن، سواء على مستوى دخيلة النفس أو على مستوى العلاقات مع الغير. تتشكل هذه القوى في قصص العالم الأسطورية والدينية التي توضح القوى الكثيرة ذات الحول التي تؤثر في السلوك الإنساني. كتب كارل جوستاف في *مجموعة أعماله* أن :

جميع الأفكار القوية عبر التاريخ ترجع إلى أنماط فطرية. يصدق هذا على وجه الخصوص على الأفكار الدينية، لكن المفاهيم المركزية للعلم والفلسفة والأخلاق ليست استثناء من هذه القاعدة. هذه الأفكار في شكلها الحالي تنويعات على أفكار الأنماط الفطرية، خلقت بتطبيق تلك الأفكار على الواقع عن وعي، وإعدادها (لتلائمه) لأن وظيفة الوعي لا تقتصر على التعرف على العالم الخارجي عبر بوابات الحواس وتمثله، بل تتعدى ذلك إلى ترجمة عالمنا الداخلي إلى واقع مرئي.

(Storr, 1983, p. 16)

تصور أساطيرنا المتغيرة نشوء الوعي وارتقاءه. إن عالمنا الداخلي شديد الحيوية والقوة والتأثير في حياتنا. تعبر مجموعات الكتب التي تضم الحكايات الأسطورية عن هذا الثراء. إن القصص الدينية الموجودة في الكتب المقدسة ليست فقط ذات معنى لعقلنا الواعي، بل لعقلنا اللا واعي أيضًا. والأهمّ أن ما فيها من هَذْي لا نهائي وقوة تحويل خلاقة يضيع عند ربطها بترجمات عقائدية جامدة. كل فقرة وكل قصة يمكن تأويلها على مستويات مختلفة، تسمح بفهمها على محمل حرفي، أو شخصي، أو نمطي فطري، أو روحاني. يسمى هذا التأمل العميق في اليهودية باسم *المدراش*، ويسمى في الإسلام باسم *التأويل*.

يقرأ المرء توراة الشرق الأوسط ويأولها بروح المدراش. تعني كلمة مدراش(*) العبرية "البخث" أو "التمحيص". تقدم كتابات الحاخامات مبادئ قضائية ودروسًا أخلاقية، كما تقدم حكمة روحانية. إن مدراش هالاشا طريقة لتأويل المعاني القانونية الموجودة في التوراة، على سبيل المثال: الطقس الديني، والأحوال العائلية والشخصية، والعلاقات المدنية، والقانون الجنائي والعلاقات مع غير اليهود.

(*) المدراش : يعنى بالعبرية البحث فى الكتاب المقدس، أي التعليقات على الأسـفار اليهوديـة، ومنها أسفار التوراة (المترجمة) .

أما مدراش هاجادا فيتوسع في تناول المعاني التوراتية من خلال الدراسة المستمرة لما فيها من أساطير، وحكايات، وأمثولات، وقصص رمزية. وحيث إن النظام الفقهي والشرعي في اليهودية بأسره يعتمد على تأويل التوراة، يوجد احتياج للتحديث المستمر لمعاني التوراة، والسماح بظهور تأويلات لها عبر الزمن. يشمل المدراش تأويلات عديدة للكثير من الحاخامات؛ فهو من ثم يتكون من موتيفات متكررة ذات وجهات نظر متنوعة (فيها ما قد يتعارض مع غيره). وهكذا صار مدرس هاجادا حاملاً لتعبيرات أسطوريه ظهرت في الثقافة اليهودية وامتصتها تلك الثقافة ويشرح لنا مارتن بوبر أن هذه القصص الأسطورية شكلت "توراة ثانية مكونة من أساطير، متناثرة في كتابات لا تعد ولا تحصى، تدور جميعها في فلك التوراة التي تعد بمثابة النواة منها" *(Schwartz, 1998, p. 6)*.

إن قراءه المعاني الكامنة خلف الأساطير والنص المقدس وفهمها مهمة مستمرة من شأنها ضمان تعميق فهمنا لحياتنا الباطنة. يصف نيل دوجلاس -كلوتز الوعي الحدسي المتعبر المطلوب كي يمكننا الاندماج في القراءات التوراتية والتحول بفضلها، فيلاحظ أن

> **المرء يحاول بتأمله للمدراش تحويل فقرة من التوراة أو قول لشخص مقدس إلى خبرة معيشة يمكنها مواجهة تحديات اللحظة الراهنة. معظم الصوفيين المسلمين يفهمون هذا على أنه تأويل، وهو أسلوب من الترجمة–التفسير يأخذ في الاعتبار المعاني المتعددة الممكنة لنص مقدس لزرع الحكمة في الحياة اليومية للفرد (Neil Douglas-Klotz, 1999, p. 2).**

وقد فهم فلاسفة اليوجا بالمثل أن أساطير الفيدا الهندوسية قصص رمزية متعددة المستويات تهدف إلى هداية خطى المرء على السبيل الروحاني للحب، والتعاطف بين البشر، واحترام الحياة بجميع جوانبها.

للأسف، لا توجد هذه الممارسة على المستوى الأصولي لأي من الديانات، لأن تفسيرات الأصوليين تقوم على أساس التفسيرات الحرفية الجامدة للقصص الرمزية المقدسة. وقد مال اليهود المحافظون والمتشددون دينيًا (كغيرهم من أتباع الديانات الأخرى) إلى التشبث بتفاسير كانت تصلح لزمان ومكان آخرين في التاريخ. ويأتي التهديد من تأثير الأصوليين من أن حتى عمليات الدرس والتمحيص التي بالمدراش والتأويل يمكن أن تتوقف. وحين تقبل التفسيرات الانتقائية على أنها الحقيقة الحرفية، يتوقف أتباع الدين عن السعي ليجدوا داخله معنى لا قرار لعمقه. هذه العملية ضرورية مع نشأة الوعي وارتقائه، ومع التغيرات البيئية والتكنولوجية وما إلى ذلك. تتأثر الأساطير بالبيئة الطبيعية. فالأساطير التي تهدي خطى الإنسان مثلا تختلف لدى من يعيشون في بيئة ذات تضاريس وعرة مقارنة بالأساطير التي تظهر في بيئات رعوية هادئة. كما أن العصر الثقافي الذي تظهر فيه تفسيرات جديدة لنصوص قديمة له تأثير على تفسير أساطير الهداية واستخدامها. وحين اعتبر البعض الأساطير حقيقة حرفية حدثت مشكلات، ثم استخدموها للترويج للمُثُل الأبوية والتحكم في معتقدات الآخرين.

إذا نظرنا إلى القصص الرمزية الأسطورية في ضوء إيجابي لوجدناها تقدم موضوعات مشتركة فيما بينها. إنها توجّه علاقاتنا في العالم المادي كما تقودنا نحو مستوى أعلى من مستويات الوجود. تقدم الأساطير الثقافية والجمعية هديًا إنسانيًّا لخدمة تطور البشرية. تصور الأساطير وموضوعات الأنماط الفطرية رحلة البشرية، وتهدينا إلى سبيل إدراك الذات (والإلهي). إن الوظيفة الأولى الظاهرة للأسطورة إعطاء إجابات على تساؤلاتنا عن أصل الحياة، ومصيرها، ومعناها على مستوى مجازي، وثانيًا، "أن تبرر نسقًا اجتماعيًا موجودًا، وتقدم تقريرًا عن الطقوس والعادات التقليدية" ***(Larousse, 1968, p. v)***. وهكذا يمكن أن تكون الأساطير مصدرًا يستهدي به الإنسان لفك أسرار الحياة، أو قد تكون مصدرًا لتبرير الجمود العقائدي أيضًا.

أثر مزيج الدوافع الذي ذكرناه أعلاه في تطور النصوص المقدسة، ومن المؤكد أنه أثر في نفسيراتها. نجد مثالاً توضيحيًا على هذا – على الرغم من إشكاليته– في الكتب المقدسة للفيدا الهندوسية، المعروفة باسم *ريج فيدا* ***Rig Veda***. ونجد مثالاً آخر في الكتب المقدسة اليهودية التي جمعتها دفتا مجلد العهد القديم للتوراة. يمثل التاريخ والتعاليم الواردة في هذه النصوص الانتقال إلى النسق الأبوي. تصور الوثيقتان كلتاهما أيضًا أبطالهما في هيئة محاربين هزموا قبائل أخرى وطرق عيش أخرى، إنها شهادات على التعصب ضد الآخر.

والكثير من قصص الخلق لا تقدم إلا مجرد توجيهات أخلاقية عامة للعيش في تآلف مع الطبيعة والبشر الآخرين. هذه السرديات مليئة أيضًا بمُثُل وممارسات جميلة لنعيش حياة روحانية. فمثلاً، تخبرنا النصوص والأساطير المقدسة أن أفعال الشر تدمر النفس من الداخل؛ أما أفعال الخير فيتولد عنها النمو الروحاني والرضا النفسي. تعبر هذه النصوص عن هذا المفهوم حرفيًا ومجازيًا. ومن سوء الطالع أن هذه التوجيهات الهادية كثيرًا ما تلوى وتحول إلى تفسيرات جامدة ومتشددة، تقود الناس إلى اتباع *الشكل* وتجاهل *معاني* الطقوس والقواعد. وبتوضيحنا للمعاني الكامنة خلف هذه الأساطير يمكننا أن نرى كيف تهدي هذه الأنساق الرمزية خطانا نحو الارتقاء الروحي. كما أننا نقرأ في هذه الأساطير رسائل ضمنية صريحة عن التسامح والانفتاح اللذين يعززان التطور النفسي والنمو الروحاني.

تصور قصص عديدة عواقب السلوكيات المتعلقة بالخير والشر، كقصة الخلق التالية لدى السكان الأصليين لأمريكا، المأخوذة من قصص أمة الهوبي بمنطقة أريزونا، حيث تقع المسئولية عن استمرار الحياة وحسن الأحوال على عاتق الفرد من هذا الشعب حسب شخصيته لا حسب نوعه (من رجل أو امرأة).

يعتقد شعب الهوبي أن الكون قد خلق من ذهن الخالق تايووا. خلق تايووا سوتوكنانج، الذي دخل إلى العالم الأول، وخلق المرأة العنكبوت، وحملها مسئولية خلق الحياة. مزجت المرأة العنكبوت التراب بلعابها وخلقت أول البشر في هيئة

مخلوقين توأمين. واستمرت الحياة في هذا العالم الأول، وعاش أهله في هناء. ثم بدءوا يتعاركون وينقسمون. وعندئذ "ظهر بينهم كاتويا الأنيق، في هيئة ثعبان ذي رأس ضخمة، وزاد من تباعدهم عن بعضهم البعض وعن حكمتهم النقية" (المرجع السابق ص ١٢). أدى هذا إلى سلوكيات شبيهة بالحروب (من الواضح أن كاتويا كان يمثل النعرات والسعي إلى القوة التي أدت بالناس إلى التناحر والدمار). أما الذين اختاروا السلوكيات الخيرة فقد أهدوا السبيل إلى مكان جديد خلق من أجلهم، وأنقذوا من الدمار الذي أصاب العالم الأول. ذهب الشعب المختار ليعيش مع شعب النمل في العالم السفلي بينما كان العالم الثاني في طور الخلق، ثم جلبوا اليه بعد إتمام خلقه. وانتهى الأمر بالناس إلى الشروع في خلق التجارة الخارجية والحرف والمقايضة بين بعضهم البعض، مما أدى إلى الاقتتال والحروب، مع ما الحقه الجليد بالعالم من دمار. إن الجشع هو الذي أضلهم هذه المرة.

أما من احتفظوا بالأغنية حية في قلوبهم فقد أخذوا إلى مكان آمن في العالم السفلي مع شعب النمل، كي يخرجوا إلى العالم الثالث حين يصير معدًّا لاستقبالهم. وفي هذه المرة، ضل كثير من الناس سواء السبيل بسبب الشهوات والنهم. أما من جاهدوا للحفاظ على الأغنية والحمد أحياء في قلوبهم فقد قادتهم المرأة العنكبوت للخروج والبحث عن طريقهم الخاص. وبعد أن انتابهم اليأس بعد كثرة الترحال "فتحوا الأبواب التي تقع على قمة رءوسهم" (المرجع السابق ص ٢٠) ووجدوا المكان الذي يخرجون منه إلى العالم التالي. أما العالم القديم فقد دمرته المياه (الطوفان). لقد أبلغوا باتباع الحكمة العليا (المتاحة عبر الباب الذي على قمة رءوسهم)، وألا يتبعوا سبل الشر. وما إن وجدوا العالم الرابع حتى سافروا إلى جميع انحاء كوكب الأرض، ثم عادوا لتنفيذ الخطة.

إن الخلق الأنثوي، المرأة العنكبوت، هي التي جلبت البهجة والتوازن إلى هذا العالم، متمثلين في المخلوقين التوأمين. تؤكد أسطورة الهوبي من السكان الأصليين لأمريكا على أن الخلاص يوجد حين يتحرر الشخص من الانجذاب إلى

الجشع، والشهوات، والغيرة وما إلى ذلك. يوجد عامل ثابت في جميع تقاليد السكان الأصليين، ألا وهو الاعتقاد بأن التنافر يحدث حين لا يعيش المرء في تآلف مع الطبيعة الأرض الأم والسماء الأب متحلان بنفس القدر. وقد زرعت التقاليد الخاصه بهذا الشعب توازنا محترما بين الذكر والأنثى، بين السماء والأرض.

الثالوث الهندوسي:

قصص سورة الغضب والتكريس

في الأساطير الهندية قصص بطولة عظيمة تشمل العديد من الأرباب والربات. ويقدر عمر قصص هذه النصوص الهندية القديمة المعروفة باسم ريج فيدا بأكثر من ثلاثة آلاف عام. ويرجح حدوث تحول في الخط القصصي شبيه بالتنقيح العبري للأساطير السومرية المبكرة، الذي دعم صعود الهياكل الدينية والاجتماعية للنسق الأبوي. لقد صورت القصص البطولية المدهشة مظاهر الخلق مع الصراعات بين قوى الخير والدمار. غالبًا ما كانت الآلهة تدخل إلى العالم في أوقات الفوضى الكونية لتحارب شرًا معينًا أو روحًا شريرة معينة، وأدت هذه الحروب إلى انتصار الخير على الشر واستعادة التوازن الكوني.

حكمت الإلهات والآلهة جنبًا إلى جنب في التاريخ الهندي المبكر، لكن تأثير الجانب الأنثوي تضاءل مع دمج المُثُل الأبوية في الأساطير الهندية. يبدو أن الغزو الهندو-أوروبي (الآري) للهند كان له أثر أولي على تطور الفكر الديني ونظام الطوائف الهندي. حددت أساطير الخلق نظام الطوائف الهندي وبررته، مما قسم الشعب الهندي إلى أربعة أنظمة اجتماعية، تختص كل طائفة من طوائف الشعب بنظام منها، ألا وهي: طائفة البراهمة (القسس)، والكشاتريا (المحاربون)، والفايشيا (التجار وغيرهم من عامة الشعب)، والشودرا (ويخدم أفرادها الطبقات الثلاث الأخرى).

وفقًا لهذه الأسطورة الدينية، فإن مصير الفرد في حياته الراهنة من حيث كونه من البراهميين، أو الكشاتريا، أو الفايشيا أو الشودرا هو نصيبه في الحياة الذي حدد له منذ ميلاده. (ثم أضيفت فيما بعد طائفة خامسة هم المنبوذون). يعتقد الكثيرون أنه مع غزو قبائل البدو الرحل الآرية للهند وانتصارها (كما غزت أراضيَ أخرى) نشأت الطوائف هناك (غالبًا على أساس اللون)، وأسس قائد يعرف باسم مانو العظيم قواعد السلوك بين الطوائف. وجدت على الجانب الروحي فكرة "النقاء" الروحي على المستوى الأعلى (البراهميين)؛ لكنها كانت مصطبغة بفكرة أن البراهميين فقط هم الذين يمثلون النقاء. وتبعًا لهذا الهيكل الهرمي للمعتقدات، أحيل الدرافيديون ذوو البشرة الأدكن لونًا (الهندوس الأصليون) إلى أدنى مرتبة من رتب العبيد.

ويقال إن الكون بأسره قد تجلى من إيشفارا ، وإن جميع الأرباب والربات من تجليات إيشفارا. ويتجلى الكيان العلي القدير في الثالوث الهندوسي المكون من براهما، وفيشنو، وشيفا (وجميعهم ذكور). تقول لنا إحدى القصص إنه "حين يخلق إيشفارا الكون يسمى باسم براهما، وحين يسبغ عليه حمايته يسمى فيشنو، وحين يدمره فهو شيفا"(٦). يمثل كل من هؤلاء الآلهة حالة من حالات العقل، وهذا العقل المتعالي تتجلى فيه كل من قوى الخلق والدمار. وبوروشا اسم آخر من أسماء تجليات الكيان المتعالي.

يقول الريج – فيدا إن بوروشا تغلغل في كوكب الأرض بأسره، وامتد خارجه. يعتبر بوروشا ربًّا للخلود، وقد تجلت الحياة من وجوده.

حين قسموا بوروشا، في كم جزء مختلف رتبوه؟ ماذا نشأ من فمه، وماذا من ذراعيه، وبم سميت فخذاه وقدماه؟

---

(٦) *http://www.exoticindia.com/articleprint/vishnu*

> صار فمه البراهميين، وصنع الراجانيا (الكشاتريا) من ذراعيه، والفايشيا من فخذيه، وولد الشودرا من قدميه ...
>
> يقدم الأرباب التضحية بهذا القربان الأضحية. وكانت هذه هي المعايير الأولى للتضحية [الدارما]. ووصلت هذه العظمة إلى السماء، حيث يعيش السادهيا القدماء والأرباب.

(de Bary, 1958, pp. 16-17)

في قصة الخلق، يضع فعل الخلق نفسه الناس في مواقعهم من نظام الطوائف حسب العضو الذي نشأوا منه من أعضاء جسم بوروشا. ويقول نص مقدس هندي آخر يصف *قانون مانو* إنه

> من أجل ازدهار العالم خلق البراهميين، والكشاتريا، والفايشيا، والشودرا بحيث خرجوا من فمه، وذراعيه، وفخذيه، وقدمييه ...
>
> وأوكل للبراهميين تعليم (الفيدا) ودراسته، مضحين لصالح أنفسهم ومن أجل الآخرين، يعطون (الصدقات) ويقبلونها.
>
> وطالب الكشاتريا بحماية الناس، والإنعام عليهم بالعطايا، وتقديم الأضحيات، ودراسة (الفيدا)، والامتناع عن الارتباط بالملذات الحسية ...
>
> وطالب الفايشيا برعاية الماشية، والإنعام بالعطايا، وتقديم الأضحيات، ودراسة (الفيدا)، وممارسة التجارة، وإقراض المال، وزراعة الأرض

ولم يوص الرب الشودرا إلا بمهنة واحدة، أن يتفانوا في خدمة هذه الطبقات الثلاث الأخرى على قدم المساواة.

(Muller, 1886, 12-14, 24)

وقد وصلتنا أساطير المحارب المنتصر إندرا في نصوص الريج–فيدا، التي تصف صراحة التعصب ضد الجنس الأدكن لونًا: "يا إندرا، أنت مدمر جميع المدن، وذابح الداسيوس [الجنس الأدكن لونًا]، وجالب الازدهار للإنسان، أنت ربُّ السماء" *(Rig Veda VIII. 87. 6.)*؛ وتزعم آية أخرى أن "إندرا حمى العابدين الآرين في حومة الوغى، وأخضع الخارجين عن القانون لمانو، لقد هزم الجلد الأسود" (ريج فيدا ١، ١٣٠، ٨).

ويعين نظام الطوائف النساء أيضًا ليكنَّ أدنى منزلة من الرجال وخاضعات لهم. تلاحظ أوما تشاكرافارتي أن "التراتب الهرمي الطائفي والتراتب الهرمي الأبوي هما المبدآن المنظمان للنظام الاجتماعي البراهمي، ويرتبطان ببعضهما بصلات وثيقة" *(Chakravarti, 1993)*. نتيجة لذلك، حد ذلك النظام الاجتماعي من حرية حركة النساء واستقلالهن. والحق إن النساء عرضة للتسيد عليهن بغض النظر عن موقعهن الطائفي. وطبقًا لقول الريج فيدا، "لقد قال الرب إندرا نفسه إن المرأة محدودة الذكاء، وغير قابلة للتعليم" (ريج فيدا ٨– ٣٣– ١٧). وحتى يومنا هذا ما زالت المرأة ينظر إليها بعين الاحتقار في الكثير من أنحاء الهند إذا ما أنجبت أنثى، أما لو أنجبت ابنًا فهي تجلب السرور لزوجها.

وكما هو الحال في التوراة والكتب المقدسة الأخرى، يقف الجمال جنبًا إلى جنب مع السمات الشريرة كالتعصب، والتسيُّد الخاطئ على الآخرين مما يفسد قلب الإنسانية (ويعتبر القراء أن الترجمات الحرفية للكتب المقدسة تلزم رجال الدين بممارسة تلك السلوكيات الخاطئة).

والمثُل الأبوية عن قهر الغير (والذات) تتمثل أيضا في النصوص الهندوسية المعروفة باسم بهاجافاجيتا لأنها ترسم مشهدا مشهورا لساحة حرب يستعد فيها المحارب العفيف والمكرس آرجونا لخوض وطيس معركة حامية. ويمضه الحزن حين يعرف أن الكثير من أصدقائه وأقاربه يحاربون في صفوف الجيشين المتقاتلين، فيفضى لربه كريشنا بأحزانه، إذ لو قتل الرجال لفسدت النساء، وحينها ستختلط نظم الطوائف مما يؤدي إلى الدمار والجحيم.

وعلى الرغم من أن هذه القصة تنقل تأثيرًا محفوفًا بالشكوك، وهي توحي بأن الرجال لابد أن يتحكموا في الطبيعة الفاسدة للنساء ويحموا المكانة والممتلكات، فـــإن لها أيضا مقصدًا روحانيا أكثر عمقًا. فمثلاً، يقول كريشنا لآرجونا أن "يطرح عنه مـــا هـــو فيه من ضعف القلب ... فالنفس دأبها دائمًا وأبدًا أن تولد وأن تموت ..."(٧). إن مأثورات الفيدا الهندوسية تشير إلى تناسخ الأرواح جنبًا إلى جنب مع تأكيدها على النزاهة. تدور القصة في الحقيقة حول ساحة حرب موقعها القلب. لقد استخدم الرجال لغة شبيهة بلغة الحرب لوصف عملية التطهير التي تؤدي إلى الاتحاد بالمقدس. من ثم يمكننا فهم هذه القصة أيضا على محمل مجازي يحمل تعليمات على مستويات متعددة(٨).

وتلخيصًا لما سبق، تكشف القصص التي ذكرناها عما لصعود النسق الأبوي وسيادته في الشرق من آثار متعددة المستويات. وما يلي يكشف استمرار تأثير هذا النسق مع انتشاره في أصقاع أخرى.

---

(٧) *http://www.wsu.edu:8080/~dee/ANCINDIA/GITA2.HTM*

(٨) إن فكرة ساحة القتال التي تقع في القلب تشبه الإشارة إلى الجهاد الإسلامي الذي كثيرا ما يساء فيمه، والذي ينتمي إلى حرب التطهير المقدسة التي تدور رحاها داخل ذات نفس الفرد، مع فهمنا لأن نضال آرجونا يحدث داخل وعيه.

أصل الشعب الصيني غير معروف، على الرغم من أنه يظن أن أسلاف الشعب الصيني الحالي قد يكونون قد أتوا "من الغرب، من آكاديا (منطقة العقاد ببلاد بين النهرين) أو عيلام أو من هوتان، (أو على الأرجح من آكاديا أو عيلام عبر هوتان، كقبيلة من البدو الرحل أو الرعاة، أو كجماعة من البدو الرحل وقبائل من الرعاة) *(Werner, 1994, p. 17)*. يوحي التاريخ الصيني بحدوث غزوات مهدت أراضي الغـــابات وأزاحت السكان الأصليين، وأسست الثقافة الصينية عند حوالي ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ منذ ما قبل ميلاد المسيح. قامت الديانة الصينية أساسًا منذ نشأتها على عبادة الأسلاف، بتبجيل أرواح الأموات واسترضائها. وقد دخلت أرواح الأسلاف في الطبيعة بجميع أشكالها، بما فيها الأشجار والصخور. كان الموتى يدفنون وتدفن معهم ممتلكاتهم (الزوجات، والطعام وغير ذلك من متاع) لضمان حسن أحوالهم في عالم الأسلاف. وكثيرًا ما كان الناس يتوسلون إلى الأرواح كي تدخل لوحا حجريا، يأخذونه بعد ذلك إلى البيت ويضعونه في مكان بارز للذكرى والتعبد. وقد يكون لهذه الأرواح الراحلة تأثيرات نافعة أو ضارة، لذا يلزم فعل ما يرضيها. تمثل هذه الديانة أساسًا "اتجاهًا نحو الأرواح أو الآلهة بهدف الحصول على فائدة أو منع كارثة" (المرجع السابق ص ٥٢).

في الأساطير الصينية، يعتبر كل ما على وجه الأرض تجليًا لنظيره السماوي. ومن ثم، فالطيبون والأشرار في هذا العالم نظراء لآلهة وشياطين في عالم السماوات (المرجع السابق ص ٥٢). ولهذا العالم هيكل أبوي، خلق نوعًا من نظام الطوائف(٩)، مع بعض المشكلات الأخرى. لو كان كل شيء تجليًا لنظيره السماوي، لأمكننا أن نرى الأهمية الخاصة التي يضفيها الآسيويون على التأكيد

(٩) يعتقد المؤرخون أن نظام الطوائف الهندي كان له تأثير متزايد على الهيكل الاجتماعي الصيني. وقد بدأ نظام طوائف أكثر تصلبًا في الظهور بعد أواخر أربعينيات القرن العشرين.

على "حفظ ماء الوجه" حين يهان المرء(١٠). فلو كان الناس نظراء لمن في السماء من آلهة وشياطين ، فإن الفكرة الآسيوية عن "حفظ ماء الوجه" تشير إلى معنى ثقافي أعمق غورًا. يأخذ *الاحترام* معنى متعدد المستويات. فلو عومل شخص على نحو مناف للاحترام، تكون الإهانة قد وجهت أيضًا لنظيره السماوي. ولو أخذنا في اعتبارنا قوة المؤسسات الأسطورية في العمليات التي تدور في لا وعي الفرد، لسهل علينا أن نرى كيف تنشئ هذه الخلفية بالضرورة انتقامًا مضادًا للإهانة البالغة، أو حربًا ضد العدو لحفظ ماء الوجه.

وقد شجع نسق الاعتقاد الصيني التصميم الثقافي الهرمي التالي:

قسمت الأمة عمومًا إلى الملك والشعب. اعتبر الملك معينا من قبل إرادة السماء كما اعتبر أبًا للشعب. وكان الملك أيضا واهب القوانين، والقائد الأعلى للجيوش، ورئيس الكهنة، وسيد الاحتفالات. أما الشعب فقد قسم إلى أربع طبقات: (١) الشيه، وهم الضباط (وفيما بعد العلماء) ويتكونون من الموظفين الرسميين للشي إن (الذين حظيت قلة منهم بمرتبة النبالة؛ و (٢) الشين، وهم أفراد الطبقة العليا، والنونج، وهم المزارعون؛ و(٣) الكونج، وهم أرباب الصنائع؛ و(٤) شاتج، وهم التجار (المرجع السابق ص ٢٨).

---

(١٠) دائمًا ما ينتمي الفرد في المجتمع الصيني لبعض الجماعات التي تمتص عظمته وعاره وتعكسهما في مرآتها. بناء على ذلك، فالفرد الذي (أو التي) لا يرغب في ***lien*** [وجه] قد يتهم أيضًا بأنه "يخسر وجهه ***losing lien***" لصالح فرد أو جماعة يربطه (أو يربطها) بهم رباط وثيق *(Bond, 1986, p. 247)*.

يمثل هذا التصنيف الهرمي نموذجًا يسود فيه الذكور.

قد يكون لعبادة أرواح الأسلاف أثر سيئ على تطور الفلسفة الكونفوشيوسية، لأنها صـــارت من المأثورات الجادة العاقلة التي لم تشجع التأكيد على القوى التي ما وراء الطبيعة. آمن الفيلسوف العظيم كونفشيوس (٥٥١-٤٧٩ منذ ما قبل ميلاد المسيح) بروح العالم، لكنه كان أكثر اهتمامًا بتطور الشخصية الأخلاقية والنظام الاجتماعي. كان مذهبه مذهبًا إنسانيًا، وما زالت لتعاليمه عن أخلاقيات العمل والولاء للعائلة تأثير قوي على الثقافة الصينية.

أما الطاوية فأسسها لاو تسو (في القرن السادس منذ ما قبل ميلاد المسيح)، وقد علم لاو تسو مبادئ الطاو لكونفوشيوس، وكان له تأثير على فلسفته. من أهم الفروق بينهما أن كونفشيوس درس مناهج المجتمع الطيب وسلوكياته، بينما اعتقد لاو تسو بظهور ثقافة أخلاقية ومنتجة مع حدوث تحول داخل شخصية الفرد. والطاو هو السبيل (الذي يجب على المرء اتباعه) كما أنه نهاية المطاف، حيث يعتقد أن جميع الأشياء تعود إلى الطاو. ويجري تعليم الإشارات إلى الخلق بالطريقة التالية. "إن الطريق الذي يمكن للمرء أن يمشيه ليس الطريق الأزلي الأبدي؛ والاسم الذي يمكن تسمية شيء به ليس الاسم الأزلي الأبدي. إن ما يستحيل تسميته هو منشئ السماء والأرض؛ وهو يتجلى في صورة ما يمكن تسميته باسم معين ..." (المرجع السابق ص ٨٨).

وحين يجد المكرس أو المكرسة السلام بداخل نفسه أو نفسها يعرف نقطة توازن بين الين (المستقبِل) واليانج (الفعال). لكن كما أوضحنا في فصل المقدمة من هذا الكتاب، فإن هذه الفكرة عن التوازن بين الين واليانج لم تجد تشجيعا في العالم الخارجي، وهي تفشل طالما بقيت النساء محصورات في موقع ثانوي. من هنا، يمثل اختلال موازين القوى بين الرجال والنساء أحد مظاهر فوضى أوسع نطاقا في النظام الاجتماعي الروحاني للعالم. (بل سيزداد هذا اتضاحا مع عرض مؤلفات هذا الكتاب لتأثيرات السياسات الأبوية).

الشنتوية: الديانة الأصلية لليابان

يعتقد أن للصين تأثيرا كبيرا على تطور الثقافة والأساطير الآسيوية المبكرة. تشير السجلات التاريخية لليابان (التي تبدأ عند حوالي ٥٥٢ بعد الميلاد) إلى أن الشعب الياباني كان منظما على هيئة عشائر اسمها (أوجي). كانت العشيرة صاحبة السيادة هي عشيرة ياماتو أوجي و"بامتدادها صار لها أسلاف مقدسون. وسرعان ما صارت العائلة الإمبراطورية (التي لم ينقطع سلسالها حتى الآن) المحور الأولي للأسطورة اليابانية" . ولهذه العائلة الإمبراطورية هيكل أبوي.

الديانة الأصلية لليابان هي الشنتوية، وهي ديانة تركز على عبادة الأرباب، والأرواح (الكامي الموجود في كل شيء حي)، والأشياء التي تحظى بالتبجيل (والتي لها كامي أيضًا). وجدت الشنتوية جنبًا إلى جنب مع البوذية منذ ظهورهما في الثقافة اليابانية، على الرغم من أن الشنتوية كانت ديانة الدولة في حكومة ميجي (١٨٦٨-١٩١٢). أما تاكاماجاهارا فهي الكلمة اليابانية المعبرة عن ملكوت السماوات العلا. تشكل من هذا الملكوت ثلاثة أرباب خفيين. كان أول من ظهر من الأرباب أمانوميناكانوشي-نو-كامي (رب مركز السماء)، وتبعه تاكامينموسوبي وكاميموسوبي. شكلت هذه الكامي (الأرواح) القوية مع معبودين آخرين أصغر منها "المعبودات السماوية الخمس الفطرية المنفصلة. ثم تبعهم سبعة أجيال أخرى من الأرباب والربات "السماويين والسماويات"، يتوجهم الزوجان اليابانيان الأوليان: إيزاناجي وأخته التي هي زوجته إيزانامي في الشكلين المكتملين إيزاناجي-نو-ميكوتو (ذكر أغسطس)، وإيزانامي-نو-ميكوتو (أنثى أغسطس)" (المرجع السابق ص ١١٢).

يبدو أن توازنًا ما بين المذكر والمؤنث يظهر، لكن كما يمكن للقراء أن يروا في القصة التالية، تصير إيزانامي كبش فداء لميلاد مشكلة (كما حدث لحواء).

أمرت الأرباب الأقدم والأعلى إيزاناجي وإيزانامي بإتمام عمل خلق العالم. نزل إيزاناجي وإيزانامي إلى جزيرة تظهر أسفلهما، وحملت إيزانامي بطفلهما الأول، وفي النهاية وقع عليها العقاب لأنها ولدت طفلاً مشوهًا اسمه "طفل ديدان العلَق"، وفقدت منزلة المساواة التي كانت لها (وهذا تدعيم واضح لسيادة الذكر) بسبب هذا الفأل السيئ. واستمر الزوجان المقدسان في الإنجاب ككثير من الجزر، فانجبا ربات وأربابًا لكثير من العوالم، وقفز أرباب الطبيعة إلى الصدارة. ماتت إيزانامي وهي تلد ربَّ النار، إذ احترقت أعضاؤها التناسلية بشدة. وتقول الخرافة إنها استمرت تنجب أربابا عن طريق فضلاتها وقيئها ... إلخ وهي تحتضر. وبرح الشوق لها بإيزاناجي، فقرر أن يبحث عنها في العالم السفلي، وعندما وجدها جثة متعفنة فرَّ هاربًا وقد انتابه الرعب. واستشاطت إيزانامي غضبًا لتخلي إيزاناجي عنها، فأرسلت في إثره ساحرات العالم السفلي الحيزبونات، وحولت نفسها إلى شيطان، وتتبعته، وفسخت رباط الزوجية الذي يربطها به.

وبعد هذا التنافر بين الجنسين، رجع إيزاناجي وطهر نفسه بالاغتسال. ثم لعب هو نفسه دور امرأة، مع بدء ولادة أرباب وربات من ثيابه أثناء استحمامه. (المرجع السابق ص ١١٢).

وظهر في هذا الوقت ثلاثة أرباب مهمين في الرؤية اليابانية للكون: أماتيروزو – نو – ميكوتو، وسوزانو–نوميكوتو، وتوسكي–يومي–نو–ميكوتو. وكان توسكي يومي إله القمر، وسوزانو إله العواصف. في الأساطير اليابانية ولد أماتيرازو (النور والرعاية) و سوزانو (الرعد والسلوك العنيف) من نفس الكيان المقدس. وحيث إن والديهما قد ولدا من نفس المصدر، فإن جميع الأشياء تربطها علاقة ببعضها البعض، وجميعها ظهرت من البحر الذي لا شكل ولا اسم له. وهكذا توحي الأساطير اليابانية بحالة صراع فيما يخص المؤنث، ليس فقط في الأساطير، بل أيضًا في الممارسات الحقيقية، حيث إن تنظيمها الأبوي قد قمع الأنثى وحط من شأنها. يوجد توقير للأنثى ونفي لها في نفس الوقت.

يمثل البوديساتفا مظهرا إيجابيا لكل من الذكر والأنثى. دخل الاعتقاد بمعبودات البوديساتفا إلى اليابان عبر الديانة البوذية. والبوديساتفا كيان معبود دافعه التعاطف الشديد مع عباده. وقد أعجب اليابانيين هذا الاعتقاد بأن المعبود يستمع إلى صيحات أهل العالم واحتياجاتهم ويستجيب لها. تخلت البوديساتفا عن النيرفانا (حالة السلام الأبدي) حتى تعرف كل الحياة المحسوسة الاستثارة العظيمة. هؤلاء العظماء يلعبون دور النور لبقية العالم. يلجأ المؤمنون المخلصون إلى البوديساتفا طلبا للحماية، والهداية، والرحمة لتحفظهم من الشر الذي يتبدى في الأوهام، والنعرات وغير ذلك من خطايا البشر. ذكور البوديساتفا وإناثها يحظون بنفس القدر من التبجيل، ومن ثم، فهذه صورة عظيمة لتوازن القوى بين الجنسين في البوذية.

قدماء المصريين:

حلم إقامة الفردوس على الأرض

ظهرت الأسرات المصرية منذ حوالي ٥٠٠٠ سنة، في منتصف فترة الانتقال المستمر إلى النسق الأبوي. وعلى الرغم من عدم وجود شواهد على التعصب ضد النساء في أساطير المصريين القدماء، ووجود الملوك والملكات جنبا إلى جنب، فإن بعض التقارير تشير إلى أن المصريين القدماء قد امتلكوا عبيدا.

كان لقدماء المصريين وجهات نظر شديدة التركيب، وفلسفتهم تستحق التأمل *(Wheelen, 2002)*. اعتقد الناس لفترة زمنية طويلة أن قدماء المصريين كانوا وثنيين يعبدون الكثير من الأرباب والربات. الأصح أن نقول إنهم نظروا للعالم ككيانات قدسية، لكنهم كانوا يعون أيضًا وجود المنشأ القدسي الواحد الأحد، كما يتضح من هذه الفقرة:

الإله واحد أحد لا شريك له. الإله خالق كل شيء. وهو روح خفي، روح الأرواح لدى المصريين. الروح القدس. الإله

أزلي، موجود منذ الأزل، موجود منذ قديم الزمان، وكان موجودًا حين لم يكن لأي شيء وجود سواه. موجود قبل كل وجود. وبعد وجوده خلق جميع الموجودات، وهو أبدي الوجود. يظل اسمه خفيًا؛ غامضًا على أبنائه. أسماؤه لا تعد ولا تحصى، فهي كثيرة ولا يعرف أحد عددها. الإله هو الحق، وهو العائش بالحق الذي يتغذى على الحق. هو ملك الحق وقد أنشأ الأرض على أساس الحق. الإله هو الحياة، ولا يحيا الإنسان إلا به. إنه يهبُ الإنسان الحياة، ينفخ نسمات الحياة في منخريه. هو الذي ولد نفسه وأنتج نفسه. هو الخالق الذي ليس بمخلوق أبدًا (Budge, 1967).

كان لقدماء المصريين رؤية فريدة للعالم؛ فقد رأوا جميع الأشياء في علاقتها بالأشياء الأخرى. كانوا يشعرون بالارتباط بالطبيعة، وفي نفس الوقت أضفوا على الطبيعة صبغة إنسانية. ترمز الصورة الشهيرة للسماء مصورة في هيئة امرأة تلمس يداها أحد طرفي الأرض وتقف قدماها ثابتتان على الطرف الآخر للعلاقة الوثيقة بين السماء والأرض، وتتجلى فيها الرؤية المصرية للكون، وبناء على هذه الرؤية ترتبط جميع الكائنات الحية ببعضها البعض، كما يندمج فيها الجانبان المؤنث والمذكر للكون في كلٍّ لا يتجزأ.

يغلب على الأساطير المصرية التوازن بين الجانبين المؤنث والمذكر. من أبرز هذه الأساطير أسطورة إيزيس وأوزيريس. انحدر نوت وجِب كلاهما من نسل شو (قوة الهواء) وتفنوت (قوة الماء). تزوجت نوت (السماء) من جِب (الأرض). رزق الزوجان بأوزيريس وست، وإيزيس ونفتيس. مثلت هذه الذرية القوى الكونية، التي صورت في شكل مخلوقات آدمية. لم يكن للشر أي علاقة بالجانب المؤنث في الأساطير المصرية. رمز للخير بشخصية أوزيريس، وتجسدت قوة الشر في أخيه ست. كانت إيزيس شقيقة أوزيريس ، كما كانت زوجته – رفيقة

روحه. خدع ست أوزيريس وقتله. على الرغم من زواج نفتيس من ست، فإنها سرعان ما تركته لتساعد أختها إيزيس. وبسبب إخلاص إيزيس وكفاحها تمكن أوزيريس من قهر الموت، وتحرر من جسده وعاش في العالم الآخر.

واستمرت رسالة أوزيريس على الأرض من خلال ابنه حورس. يمكننا أن نرى المرتبة العليا التي يتبوأها أوزيريس في العالم الآخر من خلال هذه الصلوات، التي يرفعها إليه آني، وهو شخص متوفى:

> **النجوم في علياء أفلاكها تدين لك بالطاعة، وأبواب السماء العظيمة تنفتح أمامك. أنت الذي له الحمد في السماوات الجنوبية، وله الشكر في السماوات الشمالية. إن النجـوم التي لا تـذوي تقـع تحت ملاحظتك، والنجوم التي لا تغرب أبدًا هي عرشك. (المرجع السابق)**

وفقا لهذه الأسطورة، سيأتي يوم يهزم فيه حورس ست إلى الأبد، ويصحو أوزيريس، ويعود إلى الأرض، جالبًا معه جميع من كانوا أتباعه المؤمنين.

إن قوتي الخير والشر في تعارض دائم مع بعضهما البعض، لذلك تثار المتاعب. لقد كان الحلم بالقضاء على قوة الشر مغروسًا في النفس الإنسانية منذ بدء التاريخ الأبوي. قد لا يؤدي القضاء على عهد الحكم الأبوي إلى القضاء التام على الحروب والصراعات، لكن من المؤكد أن التوازن بين الجنسين سيلين ويحول الأخطار التي تواجهها البشرية في وقتنا هذا بعيدًا عنا. يستلهم الإصلاحيون وذوو النظرة الثاقبة للأمور المثال الأبوي لحل الصراعات واختلال موازين القوى. لقد سمح هذا المثال بظهور المعارضة له وخلقها في نفس الوقت، مع الاشتياق لشفائه من علله. تظهر هذه الفكرة المشتركة التي فيها شيء من النفاق في الكثير من ديانات هذا المثال؛ مثل عودة المسيح لدى المسيحيين، والمهدي لدى المسلمين، والإمام الخفي لدى الشيعة، وكلها أمثلة قليلة على هذا. وبغض النظر عما إذا كان

هذا الحلم سيتحقق أم لا، إلا أنه يظل ملهمًا لقلوب البشر بالاتجاه نحو أفعال التعاطف، أو أفعال التدمير، ولدى البشرية ميل إلى أن تتجلى معتقداتها في أفعالها.

من جهة أخرى، نادرًا ما يمكن اللحاق بالجانب المؤنث في هذه الدراما المذكرة عن الانخراط في الحرب مع قوى الكون. بدلاً من ذلك، تظهر قوة إيزيس بصفتها مُخلِّصة، وتصير العذراء مريم مانحة الحياة لابنها يسوع.

وعلى عكس الرسائل المحورية التي تقدمها هذه المعبودات المؤنثة، يعتقد أتباع ديانات التوحيد أن عودة نبيهم تعني انتصار دينهم على الديانات الأخرى. وهكذا تعود قوة الشر متنكرة في قناع الخير.

أوضحت أسطورة إيزيس وأوزيريس أنشطة نفسية على مستوى الفرد. إن قوتي الخير والشر مغروستان في لا وعينا، وهما تتصارعان داخل أعماقنا. تساعد القوة المؤنثة التي تمثل التعاطف، والرحمة، والأمومة، والخصب، والتضحية وإنكار الذات البشر وتدعمهم ليختاروا الخير ويغلبوه على الشر، ويشهدوا ميلادا جديدا. كانت إيزيس رمزًا لهذه القوة، من ثم، تظهرها الرسوم في أشكال متنوعة، يمسك كل شكل منها بإحدى سماتها.

التأثيرات اليونانية

كان لأفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان وقع عميق على المثل الأبوية. لقد اكتشفت البشرية من خلال هؤلاء المفكرين العظام قدرتها الكامنة على التفكير العميق في مثل وخصائص ذهنية أكثر نبلاً. الجزء المظلم من هذا التطور في مدارج الارتقاء هو أن المفاهيم الذهنية صارت أهم من الجسد، أو أي شكل من أشكال الانفعالات والعواطف، أو الجانب الحسي، أو الحياة المادية نفسها. استخدم مبدأ *ملوك الفلاسفة* لأفلاطون لتبرير التسلط. وكان أرسطو يعتقد أن النساء ذكور مشوّهون. وقد زعم أن "شجاعة الرجل تكمن في إصداره للأوامر" ***(Freeland, 1994)***. لقد حولت هذه

المحاولات السلطوية مسار التاريخ، بل إن دور المؤنث في مجمع الآلهة والإلهات قد تغير. كانت الإلهة أثينا تحتل موقعًا أساسيًا في الديانة اليونانية الوثنية القديمة قبل ظهور النظام الأبوي. تربط بعض القصص المبنية على الرموز الإلهة أثينا بالأساطير الإفريقية الأقدم منها عهدًا. كانت أثينا ابنة لميتيس، التي تقودنا خيوط نسبها إلى أصلها في الأساطير الإفريقية. صدرت نبوءة تقول إن ابنة ميتيس التي لم تولد بعد ستتساوى مع زيوس في الحكمة، فأكل زيوس ميتيس. ثم أعيد خلق صورة أثينا حين زعم هوميروس أنها قد ولدت من رأس زيوس لا من رحم أم: ومن هنا تأكدت سيادة الذكر.

لقد مثل مجمع الآلهة والإلهات لدى اليونانيين والرومان الكثير من الفضائل التي اعتبرت خصائص إلهية. وقد تم الاعتراف فيما بعد بنفس هذه الخصائص النمطية الفطرية كخصائص مقدسة للإله في كل من مأثورات الشرق والشرق الأوسط. فمثلاً، توجد ممارسة ترديد عبارة متكررة في اليوجا والصلوات البوذية، وإنشاد المسيحيين القدماء لأناشيد تذكر مختلف خصائص يسوع، وترتيل المسلمين لأسماء الله الحسنى البالغ عددها ٩٩ اسمًا (يمكن أن تكون هذه الخصائص متسمة بالشراسة كما أكدت في زيوس، وحكمة أثينا وقوتها، أو قد تتسم بالرقة، وإشعار الناس بالراحة، كخصائص الإلهة هستيا، وهلم جرا).

كان هيديس إلهًا للعالم السفلي، وهو المكان الذي تقدم فيه أرواح البشر للمحاكمة. وكان من المعتقد أن هذه الأرواح ترسل إما إلى أرض مباركة أو إلى أرض مظلمة مستعرة بالنيران. ومن غرائب الأساطير اليونانية أن الآلهة والإلهات[١٠] كانوا وكن قادرين على القتل، والانغماس في الشهوات... إلخ دون لوم، بينما كان على البشر أن يعانوا العقاب على مثل هذه السلوكيات. لا شك أن اتجاه تفكير أفلاطون، وأرسطو، وفيثاغورس، وسقراط وغيرهم من فلاسفة اليونان نحو السعي إلى سبل حياة أكثر نبلاً قد تأثرت بهذه الغرائب. والحق إن معتقداتهم كانت

(١٠) توازي آلهة وإلهات الرومان مجمع الآلهة اليوناني.

على طرف نقيض من الحرية الجنسية التي أخذ بها محاربوهم اليونانيون ومجتمع الصفوة اليوناني.

الجذور الشرق أوسطية القديمة

لاحظ بعض الباحثين أن أساطير مصر القديمة، والأساطير السومرية، والأكادية لثقافات ما بين النهرين وما تلا ذلك من الديانة الزرادشتية التي ظهرت في إيران القديمة كان لها أثر قوي على تطور المعتقدات الدينية الشرق أوسطية (اليهودية، والمسيحية والإسلام).

كانت أرض ما بين النهرين واديًا خصيبًا يقع ما بين نهري دجلة والفرات، وقد امتد هذا الوادي "خارج حدود العراق الحديث إلى سوريا، وأجزاء من تركيا وإيران" *(Black & Green, 1992, p. 11)*. يمتد تأثير ما بين النهرين إلى إسرائيل، والأردن، ومصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط. وكما ذكرنا من قبل في هذا الفصل، لاحظ الكثير من الباحثين تأثيرات مأثوراته الشفاهية على قصص التوراة في العهد القديم.

اخترع السومريون الكتابة في حوالي ٣٤٠٠ منذ ما قبل ميلاد المسيح، وتركوا أساطير ليدرسها المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الأساطير في المستقبل. ووفقا لما كتبه الباحث ستانلي كرامر:

> **توجد مشكلة أخلاقية أساسية أولاها الفلاسفة الغربيون اهتمامًا شديدًا، لكنها لم تقلق بال المفكرين السومريين أبدًا، وهي مشكلة حساسة مراوغة، ألا وهي مشكلة الإرادة الحرة. كان السومريون مقتنعين بما لا يدع مجالاً للجدال أن الآلهة خلقت الإنسان لغرض وحيد، لمنفعته الخاصة ورفاهيته. وقبلوا حالة عدم الاستقلال التي هم**

عليها، كما قبلوا بالضبط القرار الإلهي بأن الموت حق على الإنسان، والخلود للآلهة وحدها. أما جميع استحقاقات الخصائص الأخلاقية العليا، والفضائل الخلقية التي ظهرت بالتدريج وبثمن مؤلم بين السومريين عبر القرون وبزغت من خبراتهم الاجتماعية والثقافية فقد نسبت إلى الآلهة؛ لقد خطط لها الآلهة على هذا النحو، وما الإنسان إلا متبع للأوامر الإلهية (Kramer, 1963, p. 123).

تكشف لنا التسجيلات السومرية أن الشعب السومري "احتفى بالطيبة والصدق، بالقانون والنظام، بالعدالة والحرية، بالصلاح والاستقامة، بالرحمة والتعاطف"، وبالطبع ازدرى السومريون نقيض ذلك: "الشر والزيف، الخروج عن القانون والفوضى، الظلم والقهر ..." (المرجع السابق ص ١٢٧). ظهرت شواهد على هذه القيم في تسجيلات الملوك والحكام الذين حكموا وفقًا لهذه المبادئ. وقد حكم الآلهة الذكور والإلهات الإناث جنبًا إلى جنب(١٢).

وكما ألمحنا من قبل، شكل ظهور الثقافة والسيادة الأبويين نشأة وتطور المُثُل الدينية. إن الديانات المصرية، والهندية، والزرادشتية أمثلة أولية لهذا التحول المبكر. بدأت الديانة الزرادشتية في فارس القديمة (إيران)، وتأسست عند حوالي القرنين السادس والسابع فيما قبل ميلاد المسيح. نبي هذه الديانة هو زرادشت (الذي ترجم إلى الإنجليزية باسم الزرادشتية). تركزت طقوس ديانة زرادشت واحتفالاتها المقدسة على عناصر الطبيعة. وعلى الرغم من التبجيل الجم الذي منحته هذه الديانة للجانب المؤنث آشا، فإن الحق الإلهي والمعبود الأساسي كان إله الشمس آهورا مازدا. انتظم هيكل تصور الكون في الزرادشتية حول الحرب بين الخير والشر، التي تأثرت بلا شك بخشونة الأرض التي عاشا فيها. كان الربان

---

(١١) لم توجد لغة تصور الآلهة والإلهات، والعنصر الذي يفرقهما عن بعضهما وصف أعضائهما التناسلية. تمكن المؤرخون القدامى من فك شفرة من هو الذكر ومن هي الأنثى بفضل هذه الأعضاء الدالة على نوع صاحبها أو صاحبتها (من ذكر أو أنثى)، والتي تشير في نفس الوقت إلى المساواة بين الرجال والنساء.

.الأساسيان هما آهورا مازدا وإله الشر آهريمان (الذي يعرف أيضا باسم آنجرا مينيو).

> **إلى الإله زرادشت، الرب الحكيم، آهورا مازدا، الذي خلق السماوات والأرض، الأول والآخر، لكنه صديق أيضًا، ومن دعاه من البداية باسم الإله لن يمسه سوء. نشأت الحياة من روحه القدس، ومنها خلق الرجال والنساء. وهو معارض للعقل الشرير، والكذب والنعرات. ولابد أن يختار الناس بين هذه القوى المتعارضة، بين هذين الروحين التوأمين. لكنهم إذا اختاروا اتباع سبيل الحقيقة يكون لهم نصيب في عقل الإله ويصلون إلى التكامل والخلود، والإخلاص والملكوت، وجميعها من الجوانب التي للإله (المرجع السابق ص ١٧٨).**

أولت الزرادشتية اهتمامًا كبيرًا للصوم، والتطهر، والطقوس، والآشا – الحقيقة المقدسة التي تعرف من خلال القلب النقي. وقد شملت ديانات الشرق الأوسط التي تلت ذلك (اليهودية والمسيحية والإسلام) أفكارها عن الجنة والجحيم، والخير والشر. وقد أتت هذه الديانات بتصور لنهاية هذا الصراع بين الخير والشر، بهزيمة الشيطان بعد محاكمته بالنار. يمكن أن نرى الخيوط التي ستنسج في النهاية مكونة معتقدات ديانات التوحيد، على الرغم من أن تعاليم يسوع وأمثلته التي أتت بعد حوالي ستمائة عام لن تهتم كثيرًا بممارسات الصوم أو السبت كشواهد على الروحانية الحقة، بل أكدت تعاليم يسوع على أهمية شفاء الناس، وتكريم النساء، وتحدي النفاق، وحماية الآخرين، وعقد علاقات طيبة بين الناس. وهذا مظهر *الآشا* الحقيقية التي تعرف من خلال القلب النقي.

يوجد في الإسلام مثال آخر على هذا الخيط، حيث تتجه الدعوة مباشرة إلى تحرر الروح البشرية عن طريق شرح أنه لا يوجد ما يخيف ولا حتى ما يُعبَد؛ بل يحتاج الناس إلى اكتشاف هدفهم الأسمى في الحياة، وإقامة العلاقة بين أنشطتهم

الدنيوية وهذا الهدف الأسمى. وهكذا يوجه الإسلام البشر إلى الطريق الذي يمكنهم من إحراز هذه الحرية. تلك هي الحقيقة المقدسة التي نسعى إليها.

لقد وجه يسوع ومحمد كلاهما أتباعهما إلى النظر في أنفسهم كي يهزموا الشـــر. هـــذه الرحلة الداخلية تبعد المرء عن إسقاط ما فيه على غيره من البشر أو اتخاذ آليات دفاعية ضدهم، وتقربه من تنظيف القلب البشري وتحريره. تجري هذه الرحلة بتوجيه مما أسماه خيميائيو التصوف اليهودي والإسلامي باسم النمط الفطري المؤنث – وهي الطبيعة الداخلية للقلب التي ترحب باستقبال الآخر والتي لها سمة التأمل. أسمى قدماء العبريين هذه الطبيعة باسم هوخمة(*). وفي الإسلام، يتجلى الجانب المؤنث في هيئة التراحم الإلهي. إن أصل كلمة الرحمن الرحيم في اللغة العربية مشتق من الجذر رَحَمَ، وهو نفس جذر كلمة رَحِم، أي رَحِم الأم. وبزرع هذا الجانب المؤنث في النفس البشرية يرجح أن يحقق البشر التوازن والنضج الروحي. لقد عرف الطاويون الصينيون التعبير المؤنث عن التجلي الإلهي باسم الـــ ين. إنه الطبيعة المؤنثة النقية التي تصورها الديانات الأبوية وتبجلها، لكن الناس يتجاهلونها في العالم الخارجي، حيث كانت النساء – وما زلن – مهانات. إن النفس التي ينقصها التوازن تدفع إلى الفصل بين المثالي والواقعي، وتشجع على العدوان والعنف، أما الجانب المؤنث فهو مصدر للتراحم يخفف من غلواء القوة الذكورية والميول الشريرة ويعيد إليها التوازن.

(*) المنطوق العبري للفظ "الحكمة" (المترجمة).

سقوط الشيطان من الجنة

الشر في اليهودية والمسيحية والإسلام

إن قصص الخلق الموجودة، خصوصًا في اليهودية والمسيحية[١٢] والإسلام، توضح بشكل خاص أن التعالي، والتعصب، والعدوان على الآخرين هي أس جميع الشرور. ومن ثم أتى سقوط الشيطان من الجنة. حاول الكثيرون سرد أسماء المصادر والسلوكيات المتعلقة بالشر، لكنهم لم يهتموا اهتماما كافيا بالقصص التالية من ديانات التوحيد، لأن النسق الأبوي ذكر اسم الشر الخاص به بوضوح. يتآلف التفسير التالي تآلفا صحيحا مع قلب القضايا التي تفصلنا عن وحدتنا الطبيعية (الفردوس).

الهاجادا أصلاً جزء من التلمود اليهودي، وهي إحدى مجموعات القصص اليهودية الضخمة. جمعت هذه القصص عند حوالي القرن الرابع إلى السادس الميلادي، وكانت قبل ذلك جزءًا من الأحاديث الشفهية للحكي.

تناقش القصة التالية – على وجه الخصوص – أس الشر؛ ولابد من قراءتها بروح المدراش. وأكثر ما يهم القراء أنهم سيلاحظون أن هذه الأسطورة المبكرة التي تشكل خلفية نشأة ديانات الشرق الأوسط وتطورها تشير إلى أن التعصب ضد الآخر (على أساس العِرق، أو الدين أو نوع الجنس) هو أس الشرور جميعها.

---

(١٢) حتى بدء العصر الذي بدأ منذ ميلاد المسيح كانت معظم التعاليم الدينية تقدم من خلال الأحاديث الشفاهية. والحق إن الكثير من الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية لم تدون حتى نهاية الثلاثمائة عام الأولى من العصر الذي بدأ منذ ميلاد المسيح.

تصف قصة الخلق في الهاجادا سقوط الشيطان:

حبا الله آدم بصفات رائعة في جسده وروحه، مما أثار حسد الملائكة، فحاولوا إضرام النار فيه، وودوا لو أنها أبادته وأن يد الإله لم تمتد إليه بالحماية وترسي السلام بينه وبين المضيف السماويّ. وكان الشيطان يشعر بالغيرة على وجه الخصوص من الإنسان الأول. وفي نهاية المطاف، أدت أفكاره الشريرة إلى سقوطه. وبعد أن أنعم الإله على آدم بالروح دعا جميع الملائكة للحضور وتقديم آيات التوقير والتكريم لآدم. وكــان الشيطــان كبيــر ملائكة السماء، له اثنا عشر جناحًا، لا ستة أجنحة فقط مثل بقية الملائكة، وقد رفض الانصياع لأوامر الإله، وقال: "لقد خلقتنا – نحن الملائكة – من عظمة الشيكينا(*)، وها أنت تأمرنا الآن بالسجود للمخلوق الذي صنعته من تراب الأرض!" أجاب الرب: "لكن تراب الأرض الذي خلقته منه فيه من الحكمة والفهم أكثر مما لديك منهما" .(Barnstone, 1984, pp. 29-30)

وفقا لهذه الصيغة من قصة السقوط، يطلب الإله من آدم (الإنسان الذي صيغ على غرار النمط الفطري) أن يخمن الأسماء الأصلية للحيوانات التي خلقها. تقول الهاجادا إن الشيطان فشل في هذا الاختبار، الذي أعطاه الإله لآدم الآن. وأرغم الشيطان على الاعتراف "بعظمة الخطوة الأولى في الخلق" (المرجع السابق ص ٣٠). وبعدئذ،

(*) الشيكينا *shekinah* لدى اليهود لفظ مؤنث دال على نور خلق ليكون وسيطًا بين الإله والعالم، وهو في أحد تفسيراته الجانب المؤنث من الأقانيم الإلهية (المترجمة)

... انخرط في نوبة من الصرخات الوحشية التي وصلت إلى عنان السماوات، ورفض تقديم التكريم لآدم كما طلب منه الإله. وتبعته الملائكة من الملأ الذي تحت قيادته، على الرغم من المثول العاجل لميكائيل، الذي كان أول من سجد بين يدي آدم ليقدم لبقية الملائكة قدوة حسنة. خاطب ميكائيل الشيطان قائلاً: "قدِّم آيات الحب لصورة الإله! ولو لم تفعل لانفجر فيك الرب الإله غاضبًا". رد الشيطان: "إذا انفجر الإله غاضبًا ضدي سأرفع عرشي فوق نجومه، وسأصير مثل من هو في أعلى عليين!" وطرد الإله الشيطان وقومه على التو من السماء، فهبطوا إلى الأرض. وترجع العداوة بين الشيطان والإنسان إلى هذه اللحظة. (المرجع السابق ص ٣٠).

تقول هذه الفقرة إن حياة الإنسان ظهرت من أفكار الكيان الإلهي وقدرته على الخلق، ثم اتخذت شكلاً ماديًا. وتشير أيضًا إلى أن القدرة على فهم مختلف أشكال الخلق وسرد أسمائها كانت إحدى قدرات الوعي البشري (ربما يشير هذا إلى قدرة البشر على إدراك الأسباب بالعقل والوظائف العليا للدماغ). تخبرنا الأسطورة أن الشيطان تملكه الغضب لأن هذا التجلي الإنساني في المخلوق من تراب سيتلقى تبجيلاً يفوق ما يتلقاه من خلقوا من روح نقية (الملائكة). وفكرة أن الملائكة قد خلقوا من عظمة الشيكينا (كلمة عبرية مؤنثة معناها النور المقدس) وكان عليهم "السجود أمام مخلوق خلقته من تراب الأرض!" (المرجع السابق ص ٣٠) لم تجد قبولاً لدى الشيطان. تقرر إيلين باجلز، أستاذة الديانات بجامعة برنستون، ومؤلفة كتاب *أصل الشيطان* ***The Origin of Satan*** أنه

في التوراة العبرية، كما هو الحال في اليهودية السائرة حتى يومنا هذا، لا يظهر الشيطان أبدًا كما تعرفه المسيحية الغربية، كقائد "لإمبراطورية الشر" المكونة من

جيش من الأرواح التي تملكتها الكراهية فجعلتها تشن الحرب على الإله وعلى الجنس البشري على قدم سواء. والشيطان كما يظهر للمرة الأولى في التوراة العبرية ليس شريرا بالضرورة، وهو أقل معارضة للإله. يظهر الشيطان على العكس في سفر العدد وفي سفر أيوب كأحد خدام الإله المطيعين – كرسول أو ملاك ... (Pagles, 1995, p. 39)

تحكي لنا القصة أن الشيطان هو أحد الملائكة، ويعني هذا ضمنيا أنه لم ينشأ في الشر (فهو ليس كإله الشر عند الزرادشتيين، آهريمان/آنجر مينيو الذي هو في حرب لا تنقطع مع آهورا مازدا، إله النور). إن فكرة التعالي هي التي منعت الشيطان من الاعتراف بآدم، وجعلت نوره يخبو.

في هذه القصة، يؤدي إدراك الشيطان لنفسه ككائن مغترب منفصل إلى استدعاء شعور بالمرارة تجاه الآخر. وقد يخلق فكر الانفصال الغيرة، والحسد، والكراهية. وعلى الرغم من أن الشيطان يمثل شخصية رمزية من الأنماط الفطرية، فإنه يرمز إلى ما في داخلنا من صراع بين النور والظلمات، بين الوحدة والانقسام، فمثلا، يتحقق غرض الشيطان حين تعتبر جماعة من الناس نفسها شعبًا مختارًا يعلو على الآخرين، أو حين تدعي أمة أو عِرق أنه الأعظم من الآخرين، مع الحكم على هؤلاء الآخرين بأنهم أقل قدرًا منه، وكافرون، ويستحقون غضب الله، ومنبوذون، وما إلى ذلك. لاقى هذا التأثير المظلم قبولاً لدى اليهود الأولين حيث يصور العهد القديم التعصب بوضوح حين قيل للإسرائيليين أن يتخذوا عبيدًا من بين الأميين لا من بين أقاربهم (سفر اللاويين ٢٥: ٤٤-٤٥). أما عن التعصب ضد النساء، فقد اعتبرت حواء كبش فداء، مما أدى إلى أبشع أنواع الظلم للنساء. فمثلا، تنصح الآيات ١١-١٤ من الإصحاح الثاني لسفر الرسالة الأولى إلى تيمـوثاوس "لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. لكن لست آذن للمرأة أن تعلِّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم جُبِلَ أولاً ثم حواء. وآدم لم

يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي". ومن الواضح أن هذه الآيات قد أغفلت فكرة أسطورة سقوط الشيطان.

وفي القرآن قصة مماثلة لقصة الهاجادا. يعرف الشيطان في هذه القصة باسم إبليس. وفيما يلي آيات من سورة الأعراف (الآيات ١١-١٧)

ولقد خلقناكم[١٤] ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك

قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.

قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين.

قال أنظرني إلى يوم يبعثون.

قال إنك من المنظرين.

قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين.

تؤكد هذه القصة أيضًا على الفكرتين الأوليتين عن الشر. إحداهما هي قصة التعصب *المستكبر* ضد خلق الإنسان (رفض السجود لآدم)، والأخرى أن الكائن الداخلي، الروحاني (المخلوق من نار) أعظم من المادة الترابية (المخلوق من فخار). والمثير للدهشة أن كلمتي مادة ***matter*** وأم ***mater*** [باللغة الإنجليزية] لهما نفس الجذر، فهناك علاقة بين رفض النساء، والولادة، والنزعات والحياة الجنسية، وما إلى ذلك.

---

(١٣) تتميز لغة القرآن بتغيير الضمير الدال على الذات الإلهية من نحن إلى أنا إلى هو، وكلها ضمائر تشير إلى الإله (الله).

تشير القصص الشرق أوسطية إلى أن للشر تعريف واضح بيِّن، إذ يعرف بأنه التعالي المستكبر على الغير. وحين ننفي الحياة الأرضية ونحكم عليها بأنها أقل قدرًا من السماء، فإننا بذلك ننقص من تأثير الخلق الإلهي كلي الانتشار. يوضح القرآن وغيره من النصوص الدينية قوة الشر مع ما يتجلى فيها من تفكير ذاتي متحجر ومشاعر سلبية تستولي على قلوب البشر. وعلى الرغم من هذه التوضيحات يظهر الشر في إساءة استخدام الأساطير الدينية على نطاق واسع، مما أدى إلى الإساءة للنساء.

لابد أن نجد طريقة للقضاء على الخطوط الحادة التي تفصلنا عن بعضنا البعض. وهذا ما أدركه يسوع، ، الذي أكد على قيمة الروح المحبة المهتمة برعاية الغير حين شرح أن الغضب والكراهية هما أصل جميع الأفعال الشريرة:

> **وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رَقا يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم (إنجيل متى. الإصحاح الخامس: ١٢).**

وأضاف في خطاب آخر:

> **فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب. وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت. فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته. فكيف تثبت مملكته (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر: ٢٥-٢٦).**

وقد حدث الكثير من سوء الفهم حول هذه الأقوال المجازية. لا ينبغي أخذ صورة "مملكة" الشيطان (الجحيم) على أنها وجود حرفي لكيان سياسي. يظهر هذا التأثير في قلوب البشر الذين اختاروا الكراهية، والغضب والتعالي طريقة للحياة. إنه مظهر من مظاهر "الأنا الصغير"، لأن الذات التي تحكمها هذه الخصائص

تتجلى فيها مظاهر عالم الجحيم. أما النور، والحكمة، والحب، والجمال فمن مظاهر السماء. لقد أسهم عكس الشر على جماعات أخرى في نشوب العديد من الحروب، والموت، والأسى. لا يمكن إنجاز الانتصار على تأثير الشر من خلال الكراهية والانتقام، بل بإنعاش روح الحب داخل الفرد وتجاه الآخرين. لقد كانت جميع أنواع الوحي هادية للبشرية لطريق الحب لا الكراهية، لكنها منعت بسبب قهر الأنثى.

يتبدى الشر في الصراعات المثيرة الموجودة في جميع أنحاء كوكبنا. ومن المفارقات أن الأساطير التي استكشفت هذه الموضوعات المبدئية استكشافًا مجازيًا قد أخذت على محمل حرفي واستخدمت لتغذية أحاسيس النعرات والتعالي. يكمن أخذ أساطيرنا وحكاياتنا الدينية على محمل حرفي في أننا نميل إلى تجاهل الرسالة التي تحملها، وبدلاً منها، نضفي الصبغة الشيطانية على الآخر (ويظهر هذا الخطر على وجه الخصوص في الأفكار الأصولية). فمثلاً، وصفت القصص الواردة في هذا الفصل أفكارًا جمعية تتعلق بقوى الظلام أو الشر. وهي تتضح في عنفنا نحو الآخرين، خاصة المختلفين عنا في الديانة، أو اللون، أو نوع الجنس. وتشير أسطورة الشيطان التي تأثرت بها اليهودية والمسيحية والإسلام على وجه الخصوص إلى أننا كلما صورنا طرفًا آخر في صورة شيطانية، سواء كان إنسانًا، أو عِرقا، أو أمة، أو ديانة، يكون هذا النمط الشيطاني الفطري قد تغلب علينا.

الخلاصة

على الرغم من اختلاف الكثير من الأساطير التي تناولناها في هذا الفصل في الشكل والمضمون، فإن تيارًا مستمرًا يجمع بينها، ينصح البشر باحترام أشكال الحياة الأخرى، وأن يجدوا طريقة للعيش في سلام ووئام. جميع الأساطير والقصص الدينية تشمل معيارًا للسلوك الأخلاقي وشكلاً من أشكال تعليم الناس العلاقات التي تربط الأسباب بالنتائج أو العواقب، وبعبارة أخرى أن "المرء يحصد ما زرعه". نجد أمثلة على هذا في العهد اليهودي، والسبيل البوذي ذي الثماني شعب، والشريعة الإسلامية والقاعدة الذهبية المسيحية. وعلى الرغم من أساطيرنا الهادية ومعتقداتنا الدينية ذات الجذور العميقة، وتطورنا التكنولوجي، ما زال جانب كبير من الإنسانية لا يحترم حسن أحوال أخوته وأخواته، فيختار الناس أن يقتلوا بعضهم بعضًا، وأن يهددوا بيئتنا بالخطر. وكثيرًا ما يدعم من كرسوا أنفسهم للدين قراراتهم المدمرة بما يقدمونه من تفسيرات أصولية محدودة الأفق للنصوص المقدسة. يكشف هذا الاختيار عن عجز واضح أو رفض صريح للاندماج مع الآخرين والتعرف عليهم على أساس التعاليم الأخلاقية الحقة والدينية كما كشفت عنها أساطيرنا وتحدث بها أنبياؤنا. وللكثير من هذا الرفض للالتزام بأخلاقيات رعاية أحدنا للآخر علاقة بالسيادة الأبوية، وهكذا يمثل اختلال موازين القوى بين الجنسين. وهذا هو السبب في أن الكثير من الأساطير قد أشارت إلى انفصال الأرض عن السماء عند بدء السيادة الأبوية *(Parrinder, 1971, p. 155)*. وهي ترمز مجازيًا إلى أنواع الفصل غير الرشيد بين السماء والأرض، وبين العقل والجسد، والذكر والأنثى، الذي تسلل من مسام مؤسساتنا الدينية وأدخل الدمار على علاقاتنا الإنسانية.

لا يمكننا تغيير الماضي، لكن يمكننـــا تغييـــر اتجاهنـــا نحوه. انزعوا الشعور بالذنب وازرعوا السماح. مزقوا جذور الغطرســة واغرســوا بــذور التواضــع. اســتبدلوا الحــب بالكراهية- وبذا تجعلون الحاضر مريحًا والمستقبل واعدًا

مايا آنجلو

الفصل الثاني

ممارسة الفرد للعنف باسم إلهه

ظهرت شواهد واضحة على تأثير النسق الأبوي. بحلول عام ٣٠٠٠ ما قبل ميلاد المسيح؛ وقد بدأت تقاليده الدينية في الظهور في ذلك الحين. بدأت سلسلة أنساب حكام مصر الفراعنة (الملوك منهم والملكات) في حوالي ٣٥٠٠، كما أسست تعاليم الفيدا الهندية في هذا الزمن، وفيها هيكل تعاليم اليوجا التي ستنتقل فيما بعد إلى البوذية. ودعا إبراهيم(*) إلى مثال ديني ثوري اعتنقه الشعب العبري وقواه الآباء الذين تلو إبراهيم، ألا وهو الاعتقاد بأن للكون إلهًا واحدًا لا شريك له. واحتقر هذا المثال الآلهة والإلهات القدامى وأسقطهم من حسابه. كانت هذه بداية ديانة توحيد، ستشمل في النهاية المسيحية والإسلام. كان تطور جديد في ارتقاء البشرية يجتاح الإنسانية، تحول سينتهي به الأمر إلى أن يجلب لنا مأزقنا الحالي – نحو الأفضل أو الأسوأ.

تصف الباحثة النسوية اليهودية لويز جيردا كيف دعمت ديانات التوحيد الأيديولوجية الأبوية، وتشرح ذلك بقولها:

> **تدعم ديانات التوحيد النسق الأبوي بحيودها عن بصيرتها الأولية. عندما يأخذ النسق الأبوي مبدأ الوحدة**

(*) وردت أسماء الأنبياء في النص الإنجليزي بالمنطوق العبري (إبراهام وليس إبراهيم، وإيزاك وليس إسحق مثلاً). ولكني فضلت ترجمتها بالمنطوق العربي حتى لا يشعر القارئ بالغربة (المترجمة).

ويقسمه إلى اثنين، عندما يزاح الإله من العالم ويوضع فوقه، حين لا تعود الحالة الإلهية مغروسة في صميم جبلتنا بل توجد كمثال يقع خارج أنفسنا، عندما يحدث كل هذا يُنفَى الإله والعالم كلاهما. المشكلة بعبارة أخرى ليست وحدة الحالة الإلهية، لكن اتخاذها وضع الآخر. المشكلة في تصورنا عن العلو، الذي نضعف أنفسنا من خلاله ونحن نصور الإله كقوة تعلو علينا (Dorff & Newman, 1998, p. 134).

وبهذه الطريقة وضع كتاب *مُركّب السلطة المقدسة* *Sacred Authority Complex* لموريس بيرمان Morris Berman في موضعه الصحيح.

وعلى الرغم مما جبلت عليه البشرية من أخطاء، فإننا لا يمكننا إنكار أنها تعلمت الكثير خلال هذا العصر الأبوي، وهذا ما تبدو شواهده في الأعمال العظيمة للعمارة، والشعر، والفن، والموسيقى، كما توجد هذه الشواهد في الفلسفات النبيلة، والتقدم العلمي، وغير ذلك من المساعي. ونراها أيضا في أجمل عناصر الحياة الدينية، حيث التراحم، والجمال والنبل.

كان للمعلم الصوفي المرحوم حضرة عنايت خان (١٨٧٧-١٩٢٧) طريقة جميلة لوصف جوهر مأثورات ديانات العالم. لقد ساوى بين الدين الحق والموسيقى، إذ قال إن كل ديانة على حدة:

تعزف لحنًا يلبي متطلبات الإنسانية في عصر معين. لكن في نفس الوقت، فإن مصدر كل لحن هو نفس الموسيقى التي تتجلى حين ترتب النغمات مع بعضها البعض. جميع الديانات المختلفة هي الألحان المختلفة، وحين ترتب معًا تأتي بالموسيقى.

تبدو شواهد هذا التآلف في الجمال والقوة والحكمة التي يتسم بها المعلمون والأنبياء العظماء الذين بدعوا كل ديانة من الديانات. إن قلب كل ديانة يصدح منذ بدايتها برنين الحب، والتآلف والجمال الكونيين. هي بعبارة أخرى ليست ألحانا رتيبة متكررة، بل تنشأ من نفس المصدر بطريقة جديدة، وفي هذا التجلي للديانات تكمل كل منها الأخرى. وبغض النظر عن هذا، تنمو داخل كل ديانة عناصر تدميرية عقب فترة قصيرة من موت نبيها، إذ يحاول الأتباع صب تعاليم الديانة في قالب ملموس، يقوم غالبًا على أساس تفسيراتهم. وسرعان ما تتغلب الميول السائدة، إذ يتجاهل أتباع العقيدة الدينية قوة القلب وإلهامه، ويعتمدون تمامًا على الطرق المتزيدة والأبوية في التفكير، ويشددون على توضيح الفوارق بينهم وبين الجماعات الأخرى وأنساق الاعتقاد الأخرى، وتوضع قواعد لضمان التزام المرء بسلم التراتب الهرمي المتفق عليه. أما من يقعون خارج هذا النظام الجديد فيصوَّرون في صورة شيطانية، وسرعان ما تتحول الألحان الموسيقية إلى ضوضاء كريهة، وتفقد ما كان بينها من تآلف في إطار الوحدة.

يدرس هذا الفصل تطور ديانات العالم الكبرى، ويلاحظ الطرق التي فشلت بها هذه الديانات في تحقيق ما نادت به من مُثُل. نبدأ بالقول بأن ميل المرء إلى الادعاء بالعظمة والدفاع عن دينه يضرب بجذوره في الخوف - والخوف يفاقم العنف (سنناقش موضوع الخوف في الفصل الثالث). غالبا ما تُبنَى دفاعاتنا على ما نحكم بأنه مقدس، مثل التعاليم الدينية التي تؤثر في مُثُلنا، ومعتقداتنا، وأحاسيسنا. لكن ما إن تضع الذات ما تدعيه في علاقة بأي تعاليم دينية حتى يتخذ هذا التبجيل صفات أخرى. تظهر هذه المشكلة بسبب الاعتقاد المغلوط بالتفرد، الذي ناقشناه في تحليلنا لسقوط الشيطان. إن الميل إلى الادعاء بامتلاك *الحقيقة المطلقة* والانخراط في *الطاعة العمياء* يغذي هذا الشر بالوقود (Kimball, 2002).

والأهم أن العنف الذي يرتكبه الفرد باسم ديانته علاقته واهية بالديانة، هذا إذا كان له بها أي علاقة أصلاً، لكن له علاقة بالميول الشريرة داخل الذات

الإنسانية. تعني كلمة شر في اللغات السامية أساسا "فج" (Douglas-Klotz, 1999, p. 1). هذا يعني أن الفرد الشرير يستخدم القوة قبل أن يكتمل تطوره. يتطلب التطور الإنساني الحق توازن القوى بين الجنسين، لإرساء التآلف بين العقول، والقلوب، والأجساد. يؤدي هذا التوازن للقوى بين الجنسين إلى خبرة الوحدة المحسوسة – شفاء الانفصال.

تطلب جميع التعاليم المحورية لأي ديانة من المؤمنين أن يتحابوا ويتراحموا فيما بينهم، لأن هذه هي التصرفات المثلى للإنسانية الروحانية، وكما تشير الأمثلة التالية، فشل الكثيرون من الملتزمين بالأديان في الإنصات لقلب الدين. لقد عانى كم لا يعد ولا يحصى من الملونين بسبب التعصب الديني وانعدام التسامح، وما زالت النساء من مختلف الأعراق والديانات يقعن ضحايا للتمييز، والقتل، والاغتصاب، وهذا علامة على فارق آخر أساسي بين الجنسين. ففي معظم الأحوال يرتفع مستوى التستوستيرون لدى الذكور كرد فعل لإدراكهم بوجود ما يهددهم؛ بينما تميل النساء إلى مد الأيدي والارتباط بالآخرين. وهذا هو سبب أهمية دور النساء في هذه المرحلة من مراحل تطور البشرية، إذ سيساعدن على تحويل اتجاه موجة المد.

للأسف، تسبب تأثير العقلية الأبوية المقاتلة في دعوة التعاليم الدينية للكثير من تصرفات العنف، وما زالت تدعم هذه التصرفات. نجد مثالا على هذا في سفر القضاة (١٩: ٢٤–٢٧) في التوراة المسيحية–اليهودية. تخبر هذه القصة القراء بأن الأب رب البيت وضيوفه الذكور يهددهم "أولاد بليعال". يرد الرجل: " ... لا يا إخوتي لا تفعلوا شرًّا بعد ما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة. هوذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأذلوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح". ولسبب ما تلاقي الابنة رفضًا، لكن المحظية "تغتصبها العصابة" (Eisler, 1987, pp. 101-102) ويجدونها ميتة على عتبة الباب في الصباح. هذا مجرد مثال واحد من أمثلة التعصب ضد النساء

الكثيرة المذكورة في التوراة. ومن المهم أن نعترف أيضا أن النساء -علاوة على الرجال- يمثلن هذه التأثيرات الأبوية وما يتعلق بها من سلوكيات.

تعطينا آن كولتر (وهي كاتبة صحفية ومؤلفة لكتب تحقق أحسن مبيعات) مثالاً على هذا في مقالها المعنون "لماذا يكرهوننا"؟

> **لا يرغب الأمريكيون في جعل المتشددين الإسلاميين يحبوننا. نريد أن نجعلهم يموتون. لا يوجد ما يردع المتشددين الغاضبين مثل الألم الجسدي المبرح. آسف لغضبهم - فلينتظروا حتى يروا الغضب الأمريكي. كان الطيارون الكاميكاز اليابانيون يكرهوننا ذات يوم أيضًا. وبعد قنبلتين نوويتين أحسن تصويبهما، صاروا الآن حملان صغيرة وديعة، لقد جذب هذا انتباهي (Coultar, 2002).**

من الواضح أن النساء يمكنهن مثل الرجال تمثيل عقلية مدمرة. إن هذا الدافع المنحوس، دافع العظمة يظهر في جميع أنحاء العالم، وفي جميع أيديولوجياته الأبوية. لو أردنا النجاة من "الحرب ضد الإرهاب" التي تدفع أمريكا عجلتها، فلابد من تغيير هذا النموذج.

إن اختلال موازين القوى بين الجنسين من مظاهر اختلال التوازن الروحاني الذي تكرسه الأيديولوجية الأبوية. بل حتى علاقتنا بالطبيعة أبوية من حيث استغلالنا لها من أجل أهدافنا، دون اعتبار لجمالها الطبيعي ومستقبلها. الإله فوق الرجل، والرجل فوق المرأة، والإنسان فوق الطبيعة. وإله ديانة ما أعظم من إله ديانة أخرى. تتباين هذه الآراء تباينا شديدًا مع الفهم القائم على التوحيد، الفهم الذي يدرك أن الإله يوجد دائمًا داخل جميع مظاهر الحياة.

وكما لاحظنا في بداية هذا الفصل، شجع النسق الأبوي نظرة جديدة للحياة، أدت لفترة من الزمن إلى حدوث نمو ديني وروحاني معتبر. ظهرت مساعٍ فلسفية

وعلمية، وحدث تقدم مادي سريع، لكننا خسرنا علاقتنا المقدسة بالطبيعة. ومع سيادة تعاليم البوذية، والكونفوشيوسية، والمسيحية، والهندوسية، والإسلام، واليهودية، والطاوية، والزرادشتية اختفت تقاليد تبجيل الإلهات السابقة واكتنفتها الظلال. وانتقص من قدر النساء، وحكم عليهن بأنهن أدنى قدرًا من الرجال.

مؤسسو الديانات

وتوازن القوى بين الرجال والنساء

كشف أنبياؤنا عن توحدهم مع الإله؛ وأظهروا تكاملاً روحانيًا وعلَّمونا طريقة الكشف عن قدراتنا الإنسانية الكامنة. كما أوضحوا بالبيان العملي الحب والتراحم اللذين كثيرًا ما تربطهما المجتمعات بالنساء، والقوة والمعرفة اللذين يربطان تقليديًا بالرجال. وكان يسوع ومحمد على وجه الخصوص من مؤيدي المساواة، وعلَّما الآخرين أن يعاملوا النساء باحترام، وتبجيل ومساواة. لقد مثَّلا كائنين بشريين *كاملين مكتملين*.

إن قصة العهد الجديد عن حديث يسوع مع المرأة السامرية عند البئر (يوحنا ٤: ٧-٤٢) توضح آراءه المتسمة بالمساواة، كما توضح قبوله *للآخر*. سألته المرأة: "... كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية، لأن اليهود لا يعاملون السامريين" (يوحنا ٤: ٩). وفي رد يسوع على هذه المرأة قبول لها كامرأة وكسامرية، كما كشف رده عليها أيضًا عن معرفته بالتفاصيل الحميمة لحياتها. ثم شرع في مخاطبتها بخطاب روحاني عميق قادها إلى فهم داخلها واكتشاف نفسها روحانيًا. تقول لنا القصة إن هذه المرأة استمرت في سعيها لتشارك السامريين الآخرين في رسالته، وإنهم أتوا ليستمعوا له. وهذا ليس إلا مثالا واحدا

من بين الكثير من الأمثلة الدالة على موقف يسوع المتوازن والشامل من مسألة موازين القوى بين الجنسين.

إن *إنجيل مريم* جزء من مجموعة مكتبة نجع حمادي(*) من النصوص الدينية التي اكتشفت في عام ١٩٤٥، وفيه معلومات تجاهلتها نسخة العهد الجديد عن علاقة يسوع بمريديه بل إن إنجيل مريم يكشف الكثير من التعاليم المحورية ليسوع وعلاقته غير الأبوية بالنساء. وهذا ما تشرحه مقدمة الإنجيل:

> **يمثل بطرس وأندراوس المواقف الأورثوذكسية التي تنكر صدق الوحي الذي لا يفهمه إلا الخاصة وترفض إعطاء النساء سلطة التدريس. يهاجم إنجيل مريم هذين الموقفين مباشرة من خلال الصورة التي يرسمها لمريم المجدلية. إنها مُخَلِّصة المحبوب، تلبستها معرفة وتعاليم أعظم من الحديث العام للحواريين. تقوم عظمة مريم المجدلية على قدرتها على تقوية المريدين المذبذبين وتحويلهم نحو الخير (King et. al., 1990, p. 524).**

(*) اكتشف أحد القرويين بالصدفة في عام ١٩٤٥ بالقرب من قرية نجع حمادي جرة بها مخطوطات قديمة هي ما عرف لاحقا بمخطوطات نجع حمادي التي تحتوي الأناجيل والكتابات الغنوصية مكتوبة باللغة القبطية. غالبية هذه النصوص تعود إلى الفترة من أوائل القرن الثاني وحتى أواخر القرن الثالث الميلادي، وربماً بعد ذلك بقليل، وفيها فكر مُخالف للفكر المسيحي التقليدي الذي اعتنقته الكنسية القبطية الأرثوذكسية في مصر منذ القرن الرابع الميلادي وحتى الآن. من بين نصوص هذه المجموعة إنجيل مريم، وإنجيل توما، وإنجيل الحق ***Pistis Sophia*** وإنجيل المصريين (المترجمة).

وقد وجدت قصص عن مواجهة مريم لبطرس بشأن طُرقه الأبوية في *إنجيل توما*، *وإنجيل الحق* *Pistis Sophia*، *وإنجيل المصريين*(*) (المرجع السابق).

وقد تمثل تقدير النبي محمد للأنثى واحترامه لها في علاقاته العائلية. فمثلا، آمنت به خديجة، زوجته وتوأم روحه، وطمأنته حين شك في صدق التجربة التي مر بها. عندما ظهر جبريل لمحمد للمرة الأولى كانت خديجة هي التي ساعدته ليثق في تجربته الروحانية، إذ طمأنته لعظمة الوحي الذي تنزل عليه. ومنذ تلك اللحظة تغيرت حياة محمد:

> **لم يكن محمد بقادر في السنوات المبكرة من رسالته النبوية على تدبير الأمر دون مساندتها ومشورتها الروحانية. وقتما كان أعداء محمد يهاجمونه أو حين كان يهتز بقوة تجربته الصوفية كان يتجه رأسًا إلى زوجته ليجد لديها الراحة. وظلت خديجة (أول من آمن بقدرات زوجها**

(*) إنجيل توما ليس إنجيل قصص وسيرة ليسوع كما هو الحال في الأناجيل الأربعة التي وافقت عليها الكنيسة واعتمدت قانونيتها منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلاديًا، بل هو عبارة عن أقوال أو تعاليم تأتي على لسان يسوع يبلغ عددها ١١٤ مقولة أو تعليمًا.

أما إنجيل مريم المجدلية فيرجح أنه قد كتب ما بين عامي *120* و١٨٠ م. وعلى الرغم من شهرة هذا العمل فإن معظم العلماء لا يعده إنجيلا. وما يجعل من الصعب وتقبّل هذا الإنجيل هو بالضبط ما يعطيه أهميته، لأنه إنجيل، مستوحى من امرأة كانت تدعى مريم المجدلية؛ وهذه لم تكن فقط تلك "الخاطئة" التي خلصها المعلم وتحدثت عنها الأناجيل القانونية، ولا تلك التي تحدثت عنها بعض المنقولات الحديثة التي خلطت بين خطاياها المفترضة وبين ما اعتبرته اضطرابًا لقواها الحيّة والجنسية؛ إنما أيضًا وخاصةً هي تلك التي كانت الرفيقة المميزة ليسوع، التي تتلمذت على يده ونقلت أكثر تعاليمه سرية.

أما إنجيـل الحـق ***(Pistis Sophia)*** فينقسم إلى ثلاثة أجزاء، كتبت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وموضوعها أحاديث بين المسيح القائم من بين الأموات وتلاميذه، وخاصة يوحنا ومريم المجدلية، ويروي تكوين العالم المحسوس والسقوط في الخطيئة والفداء.

ومن ضمن نصوص هذه المجموعة أيضًا إنجيـل المصرييـن المعروف أيضًا باسم الكتاب المقدس للروح العظيمة الخفية. (المترجمة).

الاستثنائية) تقويه، وتخفف عنه حمله، وتنشر ما جاء به من حق (Armstrong, 1992, p. 80)

شاركت خديجة النبي في رسالته، لا كمجرد إحدى المؤمنات، بل كشريكة نشطة وضعت أموالها وجهودها تحت تصرفه. لقد تحملت خديجة أصعب ما مر بمحمد من ظروف، وحزن النبي حزنًا شديدًا لوفاتها. لم يكن لدى النبي أعز من خديجة، زوجته الأولى، لأنها قدمت له الحب، والإيمان، والدعم المالي حين تخلى عنه جميع من في عالمه.

كما كان محمد يكن لابنته فاطمة حبًّا عميقًا، وكانت موضع احترام الجميع. حازت فاطمة الإعجاب لفصاحتها وقدرتها على الحديث من القلب مباشرة. ويقال إنها "كثيرًا ما أثارت مشاعر الناس متى تكلمت حتى تفيض دموعهم" (Helminski, 2003, p. 11). لم يعتبر محمد النساء أقل قيمة من الرجال، بل كان يأخذ مشورتهن بجدية. وبعد خيبة الأمل التي انتابته بعد صلح الحديبية (معاهدة مع أعدائه) أخذ مشورة زوجته أم سلمة، وبذا تجنب الغضب والتمرد.

وكانت لزوجة أخرى من زوجاته (هي عائشة) منزلة خاصة في التاريخ الإسلامي. نصح محمد أتباعه بالاستماع إلى حكمتها، ويعتقد أن عائشة قد وضعت أسس "القواعد الأساسية للأخلاقيات العربية – الإسلامية" (المرجع السابق ص ١٥). باختصار، كان محمد رجلاً رحيمًا ومتزنًا، شعر بالامتنان لقوة زوجاته، لا بالتهديد منها. لم يتوقع أن يتسيد عليهن، وكما أسهمن في الحياة الدينية والسياسية والأخلاقية لمجتمعهن المحلي، أسهم هو الآخر في حياة البيت، بإصلاح نعليه، وخياطة ثيابه، وكنس البيت، ورعاية الماشية.

إن ما أبداه مؤسسو دياناتنا من حب وتراحم وعطف يدل أكثر ما يدل على الجانب الأنثوي الأمومي من الخالق الأعلى. إن هذا *التوازن بين الجنسين* قد امتزج

جيدًا بشجاعتهم التي لا تلين لها عزيمة، وقوتهم، واتضحت لديهم الحكمة الإلهية والتكامل.

سيصف هذا الفصل الفظائع التي ترتكب باسم الدين مع تجاهل أتباعه للقدوة التي يضربها أنبياؤهم وتعاليمهم في التوازن بين الجنسين. من الصعب على المتمسكين بدين معين أن يواجهوا جانبه المظلم، لكن هذا أمر ضروري لهم كي يمثلوا حقا قلب الدين. وإذا أردنا أن نحول النماذج القديمة فلا بد أن نكون على استعداد لفحص اتجاهاتنا، ومعتقداتنا، وسلوكياتنا، وإخراجها إلى ضوء الوعي.

لابد أن يقوم إيماننا وعملنا على أساس قلب الدين ورسالة مؤسسيه التي *تقدم لنا القدوة*، لأن هذا هو ما يحمل الحقيقة، وليس التحكم في الآخرين وأفكار التعاظم عليهم، التي أسسها الأتباع المتأخرون بعد وفاة مؤسسي الدين. وعلى الرغم من أننا سنزيد من التشديد على ديانات التوحيد التي نشأت في الشرق الأوسط، ألا وهي اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فإننا سنضرب أيضًا أمثلة تاريخية على العنف الديني الذي اقترفه أتباع الديانات الأخرى. ونتائجنا تدعم فكرة أن هذا الشر له جذور عميقة في ظلال الإنسانية.

لا سمع ولا امتثال للنصح:

رسالة الأنبياء

إن الأصولية في صعود. وكما تشير الأحداث الأخيرة التي شهدها العالم، يوجد أصوليون في معظم الديانات، إن لم يكن كلها. أشارت المؤرخة الدينية كارين أرمسترونج في حديث أدلت به مؤخرًا في مجلس برلمان ديانات العالم إلى أن الأصولية تظهر في شكل "تمرد على المجتمع العلماني الحديث، لأنها تدركه كتهديد لها"، وأنها "تضرب بجذورها في الخوف من تعرضها للإبادة" ,Armstrong

(2004. وقد أسهمت التكنولوجيا سريعة التغير في هذه الظاهرة، كما أسهمت فيها النزعة التجارية بدافع الجشع، والخوف من المجهول.

إن المعتقدات ضيقة الأفق التي تعبر عنها عقلية الأصولية *الراديكالية* تشجع على الإتيان بسلوكيات مدمرة؛ وهي الحضانات التي يتربى فيها التعصب والنعرات. وقد أدى هذا إلى استمرار الحروب والإبادة العنصرية دون احترام لحسن أحوال الآخرين. وكثيرًا ما يعتمد الأصوليون المستندون على الديانات على النصوص المقدسة لإضفاء المصداقية على معتقداتهم، ولتأكيد هويتهم. لكننا نجد في معظم الأوقات معتقدات محورية مثيلة وحكايات تتكرر في الكثير من الديانات. فمثلا، اليهود والمسيحيون والمسلمون جميعهم يرجعون إرثهم إلى إبراهيم. على الرغم من أن نُسَخ الحكايات تختلف عن بعضها بعض الشيء، فإنها جميعها فيها أفكار واحدة يمكن تتبعها إلى الجيل التوراتي لإسحاق وإسماعيل(*) في عام ١٨٠٠ ما قبل ميلاد المسيح. تسمح لنا قصتهما بإلقاء نظرة على أوجه التشابه بين الديانات اليهودية، والمسيحية، والإسلام، كما تفسر لنا شعور أتباع كل ديانة منها بأن أتباع الديانتين الأخريين *آخر* بالنسبة لهم.

تحكي لنا القصة التوراتية عن هاجر (اسم مصري يعني "المهاجرة")، خادمة سارة زوجة إبراهيم. حين أدركت سارة أنها عاجزة عن الإنجاب، منحت هاجر لإبراهيم ليتخذها زوجة ثانية له (تكوين ١٦: ٣) على أمل أن تحمل وتنجب له ابنا. حملت هاجر بإسماعيل، لكن بعد عدة سنوات أنجبت سارة ابنها إسحاق، فشعرت بالغيرة، وصاحت قائلة: "... اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية

(*) في النص الإنجليزي ورد اسما هذين النبيين بالمنطوق العبري "إيزاك" و"إشماعيل"، مع تنويه بين قوسين لأن المعادل العربي لإشماعيل هو إسماعيل. وسواء ورد تنويه عن المنطوق العربي أم لم يرد، كتبت أسماء أنبياء الديانات الإبراهيمية جميعها بالمنطوق العبري في النص الإنجليزي كما سبق التنويه (المترجمة).

لا يرث مع ابني إسحاق". وحين طلبت سارة خلع إسماعيل، طمأن الإله إبراهيم: "لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضا سأجعله أُمَّة لأنه نسلك" (سفر التكوين، الإصحاح ٢١: ١٢-١٣). وفرت هاجر هاربة إلى الصحراء لتتجنب غضب سيدتها. وفي غمرة يأسها من تهدئة طفلها الباكي تلقت نبوءة من أحد ملائكة الإله: "قال لها مالك يا هاجر، لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة" (سفر التكوين الإصحاح ٢١: ١٧-١٨). ويعزو الرامبان - وهو من مشاهير دارسي التوراة في القرن الثالث عشر- العداوة بين هاتين الأمتين، اليهود والعرب، إلى خشونة سارة [وتعصبها] وتبلد حس إبراهيم. والمثير لدهشة أن المسلمين لهم نظرة مختلفة لهذه القصة.

يعتقد المسلمون أن إسحاق وإسماعيل قد اختيرا على قدم المساواة كأنبياء. وفقا للإسلام، طلب الله من إبراهيم أن يرتحل مع هاجر وطفلها إسماعيل لغرض مقدس، كشف عنه فيما بعد حين أعاد الأب (إبراهيم) والابن (إسماعيل) بناء الكعبة، بيت الله. وحين ترك إبراهيم هاجر وابنها وحدهما كان متأكدا أن الله سيحميهما وينقذهما من أي خطر، لأنه تصرف وفقا للأوامر الإلهية. لكن حدث الكثير من الخلاف بين اليهود والمسلمين بشأن هذا التنوع في الخط الروائي، حيث يرى المسلمون أن إسحاق وإسماعيل متساويان، عكس ما يرى اليهود، ففي المنظور الإسلامي، يمثل الابنان كلاهما دين أبيهما.

وعلى الرغم من الأفكار المشتركة والأسلاف المشتركين لليهودية والمسيحية والإسلام، فإن الدين كان -وما زال- يستخدم كأداة لتوليد الخلافات، فهو يوفر للقادة حكايات قوية لتوحيد الجماهير ودفعها للتحرك. وكما سنسهب فيما بعد في المناقشة، فإن البناء الأبوي للدين يقدم أداة فعالة للتحكم في الناس ودفعهم إلى التحرك بطريقة تدعم الصراعات السياسية، التي يكون لها في الغالب عواقب

ضارة. إن النصوص المقدسة الأصيلة التي هدفت إلى توصيل رسالة روحانية قد استخدمت لإثارة الكراهية والمشاعر السلبية، وبذا خلقت ادعاءً زائفًا بأن الصراعات بين الأمم غير قابلة للحل لأن لها منشأ دينيًا.

إن الخطر يتهدد حسن أحوال البشرية بسبب الصراعات الحالية بين ديانات التوحيد: اليهودية، والمسيحية والإسلام. وقد ظهرت شواهد على زيادة السلوكيات العنيفة لدى الهندوس، ومؤخرًا لدى البوذيين. من ثم، من المهم لنا أن نحسن من فهمنا لما يظهر في كل من هذه الديانات من نور وظلام.

القصة اليهودية:

حيث إن الجماعة اليهودية أقل عددًا مقارنة بغيرها من ديانات العالم، فإن الوقع العميق للمفكرين اليهود والنصوص اليهودية المقدسة على العالم يعد ظاهرة. واليهود هم الأقل عددًا بين أتباع ما يسمى بديانات التوحيد، فعددهم في جميع أنحاء العالم لا يزيد عن حوالي ١٢ مليون يهوديًا (بنسبة ٣% من سكان العالم، مقارنة بالمسيحيين الذين تبلغ نسبتهم لسكان العالم حوالي ٣٣%، والمسلمين الذين تبلغ نسبتهم ١٩% من سكان العالم). واليهود أقلية في جميع أنحاء العالم وسط بيئة أكثر عددا من غير اليهود. وتوجد في الشرق الأوسط إسرائيل، وهي بلد صغير نسبيًا، محاطة بكوكبة هائلة من الدول العربية.

لقد تحمل العبريون القدماء الكثير من الحروب، كما ارتكبوا الكثير منها. لكنهم تمسكوا عبر جميع هذه الصعاب والمتناقضات بصورة للسلام، كما يتضح في النص المقدس التالي: "فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفًا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد" (أشعياء ٢: ٤). هذه صورة لعالم لم يعد التستوستيرون يتحكم فيه. وفيما يلي نقدم التطور الزمني لليهودية.

ولد النبي إبراهيم في مجتمع وثني، يعبد الكثير من الآلهة، وكان من أوائل من دعوا بوجود إله واحد لا شريك له (وممن دعوا للتوحيد غيره "ملكيصادق") (Chacour, 1984). ترجع ديانات التوحيد منشأها وإيمانها إلى إبراهيم وأتباعه، وهم جماعة من العبرانيين الرحل، يعود تاريخهم إلى أكثر من ٥٠٠٠ عام مضت. ويعتبر إبراهيم، وولده الثاني إسحاق وحفيده يعقوب بطاركة اليهودية (أو الآباء المؤسسين لها)(١) ، وذريتهم هم الشعب الذي سيعرف فيما بعد باسم الإسرائيليين.

تنقل لنا الكتب المقدسة أن يعقوب تلقى بركة الإله الذي منحه اسم *إسرائيل* بعد أن قضى ليلة بأكملها في جهاد روحاني (سفر التكوين ٣٢). تستحق هذه القصة المزيد من الدراسة، لأنها تلعب دورًا محوريًا في مشكلات العالم الحالية المتعلقة بدولة إسرائيل (الغربية). الاسم الأول ليعقوب* (ياكوف بالعبرية) يعني "الذي غلبه أخوه على حين غرة بكعب قدمه". تحكي لنا القصة أن يعقوب تملكه الخوف من أن يهاجمه أخوه عيسو ومعه أربعمائة رجل، فأرسل الكثير من الهدايا إلى عيسو مع خدمه، وترك له جميع متعلقاته في محاولة منه لتجنب العنف، وصار وحيدًا صفر اليدين. ويشرح النص المقدس أنه تصارع مع رجل طوال الليل دون أن ينجح في هزيمته:

> **فلما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك، فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل**

---

(١) كما لاحظنا من قبل، يعتبر إبراهيم أيضًا أبا نسل أنبياء ديانات التوحيد التي تلت، وتشمل المسيحية والإسلام.

(*) ورد اسم النبي يعقوب في النص بالمنطوق الإنجليزي [جاكوب] مع تنويه بين قوسين عن منطوقه العبري (ياكوف) (المترجمة).

يعقوب وقال أخبرني باسمك، فقال لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك. فدعا يعقوب المكان فنيئيل، قائلاً لأني نظرت الله وجهًا لوجه ونجيت نفسي (سفر التكوين ٣٢: ٢٥-٣٠).

ووفقًا للنص المقدس وعده الإله بـــ : "... أمة وجماعة أمم تكون منك ..." (سفر التكوين ٣٥: ١١). وفقا لهذه القصة، منح إسرائيل اسمه الجديد نتيجة لما قام به من جهاد داخل نفسه ولوصوله لحل سلمي مع أخيه. وقدر لأبناء يعقوب-إسرائيل وعددهم ١٢ ابنًا أن يصيروا قادة أسباط إسرائيل الـــ ١٢. بالاختصار، مثّل هذا الاسم الجديد *طريقة حياة*، وحمل الأسباط (الممثلون لهذه الطريقة) برسالة السير على مثال إسرائيل.

لكن هؤلاء الإخوة لم يقدروا على اتباع هذا المثال، وتملكتهم الغيرة من يوسف، الابن المفضل لدى يعقوب، فباعوه ليكون عبدًا دون علم والدهم. وانعطفت الأحداث بشكل غريب لتضع يوسف في نعمة عظيمة في مصر، بينما صار إخوته في عوز بسبب مجاعة ألمت بهم، فقصدوا مصر طالبين من ملكها المأوى والخيرات، ثم وجدوا أنفسهم أمام أخيهم الذي خانوه. لكن القصة تقول إن يوسف (الابن الوحيد من ذرية يعقوب الذي استطاع أن يحافظ على طيبة أبيه الروحية وأمثلته) أسبغ الرحمة على إخوته ولبىّ لهم حاجتهم، وقد شجع هذا الوقت الملائم الكثير من الإسرائيليين على النزوح إلى مصر.

وبعد حوالي ٣٠٠ عامًا على موت يوسف، انقلب حكام مصر على الإسرائيليين، فقهروهم واستعبدوهم. ويقول لنا النص المقدس إن الإله قد اختار موسى ليقود الإسرائيليين في خروجهم من مصر. قد يوجد تفسير آخر لهذه القصة فحواه أن موسى كان قائدًا فذًا قاد تمردًا إسرائيليًا إلى حد مغادرة مصر (تعرف هذه الرحلة باسم الخروج) إلى أرض كنعان الموعودة. وعند وصول موسى إلى جبل سيناء تلقى *التوراة* من الإله، وفيها الوصايا العشر وجميع ما سيليها من

. شرائع، وهي تشكل الأساس الأخلاقي لليهودية. هذا النسق التفصيلي للقيم مبني على ٦١٣ وصية (ميتزفات) تنظم طرق العبادة ومعاملة الناس لغيرهم. لخص النبي ميخا هذا النسق في ثلاثة مبادئ: التصرف بعدالة، وحب الرحمة، والسير بتواضع أمام الإله. تطالب التوراة أساسا بأنه في حالة وجود ظلم لا بد من وجود مبررات للعقاب واستحقاق له. يعتقد بعض الباحثين أن هذه كانت بداية نسق الاعتقاد بأن "العين بالعين" و "السن بالسن".

لقد دشن إبراهيم روح اليهودية، لكن موسى هو الذي قدَّم شرائعها ومبادئها. تناقش إيلين باجلز في كتابها *أصل الشيطان* *The Origin of Satan* موضوع إبراهيم، أبو أنبياء التوحيد، وتقتبس من سفر التكوين ١٢: ٣ "فأجعلك أمة عظيمة وأعظم اسمك ... وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه"، ثم تضيف "وهكذا حين وعد الإله إبراهيم أن يجعله أبًا لأمة جديدة، ذات عزيمة، ومباركة، حدد في نفس الوقت أعداء هذه الأمة واعتبرهم أدنى قدرًا ويستحقون اللعنة" (Pagles, 1995, p. 36). وهكذا تم تعريف إسرائيل على أنها *نحن* مقابل هم.

يميل الناس تقليديًا إلى استخدام النصوص المقدسة لتدعيم رؤيتهم للعالم، لكن نفس هذه الآية يمكن أن تفسر على نحو مختلف، إذ يمكن أن تعتبر طمأنة من الإله لبني إسرائيل بأنه سيساعدهم لأنه أنعم عليهم بحمل رسالة عظيمة كشف عنها أولاً لإبراهيم، واستمرت فيهم عبر ذريته. كانت هذه الرسالة رسالة أمل بأن يأتي يوم يسود فيه الحب والعدل البشرية بأسرها. تظهر المشكلة في التفسير الحرفي القائل بأن فرعًا واحدًا من سلسلة النسب هو الذي حظي ببركة الإله، لا بأن البركة موروثة في جبلة طريقة معينة للحياة. يعرف تفسير إيلين باجلز هذه الفقرة على أنها بداية انفصال اليهود عن غيرهم من الشعوب، وأنهم شعب استمر في مواجهة الكثير من المعاناة. ونرى هذا الميل يتكرر مرارًا وتكرارًا مع ديانات العالم ومختلف الطوائف حيث يبدو أن من طبيعة البشر أن يأخذ الأفراد والجماعات بوجهة نظر ذاتية يتمكن الفرد أو الجماعة الدينية أو الأمة بفضلها من اعتبار

تجربتهم تجربة صفوة أو أعظم من غيرها (وسنتناول هذه النقطة بمزيد من التفصيل في الفصل الثالث).

تحرِّم الشريعة اليهودية مثلاً الزواج من فرد من *الأغيار* ، ويكشف ذلك خوفًا كبيرًا من الاختلاط الديني (كالزواج بين اليهود والمسيحيين مثلاً). لكن على الرغم من أن كتابات التلمود لا تشجع التداخل الديني، فإنها توضح اتجاهًا إنسانيا نحو غير اليهود: "نحن نساعد الأغيار (الجوييم) الفقراء مع مساندتنا لفقراء شعب إسرائيل، ونعود المريض منهم كما نعود المريض من شعب إسرائيل، وندفن موتاهم كما ندفن موتى إسرائيل، وذلك بسبب طريق السلام" (التلمود، جيتين، ٦١ أ). لكن يتأصل في هذه الدعوة أيضًا تلميح إلى أن الإسرائيلي رحيم بالآخر، لكنه يعلو عليه(٢). يا للنظام الأبوي!

إن فكرة أرض الميعاد جانب قوي في اليهودية. لقد صار هذا المفهوم نمطًا فطريًا قويًا للإنسانية، لأنه يجسد تشوق الإنسان إلى العيش في سلام وحرية مع توفر الحب والعدالة للجميع. تشير التوراة إلى أرض الميعاد على أساس النص المقدس التالي: "وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك" (سفر التكوين ١٢: ١). بعد أن حرر موسى شعبه من العبودية في مصر قادهم عبر أربعين عامًا من التيه في الصحراء إلى أرض صارت أخيرا وطنهم. وبعد الاستقرار أخيرًا في كنعان، تقاتل شعب إسرائيل مع الفلسطينيين على الأرض، وانتصروا عليهم. وعلى الرغم من أنهم قد ضمنوا بالتأكيد مكانا آمنا يعيشون فيه (بلا إساءة ولا عبودية)، فإن هذه القصة تقدم أيضًا مثالاً آخر للنموذج الأبوي الذي كان في طور التكون، نموذج يقوم على قهر الشعوب الأخرى وادعاء امتلاك الأرض.

---

(٢) لا نعني بتعليقاتنا أن نحطَّ من شأن الشعب اليهودي، أو أي جماعة أخرى، بل أن نظهر الميول التقسيمية التي تفصلنا عن الإله وعن بعضنا البعض. وجميع الديانات تحتاج إلى إعادة تقييم للأفكار المماثلة.

ومن الأحداث التاريخية الأخرى بناء المعبد، الذي حدث في عهد الملك داود في عام ١٠٠٠ ما قبل ميلاد المسيح. وداود هو ثاني ملوك إسرائيل، الذي كان مؤلفًا للمزامير ومحاربًا، وقد وقعت القدس في يده بعد عدة معارك دموية عنيفة. وقد نودي بالقدس عاصمة لمملكته الجديدة، وبنى ابنه سليمان أول معبد، وهو رمز لعبادة اليهود وقوتهم. ومنذ منتصف القرن الثامن قبل ميلاد المسيح، هزم مختلف الحكام هذه الأرض الموعودة، منهم السريانيون، والبابليون، والفرس والرومان. وفي عام ٥٨٦ قبل ميلاد الميلاد نفى البابليون الإسرائيليين، وهدم المعبد. لكن الملك قورش الأكبر، ملك فارس، اتخذ قرارًا بالسماح لليهود المهزومين باتباع أعرافهم. وهكذا أعادوا بناء المعبد، الذي ضم داخله الكثير من الرموز والثروات المقدسة. وفي عام ١٦٥ قبل ميلاد المسيح حدث تمرد يهودي (عرف باسم تمرد الحشمونئيم) ضد حكم اليونانيين، وتلاه عدد من الانتفاضات ضد الحكم الروماني، مما أوحى لروما أن تقمع اليهودية بلا رحمة، فحرمت دراسة التوراة، وأعادت تسمية الأرض باسم "فلسطين". وفي عام ٦٦ ميلادية حين كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح(*) دخل جنود الرومان القدس وجردوا المعبد من كنوزه. وبعد عام من هذا الحدث، دمر الجنرال الروماني تيتوس هذا المعبد الثاني بوحشية، إذ قتل اليهود، واسترقهم، ونفاهم، وبذا بدأ ما يعرف في التاريخ اليهودي باسم الشتات (تشتت الشعب اليهودي في الأرض). وبحلول هذا الوقت ظهرت عدة فروع لليهودية.

وقد كان الشعب اليهودي -تاريخيًا- مبعثرًا، يعيش في مجتمعات محلية متماسكة النسيج. لم يوجد نسق اعتقاد يهودي موحد. ووفقًا لقول الباحث الأستاذ اليهودي دانيال بويارين (Boyarin, 2004)، أسهم اختلاف اللهجات والفوارق الإثنية في ظهور مختلف التأويلات والتطبيقات (وأن جذور اليهودية الأرثوذكسية والتجمعات الشبيهة بالتجمعات الكنسية لم تبدأ في الظهور إلا عند حوالي ٣٠٠ ميلادية). كما وجدت أيضًا أقسام مختلفة من اليهود تزعم أنها الخلف المباشر لأنبيائها الأولين. كما أن اللا مركزية التي ظهرت بعد تدمير المعبد أضافت أشياء إلى هذه القصة من حيث إن مختلف الجماعات اليهودية اعتنقت معتقدات مختلفة

(*) عيد الخروج من مصر (المترجمة).

فيما يخص وجهة النظر والتاريخ اليهوديين. وأدى هذا إلى حدوث أعمال عنف داخل كل جماعة من اليهود وبين مختلف الجماعات اليهودية وبعضها البعض (وهو ما لا يختلف عن ما حدث فيما بعد بين طوائف المسيحيين والمسلمين).

تصور النصوص اليهودية المقدسة حروبًا عديدة وأحداث قتل قاسية. يصف سفر القضاة إجمالي ١٣ حربًا بأفكار متكررة. نشبت الحرب الأولى التي يصفها هذا السفر بسبب أن الإسرائيليين أخطأوا بعبادة أرباب زائفين. يعتقد اليهود أن هذا أدى إلى غزو الأجانب لهم كعقاب على ما اقترفوه. ثم تحرر اليهود مرة أخرى، وتكررت دورات الحرب والتحرر ١٣ مرة. ومن الواضح أن اليهود الفريسيين كانوا أكثر الجماعات اليهودية تأقلما في هذا العهد. ومع هدم المعبد الخارجي أوصى الفريسيون(*) بممارسة التوقف عن العمل يوم السبت. مكنت هذه الممارسة اليهود من الاعتراف بالهيكل في بيوتهم (وتشير هذه الممارسة أيضًا من منظور صوفي إلى الهيكل الذي داخل القلب). ثم بدأ اليهود في الإجماع على ترسيخ معتقدات وتقاليد بالتراضي خلال القرون الميلادية الأولى (المرجع السابق).

وقد أدى تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية في القرن الرابع الميلادي إلى إذكاء نيران اضطهاد اليهود. زرعت تعاليم الكنيسة كراهية اليهود في نفوس عامة الناس. وصارت القيود المضادة لهم التي وضعتها الكنيسة هي قوانين البلاد. حرم الزواج بين اليهود والمسيحيين. وقيدت حقوق اليهود في الملكية، ومنعوا من المشاركة في الكثير من المناسبات العامة، ومن العمل في الكثير من الوظائف. وظلت هذه القيود موجودة حتى نهضة الرأسمالية في القرن التاسع عشر. وكان اليهود في القرون الوسطى يحملون مسئولية موت المسيح، مما أدى لحدوث الحروب الصليبية، التي كانت أول قتل جماعي بأعداد كبيرة لليهود بأيدي

(*) الفريسيون: باللغة الآرامية معناها المنعزلون، وهم فئة يهودية حصرت الصلاح فـي طاعـة الناموس، فجاءت دياناتهم ظاهرية وليست نابعة من القلب وقد اشتهروا بالرياء، ووبخهم السيد المسيح على ريائهم وتحميلهم الناس أثقال صعبة الحمل، وكانت لهم يد بارزة في المـؤامرة على السيد المسيح (المترجمة).

المسيحيين. وقد طردت بلدان مثل إنجلترا، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال اليهود أو عزلتهم عن بقية الناس. وفي بولندا، في القرن الثامن عشر، حددت إقامة اليهود في مكان فقير اسمه قطب الاستيطان. وبعد اتهام اليهود باغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثالث، انتشرت هجمات مضادة لليهود، كثيرًا ما كانت بتشجيع من السلطات. واضطر اليهود للفرار أمام نقص إمكانياتهم في حماية أنفسهم من البوجرومز (كلمة روسية تعني "التدمير". فر أكثر من ٢ مليون لاجئ يهودي من روسيا فيما بين بدء عمليات التدمير الشامل (البوجرومز) في عام ١٨٨١ وقيام الثورة الروسية في عام ١٩١٧. ومن بين من بقى من اليهود في أوروبا، قتل ٦ مليون شخص بيد النازي في الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من وجود الكثير من حالات الإبادة العِرقية (كما وصفنا في مقدمة كتابنا) فإن الهولوكست اليهودي يصور بوضوح صادم فكرة ادعاء إحدى الجماعات (النازي) بأنها جنس أرقى، ومن ثم تأخذ راحتها في استهداف وتدمير من تحكم عليهم بمعاييرها بأنهم أدنى منها (اليهود). والهولوكوست تاريخيا يمثل تمثيلاً صادمًا أكبر عملية إبادة محسوبة تمت ضد جماعة من الناس بدم بارد عبر التاريخ الإنساني. يمكن أن يفسر الاغتراب والاضطهاد وما سمى فيما بعد باسم معادة السامية الدفع الهائل للمفهوم اليهودي عن الدولة القومية (المعروفة الآن باسم إسرائيل). يرى كثير من الناس أن دولة إسرائيل الحديثة جزء من إتمام العهد. ومن السهل أن نرى كيف انتهكت هذه الدولة معنى أعمق للعهد لتبرر احتلال إسرائيل لأرض فلسطين. فمثلاً، يستخدم الصهاينة سفر حزقيال ٣٦: ٢٤ لتبرير الاحتلال الإسرائيلي واستعادة إسرائيل. تقول الآية: "وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم". ولهذه الآية قراءة أخرى غير أصولية بل وأكثر إنسانية على المستوى الروحاني تشير إلى تحرير الفرد من جميع الصغائر (ومن أساليب الحياة التي تفصلنا عن الوحدة الروحية) بوعد الوصول إلى التحقق الروحاني الحق –العودة إلى الوطن الحق الموجود في القلب – ربما يساعد

على شرح السبب في أن لفكرة "أرض الميعاد" مثل هذه القوة النمطية الفطرية في الفكر البشري.

وفي العصور الحديثة، يوجد داخل اليهودية الكثير من فروع اليهودية، مثل الطوائف الأرثوذوكسية، والمحافظة، والإصلاحية. ترتبط جماعتي اللوبافيتش الحسيدية والكابالاه اللوريانية باليهودية الأرثوذوكسية. والأرثوذوكسية هي القسم من اليهودية الذي يتبع بصرامة التعاليم والتقاليد الأصلية للديانة. يعتبر اليهود الأرثوذوكس *التوراة* كلمات الرب الفعلية. ويتباين هذا بشدة مع اليهود الإصلاحيين الذين يعتقدون أن كلمات هذه النصوص لم يقلها الرب مباشرة، وأنها تقبل تأويلات عديدة لتلبي شروط زمان ومكان معينين. لكن بعض رجال الدين من الحاخامات الأصوليين يصرون على التفسير الحرفي للنصوص المقدسة. وحين نمد هذا الموقف على استقامته إلى أقصى حدٍّ له نجده يعني ضمنًا أن كل قانون من بين عشرات الآلاف من أجزاء القوانين الشرعية اليهودية لا بد أن يعتبر مقدسًا ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد صارت هذه الأصوليات متجذرة في الطقوس اليهودية الصارمة إلى درجة أنها خسرت الروح الإنسانية الأصلية للديانة.

وعلى الرغم من أن الأصولية تشكل جزءًا صغيرًا نسبيًا من السكان الإسرائيليين، فإن لها أثرًا سياسيًا متناميًا. بل إن الأصوليين قد أظهروا الكراهية لليهود الذين عارضوا وجهات نظرهم. من أمثلة هذا قتل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين في عام ١٩٩٥ بيد أصولي إسرائيلي (هو إيجال عامير، الذي اغتال رابين زاعمًا أنه يبيع شرائع *التوراة*).

إن القارئ غير الخبير بالتوراة التي أتت برسالة حب وتراحم يمكن أن يراها مثيرة للحيرة. من القصص الأولى التي تصور غضب الإله المدمر كلي القدرة قصة *الطوفان*، التي تشير أيضًا إلى فرصة إقامة عالم أفضل، مما يملأ قلب القارئ بالأمل. وفقًا للحكاية التي وردت في النصوص المقدسة، كان جيل نوح غارقًا في الخطيئة حتى أن شعوبه استحقت الموت، وبذا تلقى نوح وحده التحذير من الفيضان

المهول. لكن هذه القصة نفسها تأتي برسالة خلاص، وتنقل رموزًا نمطية فطرية للسلام والبداية الجديدة (مثل أساطير الهوبي الهندية).

تنقل الكتابات اليهودية القديمة القوانين الثقافية المعنوية والأخلاقية لعصر مختلف، والكثير من تلك المفاهيم لا يقبله الفكر الحديث، لكنها تبقى مثالاً آخر لمشكلات التفاسير الدينية التي تعتمد على الترجمات الحرفية للنصوص، لأن هذه النصوص المقدسة ما عادت تقرأ ككيان حي نابض. لقد قُصِد أن تخضع القصص للتجديد المستمر، والمدراش الذي استخدمه الحاخامات الأولين سمح بهذا التفسير الأبدي التجدد (Douglas-Klotz, 2003).

والنصوص العبرية المقدسة غنية بقصص الخصومة، والانتقام، والغضب، لكنها تحتوي في نفس الوقت مفاهيم خالدة عن الحب والأخوة. فمثلاً، كان الملك داود محاربا كما كان مؤلفًا لأحد أكثر الأسفار شاعرية، *المزامير* (المدون باسم كتاب المزامير). تصور قصة داود هذا التنافر إذ تنقل رسالة نجاح تحقق عن طريق الحرب، كما تنقل رسالة عقاب لأنه قائد محارب. فمثلاً، كسب داود القدس بالحرب. امتلك داود المدينة بعد أن قهر اليبوسيين (Armstrong, 1993). تصف النصوص العبرية المقدسة الحروب الكثيرة التي خاضها داود، بدءًا باستخدامه للمنجنيق ضد جالوت، العملاق الفلسطيني، مرورًا بالحروب التي خطط لها استراتيجيًا ضد العشائر الأخرى، مثل العماليق. لكن كان على داود أن يدفع ثمن كونه ملكا في زمن الحرب، أراق دماء الآخرين. اختير سليمان بن داود ليبني الهيكل المقدس، حيث إنه لم يحارب أبدًا ولم يؤذ حياة الآخرين. كان سليمان يمثل العدالة، وقصد الخير، والحنكة، والحكمة، والسعي للسلام. وقد ضرب الحاخامات الذين كتبوا هذا المدراش المثل بداود، وبقصص مماثل، لتعليم الناس درسًا أخلاقيًا. أراد قادة المجتمع التأكيد على قيم العدالة، والمساواة، واحترام جميع أشكال الحياة، والمسئولية الاجتماعية. تمثل هذه القيم قلب اليهودية الحق.

أكد معلم يهودي اسمه يشوع الناصري (عرف فيما بعد باسم يسوع)(*) على أن الأعمال الطيبة (الإنسانية) هي قلب الروحانية اليهودية. كان هذا المبدأ يتضح على وجه الخصوص فيما كان يعرف باسم التطويبات التي قدمها يسوع في موعظة الجبل. قدمت التطويبات توجيهات تهدي لعيش حياة روحانية (في هذا الوقت لم تكن توجد ديانة تسمى المسيحية). قدم يسوع ببساطة توجيهات عيش الحياة الروحانية لأتباعه من اليهود. أكدت التطويبات على أن يكون المرء رحيما، ومتواضعا، ومشتاقا للإله، وأن يكون صانعا للسلام على وجه الخصوص. "*طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون*" (متى ٥: ٩). لم يؤكد يسوع أبدا على العنف، ولم يدْعُ أتباعه أبدا للأخذ به، ولم يدْعُ أبدا لهزيمة الأمم الأخرى، ولا لاحتلال أراضي الغير، ولا إلى إتيان سلوكيات شبيهة بسلوكيات الحرب بأي شكل من الأشكال. ولم يُظهر يسوع صفات أبوية، بل أظهر الحب، والتراحم، وقوة

(*) اسم "يسوع" في أصله العبري هو "يشوع" الذي هو أيضا تصغير "يهوشع". وهو في أصله العبري مكون من مقطعين مندمجين، هما "يهوه" الكائن الدائم الوجود الواجب الوجود وعلة كل وجود و" شع" وهو فعل عبري بمعنى "يخلص"، فيسوع يعني "المخلص": "يهوه المخلص" أو" يهوه يخلص" أي الله المخلص.

وعندما ترجم علماء اليهود العهد القديم إلى اللغة اليونانية نقلوا الاسم" يهوشع" وتصغيره "يشوع" إلى ***Isou*** إيسو وفي حالة الفاعل - ***Isous*** إيسوس وكذلك فعلت الترجمة القبطية التي حذت حذو العهد الجديد الذي استخدم ***Isous*** لكل من الاسم وتصغيره، وحذت الترجمات العالمية حذو الترجمة السبعينية والعهد الجديد. فنقل الاسم في الإنجليزية ***Jesus*** وفي الفرنسية ***Jesus*** أما الترجمة العربية فقد استخدمت الشكل الأخير "يشوع" وإن كانت قد حافظت على الشكل الكامل "يهوشع" ونقلته كما هو عدة مرات، أما في اليونانية فلا فرق بين يسوع ويشوع ويهوشع فجميعهم واحد "إيسوس ". ***Isous***

كما كان اسم يسوع، "إيسو" في اليونانية ينطق في الآرامية المحيطة بالجزيرة العربية "عيشو" باللهجة العراقية الشرقية ويبدو أن البعض كان ينطقه" عيسى"، ومن ثم نطق بالعربية أيضا عيسى أو العكس.

وبالتالي فعيسى هو عيشو بالآرامية العراقية وإيسو في اليونانية ويسوع في العربية ويشوع في العبرية والسريانية ومعناه الأصلي الله يخلص، أو الله المخلص. (المترجمة)؛ عن موقع:
http://www.anbawissa.org/vb/showthread.php?t=10439

الشخصية والإرادة من الداخل والخارج. لكن كم من حياة دُمِّرت باسم المسيحية؟ يمحص التاريخ لنا مدى كثرة تجاهل الناس للتطويبات والقاعدة الذهبية. كثير من المسيحيين يجهلون تاريخ ديانتهم. ربما كانوا خائفين من مواجهة ظل المسيحية من حيث إنه يمكن أن يزعزع إيمانهم، لكن اختيار الجهل يحركه في الواقع دافع الخوف وليس الإيمان الحق. إن الإيمان بيسوع وإقامة علاقة معه يتجاوز الكلمة المكتوبة بمراحل.

سرعان ما بدأ المسيحيون الأوائل في الترويج لمذهب *الميلاد الجديد في المسيح* بعد صلب يسوع. كان التعميد المسيحي يتطلب من الفرد أن ينبذ الحياة برمتها قبل أن يعتنق المسيحية. كانت المسيحية قد بدأت في إرساء أسسها كديانة منفصلة عن جذورها اليهودية. كان هذا *الميلاد الجديد* يميل إلى إضفاء الصبغة الشيطانية على الانتماءات الدينية والاجتماعية السابقة للفرد، وقد قام على أساس الالتزام بكنيسة معينة ومعتقداتها عن المسيحية لا على أساس الميلاد الجديد الفعلي من خبرة الانفصال إلى الخبرة الصوفية – وهو طقس يحاكي تعميد يسوع، الذي أدرك حين حدوثه له وحدته مع الإله. وقد عني الناس بإنشاء مبدأ العظمة في مئات السنوات القليلة التي تلت وفاة يسوع، لأن المسيحيين سرعان ما بدءوا بعدها في فرض ديانتهم على الغير.

تشرح كارين آرمسترونج أن "المسيحيين استمروا خلال القرن الأول الميلادي في التفكير في الإله والصلاة له مثلما يفعل اليهود، وكانوا يجادلون كما يفعل الحاخامات، وكانت كنائسهم شبيهة بالمعابد اليهودية (Armstrong, 1993, p. 90). وقد كتبت الكثير من النصوص المقدسة وتداولها الناس. وظهرت مجادلات حول طبيعة يسوع. انعقد مجلس نيقية في عام ٣٢٥ ميلادية. جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر القادة المسيحيين الأوائل معًا لمناقشة الخلاف حول طبيعة يسوع المسيح. قام هذا النقاش بوجه الخصوص على الخلاف التاريخي بين الأسقف ألكسندر والقس آريوس. شكك آريوس في أنه إذا كان الأب (الإله) قد أنجب الابن

(يسوع) فلابد أن يكون للأخير بداية، إذ جاء عليه حين من الدهر لم يكن له فيه وجود، ومن ثم يكون الابن قد خُلِق مثل بقية الخلْق. دعمت الكثير من التعاليم التوراتية موقف آريوس. يعلن سفر المزامير ٨٢: ٦ "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العليّ كلكم"، ومن تعاليم المسيح "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون" (متى ٥: ٩ نسخة الملك جيمس). صوَّت الأساقفة ضد هذه الطريقة في التفكير بادئين بدلاً منها ما سمي مذهب نيقية، وهو مذهب التثليث (وهو مذهب لم يعلِّمه المسيح نفسه أبدًا للناس).

نحن نؤمن بإله واحد، الأب الملك ذو السلطان على الجميع، خالق السماء والأرض، وجميع ما نراه وما لا نراه؛

ونؤمن برب واحد، يسوع المسيح، الابن الوحيد للإله، أنجبه الأب قبل جميع الأزمان، نور الأنوار، إله حق من إله حق، مولود لا مخلوق، من مادة واحدة هو والأب، الذي خلق كل شيء من خلاله؛ والذي نزل من السماوات من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، وخلق لحمًا من الروح القدس والعذراء مريم، وصار إنسانًا وصلب من أجلنا تحت حكم بونتياس بيلاطس Pontius Pilate، وعانى ودفن، ثم نهض مرة أخرى في اليوم الثالث كما تقول النصوص المقدسة، وصعد إلى السماوات، وهو يجلس على يمين الأب، ويأتي مرة أخرى مكللاً بالمجد ليحاكم الأحياء والموتى، والذي لن تكون لمملكته نهاية؛

ونؤمن بالروح القدس، الرب ومانح الحياة، الذي يمتد من الأب، والذي يعبد هو والأب والابن معًا ويمجدون معًا، والذي تكلم من خلال الأنبياء؛

ونؤمن بكنيسة كاثوليكية ورسولية مقدسة واحدة؛

ونعترف بعماد واحد لتقليل الخطايا. ونتطلع للبعث من

بين الموتى، ولحياة العهد القادم.

أعلنت هذه العبارات وجود تعريف واحد لا غير ليسوع وللمسيحية.

كان قسطنطين رومانيا يبجل آلهة الرومان. و الصورة التي قدمها ليسوع كانت صورة إله روماني أكثر منها صورة يهودي أدرك الوحدة مع الإله إدراكًا عميقًا. لا يعني هذا القول نفي ألوهية يسوع المسيح، بل يأخذ في الاعتبار المؤثرات التي قلصت من تعاليم يسوع والمُثُل التي أعطاها لعيش حياة روحانية. وبدلاً من تقوية هذه التعاليم، قوت هذه المؤثرات الكنيسة. ووضع الإمبراطور قسطنطين الأولويات لمن سيلي في المستقبل من البابوات ومتقلدي مناصب القوة. و ركع الرومان الآن للبابا، ركعوا كما للآلهة والإلهات. وصارت الكنيسة السلطة الوحيدة الحقيقية. وكانت هذه الكنيسة بالتأكيد مذكرة!

وقد أشار يسوع إلى نفسه أيضا كنبي. يخبرنا الكتاب المقدس أن مواطني الناصرة وبّخوا يسوع وأنهم "... كانوا يعثرون به، فقال لهم يسوع ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته" (مرقص ٦: ٣-٤). ويقول إنجيل متى ٢١: ١١ "فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل". والتطويبات واضحـــة مـــن حيث تقديمها لقلب رسالة يسوع البسيطة. إنها تمثل *طريقة* للحياة، لا تعلن عظمة سلطة حاكمة معينة (الكنيسة).

وقد أخذت أيضا في مجلس نيقية قرارات بخصوص النصوص الدينية المتعددة: ما الذي سيدمج منها في العهد الجديد؟ قبل ذلك، قبل انعقاد اجتماع نيقية، لاحظ أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤ ميلادية)، وهو فقيه ورجل دين، أن "الفوارق بين المخطوطات صارت شاسعة، إما بسبب إهمال بعض الناسخين أو بسبب الوقاحة

الغربية لبعضهم الآخر"، فإما أنهم أهملوا مراجعة ما نسخوه، وإما أنهم حين مراجعتهم له أطالوا أو اختصروا على هواهم" (Metzger, 1992, p. 152).

حافظت الكتب على المعتقدات المسيحية، وأثرت آياتها عليها بالإيجاب وبالسلب. بعض الآيات لا تتطابق مع تعاليم يسوع ومُثله. فمثلاً، أسهمت آية تنسب إلى القديس بولس (الرسالة الأولى إلى التسالونيكيين ٢: ١٤-١٥) إسهامًا كبيرًا في العداء للسامية "فإنكم أيها الأخوة صرتم متمثلين بكنائس الله التي هي في اليهودية والمسيحية يسوع لأنكم تألمتم أنتم أيضًا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضًا من اليهود. الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن، وهم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس". ومن الواضح أن هذه الفقرة التي أضيفت تشجع العداء للسامية.

وقرب نهاية القرن الرابع، أمر الإمبراطور ثيودوسيوس "بقمع جميع الديانات المنافسة، والأمر بإغلاق المعابد [اليهودية]، وفرض غرامات على من يتمسكـــون بالديـــانات القـــديمة [الـــوثنية]، أو الحكم عليهم بمصادرة ممتلكاتهم، أو بالسجن أو الموت" (McBade, 1971). وبحلول وقت انعقاد مجلس طليطلة (٦٩٧ ميلادية) "أُخِذ اليهود عبيدا، وصودرت ممتلكاتهم، وعُمِّد أطفالهم غصبًا" (Deschner, 1962, p. 454).

وحدث تأثير بارز آخر على تطور المسيحية عن طريق أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠ ميلادية). كان أوغسطين من فلاسفة القرون الوسطى، وتأثر بالتحديد بفلسفة أفلاطون. وفقًا لهذا، المرء لا يسعى "لفهم العقل أو العالم في حد ذاتهما، بل كمجرد شواهد لفهم الحقيقة الخفية لإله السماء" (Leehey, 1997, p. 79). من ثم صارت الحياة المحسوسة، الـــ هنا والآن، هي الحقيقة الأقل قدرًا، حيث إن الحياة الأصدق تقوم على الإيمان بغير المرئي. نحا هذا الاتجاه نحو تقليص ما للعالم المادي (ما له شكل) والحياة العادية من معنى وقداسة. ونتيجة لهذا التفسير حدث أمران محيران.

أولاً، فصل هذا التفسير السماء عن الأرض بطريقة تتعارض مع فهم يسوع للعلاقة بينهما بصفته من أبناء الشرق الأوسط الأصلاء، حيث السماء (الإلوهية التي توحدنا جميعا) والأرض (الشكل) متداخلتان إحداهما في الأخرى (Douglas-Klotz, 1999). من الأمثلة الثرية على هذا الفهم (وهو فهم نادرًا ما تبرزه الكنيسة) ما كشف عنه يسوع من أن "... ها ملكوت الله داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١). لقد تجاهلت المسيحية التقليدية أساسًا هذا القلب الحيوي لرسالة يسوع.

أما الأمر المحير الثاني فهو التأكيد على أن الروحانية غير مرئية، وتنتمي للعالم الآخر، مما جعلنا أقل مسئولية عن الـ هنا والآن -بما في ذلك المسئولية عن سلوكياتنا نحو الجماعات العرقية والدينية الأخرى، وعن بيئتنا أيضًا. صارت الآخرة (الموت) أهم من هبة الحياة نفسها.

كان من شأن التأثير النفسي لهذا النفي للحياة الإنسانية تشجيع الانفصال عن قدسية الحياة في الـ هنا والآن. ومن النتائج الأخرى لهذا التوسع المستمر للكنيسة أنه أدى أيضًا إلى توسيع الإمبراطورية، ومن ثم توسع ثروتها وقوتها. ازدادت أعمال ازدراء الآخر والعنف ضده، وارتكبت أعمال وحشية باسم المسيح يشهد عليها ما حدث في الحروب الصليبية. لقد شنت ما تسمى بالحروب المقدسة أساسًا في القرن الحادي عشر ضد المسلمين في الأراضي المقدسة، وانتهى بها الأمر إلى التوسع في شن عدد من الهجمات الكبرى ضد المسلمين، واليهود، والوثنيين، وغيرهم من "الهراطقة" في الإمبراطوريات العربية، والبيزنطية، والفارسية، والتركية، بالإضافة إلى هجمات "صغرى" على "الهراطقة" في أوروبا. واستمرت هذه الحروب باسم المسيحية حتى القرن الرابع عشر.

تقول كارين آرمسترونج في كتابها *تاريخ الإله A History of God* إن المسيحيين طردوا المسلمين من إسبانيا في ١٤٩٢، وطلبوا من اليهود إما التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد. وقبل غزو قادة الحروب الصليبية المسيحيين، كان المسلمون واليهود والمسيحيون الإسبان يعيشون في سلام. وبعد ذلك بدأت صرعة

الساحرات، وأثرت في الملتين الكاثوليكية والبروتستانتية وسادت فيهما. عذب آلاف من الناس وقتلوا، معظمهم أساسًا من النساء. تلاحظ آرمسترونج أن هذه المخيلة الجماعية قامت على أساس أيديولوجية دينية قمعية وأن "الخيال" ربط بمعاداة السامية والخوف العميق من الجنس" (Armstrong, 1993, p. 175).

وأصدر الإمبراطور تشارلز الخامس في عام ١٥٢١ قرارا يعرف باسم مرسوم وورمز (مدينة ألمانية) ضد مؤسس الطائفة البروتستانتية، مارتن لوثر. أعلن القرار أن لوثر خارج عن القانون وأحل دمه. كان البروتستانت يرون أنفسهم مصلحين للكنيسة الكاثوليكية. أما الكاثوليك فاعتبروا البروتستانت أعداء. قتل الكثيرون من الكاثوليك الأيرلنديين بيد البروتستانت الأيرلنديين في عام ١٦٤١، وما زال العنف مستمرًا حتى يومنا هذا بين البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا. وأتى المسيحيون أعمالاً مدمرة ضد باقي الديانات الأخرى، بل حتى ضد المختلفين مع رؤيتهم من المسيحيين.

ونجد شواهد حديثة على العنف باسم المسيحية في كوسوفو، حيث قتل الصرب أصحاب العرق الألباني (المسيحية هي الديانة السائدة وسط السكان الصربيين، أما غالبية الألبانيين فمسلمون). ويظل هذا العنف باسم المسيحية عاملاً حفازا لظروف الدمار في الكثير من بلدان "العالم الثالث". وقد أذكت روح إلحاق الهزيمة بالآخرين التي يأخذ بها هذا العنف نيران استعمار إفريقيا والأمريكتين، وما زال له وقع على الأمم التي أفقرتها الإرساليات التي تدعمها الأصولية. وكما ذكرنا في المقدمة، فإن المنظمات غير الحكومية المسيحية في السودان تضغط على السودانيين ليتحولوا إلى المسيحية مقابل المعونة الإنسانية الذين هم في أمس الحاجة إليها. وقد أدت أنشطة مماثلة إلى حدوث رد فعل معاد للمسيحية، حيث حظرت الكثير من البلدان الأنشطة المسيحية أو شددت القبضة عليها، وخاصة بلدان جنوب شرق آسيا.

والدين أيضا من الفوارق البارزة التي تتضح في احتلال العراق، من حيث إن جورج دبليو بوش مسيحي يعتقد أن الإله يساند الحرب والاحتلال، فهو من ثم يلبي باحتلال العراق رسالة مقدسة. كثيرًا ما استخدم بوش قبل حملة إعادة انتخابه معيارًا صارمًا للخير والشر للتأثير في القضايا الوطنية. العراقيون أساسًا من أتباع الإسلام. وقد ترجم الكثير من المسلمين في عقولهم غزو العراق كعداوة معلنة للإسلام. وما زالت الشبكات التليفزيونية العربية تذيع صورًا دموية لعواقب هذا الغزو، كما أن استمرار أعمال الإرهاب والعنف يذكر المسلمين بعدة طرق بالفظائع التاريخية التي ارتكبها الصليبيون في العصور الوسطى. وفي الحقيقة إنه عند بداية الحرب بدأت البرامج المسيحية في تدريب أعضاء الإرساليات وإعدادهم لتحويل المسلمين إلى المسيحية تحت غطاء منح المعونات الإنسانية. ووفقا لما كتبته الصحفية آن كولتر (وهي صحفية تباع مقالاتها على نطاق واسع) في جريدة نيويورك دايلي نيوز:

> **ليس هذا بالوقت المناسب لنتعزز بخصوص التحديد المضبوط لموقع الأفراد المتورطين مباشرة في هذا الهجوم الإرهابي بعينه. لابد أن نغزو بلادهم، ونقتل قادتهم، ونحولهم إلى المسيحية. لم نكن حريصين في سلوكنا حين حددنا مكان هتلر وكبار ضباطه فقط وعاقبناهم. لقد قصفنا المدن الألمانية بالقنابل، وقتلنا مدنيين. إنها الحرب، وهذه حرب (Asaeed, 2001).**

نشر هذا التعليق في صحف العالم بأسره ممثلاً للمسيحية الأمريكية.

ينبغي أن نسأل: "أين يسوع في المسيحية؟" لقد وجد بالتأكيد الكثير من الإصلاحيين والحركات التي لا تتواءم مع النفاق الديني الذي يتضح عبر تاريخ المسيحية. إن القديس فرانسيس الأسيزي، وهيلدجارد فون بنجن، والقديسة تريزا ابنة آفيلا، والقديس يوحنا الصليبي، وجورج فوكس، وتوماس ميرتون، والأم

تريزا، وماثيو فوكس(*) وكثيرين غيرهم أمثلة لروح المسيحية التي لا تموت، والتي تصر على البقاء على الرغم مما في كنائسها من أنواع الزيف.

(*) فيما يلي نبذة مختصرة عن كل من هذه الشخصيات (المترجمة):

- فرنسيس الأسيزي (١١٨٢- ١٢٢٦): دخل سلك الرهبنة في عام ١٢٠٧. جاء إلى مصر في عام ١٢١٩ والتقى بالسلطان الملك الكامل في مدينة دمياط حيث قاما بأول حوار بين الديانتين المسيحية والإسلامية، وقد منحه السلطان تصريحاً كتابياً يخول له زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين حيث أسس الإقليم الشرقي الفرنسيسكاني.
- هيلدجارد فون بنجن: راهبة متحررة وكاتبة مثقفة عاشت في ألمانيا في العصور الوسطى. يعتبرها الكثيرون أول عالمة ألمانية في العلوم الطبيعية وأيضا أول طبيبة وأول سيدة ألمانية تهتم بموضوع مساواة المرأة، إذ نادت بالمساواة بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بمسئولية ارتكاب الخطيئة، ولم تجد حرجًا في أن تتخاصم من أجل ذلك مع رجال الكنيسة. وقد كان هذا التفكير آنذاك تفكيرًا خارقًا للعادة.
- القديسة تريزا ابنة آفيلا (١٥١٥-١٥٨٢): ولدت في أفيلا، إسبانيا. أجرت إصلاحًا شاملاً للرهبانيّة الكرمليّة بفرعيها النسائي والرجالي، ووضعت في مصاف كبار معلّمي الكنيسة، وبين كبار مؤسّسي طريق الكمال المسيحي. يسير الاتجاه التريزياني في الاتجاه المعاكس للإصلاح البروتستنتي، فهو رجوع إلى الينابيع الأولى للبشارة وتشبّهٌ بحياة المسيحيين الأوّلين. وفقت تريزا بين حياة التأمل وحياة العمل، فكانت تعمل معلمة روحية، وتؤلف كتبًا صارت فيما بعد مراجع للمعلمين الروحيين.
- القديس يوحنا الصليبي (١٥٤٢-١٥٩٧): ولد في إسبانيا. تأثر بالتصوف الإسلامي، لاسيما بابن الرند. حاز لقب "معلم كنيسة" للقيمة التعليمية العظيمة في كتاباته للكنيسة. ساهم في النهضة الروحية التي شهدتها إسبانيا في القرن السادس عشر، وكان الأب الروحي للقديسة تريزا ابنة آفيلا.
- جورج فوكس (١٦٢٤-١٦٩١): انشقّ عن المدرسة البيوريتانية وأسس طائفة الكويكرز (ومعناها المرتجفون لأنهم يرتجفون عند ذكر الله). ترى هذه الجماعة أن الرب يوجد بداخل كل فرد منا.
- توماس ميرتون (١٩١٥-١٩٦٨): راهب أمريكي كاثوليكي. كان أكثر الكتاب الروحيين شعبية في عصره. اكتسب ميرتون شهرته بكتاب سيرته الذاتية "الجبل ذو الطبقات السبع". ألف ميرتون ما يزيد على أربعين كتابًا، كثير منها يسجل كفاحه المستمر من أجل تجانس شخصي أفضل.
- الأم تريزا(١٩١٠-١٩٩٧): راهبة وممرضة عملت في كالكتا بالهند وحازت على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٩. أنفقت حياتها في خدمة الفقراء والمرضى والمحتاجين، لكي يروا وجه الرب فيها، على حد تعبيرها، وبحسب تعليم الكتاب المقدس الذي يقول إن الرب قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، وإنه يدعوه إلى أن يُري الإنسان هذه الصورة للآخرين من

وحّد النبي محمد ما بين رسالة الإسلام التي أتى بها وبين رسالة إبراهيم؛ وأسمى الإسلام "الدين الحنيف". و*الدين الحنيف* وفقًا لما جاء في القرآن هو ديانة إبراهيم وجميع الأنبياء الآخرين (آل عمران ٦٧).

الدين الحنيف والإسلام مترادفان؛ وهما يشيران إلى الضوء الداخلي الخفي الموجود في ثنايا قلب كل إنسان، والذي يُكشَف عنه لجميع الساعين نحو الحقيقة (بغض النظر عن انتمائهم الديني). فمثلاً، ينصح القرآن بما يلي:

> **فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليهـا لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (الروم ٣٠)**

قبل أن يتلقى محمد ما كشف له عنه الوحي وسجل في القرآن الكريم، كان يتيمًا، يعيش حياة متواضعة في كنف عمه، ثم تزوج من خديجة، صاحبة العمل التي استأجرته. كان محمد معروفًا بالأمانة والإخلاص والحكمة، فاحترمه الناس لهذه الخصال. وكثيرًا ما كان يقضي ساعات في عزلة في كهف هادئ بجانب تل، حيث يقضي وقته في التأمل. وفي ذات يوم ظهر له الملاك جبريل وطلب منه أن "يقرأ". جاءه الأمر بقوة روحية شديدة حتى أن حياته تحولت بعده تمامًا. أدرك

خلال أعماله الحسنة، مؤكدة أن مساعدة الفقراء والمرضى إنما هي خدمات تقدم للرب نفسه، لأن كل ما يفعله الإنسان بإخوته البشر، من خير أو شر، إنما يفعله للرب.

ماثيو فوكس: قس أمريكي ولد عام ١٩٤٠، أسس حركة روحانية الخلق، التي تقوم على أساس الفلسفات الصوفية للعصور الوسطى مثل هلديجارد فون بنجن وتوما الإكويني. دخل في خلاف مع الفاتيكان لأنه قس نسوي، يدعو الله باسم "الأم"، ولأنه يرفض فكرة الخطيئة الأصلية و يفضل عليها فكرة البركة الأصلية، وعلاقاته الوثيقة بالسكان الأصليين لأمريكا، وتسامحه مع مختلف الاتجاهات الجنسية للناس. دعا إلى إصلاح المسيحية لتناسب القرن الحادي والعشرين. تحول في تسعينيات القرن العشرين من الطائفة الدومينيكانية الكاثوليكية إلى الكنيسة الأسقفية البروتستانتية.

محمد أن عليه أن يحمل رسالة الله إلى العالم. واستمر الملاك جبريل في الاتصال بمحمد، بأن يتلو عليه الآيات ويجعله يتلوها بعده ويكرر تلاوتها. وفيما بعد، تلا محمد الآيات على صحابته، فحفظوها عن ظهر قلب، وبعد ذلك سجلوا النص المقدس. وفي النهاية، جمعت الآيات المخطوطة التي كونت الكتاب الذي سيعرف باسم "القرآن"، وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين. كلمة قرآن مشتقة من فعل قرأ بمعنى "يقرأ" أو "يرتل".

وقد سعت قبيلة عربية محلية وثنية، هي قبيلة قريش لتدمير محمد ورسالته. اضطهدت قريش أتباع الديانة الجديدة وعذبتهم، لكن محمدا لم يرغب في الرد عليهم بالعدوان، وطلب من صحابته طوال الثلاثة عشر عاما التي قضوها في مكة أن يتحملوا ما لا يطاق، وألا يؤذوا مضطهديهم أبدا. وفر محمد من القرار الذي صمم عليه قادة قريش بقتله فنزح إلى واحة تسمى يثرب تبعد عن مكة بمقدار ٢٧٥ ميلا، والتي عرفت فيما بعد باسم المدينة (المدينة هو اللفظ العربي الذي يقابله بالإنجليزية city). ثم أسس محمد أول مجتمع إسلامي. واستمر أعداؤه في محاولاتهم لهدم ديانته الجديدة، لكنهم دهشوا لما أبداه المسلمون من مقاومة وشجاعة وتنظيم للصفوف، وحارب المسلمون ببسالة دفاعا عن أرواحهم وعن إيمانهم بالإسلام.

وقرر النبي أن يذهب للحج في مكة، فارتدى هو وصحابته ملابس الإحرام، وتركوا أسلحتهم خلفهم. لكن أبناء قريش حاولوا منعهم من إتمام رحلتهم. وليتجنب النبي إهدار الدم، وقع في عام ٦٢٨ ميلادية معاهدة مع قادة قريش في الحديبية، التي تقع قرب مكة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال قد هددوا وجود المسلمين (المؤمنين بالإسلام)، فإن محمدًا أراد أن يظهر أن رسالته رسالة سلام لا حرب. وأدى هجوم الحلفاء المكيين على محمد وأتباعه إلى نقض الأخيرين لمعاهدة الحديبية. وبلا توقع، سار محمد إلى مكة في يناير ٦٣٠ ميلادية مع ١٠٠٠٠ رجل (الموسوعة البريطانية، ٢٠٠٣). وضمن محمد ومن معه السلام والنصر، لأنهم

دخلوا مكة دون مقاومة من أعدائهم السابقين. ثم قرر النبي أن يصفح عن الذين سعوا لإيذائه، فقدم للجميع سبيلاً للسلام.

كان لرسالة محمد نفس روح رسالة إبراهيم، وموسى، ويسوع. وقد آمن محمد بأن رسالته استمرار للأنبياء السابقين. نقرأ في القرآن الآيات التالية التي تربط بين ما أوحي به لمحمد وما سبقه من وحي:

قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (البقرة: ١٣٦)

وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً (الإسراء: ٢)

وقفينا على أثرهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (المائدة: ٤٦).

الوضع المثالي، إنه ينبغي على أتباع هذه الديانات الثلاث أن يعيشوا في سعادة وسلام ويحترموا بعضهم البعض، لأنه بغض النظر عن اختلافات الطقوس والعادات بينهم فقد وجهوا جميعًا نحو نفس الهدف، ألا وهو أن يعيشوا في سلام داخلي وأن ينشروا السلام بين الآخرين. وقد جرى بشكل ما تشويه لما أكد عليه الإسلام من وحدة جميع الأديان، لأن المؤمنين أخطأوا إذ قرروا أن ما أوحي به إليهم هو الأعظم، فمن ثم يكونون أعظم من الآخرين. كان هذا سوء فهم، أدى إلى حروب لا ضرورة لها، ليس فقط بين المتمسكين بأديان مختلفة، بل أيضًا بين المسلمين الذين فرقوا بين أنفسهم، وصار كل منهم يدعي أنه يمتلك الحقيقة المطلقة.

تحدت رؤية محمد وتعاليمه أخلاقيات القبائل وعقائدها الجامدة. كانت الرسالة المحورية لمحمد نشر المعرفة بأن جميع الناس خلقوا من مصدر أصلي واحد، وإن هذا أوجد بينهم علاقة بغض النظر عن اللون، والعنصر، ونوع الجنس أو أي فرق دنيوي آخر. وهكذا، لابد من احترام التنوع. فالقرآن يقول مثلاً: "يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ..." (الحجرات ١٣).

سعى النبي محمد لإقامة علاقة إيجابية مع اليهود والمسيحيين. وطلب من صحابته أن يهاجروا للحبشة فرارًا مما يلاقونه من اضطهاد وإرهاب، لأنه افترض أن الإمبراطور المسيحي النجاشي سيتفهم موقفهم وسيساعدهم. تأثر النجاشي باحترام القرآن للعذراء مريم ويسوع، وقرر أن يحمي المسلمين ويكرم وفادتهم طالما احتاجوا حمايته (انظري/انظر الفصل الخامس).

وحين هاجر محمد إلى يثرب (المدينة)، كان أول ما فعله أن عقد صداقة مع اليهود الذين كانوا مقسمين إلى ثلاث قبائل منفصلة. توجه كارين آرمسترونج انتباه قراء وقارئات كتابها محمد إلى أن النبي كان يعتقد أن اليهود سيفهمون رسالته، لأنها أتت من نفس المصدر الذي أتت منه رسالتهم. وأظهر النبي احترامه لليهود إذ أسماهم "أهل الكتاب" (وهو المصطلح القرآني الذي يصف الأقوام الأخرى التي بلغها الوحي، وخاصة المسيحية واليهودية)، وعقد معهم معاهدة للاتحاد كأمة واحدة ليدافع بعضهم عن بعض ضد الهجمات الأجنبية. ولم يتقبل اليهود المسلمين، على الرغم من الصداقة التي عقدها محمد معهم. استاء محمد من عدم إخلاص اليهود، فطرد قبيلتين منهم خارج المدينة، واحدة تلو الأخرى. ولسوء الحظ، تحالف اليهود مع أعداء المسلمين، مما زاد وضع المسلمين سوءا. وهاجمت قبيلة بني قينقاع اليهودية محمدا وصحبه، فأبادوا بدورهم القبيلة عن آخرها. ندم محمد على ذلك، لكن الساحة كانت قد مهدت للعداوة بين اليهود والمسلمين، على الرغم من الاحترام المتأصل في الإسلام لأنبياء اليهودية.

بدأ تسييس الإسلام في زمن مبكر من تطوره، حين استسلم قادة قبيلة قريش لقوة محمد السياسية والعسكرية، بعد أن حاربوه لأكثر من عشرين عامًا. فحين رأى قادة قريش العشرين ألف مسلم الذين أتوا لفتح مكة، خشوا الهزيمة، وأعلنوا استسلامهم لمحمد، ليضمنوا لأنفسهم الأمان. عندئذ، دخل المسلمون مكة دون أي مقاومة تذكر. كان بعض أفراد قبيلة قريش قد تحول للإسلام، بما فيهم بعض الشخصيات التي خططت لقتل محمد. والحقيقة إنهم أرادوا استغلال إسلامهم كوسيلة توصلهم إلى تحقيق طموحاتهم السياسية، وهو ما كشفت عنه الأحداث التي تلت. ثارت صراعات سياسية، واستخدمت البلاغة الدينية بطريقة أدت إلى تشوش فادح ونزعات طائفية. والنزعات الطائفية في الإسلام أمر شديد التعقيد يتطلب شرحًا متعدد الأبعاد. لكن رغم هذه القوى المعارضة، أرسى محمد حكما يسوده السلام شمل الجزيرة العربية بأسرها.

لقد أسيء تفسير الإسلام، دين الحب والسلام، كما أسيء تمثيله، لأن الروح القبلية التي كان يجب أن تضمحل نتيجة لرسالة الإسلام أعادت إحياء نفسها بعد فترة قصيرة من وفاة النبي محمد. يمكننا بالكاد أن نشير إلى كيف تغير هذا الدين الذي كان دين تسامح وحب وغدا مصدرًا للعنف والتعصب للكثير من الجماعات التي تنتمي إليه.

بدأت الخلافات بعد وفاة النبي محمد في المدينة في عام ٦٣٢ ميلادية. والحقيقة إنها بدأت حتى أثناء مراسم الجنازة. اجتمع الصحابة، وهم أساسًا من قبيلة قريش، مع من عرفوا باسم "أنصار المدينة" في منزل أحد الأنصار. وبعد شيء من الخلاف، قرروا اختيار الصحابي أبو بكر خليفة لمحمد. في أثناء ذلك، كان علي بن أبي طالب (ابن عم النبي وزوج ابنته في نفس الوقت) في بيت النبي؛ مشغولا بالإعداد لجنازته، ومن ثم لم يستطع حضور الاجتماع. فوجئ علي بقرار اختيار أبي بكر خليفة، فرفض أن يبايعه بكياسة، وقال:

(*)"نحن نعرف جيدًا مكانتك الرفيعة، وما حباك الله به، ولا نغار من أي مكسب أتاك بسبب الله، لكنك تواجهنا بأمر قد قضي، ولا تترك لنا فيه خيارًا، وقد شعرنا بأن لنا حقًا فيه بسبب قرابتنا لرسول الله". ترقرقت عينا أبي بكر بالدموع وقال: "باسم من روحي بيده، إني كنت أفضل أن تسير الأمور على أحسن حال بيني وبين أهل رسول الله بأفضل مما هي عليه بيني وبين أهلي". وعند ظهر ذلك اليوم، تنصل أبو بكر علانية من هذا الموقف إذ قال "حيث أن عليًا لم يعترف به بعد كخليفة، فقد أكد على حق أبي بكر في الخلافة وبايعه عليها" .

أعيد بناء هذه الأحداث مرة أخرى بعد مقتل عثمان، الخليفة الثالث للنبي، وظهور الخلافات التي تحولت إلى حرب، وكانت هذه المرة بشأن من له حق الخلافة، أهو علي بن أبي طالب أم معاوية بن أبي سفيان؟ وسرعان ما ظهرت دلائل الطموحات السياسية الكامنة لدى خصوم محمد القدامى في تخطيطهم ضد عليٍّ. ومن المفارقات، إن الأحداث أدت إلى انتصار معاوية بن أبي سفيان على عليٍّ وحزبه. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا حدث انقسام خطير بين المسلمين، إذ

(*) ترجمت الاقتباس الذي ورد في الكتاب بمصدره المذكور في المتن، لكني أرفقه بهذه الحاشية المأخوذة بمنطوقها من مصدرها الأصلي الذي اقتبس منه المصدر الأجنبي الذي رجعت إليه المؤلفات، وقد أخذته من على شبكة الإنترنت من الموقع التالي:

www.ahlalhdeeth.com/vb/attachment.php?attachmentid=68754&d...

الذي يعرض كتاب الدكتور خالد كبير علال – قسم التاريخ و الجغرافيا – المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-

بعنوان: تحقيق موقف علي بن أبي طالب من خلافة أبي بكر الصديق: عرض و نقد

ومرجعه: البخاري: الصحيح، حققه ديب البغا، ط٢ ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧ ج٤ ص: ١٥٤٩. ومسلم : الصحيح ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د ت، ج٣ ص: ١٣٨٠.

يورد هذا المرجع عدة روايات عن بيعة على لأبى بكر أخذت المؤلفات منها بهذه الرواية :

"فلما حضر أبو بكر، اعترف له عليّ بفضله وقال له: إنني لم أحسدك على خير ساقه الله إليك لكنك "استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله – ص– نصيبا"، فقال له أبو بكر: إن قرابة النبى– ص – هى أحب إليّ من قرابتى، وأما "الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمـرا رأيت رسول الله – ص – يصنعـه فيـها إلا صنعته"، ثم تكلم عليّ ووعده بالبيعة فى المسجد بعد صلاة الظهر من نفس اليوم، فلما حان الوقت قام أبو بكر فى الناس وأخبرهم بأمر على وتخلفه، فنهض على بن أبى طالب وقال للناس ما كان قاله لأبى بكر فى بيته، وبايعه أمامهم، ففرحوا به واستحسنوا فعله".

انقسموا إلى من أسموا أنفسهم الشيعة، التي تعني حرفيًا أشياع علي، ومن عرفوا باسم السنّة. وبعد اغتيال عليٍّ، أعاد كل من الشيعة والسُنّة بناء التاريخ الإسلامي لمساندة معتقداتهم. وخلقت اختلافاتهم انقسامًا ترددت أصداؤه عبر تاريخ الإسلام.

اتهم الشيعة أبا بكر والخليفتين الآخرين اللذين تبعاه بالتآمر ضد عليٍّ. وعلى الرغم من المكانة المتميزة التي تبوأتها فاطمة، ابنة محمد (وزوجة علي) لدى الشيعة عادة، فإن السنيين لم يهتموا بالتركيز على حجيتها الدينية في المجتمع الإسلامي. وكَوَّن الشيعة فقههم الخاص، الذي رأى أن عليًّا وفاطمة وذريتهما قادة روحانيون مباركون، مقصود بهم أن يقودوا مجتمع المسلمين.

وبدأ معاوية عهدا جديدا ينقصه التآلف الذي نقلته رسالة الإسلام الأصلية. لقد حاد هذا النمط من الحكم عن الأخلاقيات الإسلامية الأصلية، وتخطاها إلى بدء ظهور مدارس وأفكار مختلفة فيما بينها، نبعت من هذا النمط من الحكم، وبعض هذه المدارس كانت تحركها قيم جاهلية، مثل القَدَرِيَّة[٣]، الذين تخفوا تحت البلاغة الإسلامية. ويخلص مونتجمري وات إلى ما يلي:

> **مع مثل هذه التيارات الفكرية، كان من السهل الذهاب بعيدا والقول بأن إنكار أن الله قد أعطى الخلافة للأمويين كفر، وأن عصيانهم هم أو من والاهم خطيئة. كان هذا هو السياق الثقافي الذي ظهرت فيه القدرية (Watt, 1985, p. 27).**

ومن هذا المدخل، حدث تلاعب بالناس ليخضعوا لحكامهم، وليعيشوا حياة مصطبغة باللا مبالاة. وكما حدث للديانتين السابقتين، اليهودية والمسيحية، تاهت الرسالة المحورية للإسلام وسط تسييس الدين.

لكن الأمثلة الكبرى من داخل الجماعة الدالة على الـ "نحن" ضد "الآخر" مثال تمتد جذوره إلى *فكر الخوارج*. يمكن ترجمة لقب الخوارج إلى "الذين غيروا

(٣) القدرية: هي الاعتقاد بأن للجبر قوة على الإنسان. فالقدر هو الذي يأتي للناس بالنجاح، والأهم أنه يأتي لهم بما يصيبهم من سوء حظ. وحلت هذه الصيغة شبه الإسلامية محل الله.

موقفهم من التأييد إلى الرفض". ظهر الخوارج كجماعة منفصلة أثناء سيادة النزعة الطائفية الكبرى بعد مقتل الخليفة الثالث، والتحكيم بين علي ومعاوية، الذي انتهى بهزيمة علي. اعتبر الخوارج أن عليًّا بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان مهرطقان، ومنحرفان. وكان مبدأهم الأساسي الذي صاغوه بكلمات قرآنية لتبرير خلافهم مع علي هو "لا حكم إلا لله"؛ ويعني هذا أن الحكم لابد أن يصدر وفقًا لما جاء في القرآن. وقد تجاهلوا أنه لا يوجد نص واضح في حد ذاته، حيث إننا نفهم النص من خلال تفسيراتنا متعددة المستويات له. أنشأ الخوارج الاتجاه الذي سيتبعه الكثير من المتطرفين بعدهم. فالإخوان المسلمون في مصر، والوهابيون في السعودية، وطالبان في أفغانستان وغير ذلك من الحركات الإسلامية الأصولية يعتبرون أنفسهم مالكي الحقيقة المطلقة، وأن واجبهم الجليل نشر وجهات نظرهم في جميع أنحاء العالم. وعلى الرغم من أنهم جميعًا يرددون نفس الأفكار، فإنهم يختلفون في تنفيذها. أما قهر المرأة فيحدث لديهم جميعًا، مما يشير إلى انعدام التوازن النفسي لديهم.

فإذا انتقلنا إلى الزمن الحاضر، نجد المذهب الوهابي أحد أهم السياسات المؤثرة في التاريخ الحديث. ظهر المذهب الوهابي في المملكة العربية السعودية في القرن الثامن عشر، وسمي باسم مؤسسه، محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩١). كان لهذا المذهب تأثير هائل على الكثير من الحركات في العالم الإسلامي، من الهند حتى شمال إفريقيا، مرورًا بالطالبان في أفغانستان. حكم عبد الوهاب بأن جميع الإسهامات المعرفية التي تلت القرن الثالث الهجري منافية للإسلام. قبلت قبيلة آل سعود الموجودة بشبه الجزيرة العربية هذه الصيغة من الإسلام، وقررت شن الحرب ضد أصحاب أي رأي مخالف. اقتنع السعوديون بأنهم يمثلون سبيل الله، وقتلوا أي مسلم لا يقبل الآراء الوهابية، وسرعان ما توسعوا وأنشأوا صيغتهم الخاصة من المملكة الإسلامية. واستغرق الأمر أكثر من قرن لتنظيم الأرض السياسية المعروفة الآن باسم المملكة العربية السعودية. لقد ادعى النظام السياسي في

السعودية أن تفسيره الشرعي مقدس، ومن ثم رفض إنشاء أي أحزاب سياسية أخــرى. بل إنه ابتدع نظامًا للأمن تحكمه الشرطة الدينية يسمى *المطوعين*. ونقرأ ما يلي في تقرير حقوق الإنسان عن السعودية، ضمن ما وجه إليه من نقد:

> **إن المطوعين، أو البوليس الديني، يشكل لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي هيئة شبه مستقلة تطبق بالقوة الالتزام بالمعايير الإسلامية بمراقبتها للسلوك العام. واحتفظت الحكومة لنفسها بالتحكم في قوات الأمن، لكن أفراد قوات الأمن ارتكبوا انتهاكات لحقوق الإنسان(٤).**

لم يحدث مثل هذا أبدًا في حياة النبي، لأنه لم يفرض أي أحكام أبدًا على أي أحد. علمنا محمد أن الله لا ينظر لمظهرنا كشيء أكثر أهمية مما في قلب المرء. ومن المفارقات أن الإسلام، سبيل السلام، الذي قصد إلى تحرير عقل الإنسان وروحه، كثيرًا ما يستخدم الآن لقمع حرية التعبير، والحفاظ على استمرار اختلال موازين القوى بين الجنسين.

القصة الهندوسية

تختلف الهندوسية عن الديانات التي سبق ذكرها في أنه ليس لها مؤسس معين، حتى ولو كان كريشنا يمثل شخصية مركزية في الميثولوجيا الهندوسية. كما أن الريج-فيدا فيه الكثير من الإشارات إلى شخصية إندرا الأسطورية، وإلى شخصية سياسية تعرف باسم مانو العظيم، ، الذي يبدو أن له تأثيرًا كبيرًا على تشكيل الهيكل الأبوي للهندوسية. تتجلى القوى الإلهية في براهما الذي يمثل كلاً من

---

(٤) وزارة الخارجية الأمريكية ***US Department of State***، تقرير عن ممارسات حقوق الإنسان في السعودية لعام ١٩٩٧، أصدره مكتب الديموقراطية وحقوق الإنسان والعمل في ٣٠ يناير ١٩٩٨.
http://www.state.gov/www.global/human_rights/1997_hrp_saudiara.html

"الخالق والوعي الإلهي" (Mijares, 2003, p. 200). وتتداخل قصص الأرباب الأسطوريين المتعددين مع قواعد الهيكل الاجتماعي للهندوسية.

وكما لاحظنا في الفصل الأول، يبلغ عمر تعاليم الفيدا الهندوسية ما يزيد عن ٣٠٠٠ عام، وتحتوي نصوصها المقدسة توجيهات لحياة روحانية تؤدي إلى حالة من الإدراك. يعتبر كل شيء مظهرًا إلهيًا محبوسًا في عالم من الوهم. وكما في الديانات الأخرى، يتجاور الجمال والحكمة مع عناصر الدمار. توجد مذاهب يوجا عديدة، وللكثير من مدارس اليوجا مستويات متنوعة، تتراوح ما بين أكثرها تمسكًا بالخرافة إلى عمليات علمية دقيقة يقصد بها الأخذ بيد المريد إلى إدراك الإلهي. تشمل هذه العمليات التنفس، وترتيل تعويذة المانترا الهندوسية، وتناول الغذاء الطاهر، والقيام بتمارين بدنية في أوضاع معينة، والانضباط الذهني، والإخلاص والخدمة. تمثل هذه العمليات الجانب الأعمق لليوجا، الذهاب إلى ما هو أبعد من التضحية بالحيوانات لإله المعبد وإلهاته الذي ما زال يحدث حتى يومنا هذا. يشمل مجمع الآلهة الهندوسي الكثير من الإلهات، اللاتي غالبًا ما يكنّ قرينات الأرباب، مما يشير إلى أهمية التوازن بين الجنسين. لكن كما صورنا في الفصل الأول، ما زالت المعبودات الأساسية تصمم في شكل الذكور.

تؤكد سبل اليوجا في الديانة الهندوسية جودة الآهيمسا، وهي طريقة فحواها ألا يضر الإنسان نفسه ولا غيره. وقد أسماها مُهندَس غاندي "خاصية القلب" (Merton, 1964). وعند الهندوس تقاليد عتيقة، ينحني بموجبها الفرد لغيره كطريقة للاعتراف بالجانب الإلهي الذي يتجلى في كل إنسان. كما يؤكدون أيضًا ممارسة خدمة الكارما – يوجا لجميع أشكال الحياة.

وعلى الرغم من أن نظام الطوائف يكشف عن تعصب عميق الجذور داخل النسق الديني والاجتماعي للهندوسية، فإنه كان يقبل الديانات الأخرى حتى زمن قريب. من أمثلة هذا العلاقة التي نشأت بين المسلمين والهندوس في بدايات التاريخ الإسلامي، حيث سافر المسلمون إلى الهند حاملين معهم رسالة الإسلام. ولقد قاد

الهند حكام مسلمون من ١٢٠٠-١٥٢٦ ميلادية. وعلى الرغم من الانفصال الحالي بين باكستان والهند، فإن المسلمين ما زالوا يكونون حوالي ١٢% من سكان الهند.

وقد تزايد وضوح الصراعات بين المسلمين والهندوس في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد ظهر في الجانبين تزايد في الفكر الأصولي مع تأكيد كل جماعة لهويتها الدينية، وبدأت كل جماعة ترى الأخرى كعدو. وبدأ التأثير الشرير لمشكلة "الانفصال". وأثيرت تساؤلات عن السبب الذي جعل من الدين، لا الفوارق الاجتماعية أو الثقافية، أساسًا للهوية الثقافية. يعتقد سيد ناصر أحمد أن لهذا الوضع علاقة بالتغيرات التي طرأت على الاقتصاد العالمي مع ظهور هوية هندية فريدة (انظر/انظري (Ahmed, 1991, p. 1). يستبعد أحمد أن يكون الدين هو العامل الأساسي في اغتراب الهندوس والمسلمين، ويذهب إلى أن السكان المسلمين والهندوس كانوا أقرب لبعضهم البعض مما قد يتخيل بعض الباحثين. ولا شك أن الخوف من الحداثة وآثار الاستعمار كان لهما تأثير سلبي.

... حدثت نوبة من القتل الانتقامي لمدة ثلاثة أيام قتل فيها الهندوس المئات وتشرد على إثرها عشرات الآلاف وفقدوا ممتلكاتهم. كما انتشر أيضًا نهب وسرقة بيوت المسلمين، ومقار أعمالهم، وأماكن عبادتهم. واغتصبت النساء والفتيات المسلمات بوحشية. وحفرت مقابر جماعية في طول الدولة وعرضها. وقال حفارو القبور لهيئة هيومان رايتس ووتش إن وصول الجثث المحروقة والمشوهة بشكل لا يصدق لم ينقطع ... وفي كثير من الأحوال قاد مسئولو الشرطة هجمات وحشية في جماعات كبيرة، سددت الأسلحة نحو من صادفتهم في طريقها من المسلمين وأطلقت عليهم النيران(٥).

---

(٥) هيومان رايتس ووتش على موقع:
http://www.hrw.org/press/2002/04/gujarat.htm

وقد وضح بارثا بانيرجي في كتابه *في بطن الوحش: منظمتا الراشتريا سوايامسيفاك سانغ وحزب البهاراتيا جاناتا الهنديان فائقا الفحولة قصة على لسان أحد أبناء الهند* أن الراشتريا سوايامسيفاك سانغ، والشيف سينا، والهندوتفا (الهوية الهندية) وغير ذلك من الجماعات الهندوسية المتطرفة لا تختلف عن طالبان أو غيرها من الجماعات المسلمة المتطرفة (Banerjee,1998). ويرى د. بانيرجي – الذي سبق أن كان عضوا في جماعة الراشتريا سوايامسفاك سانغ- تشابها في الاتجاهات بين هذه الجماعات والمسيحيين الراديكاليين المتطرفين، مثل التحالف المسيحي وجماعة الحافظين العهد(٦). أما وقود أيديولوجيتهم فيأتي من الاعتقاد بأنهم أعلى شأنًا من الآخرين. وكثيرًا ما تقوم كراهيتهم للمسلمين، واستهدافهم لهم وقتلهم إياهم على أساس الإعجاب بهتلر وسياسات النازي ضد اليهود (Savarkar, 1939). وتنشط جماعة الراشتريا سوايامسيفاك سانغ على وجه الخصوص في الحركات المضادة لمفاوضات السلام بين الهند وباكستان.

وهكذا، فشلت الكارما يوجا، التي تعرف بأنها *خدمة لجميع أشكال الحياة* في استيعاب السكان المسلمين. ويصعب أن تعرف هذه الفظائع التي ترتكب في بلد تدعي أنها أنجبت واحدًا من أعظم من صاروا قدوة للنشاط المضاد للعنف في تاريخ البشرية، ألا وهو مُهَندَس غاندي. ينصح غاندي في آخر كلمات خطها في سيرته الذاتية بأنه "طالما لم يضع الإنسان نفسه من تلقاء ذاته في موضع الأخير بين رفاقه من المخلوقات، فلا خلاص له" (Ghandhi, 1957, p. 505).

القصة البوذية: سبيل التراحم

بدأت البوذية في الهند في القرن السادس ما قبل ميلاد المسيح بتعاليم سيدهارتا جوتاما، الذي نشأ وتربى على سفح جبل الهمالايا، وهو ابن لأحد قادة

---

(٦) إن جماعة حافظي العهد على وجه الخصوص لا تقبل في عضويتها إلا الذكور، وتطعن في حق النساء في المساواة معهم (متخذين مفاهيم الحفاظ على صحة الأسرة وصحة أمريكا ستارًا لهم)، ويروجون لنموذج العائلة الأبوي.

قبيلة الساكيا عاش في حمى والده. تقول القصص إن من سيصير بوذا في المستقبل "قد قابل على التوالي رجلاً عذبه المرض، ورجلاً في آخر مراحل الشيخوخة، وجثة يحملها الناس إلى المحرقة، ووراءها أقارب الميت وأصدقاؤه الغارقين في الأحزان" (Parrinder, 1971, p. 263). وبينما كان سيداهارتا يتأمل هذه المآسي الدنيوية، مر به ناسك (رجل مقدس). أوحى هذا الكشف لسيدهارتا بأن يترك عائلته، وممتلكاته، وإرثه ليجد سبيلاً لحل مشكلات البشر التي جلبت له كل هذا الكم الهائل من اليأس. ووجد نفسه أخيرًا وقد أجهدته الضوابط الصارمة في حياة النسك، ووجد أنها لم تشجع على الصحوة الروحانية، فقرر أن يهب نفسه تمامًا للتأمل حتى يصل إلى التنوير. تنقل لنا القصص أن سيدهارتا كان يتأمل حين

> **تهجم عليه مارا الشرير، الذي سعى هو وبناته الثلاث بمختلف الحيل إلى إثناء بوذا المرتقب عن هدفه. لكن جميع جهود مارا ذهبت هباء. وبعد أن قضى سيدهارتا ليلة من النضال الروحي، هزم جميع العناصر الشريرة التي تربط الإنسان – في نظر البوذية – بهذا الوجود الناقص الفاني، وأصبح الذي صحا، البوذا، ودخل عالمًا من الوجود المتعال الخالد. (المرجع السابق ص ٢٦٤).**

عجز مارا (وهو إله هندوسي للأوبئة، والمرض والشهوة) عن إزعاج سيدهارتا أو إرهابه مما أدى به إلى التنوير. ثم تحقق شيء آخر للبوذا ("الذي صحا")، لقد امتلك الحرية، وشعر بتراحم شديد نحو البشرية، ومن ثم قرر أن يُعلِّم الآخرين سبيل التنوير، حتى يعرفوا هم أيضًا هذه الحرية التي لها طابع النيرفانا. لكن الحرب بين الخير والشر لم تتوقف، إذ تخبرنا الماهابارينيبانا سوتا أن مارا الشرير استمر في إغواء البوذا حتى لحظة وفاته. لكن مارا عجز عن إيقاف تطور البوذية وتزايد أعداد رهبانها وراهباتها الذين واللاتي عكفوا على السير في سبيلها (المرجع السابق ص ٢٦٤).

والبوذية التبتية على وجه الخصوص لديها الكثير من الشياطين، لكن تفسير هذا الأمر يختلف اختلافا كبيرا عن تفسير الديانات الإبراهيمية له. ترى البوذية أن هؤلاء الشياطين من عوامل إيقاظ الصحوة، قد يخيفوننا حتى نتحقق روحيا، ويحلون وثاقنا من عجلة الكارما، وييسرون التنوير، ألا وهو هدف الحياة.

إن الوحي الذي كشف عن الطريق الذي قاد الأتباع إلى تجاوز المعاناة البشرية قد أعجب الكثيرين. ما زال الرهبان والناس العاديون يتبعون السبيل ذي الثماني شعب، وهو طريق للسلوك الروحاني أرساه بوذا. أما الشُعب الثماني فهي كالتالي:

- الفهم الصحيح
- الفكر الصحيح
- الحديث الصحيح
- الحركة البدنية الصحيحة
- العيش الصحيح
- الجهد الأخلاقي الصحيح
- الوعي الصحيح
- التركيز الصحيح

إن للتعليم الذي يحصله المريد المتدين ولحكمته وقعًا عميقًا على كيفية ترجمته لهذه التعاليم. إن التعاليم التي تؤدي إلى حياة يعمها التراحم هي: فهم طبيعة عالمنا، ومعنى الحياة، وتطوير العقل، وتوجيه الجسم، والعيش بأمانة وأخلاق. والهدف هو أن يتجاوز الفرد الوجود المتمركز حول الذات، وذلك على أساس الاعتقاد بأن أحوال الذات سريعة التغير. إنه سبيل للتراحم، وتحرير الإنسان من الخوف والرغبة.

لكن للبوذية نصيبها من الحروب والصراعات، على الرغم من أن مختلف الجماعات الدينية قادرة -بحكم طبيعة الأشياء- على العيش في تسامح مع بعضها البعض في البلدان الآسيوية. فمثلا، مارس البوذيون، والكونفشيوسيون، وأتباع الشنتوية والطاوية دياناتهم على التوالي بجوار بعضهم البعض لحقب زمنية طويلة (Parinder, 1971)، على الرغم من أن التاريخ يكشف لنا عن أن الهياكل والدوافع السياسية قد أفرزت قوة معارضة أدت إلى صراعات دينية وقمع ديني. ويصور لنا كتاب *قصص حروب الزن* *Zen War Stories* لمؤلفه برايان دايسن فيكتوريا (Victoria 2003)، حوادث تورط فيها رهبان بوذيون يابانيون في عمليات اغتيال لشخصيات سياسية، وفي مذبحة نانجينج (ضد مدنيين). وتوجد موضوعات مألوفة فيما يتعلق بالصراعات الحالية مع الإسلاميين الأصوليين الراديكاليين. فـ "الحرب المقدسة" مثلا استعارت هي و "الهجمات الانتحارية" الأيديولوجية اليابانية لليابان السابقة في عصر الإمبريالية (قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها)، ودعمت تعاليم الزن البوذية هذه الأيديولوجيا (Victoria 1997)، كما استغلت الفلسفات البوذية التي تشجع على اللا مبالاة بالحياة والمعاناة في التدريبات العسكرية، وهكذا ساندت هذه التعاليم "الهجمات الانتحارية" التي قام بها طيارون يابانيون ضد الغرب. كما أن هذه الفلسفات تورطت أيضًا في احتلال جيران اليابان (وهي قصة أخرى من قصص الاحتلال).

ويتضح في سيريلانكا مثال حديث للتعصب والأصولية. فقد حدث صراع عِرقي بين البوذيين السنهاليين والتاميل حصد آلاف الأرواح في العقدين الأخيرين. فقد لاحظ البروفيسور آسانجا تيلاكارنتا في مؤتمر بعنوان *البوذية والصراع في سيريلانكا* أنه

> **يوجد اعتقاد على نطاق واسع أن الرهبان البوذيين في سيريلانكا يعتنقون رؤية للعالم تستبعد غيرهم، وينحصر تعريفها لمن تقبلهم في نطاق ضيق من لغة وعِرق السنهالا**

> **والبوذية السنهالية، وأن هذه الرؤية للعالم مسئولة إلى حد بعيد عن عدم قبول جماعات الأقليات عامة (والتاميل خاصة) على الرحب والسعة، والتمييز ضدها ...(٧)**

ما انفك العنف يحدث لعدة عقود، قتل أثناءها الرهبان البوذيون التاميل الهندوس، والمسيحيين، والمسلمين وغيرهم من الجماعات، ومارسوا العنف ضدهم. يشرح مارك يورجنزماير في كتابه *إرهاب في عقل الإله* *Terror in the Mind of God* أن

> **فتوحات ممالك السنهاليين العسكرية في سيريلانكا، مثلاً، قد حدثت باسم المأثورات البوذية، وكثيرًا ما كانت تحدث بمباركة من الرهبان البوذيين. وفي تايلاند، نادت المأثورات بمن حكموا بالسيف ملوكًا عند أول تجربة لهم في الانخراط في سلك التدريب النسكي البوذي ... إن أحكام البوذية تمنع استخدام العنف لأغراض غير دفاعية بغرض التوسع السياسي. لكن الدفاع المسلح، بل والحرب، قد وجدا تبريرًا على أساس أن هذا العنف جزء من طبيعة رد الفعل، وليس مقصودًا. وكما هو الحال في الإسلام، وجد التوسع الكبير للبوذية في مختلف أنحاء العالم ضمانًا جزئيًا في الدعم الذي قدمه له المنتصرون من الملوك والقوات العسكرية، الذين زعموا أنهم لا يحاربون إلا الكفار للدفاع عن الإيمان**

---

(٧) *Buddhism and /conflict in Sri Lanka. An International Conference. June 28-30, 2002.*
http://www.bathspa.ac.uk/conferences/buddhism-and-conflict-in-sri-lanka/abstracts.htm

ولإقامة نظام سلمي أخلاقي Juergensneyer, 2003, p. (114).

وفي عام ١٩٩٥ قام أعضاء طائفة دينية جديدة اسمها أوم شينريكيو في اليابان بعملية إرهابية ضد ٥٥٠٠ شخص، وقتلوا اثني عشر شخصًا وجرحوا عددًا كبيرا غيرهم (المرجع السابق). وقد برر شوكو آساهارا، قائد هذه الحركة، العنف على أساس تفسيره الخاص للتعاليم التبتية فقال إن :

> **... القتلى أوغاد، أو منخرطون في أنساق اجتماعية شريرة إلى درجة أن بقاءهم في هذه الدنيا لوقت أطول سيزيد من العبء الملقى على عاتق الدين الكارمي، فمن قتلوهم أسدوا لهم جميلاً بتمكينهم من الموت مبكرًا (المرجع السابق ص ١١٥).**

ويوجد نوع من التعصب أكثر خفاء يحدث في البوذية كما يحدث في غيرها من الديانات، ألا وهو ميل المرء إلى الاعتقاد بأن الشكل الذي ينتمي إليه (السلالة، أو الطائفة... إلخ) أعظم قدرًا من نظيرها لدى الآخرين (مثلاً، إذا ما كان الشخص يتبع مذهب هينايانا، أو ماهايانا، أو فاجرايانا). لكن في معظم الأحوال، إذا قارنّا الوضع في البوذية باليهودية والمسيحية والإسلام، نجد أن مختلف المذاهب البوذية قد تجاورت مع بعضها البعض دون حدوث أعمال عنف متطرفة. ويتغير شكل التعصب والتفكير المتعصب من ثقافة إلى أخرى، لكن القصة تظل نفس القصة: دمر الآخرين الذين لا يشبهوننا أو الذين لا يرحبون بالتخلي عن هوياتهم العِرقية أو الدينية، أو انبذهم.

حكايات سكان أمريكا الأصليين

لسكان أمريكا الأصليين (الشعوب الأولى للأمة) أقوال مثل: "لا تحكم على آخر إلا بعد أن تسير ميلاً وأنت مرتد حذاءه الموكاسين" (القائل غير معروف).

ويشرح د. تيري تافويا أن لهذا القول "معنى نابعًا من الإحساس أكثر منه من التفكير في تقاليد السكان الأصليين لأمريكا لأن "جلد الغزال اللين يتشكل بشكل القدم ... وحين يبتل نعل الحذاء يتشكل بالضبط بشكل القدم، ثم يجف ويتصلب على هذا الشكـــل، ممـــا يجعـــل كل حذاء من أحذية الموكاسين فريدًا من نوعه لا يناسب إلا صاحبه" (اتصال شخصي). إذن، فالسير لمسافة ميل في حذاء الموكاسين الخاص بشخص ما يعني الإحساس المباشر بهذا الشخص. ويدرك سكان أمريكا الأصليون الحيوانات والطبيعة أيضًا باعتبارها إخوة وأخوات، ويوجد بينهم وبين الطبيعة ارتباط وثيق.

وعند النافاجو طقس لاستعادة *الهوزهو* (السلام والجمال) إذا حدث اختلال في التآلف، وهو يسمى احتفال طريق الجمال. وهم يعتقدون أن العالم مليء بهذا *الهوزهو*.

تقول لنا إحدى أساطير الأباشي إن يوسن، روح الجبل، عندما "أخرج الأباشي إلى سطح الأرض ليعيشوا عليها لم يفعل ذلك إلا بعد أن علَّمهم كيف يسيرون على درب الحياة المقدس. فلابد أن يكونوا رحماء بينهم، وكرماء مع الفقراء، ومحترمين في الصيد والحرب" (Haley, 1997, p. 74).

لكن هل تخلو أمم السكان الأصليين لأمريكا من التنافر بينهم؟ هل هم بقادرين على السير في سلام مع أخوتهم وأخواتهم من القبائل الأخرى؟ لقد استلهمت الأمتان الهنديتان سالفتا الذكر قيمًا أخلاقية مماثلة لتلك الموجودة في غيرها من ديانات العالم، وأظهرت الأمتان كلتاهما فشلاً مماثلاً في اتباع هدى التوجيهات التي أعطيت لهما. فمثلاً، تشير السجلات التاريخية إلى أن قبيلتي الأباشي والنافاجو كانت بينهما عداوة (المرجع السابق).

حدثت حروب بسبب النزاع على الأرض بين بعض القبائل. أما المنتصرون، فقد اكتسبوا قوة من حيازتهم لمساحات أوسع من الأراضي يتحكمون

فيها. وفقا للتاريخ الذي يسرده علينا بيتر رايت في كتابه *قادة الهنود الأمريكيين: دراسات في الاختلاف* *American Indian Leaders: Studies in Diversity* فإن "الشوشون احتاجوا معونة من القوات الفيدرالية للدفاع عن وطنهم ضد قبائل السوز والشيان والآراباهو الأكثر منهم عددا" .

ويوجد تفسير آخر للحرب بين القبائل. يشرح تافويا أن معظم الصراعات التاريخية بين المجتمعات المحلية للسكان الأصليين من ساكني السهول كانت تتعلق مباشرة بهجمات المستوطنين البيض الذين طردوا جماعات السكان الأصليين. قبيلة اللاكوتا أحد هذه الأمثلة. كانت ثقافة هذه القبيلة أصلاً ثقافة غابات، فقد أرغموا على النزوح غربًا، مما شتت شمل السكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في هذه المناطق. ويذكرنا تافويا بأن السكان الأصليين قد أرغموا تحت تهديد السلاح على النزوح إلى الأراضي التي خصصت للتحفظ عليهم فيها، ومنعوا من دخول أراضيهم التقليدية الخاصة بالصيد والتقاط الثمار. وقد فاقم هذا الوضع من حدة الصراعات بين ثقافات السكان الأصليين، بسبب الدمار الذي ألحقه بعلاقة السكان الأصليين بالأرض.

ويشرح تافويا أن الخلافات بين قبائل السكان الأصليين كانت خلافات على الأرض لا خلافات أيديولوجية. فمثلاً، كان بين قبيلتي النافاجو والهوبي خلاف طويل الأمد على حقوق الأرض، وقد لاحظ تافويا أن

> **أحد أسباب الصعوبات التي واجهتها قبيلة النافاجو مع الكثير من غيرها من أمم الهنود عبر السنين أنها كانت أكثر المجموعات سكانًا، ونتيجة لذلك كان تأثيرها وقوتها السياسيان أكبر بكثير مما لغيرها من أمم السكان الأصليين**

... وكان لقبيلة الزوني Zoni أيضا تاريخ من المشكلات مع قبيلتي النافاجو والآباتشي، على الرغم من أن هذه المعـارك تكسب الآن في قاعات المحاكم (اتصال شخصي مع تافويا).

لكن المعارك على الأرض روحانية في جبلتها، لأن روحانية سكان أمريكا الأصليين تقوم على أساس الأرض. ويختلف هذا عن الانشقاقات الفقهية بين الطوائف الدينية كما يتضح في الديانة المسيحية (البروتستانت والكاثوليك) والإسلامية (الشيعة والسنة). الأمر ليس مجرد قبيلة تحارب أخرى بسبب الفوارق الدينية، بل تحارب القبيلة غيرها من القبائل بسبب هجماتها على أراضي غيرها وانتهاكها لهذه الأراضي (مما يمس هوية أصحاب الأرض). وقد حدث الانشقاق الديني عندما تحول بعض أفراد قبيلة الهوبي إلى المسيحية، لكنهم انتقلوا ببساطة إلـى معسكـرات خـاصة بأمثالهم داخل المجتمع المحلي. فأي معتقد أيديولوجي أو ديني لم يكن ليهدد القبيلة.

وقد عانى السكان الأصليون لأمريكا معاناة شديدة بسبب المبشرين الأمريكيين الأوائل الذين استعبدوهم وأرغموهم على اعتناق المسيحية. وفي العقود الحديثة، شعر سكان أمريكا الأصليون بمزيد من الحرية في ممارسة معتقداتهم الدينية. ويكتشف الكثيرون أن السكان الأصليين في جميع أنحاء العالم لديهم الكثير مما يعلموننا إياه عن احترام بيئتنا وتبجيل الطبيعة الإلهية.

المعتقدات الدينية ومشكلة الطاعة

من المشكلات الكبرى للدين المنظم تأكيده على طاعة مبادئه المنظمة حسب ترتيب هرمي. تؤكد الديانات على المبادئ الأخلاقية ووجوب طاعتها (كالوصايا العشر مثلاً). لكن *الطاعة* في حد ذاتها تصير مشكلة حين يفشل البشر في احترام الأخلاقيات ورؤية عواقب السلوكيات الهدّامة. يقدم لنا التاريخ دلائل على المرات الكثيرة التي شجع فيها الحكام الدكتاتوريون (مثل هتلر) والقادة الدينيون المضللون

أتباعهم على "الطاعة العمياء". حينئذ، يسود تأثير جماعي هدَّام، إذ تذبح إحدى الجماعات العرقية أو الدينية الأخرى دون اعتبار للسلوك الأخلاقي. من أمثلة هذا السلوك الهدام الحادث الذي وصفناه سلفا في جوجارات بالهند، حيث أحرق المسلمون ثمانية وخمسين مسافرًا هندوسيا في قطار إكسبريس سابارماتي في جودهارا، حيث إن الهندوس قتلوا مئات المسلمين. وفي غمرة اليأس الذي خيم بسبب المأساة، سأل الجانبان الكاتبة آرنداتي روي، المولودة في الهند، " أي النصوص الهندوسية المقدسة بالضبط تدعو إلى هذا؟ ... ما الآية المعينة في القرآن التي تدعو إلى حرق الناس أحياء؟" (Arundhati, 2003). لقد نسى الجانبان إنسانيتهما المشتركة، إذ أعماهما عنف العصابات الدينية والانتقام عنها.

كثيرًا ما يستغل الدين لحشد الناس ودعم العدوان. ما الذي يجعل الناس يتصرفون بقسوة باسم أي معتقد؟ إذا قدر لنا أن نغير هذا السلوك الهدام، لابد لنا من مزيد من فهمه.

لقد لعب الدين عبر التاريخ على المعنى المغلوط للرسالة الإلهية بمهاجمة الآخر. كما أن الديانات قد وسعت من هيمنتها مرارًا وتكرارًا باستخدام السيف (وفي وقت أحدث باستخدام البنادق، والقنابل، وغيرها من أسلحة الدمار). وما يلي ليس إلا مثالاً صغيرًا لنتائج السيادة الذكورية وقمع الجانب الأنثوي للبشرية الذي يميل أكثر إلى توحيد الشمل.

هاجم المحاربون المسيحيون بلادًا إسلامية وشنوا عليها حملات صليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ساعين إلى الدفاع عن الدين المسيحي وتوسيع نطاقه. وبعد ذلك بثلاثة قرون، عذب آلاف من المسلمين واليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية باسم التفتيش المقدس، وتبع ذلك حرق النساء والأطفال المتهمات والمتهمين بالسحر. وفي تلك الأثناء، كان المسلمون من الشيعة والسنة يتقاتلون، ويتجادلون حول أيهما يمثل الإسلام الصحيح، ويقتلون بعضهم البعض بسبب فوارق ضئيلة بينهم، ناسين أن المسلم الحق هو من يسلم وجهه لحب الله. وقد

توسلت جماعات حقوق الإنسان للأمم المتحدة للمساعدة استجابة لارتكاب الجانجويد -وهم عرب مسلمون راديكاليون- لجرائم إبادة عنصرية ضد قبائل إفريقية مسلمة (ذات جلود أدكن لونًا) في دارفور. والقائمة لا تنتهي حيث إن التاريخ يقدم لنا أمثلة كثيرة للعنف الذي جرى بدوافع أبوية.

والكثير من هؤلاء الجنود الدينيين الأصوليين (المحاربين من أجل الله المنحدرين من سلالة دنيا) يفشلون في وضع القدسية الحقة لمعتقداتهم موضع التساؤل. فأفراد القاعدة مثلاً يعتقدون أنهم يتصرفون باسم الله، وأنهم يقومون بأفعالهم ضد أعداء الله. وقد جعلهم هذا الاعتقاد يتجاهلون أن النبي محمد لم يعلم النــاس القسوة وانعدام الرحمة أبدًا، ولا ضرب مثلاً لذلك بنفسه. إن الإيمان الذي لا يتطرق إليه أي شك كثيرًا ما يكون مبررًا لسلوك قاس. يتضح مثال تاريخي مبكر لهذا العنف القاسي في الحملة الصليبية التي شنها البابا إنوسنت الثالث ضد المسيحيين من طائفة الألبيجينسيس في جنوب فرنسا في سنة ١٢٠٩. حين سقطت مدينة بيزيير المحاصرة، سأل الجنود مستشارهم البابوي (كما يقال) عن كيف يفرقون بين المؤمن والكافر من بين الأسرى، فأوصاهم بما يلي" :اقتلوهم جميعا، وسيعرف الله أتباعه من بينهم" (Haught, 1991). وذبح حوالي ٢٠٠٠٠ شخص تقريبا طاعة لذلك الأمر. يمكن أن تكون الطاعة والخضوع للسلطة وسيلة قوية لحفظ النظام، لكنها يمكن أن تكون أيضًا أداة مميتة وآلية خطرة تستخدم لتسوق عامة الناس إلى أفعال بشعة.

وقد قتل فيما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ حوالي ١١ مليون شخص تقريبًا نتيجة لسياسة الإبادة العنصرية التي أخذ بها النازي. لقد أقنع هتلر أتباعه (والكثير منهم مسيحيون) أنه في سبيل الحصول على عنصر "آري" نقي، لابد من القضاء على كل من يحكم عليهم نظام حكمه بأنهم أقل قدرًا من هذا العنصر. حاول هتلر القضاء على اليهود، والغجر، والبولنديين وغيرهم من السلافيين، وشهود يهوه، وذوي الجنسية المثلية، ورجال الدين ذوي الآراء المخالفة للمسموح به،

والشيوعيين، والاشتراكيين، والأعداء السياسيين، والمرضى العقليين. وقد كره هتلر اليهود على وجه الخصوص، واعتقد بضرورة تدميرهم. يشرح كتاب *تاريخ اليهود* *A History of the Jews* لكاتبه بول جونسون أن

> **لقد قبل هتلر بنظرية مؤامرة معاداة السامية في أكثر أشكالها تطرفًا، إذ اعتقد أن اليهودي وغد بطبيعته، وأنه حقًا تجسيدًا للشر ورمزًا له. وقد رأى على مدار عمله "المشكلة اليهودية" من منظور يتنبأ بالدمار الشديد، وكان الهولوكوست النتيجة المنطقية لآرائه (Johnsonm 1987, p. 492).**

وقد أفقدت هذه الفظائع الكثير من اليهود الثقة في العالم المتمدن

> **كان الدرس المهول الذي تعلمه اليهود من الهولوكوست هو وجود ضرورة ملحة ليؤمّنوا لأنفسهم ملجأ ثابتًا يخصهم ذا سيادة، يمكن أن يجد فيه جميع يهود العالم -إذا لزم الأمر- الأمان من أعدائهم (المرجع السابق ص ٥١٧).**

لكن الأمة اليهودية، إسرائيل، قد عميت عن رؤية العنف الذي ترتكبه ضد جيرانها الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) بدافع خوفها الذي يؤدي إلى أخذها بوسائل الدفاع. إن الجدار العازل رمز لانغلاق إسرائيل حول قلبها.

قال مجرم الحرب النازي آدولف أيخمان: "كنت أطيع الأوامر". وقد زعم جندي أمريكي شارك في مذبحة للمدنيين الفيتناميين في قرية ماي-لاي أثناء حرب فيتنام "لقد تصرفت وفقًا للتعليمات". ما المدى الذي يقبل الناس الذهاب إليه لإطاعة الأوامر؟ ما الذي يجعل بعض الناس يذبحون الملايين عمدًا لمجرد انتمائهم لجماعة عرقية أو دينية معينة؟

إن الطاعة العمياء لأحد رموز السلطة أو مُثُلها قد دفعت بالعديد من الجماعات الدينية والعِرقية إلى تدمير بعضها البعض. وهذا مثال آخر للمبادئ التراتبية في العقلية الأبوية، حيث إن الأدنى في مقياس القوة يتوقع منه أن يتصرف دون أن يسأل. ومما يعزز هذا الشر البشري حكمنا على أي شيء بأنه مقدس، وهو من ثم متمتع بالحماية. فمثلا، نعتبر أن عقيدة، أو عنصرًا، أو أمة ما من المقدسات، فتصير -وفقا لهذه العقلية- أعظم من غيرها. وما إن تتولى جماعة من الناس إسقاط المعنى النمطي الفطري لهذا المقدس على مثال ما، أو معتقد أو رمز، حتى تميل الذات الجمعية إلى التسيد على غيرها (وهذا ما يسمى التمركز حول العِرق). وقد أدت هذه الميول إلى حدوث دمار هائل. إن اتِّباع الناس لقائد أو مثال دون أن يهتموا اهتمامًا رحيمًا بحياة الآخر وحسن أحواله انتهاك لحرمة المقدسات. تحتاج الجماعات والأمم الدينية إلى إدراك المعنى الحقيقي للمقدس الذي ينشأ في القلب.

نشر مقال في النيويورك تايمز في ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣ يقول إن ٢٧ طيارًا إسرائيليًا رفضوا دك المواطنين الفلسطينيين بالقنابل(٨). كما نشرت صحيفة إسرائيلية أن هؤلاء الطيارين قد طردوا من الخدمة عقب ذلك(٩). تخيلوا ما يمكن أن يكون عليه الأمر لو أن جميع الناس بدءوا يفحصون قلوبهم ويكرمون إنسانية جميع الناس أينما كانوا، فيرفضوا التعاون مع العناصر الأبوية الهدامة؟ كم سيكلف البشرية أن تصل إلى إدراك هذا؟ ماذا سيحدث لو تقلدت النساء المناصب المؤثرة؟ نعم، لقد دعمت النساء أيضًا السلوك الهدام عبر التاريخ الأبوي، إذ استولت عليهن أفكار الانتقام والدمار الأبوية. لكن لو تساوت النساء في تقلد مناصب القيادة عبر فترة من الزمن، فسوف تتغير هذه السلوكيات الهدامة، كما تشير الأبحاث (Kramer, 1998).

---

(٨) *Greg Myre. (September 25, 2003). 27 Israeli Reserve Pilots Say They Refuse to Bomb Civilians. NY Times.*

(٩) *Amos, Harel & Lily Galili. Air Force to oust refusenik pilots. Israel: HáAretz. September 25, 2003.*

الخلاصة

تؤكد النصوص المقدسة والمؤسسون الروحانيون لجميع الديانات على التقارب، والتسامح، والحب. وعلى الرغم من هذا التأكيد، فقد انتهك الأصوليون نفس هذه النصوص، نصوص أنبياء أدياننا وكلامهم المسجل، وأساءوا استخدامه، إذ فشلوا في فهم الرسالات الروحانية العميقة والتعاليم الرحيمة لكل مؤسس من مؤسسي الـديانات. وقـد أدى هذا الفشل تاريخيا إلى الاستبعاد لا التقارب، والتعصب لا التسامح، والكراهية لا الحب. وكانت النتيجة العنف الذي يرتكبه الأصوليون. وبذا، تقوض الأصولية التعاليم المحورية الموجودة في جميع الديانات. كما أن الأصوليين الراديكاليين متحيزون ضد النساء. فالذكور يسودون والنساء ينفين ويُقمَعن. يتضح هذا التحيز بشكل خاص لدى إسلاميي طالبان، والطوائف الوهابية، والتحالف المسيحي، والحافظين العهد، والسانغ باريفار الهندي، والكثير غيرها من الجماعات الراديكالية. ولابد أن نعود إلى رسالة المساواة التي علّمنا إياها أنبياؤنا، ونتجاوز التفسيرات الأبوية للحياة الدينية.

لقد جالس يسوع السامريين، والمجذومين، وجميع الناس على قدم المساواة. كما أن يسوع استوعب النساء بصفتهن مساويات للرجال (King, 1995). والتصرف الغاضب الوحيد المسجل ليسوع ضد أي جماعة يتعلق (بالصرافين) في المعبد الذين كانوا يستغلون الآخرين (إنجيل متى ٢١: ١٢)، وعدا ذلك كانت تعاليمه تقوم على المساواة والتراحم.

وبوذا أيضًا علم الناس سبيل الرحمة لجميع الكائنات. يصور قسم بوديساتفا البوذي(١٠) طريقًا للحياة مكرسًا تمامًا للإنسانية، والحيوانات، وجميع المخلوقات.

---

(١٠) البوديساتفا كائن مستنير يقرر حين يصل للتنوير ألا يدخل النيرفانا (عالم السماء)، بل يظل في عالم الأرض حتى تصل معرفة التنوير إلى كل كائن حي له القدرة على الإحساس.

وتعلم الهندوسية أيضًا أن احترام الإله موجود داخل جميع البشر. كما أن سكان أمريكا الأصليين يمجدون روحيًا قدسية جميع ما في الحياة.

يفتتح القرآن بالاعتراف بأن الرحمة والتراحم أول مظاهر الله (الإله الواحد في جميع الديانات). كما احترم محمد اليهود والمسيحيين والنساء وصادقهم على قدم المساواة.

منذ ميلاد المسيح اقترب حاخام ينعي فقدان الهيكل من الحاخام اليهودي يوحنان زكاي طلبًا للهداية الروحية. أجاب الحاخام يوحنان: "لا تحزن. لدينا تعـــويض آخر بنفس فعالية هذا الذي تنعيه. "وما هو؟" "إنه أفعال الحب، والطيبة، إذ يقال "لأني أرغب في الرحمة لا في التضحية" (Armstrong, 1993, p. 72). لكن ما زالت الرغبة في التعالي أقوى من حبنا لجيراننا.

لا تعتقدوا أنكم لستم محظوظين لأنكم مضطرون للعيش في تلك الأيام. فكروا في أن ذلك من حسن حظكم، أن لديكم فرصة للعمل من أجل العدالة وتحسين أحوال غيركم من الناس. إن مثل هذه الفرصة لا تتاح لكل فرد في كل وقت.

أونج سان سوو كيي

(Kyi & Clements, 1997)

الفصل الثالث

من منّا المختار؟

ما زال الكثيرون منّا نحن البشر تحت سيادة مرحلة مبكرة من نشوء المخ وتطوره، مما يمنعنا من إدراك قدراتنا الروحية الكامنة. إن سمات العنف والخوف [التي تنتمي لمرحلة مبكرة من تطور المخ] تكتم قدرتنا على تطبيق ما تعلمناه من التاريخ، والعمل، والدين. من ثم، من المهم أن نفحص سلوكيات التعصب من المنظور البيولوجي، والنفسي، والأنثروبولوجي. وعلى الرغم من وجود فوارق أساسية بين الذكور والإناث، فإن الخوف ومشاعر الدونية تؤثر في تطور التعصب والأصولية لدى الجنسين كليهما.

يركز الجزء الأخير من هذا الفصل على وجه الخصوص على التنافر الإسرائيلي، والعربي، والمسيحي، لأنه أمر يجذب انتباه معظم العالم، إن لم يكن كله. يتركز معظم هذا الصراع حول الأيديولوجيات الدينية المتعلقة بـ "الأرض المقدسة" وبالتحديد القدس. ولا يدهشنا أن يعلن القطب الصوفي المرحوم صمويل ل. لويس أن "السلام سيحل في العالم حين يحل في صهيون [أورشليم]" (Lewis, 1975, p. 17). تعتبر هذه العبارة معقولة إذا سلمنا بتاريخ هذه البقعة من الحرب والصراع. ما إن رسخ النسق الأبوي قدمه في أورشليم (معنى اسمها: مدينة السلام) حتى صارت منطقة صراعات لا تنتهي على الحكم السياسي والديني وعلى الأرض. وعلى الرغم من أن أورشليم [القدس] تتألق بتبجيل ثلاث من أعظم ديانات

العالم: اليهودية، والمسيحية والإسلام، فإنها اصطبغت لحقب زمنية بدماء شهداء هذه الديانات.

النشوء والارتقاء والعدوان

أسهم كونراد لورنز بسنوات من البحث والدراسة في سلوكيات العدوان في حياة الأسماك، والطيور، والثدييات، والبشر، تمخضت عن كتابه *عن العدوان On Aggression*. تقدم النتائج التي خلص إليها لورنز بشأن هذه السلوكيات التطورية بصيرة بشأن الظاهرة الإنسانية المحيرة المتمثلة في الميل إلى تصنيف الناس إلى شـرائح عنصرية، أو دينية، أو قومية، ثم دفع أفراد كل عنصر أو أتباع كل دين أو قومية ضد العنصر أو الدين أو القومية الأخرى.

وجد لورنز أن العدوان غريزة طبيعية، وهو من منظور تطوري وتحت الظروف الطبيعية "يساعد كما تساعد أي [غريزة] على ضمان بقاء الفرد والنوع" (Lorenz, 1967, p. x). يسهل فهم استخدام العدوان للحفاظ على الحياة حين يتهدد الخطر أمن فرد، أو عائلة، أو أمة. لكن لماذا نصر على تدمير *الآخر* في عدم وجود تهديد؟ وفقا للورنز، معظم الأنواع لا تهاجم الجماعات الأخرى إلا فيما يتعلق بسلسلة الغذاء. الأمر ببساطة أن مختلف أنواع الحيوانات لا تتدخل في شئون بعضها البعض

> **كثيرا ما يساء تفسير تعبير داروين "الصراع من أجل البقاء" على أنه صراع بين مختلف الأجناس. والحق إن الصراع الذي كان داروين يفكر فيه والذي يدفع التطور قُدمًا هو التنافس بين من تربطهم علاقات وثيقة القرب. إن الذي يجعل أحد الأجناس يختفي أو يتحول إلى أحد الأجناس الأخـرى هـو "الاختـراع" المربح الذي يقع بالصدفة لفرد**

أو لبضعة أفراد من النوع في عملية المقامرة الخالدة في التحولات الوراثية. وبالتدريج تبز سلالة هؤلاء الأفراد المحظوظين جميع الآخرين من أفراد هذا النوع المعين، حتى يصير كله مكونا من أفراد عالجوا "الاختراع" الجديد (المرجع السابق ص ٢٠-٢١).

ومع ذلك، تعرض داروين للعدوان داخل النوع الواحد، أو العدوان بين أفراد نوع واحد. أشار داروين إلى أن غرض العدوان داخل النوع الواحد كان ضمان مستقبل مرغوب فيه للنوع بالسماح "لأقوى الخصمين بامتلاك إما الأرض أو الأنثى المرغوبة" (المرجع السابق ص ٢٧). وفقا لهذا التحليل، ذكور النوع بالتحديد هي التي تظهر الخصومة والعدوان للحفاظ على هذا النوع المعين. وكان الذكر الأقوى والأكثر تسيدا هو الذي يضمن البقاء للأقوى مع فرصة التناسل الانتقائي. يشرح لورنز أنه ما إن تملك النوع البشري السلاح، والملابس، والتنظيم الاجتماعي حتى "حدث انتقاء شرير داخل النوع حتما. وكان العامل المؤثر في الانتقاء الحروب التي تنشب بين قبائل متجاورة متعادية" (المرجع السابق ص ٣٩).

إن نشوء المجتمعات الزراعية، وظهور الفائض الزراعي المرتبط بالعصر الحجري الجديد (الذي بدأ منذ حوالي ١٠٠٠٠ عام) قد خلق هيكلا اقتصاديا أدى إلى ظهور مجتمعات تزداد تعقدا مع الزمن. يشير موريس بيرمان إلى أن هذه النقلة مثلت "عملية طويلة المدى، كان يتصادف أحيانا أن تسير في مسار غير خطي" (Berman, 2000, p. 53). وما إن دخل النسق الأبوي في الهيكل المنظم لهذه المجتمعات حتى أرسيت دعائم المراتب المتفاوتة.

إن أفراد النسق الأبوي يعرفون من الذي يملك القوة ومن الذي لا يملكها. وأفراد الجماعة يشعرون بإحساس الانتماء وتنشأ بينهم رابطة. وفي نفس الوقت يتحدد الوعي لقد خدمت الروابط المجتمعية والاستراتيجية التنظيمية كأدوات تطورية تساعد على الحد من بعض أشكال العراك المجتمعي، لكن العدوان ظل

قائما. ومن هنا أتى انتشار العنف الأسري والعنف بين الجنسين، والمعارضة السياسية والدينية، والتعصب العنصري والاقتصادي، التي استمرت جميعها في النمو. إن أفعال التسيد هذه تدعم فكرة لورنز عن "الانتقاء الشرير داخل النوع" (المرجع السابق ص ٣٩).

إن الصور الفوتوغرافية والملاحظة التي أجريت بغرض البحث لسلوكيات الحيوانات *مع غيرها من أنواع الحيوان*، والتي لوحظ فيها حيوانات على وشك قتل فريستها والتهامها لا تبين الكراهية الموجودة في الهجمات التي تحدث *داخل نفس النوع*(١). تشمل السلوكيات العدوانية *بين الأنواع المختلفة* من الحيوانات قتل الفريسة بغرض أكلها، أو درأ تهديدات يشنها نوع آخر من الحيوانات. ويلاحظ العدوان الذي يحدث *داخل نفس النوع* في سلوكيات تتراوح ما بين "الديوك التي تتصارع مع بعضها البعض في الفناء الخلفي إلى الكلاب التي تعض بعضها البعض، والصبية الذين يضربون بعضهم البعض بالعصي، والشبان الذين يقذفون بأكواز البيرة على رءوس بعضهم البعض، وهكذا دواليك، وصولاً إلى اللغط في الحانات حول الأمور السياسية، انتهاء بالحرب والقنابل الذرية" (المرجع السابق ص ٢٦). فإذا أخذنا في الاعتبار التطور المذهل للأسلحة النووية، نجد أن التهديد بالعنف داخل النوع [الإنساني] يتطلب أن ننتبه له جميعًا بكل جوارحنا. إنه أعظم تهديد للحفاظ على استمرار الحياة. في وصف لورنز إيحاء قوي بأن "العدوان داخل نفس النوع" سلوك دافعه الذكور. والحق إن التأثيرات الاجتماعية والتطورية قد كيفت الرجال ليكونوا أكثر ميلا للتنافس؛ فهم يلجأون لسلوك القتال أو الهروب استجابة للظروف الضاغطة، بينما تختلف النساء عنهم من حيث إن الإناث يملن إلى التحرك نحو عقد الصداقات ونحو الأطفال ليعالجن ضغوط الحياة (Geary & Flinn, 2002).

(١) يشير مصطلح ***inter-specific*** إلى ما يحدث بين أنواع مختلفة من الحيوان، بينما يشير مصطلح ***intra-specific*** إلى ما يحدث بين أفراد من نفس النوع (أي داخل النوع).

وقد أجرى د. تايلور و د. كلاين بحثًا وجدا فيه أن لدى النساء هرمونًا معينًا يعرف باسم أوكسيتوسين، يدعم نزعة الأنثى نحو الميل إلى العناية بالآخرين ورعايتهم تحت الظروف الضاغطة (Taylor et al., 2000). لهذا الهرمون علاقة بخواص اكتساب الفرد للمعنى من خلال العلاقات بالغير لا من ذات النفس، وهذه الخواص هي الإحساس العميق بالاهتمام بالآخرين، ورعايتهم، ولمسهم. من هنا، يصور بحث لورنز النسق الأبوي (والسلوكيات التي يدفع إليها هرمون التستوستيرون). ويكشف بحثه أيضًا عن أن دلائل السلوكيات الهدامة تبدو أساسًا في النوع *البشري*.

يقـــرر لـــورنز أنـــه عندما يهاجم حيوان فريسة له من الحيوانات الأخرى لا يظهر تغيرات في ملامح الوجه أو أي نوع من التعبير المرتبط بالعدوان، لكن هذه العلامات التحذيرية من العدوان تظهر حين يقع الحيوان تحت الحصار أو يتعرض لهجوم (تستجيب إناث الحيوانات استجابات عدوانية حين يتهدد الخطر صغارها). يبدو هذا السلوك أيضا في البشر. فالجزار مثلا لا تبدو عليه أعراض عدوان جسدية حين يذبح الحيوانات لطرح لحومها في السوق، لكنه سيظهر سلوكا عدوانيا بالتأكيد إذا ما وضع تجاه خطر يستثير خوفه. يبدو أن الخوف يذكي نيران سلوكيات العدوان والتعصب. والأبحاث التي تدرس تطور مخ الإنسان لها أهمية خاصة في تناول هذا الموضوع.

كشف بحث كونراد لورنز عن العدوان أن الذكر هو العدواني في معظم أنواع الكائنات الحية. ويزداد استعداد الأنثى للتحول إلى العدوان عند تعرض صغارها للتهديد. وعلينا هنا أن نوضح فروقًا مهمة بين الذكور والإناث. أي شخص لاحظ مجموعات من الأطفال الصغار أو عمل معها يعرف بوجود فوارق شاسعة بين سلوك اللعب لدى الصبيان والبنات. معظم الصبيان يجرون في أنحاء المكان وهم يطاردون بعضهم البعض بأسلحة خيالية، أو ينظمون فيما بينهم سباقات بالسيارات اللعبة، بينما تهتم البنات أكثر بلعبة البيت، أو المتجر، وما إلى ذلك.

وحين تأتي حصة النشاط الحر يهتم الصبيان أكثر ببناء الأبراج من المكعبات (أبنية ترتفع إلى أعلى ما يمكن)، ثم هدمها. وتلعب البنات لعبة ارتداء الملابس الجميلة مع ربطها بمناسبة تجمعهن وتوحد بينهن.

زعمت النسويات الأوليات أن هذا النوع من اللعب كان نتيجة التطبيع الاجتماعي حسب نموذج معين والتوقعات الثقافية. هذا صحيح في بعض الأحيان، لكن في أكثر الأحيان لا يصدق. الكثير من الآباء والأمهات يختارون ألا يعطوا أبناءهم ألعابا على شكل أسلحة، لكن هؤلاء الصبيان يصنعون أسلحة من أي شيء متاح لهم. يرتبط هذا الفرق على المستوى النفسي البيولوجي بالهرمونات، وبالتحديد زيادة هرمون التستوستيرون لدى الذكور وهرمون الأوكسيتوسين لدى الإناث. وعلى الرغم من أن التطبيع الاجتماعي يلعب دورا في هذا، فإن الهرمونات تغذي حماية الحياة ورعايتها على المستوى التطوري.

ما دون العقل المنطقي

أقدم التركيبات العصبية هو المخ الشبيه بمخ الزواحف. في هذا الجهاز تبرمج السلوكيات النمطية التي اعتاد الإنسان تكرارها. يشرح جوزيف شلتون بيرس أن هذا المخ الشبيه بمخ الزواحف "ماهر في إجراءات المخادعة التي اكتسبت منذ أوائل العصر الحجري لتضليل الحيوانات المفترسة" (Pearce, 2002, p. 24). وهذا المخ معد ومضبوط مسبقا للاستجابة حين يتهددنا خطر، ويضيف بيرس أن :

> **هذه المهارة في المخادعة يمكن أن تستخدم بالنيابة عن القشرة المخية العليا الحديثة التي بأمخاخنا لوضع استراتيجيات من أجل النجاح في عوالم التجارة والسياسة، مثلا، وبعد ذلك، تتمكن القشرة المخية العليا الحديثة من**

> **تبرير أفعالنا التي كثيرًا ما تكون غير أخلاقية وجعلها محترمة أخلاقيًا، على الأقل بالنسبة لأنفسنا. ونحن نتعلم الكذب، والتشفي بفرح شديد حين ننجح في خداع أحد، والندب والرثاء للذات حين يخدعنا أحد (المرجع السابق).**

إن هذا الجهاز مهم لحفظ الحياة. وهو يتصل بالتركيبات العصبية العليا لدفع الأخطار.

أما المخ القديم الشبيه بمخ الثدييات فقد تطور في فترة لاحقة على المخ الشبيه بمخ الزواحف، وهو يشمل الجهاز الحافي، ويلعب دورًا هائلاً في الاستجابات الانفعالية. إن المخ الشبيه بمخ الزواحف محدود بالإحساس البصري البدائي المرتبط بآليات الدفاع عن النفس، أما المخ القديم الشبيه بمخ الثدييات فيشمل أحاسيس الشم والسمع – مما يعزز تطور الانفعالات في جميع الثدييات (المرجع السابق). ويشرح لورنز العدوان داخل نفس النوع من منظور تطوري، وهو العدوان المرتبط بالمخ الشبيه بمخ الزواحف، فيقول إنه :أقدم بملايين السنين من [تطور] الصداقة والحب الشخصيين" (Lorenz, 1967, p. 209)، ويلاحظ أنه

> **حتى في أي حيوان لا ينتمي إلى طائفة الثدييات المحظوظة، نجد آلية سلوكية تجمع أفرادًا معينين مع بعضهم البعض من أجل الحياة، وقد صار هذا النمط السلوكي أقوى الدوافع التي تحكم جميع التصرفات؛ فبمقدوره التغلب على جميع الدوافع "الحيوانية"، مثل الجوع، والنزعة الجنسية، والعدوان، والخوف، وهو الذي يقرر النظام الاجتماعي بالشكل الذي يميز النوع الحيواني المعين. في جميع هذه النقاط تتشابه هذه الرابطة مع الوظائف البشرية التي سارت**

يدًا بيد مع انفعالات الحب والصداقة في أنقى وأنبل صورها (المرجع السابق ص ٢١١)(٢).

نرى في الوصف السابق أن تطور المخ في مسار نشأته وارتقائه يكشف عن مخ مكون من ثلاثة أطوار. فمثلاً، بينما يركز الجهاز الشبيه بمخ الزواحف على الأحوال الخارجية، ينتبه المخ القديم الشبيه بمخ الثدييات إلى قرين الإنسان أو قرينته والعناية بالذرية. وقد شجع هذا على وعي متطور بالعالم الانفعالي الداخلي (Pearce, 2002).

أما المستوى الثالث من تطور المخ فهو القشرة المخية الجديدة، أو المخ الثديي الجديد، الذي يرتبط بالمهارات اللغوية والثقافية، ويسمح لنا بالانتحاء جانبًا عن أي موقف مفترض لكي نفحصه ونتأمله ونفكر فيه بدلاً من أن نستجيب بمجرد استجابات انفعالية وسلوكيات دفاعية (ويشمل هذا المخ الفصوص الأمامية للمخ وقشرتها المخية). وهذا المخ الأعلى "يشغل مكانًا من الجمجمة يزيد بخمسة أضعاف عن المخ الشبيه بمخ الزواحف والمخ القديم الشبيه بمخ الثدييات مجتمعين، ويتكون من حوالي مائة مليون خلية عصبية" (المرجع السابق ص ٢٦). ويسمح هذا المخ الجديد بالتجديد، والتخيل الإبداعي ويمكننا من التأمل الداخلي. ويشرح بيرس أن

أمخاخنا الثلاثة تتطور ونحن في أرحام أمهاتنا كتراتب هرمي مستكن في ترتيب ظهورها في تاريخ النشوء والارتقاء: فالمخ الشبيه بمخ الزواحف يبدأ في أداء وظائفه في الثلث الأول من الحمل، والمخ القديم الشبيه بمخ الثدييات

---

(٢) الفيلم التسجيلي مسيرة البطريق *March of the Penguins* (٢٠٠٥) مثال جيد على هذا [نحن المؤلفات أضفنا الحاشية].

يبدأ في أداء وظائفه في الثلث الثاني من الحمل، أما القشرة المخية الجديدة، أو المخ البشري، فيبدأ في أداء وظائفه في الثلث الأخير من الحمل ... ويعتمد اختيارنا إلى حد بعيد لاتباع ما يدعونا إليه التجديد من مغامرة أو للانغلاق على أنفسنا في وضع دفاعي رافضين التشابك على الخبرات التي مررنا بها في السنوات الثلاث الأولى من عمرنا. فهذه السنوات علامة على الوقت الذي يكتسب فيه جهازنا الانفعالي أساس وظائفنا الذهنية العليا التي ستأتي فيما بعد. ولهذا قال يسوع، نموذجنا العظيم، إننا لو "تسببنا في تعثر أحد هؤلاء الصغار، لكان من الأفضل أن يربط حجر رحى إلى عنقنا ونلقى في البحر" وهكذا نكون نوعًا يغرق (المرجع السابق ص ٢٧)

باختصار، تأثرت البشرية كثيرا بشدائد الطفولة، وهذا يعضد الكثير من ميولها إلى الانتقام، والخصومة بين الأشقاء، وما إلى ذلك. وقد عطلت القدرة على أخذ الحب وإعطائه بصدق، لأن القلوب تشرع أسلحتها في لحظات الخوف أو الشعور بعدم الحب. وهذا جزء من تنميطنا التطوري.

الأمراض الاجتماعية والخصومة بين الأشقاء

ألفريد إدلر عالم تحليل نفسي عظيم آخر أسهم في وضع النظريات النفسية المبكرة. يعتقد إدلر أن البشر مدفوعون بحكم طبيعتهم إلى النضال للوصول إلى أهدافهم، ومن ثم يقدرون على التغلب على تأثيرات الماضي. ركزت نظريته عن علم نفس الفرد على علاقاتنا الاجتماعية ببعضنا البعض.

اهتم إدلر اهتمامًا خاصًا بالعدوان والقوة، فاعترف بأهميتهما لتطور البشر وبقائهم على قيد الحياة. وفقا لإدلر، يبدأ اتكالنا الأول على الآخرين، ومن ثم تدنينا عنهم، مبكرًا في حياتنا، حين نعتمد على غيرنا ونحن رضع لا حول لنا ولا قوة كي يعتنوا بنا. وحين نصير أطفالاً دارجين نتعلم المشي ونبدأ النضال نحو الاستقلال. أطلق إدلر على هذا التطور اسم التحرك الطبيعي نحو العلو. يمكن لهذا الدافع أن يأخذ إما اتجاهًا إيجابيًا أو سلبيًا. إذا جاهدنا لنعلو على الآخرين ونزيد من قوتنا الشخصية، يكون هدفنا قائما على أساس سلبي. أما إذا ركزنا على أن نعلو دائمًا على أحوالنا السابقة بأمل أن نقدم إسهامًا أكبر لمجتمعنا، نكون قد اكتسبنا فهمًا أعمق لاستخدام القوة.

صك إدلر مصطلح *الخصومة بين الأشقاء* للإشارة إلى ميل الأطفال إلى التنافس على احتلال المنزلة الأولى في اهتمام والديهم. وعلى الرغم من أن إدلر هو الذي منح هذه الظاهرة اسمًا، فإنها ليست ظاهرة جديدة بالتأكيد. نجد قصصًا عن الخصومة بين الأشقاء في ميثولوجيات مختلف الثقافات. تشمل أمثلة هذا الأسطورة المصرية عن قتل ست لأخيه أوزيريس، إله الشمس، وتقطيعه لجسده إربا؛ والحكاية اليابانية (التي حكيناها في الفصل السابق) عن سوزانو وآماتيرازو. وعلى الرغم من أن الأساطير الأخيرة محاولة لتفسير اختفاء الشمس مساء مع زحف الظلام، ما الذي يوجد لدى البشر ويربط بين الغيرة والخصومة على حد تفسير هذه الأساطير؟.

يوجد في العهد القديم والقرآن الكريم قصة معروفة عن خصومة ذات بال بين الأشقاء. ورد في هذين النصين أن حواء حبلت بقابيل ثم حملت بعده بهابيل، وأن هابيل كان يرعى الغنم، أما قابيل فكان يكدح في فلاحة الأرض. وكان كل من قابيل وهابيل يأتيان بثمار عملهما إلى الرب، لكن تقدمة قابيل رفضت. لم يقبل عمل قابيل لسبب ما مقارنة بتقدمات شقيقه. لم يكن قابيل (الولد البكري) قادرًا على

تحمل نجاح أخيه الأصغر. قارن قابيل نفسه بهابيل في سورة غضب، بدلاً من أن يناضل لتحسين نوعية عمله.

ووفقا للمعتقدات اليهودية، والمسيحية، والإسلامية، كان قابيل وهابيل أول من ولد من الأقرباء من البشر، وللأسف، كانت قصتهما قصة خصومة وتدمير.

ثم نجد القصة التوراتية عن يوسف، أحب أبناء يعقوب الاثني عشر إلى قلبه. صنع له والده يعقوب (إسرائيل) معطفًا متعدد الألوان. فخطط الإخوة الذين تملكتهم الغيرة لقتل يوسف، لكنهم باعوه كعبد. وشاءت تحولات الأقدار أن تقود يوسف إلى منصب ملكي. بعد أن ضربت المجاعة الأرض لزمن طويل، أتى إخوة يوسف إلى هذا القائد الأعلى المحترم، وهم يجهلون أنه أخوهم يوسف، يطلبون منه المساعدة المالية. كشف يوسف عن هويته لأشقائه متخذا تجاههم موقف التسامح والتراحم. وأشار إلى أن أفعالهم أتت بهم جميعًا إلى هذه البركة. لم يتصرف يوسف بن يعقوب–إسرائيل بدافع الانتقام. هذه قصة مهمة في النصوص المقدسة لمنطقة الشرق الأوسط، لأن يوسف لم يتبع المثال النمطي الفطري الذي وضعه الشيطان الذي كان ملاكا مجنحا (والذي فقد مكانته في السماء بسبب غيرته عند خلق الإنسان) (Barnstone, 1984). بل إن يوسف ضرب مثلا لقلب ملأته الروحانية الحقة، والتراحم (ويوسف هو الابن المفضل لإسرائيل). يمثل هذا أيضا الذَكَر النمطي الفطري المتطور، الذي يظهر كلاً من الخواص الأنثوية والذكورية. لم تتحكم السلوكيات التي تتم بدافع من هرمون التيستوستيرون في يوسف، بل تحكم فيه قلبه.

ذمنظور أنثروبولوجي

الحضارة الحديثة نتاج تراكم لكل كفاحنا مع بيئتنا مع محاولتنا لفهم العالم وأنفسنا. إن طرق إدراك البشر لأنفسهم ولعلاقاتهم ببعضهم البعض تتنوع عبر التاريخ. يبدو أننا عندما نشعر بالأمان نكون أكثر استعدادا للإحساس بالتآلف مع أنفسنا، ومع الآخرين، ومع الكون. تكشف الجبانات وغيرها من الآثار القديمة التي عثر عليها، أن الإنسانية المبكرة في العهد الأول من العصر الحجري (الباليوليثي) كانت مجمعة على هذا التآلف أكثر من المجتمعات القبائلية التي تلتها والمرتبطة بالعهد التالي من العصر الحجري (النيوليثي)، الذي بدأ منذ حوالي ١٠٠٠٠ عام.

توضح الدراسات الأنثروبولوجية أن الهوية الثقافية قد تشكلت من خلال علاقات القرابة، بدءًا من الأسر الصغيرة، ثم توسعت حتى صارت بين جماعات، وسلالات، وقبائل. لم ينشأ ميلنا إلى أن نرى أنفسنا كـ "نحن" مقابل "الآخرين" في وجهات النظر الأيديولوجية الدينية، بل بدأت بمعنى ما لتحمي جماعة من هجمات جماعة أخرى. كان على الجماعات البشرية المبكرة أن تكون قوية لتدافع عن أنفسها؛ وإلا أبيدت. ورغم أن قبيلة ما قد تعيش فترة في سلام، فإن الخوف الكامن خلف حياتها لم يختف. ولكي تبقى جماعة، أو سلالة، أو قبيلة على قيد الحياة، كان على أفراد تلك المجتمعات المحلية أن يكونوا على استعداد لمواجهة هجمة من الهجمات في أي وقت. وأبقى هذا الخوف من "الآخر" تلك المجتمعات المحلية التي في طور النشأة على أهبة الاستعداد. واختلفت معايير الضبط الاجتماعي واستخدام القوانين لدى هذه المجتمعات المحلية. وكان لديهم تقاض في موضعه الصحيح للحكم على جرائم القتل، كما بذلوا محاولات لمنع العداوات. وكثيرا ما كان الضحايا يتلقون تعويضات عن خسائرهم. كان الهدف الأسمى الحفاظ على الترابط داخل القبيلة. وكان من الحتمي أن يقاتل الشخص إذا هاجم فرد من قبيلة مختلفة فردا من قبيلته. مازال النوير في جنوب السودان مثالا على ممارسة هذا السلوك. وتوجد ردود فعل مماثلة في قبائل الجيفارو في شرق إكوادور، كما وجدت شواهد عليها في الجزيرة العربية في عهد النبي محمد(٣).

---

(٣) للاطلاع على التقرير الكامل عن هذه النقطة انظري/انظر:
Peoples & Bailey (2002),pp. 194-195. and Armstrorg (1992).

تشير هذه النتائج الأنثروبولوجية إلى أن الخوف من الناس الآخرين يزيد الدافع نحو العنف. كما توضح أن تضييق دائرة الانتماء وحصرها في جماعة اجتماعية محدودة يرجح أن تخلق شعورا بالعداوة نحو الجماعات الأخرى. لا يدهشنا أن بعض الإسرائيليين قد ركزوا على هويتهم العِرقية وشعروا بالتعالي على غيرهم من الناس وأحسوا أنهم أعداؤهم. ويصدق نفس الشيء على بعض المسيحيين الذين يستبعدون غيرهم من الناس من الخلاص؛ لأنهم لا ينتمون إلى دائرتهم. ويعتبر بعض المسلمين بالمثل أنهم أمة (طائفة) ويعتبرون من هم خارج هذه الأمة كفارا. كما أن القوميات قد حلت محل القبائل في طريقة تعريف الناس لأنفسهم. وهكذا، وعلى الرغم من التغيرات الاجتماعية والسياسية في عالمنا، فما زلنا نشهد العقلية القبائلية؛ عقلية الـ "نحن" مقابل "الآخر".

الدين، والحروب، والتنافس على المقام الأول

يوجد النضال من أجل العلو في الخصومة بين الأشقاء، وترعاه أيضًا عقلية قبلية تظهر في المجتمع ككل: دين ضد دين، وعنصر ضد عنصر، وأمة ضد أمة. يصف لورنز في كتابه *عن العنف* *On Agression* ما قد يراه ملاحظ من كوكب آخر حين يدرس السكان من البشر:

> **لو افترضنا أن الغريب الذي يلاحظنا مخلوق من عقل نقي، منزوع منه الغرائز ولا يعرف الطرق التي يمكن أن تحبط بها الغرائز عامة والعنف خاصة، فسيجد نفسه في حالة ضياع تام لا تمكنه إطلاقًا من شرح التاريخ. إن ظاهرة التاريخ التي تعاود الظهور مرارًا وتكرارًا ليس لها أي أسباب معقولة. ومن الشائع القول بأن سببها ما يميل اللسان العام إلى تسميته بمصطلح "الطبيعة البشرية". والطبيعة البشرية**

غير القادرة على التبرير العقلي، والتي هي أيضا غير معقولة تسبب نشوب التنافس بين أمتين، على الرغم من غياب أي ضرورة اقتصادية تجعلهما يفعلان ذلك؛ وهي التي تحفز حزبين سياسيين أو ديانتين يتشابه برنامجهما للخلاص تشابهًا مذهلاً على أن يتقاتلا قتالا مريرا، وهي التي تدفع أي إسكندر أو نابليون إلى التضحية بحياة الملايين في محاولة لتوحيد العالم تحت راية حكمه. لقد تعلمنا أن ننظر إلى بعض الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الأعمال العبثية وأمثالها بعين الاحترام، وقد دأبنا على الاستسلام للحكمة السياسية للمسئولين، حتى ولو باعتبارهم رجالاً "عظماء"، وقد اعتدنا تماما هذه الظواهر إلى حد أن معظمنا يفشل في إدراك مدى بؤس وغباء السلوك الجماهيري التاريخي للبشرية، وكم هو سلوك غير مرغوب فيه.

لكن قد لا تكون المشكلة في الإنسانية نفسها، بل في انعدام التوازن الذي أرساه النسق الأبوي. وكما ناقشنا في الفصل الثاني، تقوم معظم الحروب بدافع من نوع ما من أنواع عدم التسامح الديني، لأن ساحة الدين هي التي يؤثر فيها هذا العدوان الغريزي القائم على الخوف من الآخر تأثيرا خاطئا على المُثُل، ويغذي الدافع الطفولي الرامي إلى العلو على الغير. يظهر هذا عبر الطيف الديني. وفيما يلي فحص لبضع جماعات من الجماعات الكثيرة التي تعتقد أنها "الجماعة المختارة"، والخطر الذي ستواجهه البشرية لو لم نكن على استعداد لأن نفحص بدقة هذه الأنماط الهدامة والمتمركزة حول الذات التي أرستها الأيديولوجية الأبوية ونغيرها.

وفقا للرواية التوراتية، دعي الشعب اليهودي إلى علاقة خاصة مع الإله كما دعوا إلى دور اجتماعي خاص. تضرب الديانة اليهودية بجذورها في العهد، وهو

اتفاقية بين الإله و*الأمة المقدسة*. أول عهد أشارت إليه النصوص اليهودية المقدسة كان مع نوح بالنيابة عن الجنس البشري بأكمله (سفر التكوين ٩: ٨-١٧). كان هذا العهد وعدًا بألا يدمر الإله الأرض بالفيضان مرة أخرى. أما عهد إبراهيم فكان وعدًا بإسباغ بركة خاصة على ذرية إبراهيم، *الشعب المختار*. وقد أعيد تأكيد هذا العهد والتوسع في شرحه في طور سيناء، إذ حدد الالتزامات المتعلقة بحياة الاستقامة والعدل في هيئة الوصايا العشر. وينقل لنا الإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج أن موسى تحدث باسم الإله وأخبر الشعب اليهودي بأنه: "إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب".

وقد سبب مفهوم *الشعب المختار* الكثير من الحزن لليهود عبر تاريخهم (Sears, 1998). وفقا للمدراش (التأويل)، لا يتضمن كون المرء مختارا أي علو له على الغير، ولا انفراده بامتلاك الحكمة. بل إن التلمود، جَسَد المأثورات اليهودية ذات الحجة، يؤكد على أن "من يتحدث بالحكمة، حتى ولو لم يكن يهوديًا، يشهد له بالحكمة وسداد الرأي" (Talmud, Megilla 16a). فالأمر إذن ليس الانفراد بالحكمة ولا العلو، بل مسئولية متزايدة (مثلاً، المثال الذي ضربه يوسف وأبوه إسرائيل على المسئولية والاحترام).

لا يرغب الكثير من الناس بالضرورة في حمل مسئولية أكبر. يصف هذا التفسير الإله كما لو كان يكشف عن نفسه، لا لإسرائيل فقط، بل لجميع الأمم. تحكي لنا القصة أن الإله ذهب لبني عيسو وقال لهم: "هل ستقبلون التوراة؟" فأجابوا: "ماذا فيها؟" فقال: "لا تقتل". فقالوا، "يا رب الكون، إن جوهر أبينا عيسو أنه قاتل. حيث تقول التوراة 'بسيفك تعيش' (سفر التكوين ٢٧: ٤٠)، لا يمكننا أن نقبل التوراة". ورفض بنو عيسو، وآمون، وموآب، وإسماعيل جميعهم التوراة. لكن بني إسرائيل قالوا للإله "سنقبل ونسمع!" (Lauterbach, 1976, pp. 233-236). هذا المدراش الذي كثيرا ما يقتبس (مدراش رباع عن الخروج، وهو جزء من الميشباتيم "القانون اليهودي") يشير إلى تحول دلالي بسيط. فبدلاً من أن يكون

اليهود *الشعب المختار*، صاروا الشعب الذي يتولى الاختيار. إن مفهوم حرية الاختيار عامل مهم عند تناول بعض كتابات الحاخامات التي تشير إلى أن عهد الإله مع إسرائيل يقوم على الطاعة لا على حرية الاختيار. إن العهد والتوراة يعبران عن طلبات الإله، التي تشمل الحالة الأخلاقيات الفردية والمجتمعية.

وعادة ما وجد اليهود عبر تاريخهم نظريات لتفسير سبب إيقاع الإله للمعاناة بشعبه المختار. وقد تحدى الهولوكست، الذي ظهر فيه شر فائق، هذه النظريات بإعطاء بيان عملي لكيفية تبرير الأفكار والفلسفات البشرية لهذا الشر، مثلا، حين قتل النازي كل من حكم عليهم بالتدني في محاولة ليصير النازيون العنصر الأعلى. وعلى الرغم من أن الكثير من اليهود يعتقدون أن إنشاء دولة إسرائيل الحديثة استجابة من الرب لصلواتهم، فإنها في الحقيقة حلٌ صنعه الإنسان. وقد أشار بعض المفكرين اليهود، مثل مارتن بوبر إلى أن تجديد اليهودية "لا يمكن أن ينبت إلا في تربة خاصة جدا، تربة أرض الوطن" (Buber & Schmidt, 1999, p. 206). يعتقد بوبر أن إعادة إحياء الروح اليهودية لا بد لها من عودة اليهود المتناثرين إلى مسقط رأسهم. وقد كانت الدولة الوطنية الحل الوحيد للكثير من الناجين من الهولوكوست الذين شعروا بأن الإله تخلى عنهم. لكن الأثر الإيجابي للعودة إلى أرض الميعاد قد قوضه أن هذه العودة أتت نتيجة لفعل بشري، عنف، وصراع مسلح، لا بالاعتماد على المقدس. قال الإله لليهود، "ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم، لأنكم أقل من سائر الشعوب" (سفر التثنية ٧: ٧).

ومنذ بدء الشتات، لم يكن مسموحا لليهود في معظم الأحوال بامتلاك الأرض. وبقدر ما أسهم هذا في تحرقهم شوقا لامتلاك أرض تخصهم، كان له بلا شك وقع على تميزهم بأنهم شعب غير عنيف وسلبي، يتحمل الهجمات المتوالية للأغيار. ولم يصيروا عدوانيين بنفس طريقة الأمم الأخرى إلا بعد إنشاء دولة إسرائيل الحديثة. والمثال الذي نتعلم منه هنا قد يكون أن العنف والحرب يمكن أن يقلاً في حالة غياب الحدود القومية.

ولو كان اليهود أمة كبيرة لها جيش قوي، لعزي نشرهم لروح التوراة إلى قوتهم لا إلى صدق أفكارهم. من ثم لا يجب أن يفسر مفهوم *الشعب المختار* على أنه يتضمن رفض الآخرين أو الحكم عليهم بالتدني. التفسير الوحيد يمكن أن يكون حمل مسئولية أكبر عن السلوك الأخلاقي بين جميع أبناء الرب.

وقد حمل يسوع رسالة حب، لا لمن عرفوا فيما بعد باسم "المسيحيين"، بل لجميع الخلق. لقد منح رسالة لعموم الكون، تنطبق على علاقات الإنسانية مع المقدس. لم يدع يسوع نفسه مسيحيًا أبدًا. لقد كان يهوديًا يقدم فهمًا جديدًا للنصوص اليهودية المقدسة، ويختلف مع التفسيرات التي يشيد بها قادة الهيكل للحياة الروحية. وقد تكلم عن عمومية التجربة الروحية وعلم الناس أنه "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة. ولا يقولون هو ذا ههنا ولا هو ذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم" (إنجيل لوقا ١٧: ٢٠-٢١). ومن المدهش أن نلاحظ أن كلمة الكاثوليكية تعنى حرفيًا العمومية [الكونية]. لكن الذات البشرية شوهت معناها الضمني، وبهذا أسست القوة في الكنيسة كهيئة سياسية بدلا من أن تؤكد على أن المحبة، والتآلف، والجمال نبت طبيعي للاتحاد مع المقدس وهي متاحة لجميع من اختار المشاركة. من ثم لقي معظم ما في كلمات يسوع من عمق تجاهلاً. وبينما تحدث يسوع من القلب، ووحدنا بجيراننا، وبالخلق والخالق؛ فسر المسيحيون المتأخرون العمومية الكونية بعبارة السيادة، معتقدين أن فهمهم الفكري لكلمات يسوع هو الطريق الوحيد لملكوت سماوات الله.

وعلى الرغم من أن المسيحية بدأت بعدد قليل من الناس اختاروا رجلاً زرع حبًا عظيما ليكون معلمهم، رجلا شفى المرضى ونصح أتباعه بالابتعاد عن الحكم على الآخرين؛ فإنها صارت في غضون بضع مئات من السنين صيحة حرب.

وتاريخ تتابع الحواريين له أهمية خاصة هنا. يزعم أن الكرازة بدأت بالحواري بطرس وفقا لكلمات يسوع "وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابن كنيستي وأبواب الجحيم لن تقدر عليها" (إنجيل متى ١٦: ١٨). كلف

يسوع بطرس بمهمة استمرار نقل تعاليمه بزعم أنها تعاليم طاهرة لا يمسها الفساد. (إن تسلسل الحواريين فيه شيء من عدم الوضوح من حيث هذه القيادة، حيث إن الإصحاح الخامس عشر من أعمال الرسل يلاحظ أن أول اجتماع كبير للمجلس المسيحي كان تحت قيادة يعقوب، وبالمثل، فشلت نصوص نجع حمادي في دعم هذا الاعتقاد).

يسجل التاريخ تأكيد المسيحيين الأوائل على التواضع. وقد وصفت التطويبات التي قدمها يسوع في موعظة الجبل طريقًا للحياة يشمل السلام، والتواضع، وحسن النوايا. لكن في غضون بضع مئات من السنين، حدث تغير هائل في المسيحية مع اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين للمسيحية. تلون تفسير هذا الإمبراطور للمسيحية بموقعه كحاكم روماني. وتضافرت الكنيسة والسياسة. واستبدل بالأرباب والربات الوثنيين تماثيل الحواريين؛ وتحولت الأعياد الوثنية المقدسة إلى احتفالات مسيحية. وقد ادعى الإمبراطور قسطنطين أنه المتحدث باسم المسيح، وبدأ في اضطهاد الآخرين باسم المسيحية، على الرغم من أنه سبق له أن أساء معاملة المسيحيين بسبب رفضهم للانحناء للآلهة الوثنية. وادعت الكاثوليكية الرومانية أنها السبيل الوحيد للخلاص وأن الإيمان والتعميد في الكنيسة الكاثوليكية متطلبات ضرورية. *Extra ecclesiam nulla salus!* (لا يوجد خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية) (Rahner & Vorgrimler, 1965).

وشهد عهد قسطنطين أيضا بداية قوة البابوات وسلطانهم. كان لابد "من طاعة البابا في مسائل العقيدة بغض النظر عن سماته الأخلاقية"(٤). ومع ذلك، تحتوي *الموسوعة الكاثوليكية* وغيرها من الكتابات على تقارير تاريخية عن الزنا، والقتل، والرشوة داخل النظام البابوي. ففيما يتعلق مثلا بالبابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) "قلما أغفلت أي جريمة ممكنة؛ الكفر، والهرطقة، والمتاجرة بالمناصب الكنسية، والأفعال اللا أخلاقية الجسيمة وغير الطبيعية، وعبادة

---

(٤) ***http://www.acts1711.com/jesus2a2.htm***

الأشخاص، والسحر ..." (Catholic Encyclopedia, pp. 661-662, مقتبسة في موقع الإنترنت المذكور في الحاشية رقم ١). وقد أشار فردريك الثاني في بيانه الصادر في عام ١٢٣٠ إلى جريجوري التاسع باعتباره "التنين الهائل والمسيح الدجال لآخر الزمان" (Adam, 1951, p. 8). وقد وجدت طوائف كاثوليكية متنوعة أكدت على التواضع والتصوف في مقابل فتنة البابوية وثروتها، لكنها كانت تحت مظلة الكنيسة الأم (مثل تأسيس رهبانية الكرمليين الحفاة على يد القديسة تريزا ابنة آفيلا والقديس يوحنا الصليبي في القرن السادس عشر). ولا يدهشنا أن تؤدي المشكلات المتعلقة بعصمة البابوات، مع الغضب العارم الذي انتاب الناس بسبب تفكك التعاليم المسيحية الحقة إلى الإصلاح.

وقد قدر للانشقاق إلى البروتستانتية أن يصير أعظم ما أثَّر في تطور الأصولية وتركيزها على التفسير الحرفي للكتاب المقدس. ازدرى مارتن لوثر، قائد الإصلاح المسيحي، البابا وأشار إليه بعبارة تصفه بأنه المومس العظيمة لسفر الرؤية (Adam, 1951). وأسس لوثر مبدأ البروتستانتية كفعل من أفعال الإيمان وحده. والسلطة الوحيدة كانت الكتاب المقدس وإيمان الفرد الأعمى بعصمته. كان هذا إنجيل الخلاص، وكان يسوع هو المخلص. وكان لابد من تجاهل التناول الغامض الذي يوحِّد الفرد بالمسيح، كما مارسه وجربه الكثير من القديسين العظماء الموجودين في الكنيسة الكاثوليكية. وما زال الانشقاق بين الكاثوليكية والبروتستانتية موجودا حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أنهما كليهما يعترفان بنفسيهما كأتباع ليسوع المسيح، فإن كلاًّ منهما يعتقد أن موقعه هو الموقع الصادق الوحيد.

ومن العيوب الشديدة الكامنة في تلك التفسيرات الضيقة للنصوص المقدسة وللسلطة، أن هذين العاملين يؤثران في هوية الفرد وذاته أكثر مما يؤثران في قلبه. فنجد أن مارتن لوثر كان غاضبًا من البابوية غضبًا قائمًا على موقف صحيح؛ وهو سلوك منطقي. إلا أنه كان يصاب بنوبات من الرعب حيث إنه "قد يكون تشبع مبكرا بتجربة خوف قوية ومركزية، وحالة غير عادية من الرعب تجاه مفهومي

الخطيئة والحساب"(٥) (ويرجع هذا على الأرجح إلى تربية والده الصارمة). فقام ارتباط لوثر بإيمانه على الخوف أساسا، لا على الحب. ويشير هذا (على المستوى البيولوجي والنفسي) إلى أن المخ الخلفي، المرتبط بالمخ القديم الشبيه بمخ الثدييات، تدخل في العلاقة مع الفص ما قبل الأمامي والقلب حيث إنه لم يوص بالتأكيد بعلاقة محبة توحّد الفرد مع المسيح.

لابد من إيلاء الكثير من الانتباه إلى المعرفة المأخوذة من علم النفس الحديث. فهو يشير مثلاً إلى أوجه التعارض بين الذات التي تضفى عليها المثالية والسلوكيات الفعلية. لقد تكلم يسوع بوجه خاص ضد النفاق حين ازدرى الفريسيين الذين في الهيكل. وقد أثبتت العقود الأخيرة نقائص السلوك الجنسي السيئ للقسس والأساقفة الكاثوليكيين وفي الكنائس البروتستانتية. من الواضح أن الإسقاطات اللا واعية التي تدفع الأيرلنديين الكاثوليك والبروتستانت لكراهية وقتل بعضهم البعض على مدى مئات السنوات الأخيرة أمر غير واقعي. ما القوة السوداء التي تلقنهم سلوكياتهم تلك وتجعلها تستمر؟.

تتبدى نفس هذه السلوكيات في الإسلام، حتى ولو قصد الإسلام أن يكون ديانة سلام، وحرية، ومحبة. لقد حرر الإسلام العرب من التعصب القبلي وأسس علاقات إنسانية قائمة على الاستحقاقات الفردية. وترجع معاناة المسلمين في مكة في صدر الدعوة الإسلامية إلى أن الإسلام قد جبل على نسق قيم انتهك التراتب القبلي. لقد دافع عن حقوق الفقراء والمهمشين. فالإسلام مثلاً لم يعل من قيمة السيد على العبد. ومن أعمق مبادئ الإسلام وأبرزها المساواة بين البشر، بغض النظر عن العنصر، أو اللون، أو الجنس. والرحمة والتراحم من بين أعلى السمات في الأخلاقيات الإسلامية. تتكرر عبارة "باسم الله الرحمن الرحيم" قبل قراءة أي سورة من سور القرآن، كتذكرة مستمرة للقارئ والمستمع بهذه السمات القدسية التي تحظى بأعلى تقدير.

---

(٥) *http://www.ewtn.com/library/CHISTORY/RETREE.TXT*

إن عقد الصداقة مع اليهود عند الهجرة إلى المدينة، واعتبارهم جزءا من *الأمة* يوضح تفتح الإسلام، وتسامحه، واحترامه للآخرين. لم يحاول النبي فرض الإسلام على اليهود، أو المسيحيين، ولا حتى على الوثنيين. بالعكس، أولى النبي احتراما كبيرا لكل من التوراة والكتاب المقدس. يشير القرآن إلى "المسلمين" (المؤمنين) عدة مرات باعتبارهم من يحترمون كل وحي آخر سابق على الوحي الذي تنزل على محمد، فمثلا، تقول سورة البقرة:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ويكشف القرآن أيضا عن أن علاقة الله بالبشر لا تعتمد على انتمائهم لدين معين، بل تتحدد وفقا لإيمانهم لمعتقداتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢).

وعلى الرغم من هذه المبادئ الإسلامية، يعتقد الكثير من المسلمين المحدثين أن الإسلام يميز أتباعه وأن الإله (الله) يفضلهم على أتباع الديانات الأخرى. هذا المنظور إذن يبرر أفعال العنف المتخفية في شكل نشر كلمة الإله. وهذا التفكير المغلوط نتيجة لإساءة تفسير التعاليم الإسلامية، وتجاهل المراحل المتنوعة التي تشير تلميحًا إلى المبادئ المحورية للإسلام وتطوره. وتضرب جذور هذا الفهم المغلوط في فترة صدر الإسلام.

بعد وفاة النبي، بدأت الروح القبلية في السيادة بين طوائف المسلمين. وقد أثر هذا في تفسيراتهم للنصوص المقدسة. وكانت النتيجة أسلمة الاتجاهات التي

سبقت الإسلام. استخدم المسلمون آيات قرآنية معينة والأحاديث النبوية لتبرير تعاليهم على الديانات والأمم الأخرى مع تجاهلهم للنصوص الأخرى التي فشلت في تبرير هذه التفسيرات محدودة الأفق. وفقا لنظرية المخططات في أنثروبولوجيا الإدراك العقلي، توجد قواعد حاسمة في عقولنا تنظم إدراكنا، ومن ثم فهمنا للأوضاع، أو الأحداث، أو النصوص (D̀Andrade, 1995). قدمت رسالة محمد للعرب مفاهيم جديدة عليهم. وكان من الصعب عليهم أن يتصوروا المعنى الحقيقي لها في وقتها، وهكذا كانت تفسيراتهم لها محدودة الأفق. فمثلا، حين أخذوا الآيات التالية لتبرير علوهم، تجاهلوا مبادئ أخرى مهمة شكلت قلب رسالة النبي.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩).

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٨٥)

إن فكرة التسليم للإرادة الإلهية معتقد محوري يقع من جميع الديانات موقع القلب. وهذا هو معنى "الإسلام". لكن قراءة هذه الآيات من خلال مخططات محدودة الأفق قد بررت التعصب الديني. فقد ضيقوا إدراكهم للإسلام ليشمل فقط المسلمين الذين اتبعوا الجانب الطقسي من تعاليم محمد. وتجاهلوا الكثير من الآيات التي تناولت طيفاً أوسع داخل الإسلام، شمل جميع أنواع الوحي المقدس التي سبقت الوحي الذي تنزل على محمد. وهكذا رأوا أنفسهم "الشعب المختار" على أساس

الانتماء لدين الإسلام، لا على أساس عِرقي عنصري على مثال بني إسرائيل. لكن النتيجة تكشفت عن نفس الشيء. فقد شعر المسلمون بأنهم أعلى قدرا من بقية الناس، وهم في ذلك يشبهون نظراءهم من المسيحيين.

واتضحت الروح القبلية في الحرب التي سبق لنا ذكرها في الفصل الثاني بين معاوية بن أبي سفيان، وهو من شعبة أمية من قبيلة قريش، وبين عليٍّ بن أبي طالب (زوج ابنة النبي، وابن عمه، والخليفة الرابع). اعتبر انتصار معاوية على علي انتصارا للأمويين على الهاشميين. وحقن ابن علي الدماء بين المسلمين بعد مقتل أبيه على شرط أن يعطي معاوية الناس الفرصة لاختيار حاكمهم. لكن معاوية الداهية حرص على أخذ البيعة لابنه قبل أن يموت، ليخلفه بعد وفاته. ودامت الدولة الأموية لحوالي قرن من الزمان (٦٦١-٧٥٠ ميلادية)، وتبعتها الدولة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨ ميلادية). وهزم المغول العباسيين ثم هزمهم العثمانيون بعد ذلك. ومن المهم أن نلاحظ أن حكم العثمانيين قد استخدم القوة العسكرية لغزو الأراضي وفرض الإسلام على أهلها. وارتكب العثمانيون أيضًا جرائم إبادة عنصرية ضد الأرمنيين، الذين لم تندمل جراحهم بعد، مما أشعل فتيل الكراهية للعثمانيين في قلوب الكثير من الأوروبيين. كانت هذه السلوكيات انحرافًا واضحًا عن نمط الحكم الذي أخذ به النبي وعن كلماته الحكيمة.

الأصولية الراديكالية:

تهديد خطير لبقاء الإنسانية

تزداد الحروب بين الديانات التي تسودها الذكورية والمُثُل السياسية خطورة علينا جميعًا. والحق إن تطور الأصولية الراديكالية يمثل تهديدًا خطيرًا لحسن أحوال الإنسانية، بسبب ضيق منظورها وما يتبعه من انعدام مرونتها. وهي تقوم على أساس منظور يضخم التركز حول الذات وحول العِرق، في مقابل العمومية

التي تحس بقلبها بالكون والتي تشمل جميع الخلق. ما زالت الضغوط تتصاعد في الشرق الأوسط، تغذيها المعتقدات الدينية المغلوطة من جهة اليهود، والمسيحيين، والمسلمين. وفقا لمسلسل الجبهة الذي أذاعته خدمات الإذاعة العامة(٦)، كان يونيو ١٩٦٧ علامة على حدث مهم في العلاقات اليهودية-المسيحية. لقد استعاد اليهود مرة أخرى التحكم في أورشليم [القدس] للمرة الأولى منذ ما يزيد على ٢٠٠٠ عام. كان هذا بالنسبة لليهود استجابة للصلوات القديمة. لم ينقص تشوقهم لأورشليم [القدس] عبر آلاف السنين. لقد قهرت هذه المدينة مرارا وتكرارا على يد البابليين، واليونانيين، والرومان، والحملات الصليبية، والعثمانيين. وعلى الرغم من أن أممًا أخرى حصلت على السيادة السياسية على هذه البقعة، فإن أحدا منها -عدا اليهود- لم يجعل من أورشليم [القدس] عاصمة له. أعلن القائد اليهودي رامبان (بن نشمان(*)، ١٢٦٨ ميلادية) أن "أرض إسرائيل هي مفخرة الدنيا، وأورشليم مفخرة أرض إسرائيل، والهيكل المقدس مفخرة أورشليم" (Ramban, 1978, p. 353).

لكن التفسير المسيحي الأصولي للكتاب المقدس قدم رأيًا مطولاً ومختلفًا عن الانتصار اليهودي، فقد كتب جيمس تابور James Tabor:

> **إنهم لم يكتفوا بالإشادة بالسيادة اليهودية والتصفيق لها، بل فهموها على أنها بداية النهاية، على أنها تحقق محتمل للنبوءة التوراتية، لأن أي سيناريو يمكن للمرء قراءته في أسفار الأنبياء من سفر الرؤيا حتى سفر دانيال يتضمن أن أورشليم في آخر أيامها لن تكون تحت حكم الأتراك وتحكمهم، ولا البريطانيين، ولا مختلف الثقافات التي**

---

(٦) *http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/apocalypse*

(*) الحاخام موشيه بن نشمان، المعروف باسم رامبان (١١٩٤-١٢٧٠)، ولد في إسبانيا، وحين طرد منها بسبب جدله العنيف ضد المسيحية، اتجه "للأرض المقدسة" حيث عاش حتى وفاته. كان طبيبا ومتصوفا وفقيها في التوراة، ويعد من أوائل الصهاينة (المترجمة).

حكمت أورشليم على مر القرون، بل ستكون تحت حكم سكان يهود ذوي سيادة(٧).

بالنسبة للصهاينة، يقترب وقت إعادة بناء الهيكل. وبالنسبة للمسيحيين، هذا الهيكل الثالث هو العلامة المنتظرة لإعلان معركة هرمجديون، ونهاية العالم، والعودة الثانية للمسيح.

قدم برنامج الجبهة هذا البرنامج الإذاعي الخاص بقصد تعليم العامة وتقديم الخلفية التوراتية التي تشرح المعتقدات الصهيونية والمسيحية المتعلقة بالألفية. أبرز البرنامج التفسيرات الحرفية للعهدين القديم والجديد التي تشجع المعتقدات الخرافية والنبوءات الكارثية. هؤلاء المسيحيون-الصهاينة (سموا هكذا لأن لهم معتقدات مركبة من الصهيونية والمسيحية) ركزوا بالذات على الترجمة الحرفية لسفر دانيال وسفر الرؤيا (وهذه الحرفية ماركة مسجلة للأصوليين). ولكن حتى ولو أن الألفية الجديدة قد أتت دون أي أحداث غير عادية، ما زالت هذه المعتقدات تشكل دافعا لهذه العقلية الأصولية.

وفقا لسفر دانيال، ستنهال المصائب في النهاية على رءوس اليهود الذين لم يستمعوا لصوت الرب ولم يطيعوه. نقرأ في الإصحاح التاسع من سفر دانيال أن كل إسرائيل "قد تعدى على شريعتك وحادوا لئلا يسمعوا صوتك فسكبت علينا اللعنة والحلف المكتوب في شريعة موسى عبد الله لأننا أخطأنا إليه" (دانيال ٩: ١١). ويستمر دانيال في وصف الملوك، والقوة، والجشع، والدمار من الشمال، والجنوب، وفارس، واليونان... إلخ، ويحذر من ظهور حاكم له تأثير أشد فجورًا مما للآخرين وأنه "تفزعه أخبار من الشرق ومن الشمال فيخرج بغضب عظيم ليخرب ويحرم الكثيرين (دانيال ١١: ٤٤). ويستمر الكاتب في نبوءته المظلمة تلك ويقول كلمة أمل لمن يتحرون العدل والحق "ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك

(٧) *http://www.pbs/org.wgbh/pages/frontline/shows/apocalypse/explanation/jerusalem.html*

الوقت وفي ذلك الوقت ينجي شعبك كل من يوجد مكتوبًا في السِفْر [المحفوظ في السماء]" (دانيال ١٢: ١).

هذه فكرة نمطية فطرية عن من يتحرون العدل والحق بين الشعب المختار. إنها قصة فشل جماعة من الناس في أن يعيشوا حياة روحانية أخلاقية. فمثلاً، تناولنا في الفصل الأول كيف تخبرنا أمة الهوبي الهندية عن فترات هائلة من المصائب وعن شعب مختار نجا من هذه الأهوال ليولد في العالم الآخر. إن أساطير الهوبي شبيهة بالمعتقدات اليهودية-المسيحية، لكن شعب الهوبي لا يحدد الناجين المختارين بشكل خاص باعتبارهم أمة أو ديانة خاصة، فهم مجرد إشارة ضمنية إلى أن ذلك الشعب المختار قد اختص بأنه من يعيشون حياة إنسانية، يحكمها الضمير الروحاني. هؤلاء الذين لم يسمحوا للجشع والقوة بالسيادة عليهم يتملكون الوعي الذي يجعلهم يتحركون استجابة لحدسهم إلى مستوى أعلى من الوجود أثناء تدمير المستوى القديم.

بينما سجل اليهود سفر دانيال، وضع سفر الرؤية في نهاية العهد الجديد في الكتاب المسيحي المقدس. موضوع سفر الرؤية أيضا نهاية العالم، وهو مفعم بمصفوفات من الرموز والاستعارات المجازية. لكن التفسيرات تكتنفها الكثير من الشكوك لأن الرموز تسمح لمن يوجهون هذه التساؤلات بإسقاطات عديدة. من هذه الرموز علامة *الوحش*، التي أتعبت الكثير من الأصوليين وما زالت تتعبهم.

من الوحش؟ من المسيح الدجال؟، يذكر سفر الرؤية علامة يضعها البعض على جباههم وعلى أيديهم. ويفترض أنها علامة الوحش، وقد سجل أن الوحش له رقم أيضا. يخلص جيمس تابور، أستاذ الدراسات الدينية، إلى أن "الوحش هو حاكم عسكري ما يحكم العالم في نهاية الزمان، ويحمل رقم ٦٦٦" ويشير إلى أنه:

توجد خمس أو ست شخصيات رئيسية. أحدها سيكون نبيًّا زائفًا، وهو يشبه التنين، لكنه يتحدث مثل الحَمَل. وله قرون. إنه وحش يعجز المرء عن وصفه، مخلوق مرعب يظهر أنه بمثابة الحكومة الرومانية بالنسبة للمسيحيين الأوائل، لكنه يمكن أن يكون اليوم أي قوة، نوعًا ما من أنواع إمبراطورية الشر(٨).

كان المسيح الدجال موضوعًا لاهتمام الكثيرين، خاصة منذ صعود الأصولية في بدايات القرن العشرين. وقد أطلق اسم المسيح الدجال على شخصيات مثل ستالين، ولنين، وهتلر. وقد صور هتلر نفسه اليهود في صورة "عدو شيطاني قوي و [تنبأ] في كتابه كفاحي بحرب نهائية هائلة"(٩) ستجلب نظامًا جديدًا. يبدو أن سفر الرؤية يجذب إسقاطات خطرة. مع التسليم بأن سفر الرؤية بأكمله قد صيغ بصيغة رمزية، ويفتقر تمامًا إلى أي محتوى تاريخي، يمكن أن يشير المسيح الدجال ببساطة إلى طريقة في التصرف لا إلى فرد معين. ويمكن أن تعكس العلامة التي على جباهنا وأيدينا اتجاهات عقلية وسلوكيات تسود حياتنا. ربما كان أكثر الأسئلة السديدة بالنسبة للمسيحيين هو "إذا كنا ندمر أممًا بأكملها ونرتكب الإبادة العنصرية ضدها بسبب عدم التسامح الديني، فهل نعيش حقًا في كنف محبة المسيح ونوره؟" الحق إن كلمات يسوع وأعماله يتجلى فيها تراحم نابع من المحبة نحو الحياة بأسرها. والمسيح الدجال الحقيقي هو أي شيء يبعد المرء عن قلبه ورسالة ملكوت الإله التي توجد داخله (لا في القوة الخارجية والكنيسة).

وفضيلة صنع السلام أساسية بالنسبة لليهود. فهي مكتوبة في المزامير: "اطلب السلامة واسع وراءها" (المزامير ٣٤: ١٥)، ويسهب تلمود أورشليم في شرح هذه الآية فيقول: "أي اطلب السلامة في موضعها؛ واسع إليها حين تكون في

---

(٨) *http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/apocalypse/explanation/brevelation.html*

(٩) *http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/apocalypse/primary/mein.html*

مكان آخر" (Péah 1: 1). وتقدم اليهودية برهانًا من النصوص المقدسة أن الوصية المقدسة بالحب والسلام لابد أن تمتد لتشمل جميع الأمم. والتوراة تلزم اليهود بوضوح بهذا الأمر: "بل تحب قريبك كنفسك" (اللاويين ١٩: ١٨)[١٠]. ويشير القصد من وراء مصطلح "جارك" إلى شخص مثل نفسك، يسهم في بناء الحضارة مثلما تفعل أنت، وهذا يشير إلى أعضاء جميع الأمم (Sears, 1998). من ثم، إذا كانت التوراة تدعو إلى تبادل الاحترام والقبول، فكيف يعاد بناء الهيكل المقدس على الدم المسفوح؟.

لكنَّ أعدادا كبيرة من الأصوليين تُحَمِّل أفكار بناء الهيكل الثالث وهبوط أورشليم من السماء المذكورين في سفر الرؤية بتفسيرات ضيقة الأفق وتعطيها أهمية كبيرة، ومن هنا، تأتي العلامات التي تشبه تلك التي تحملها اللوحات التي تلصق على السيارات والتي تعرب عن "شدة السرور". وبينما يرى اليهود بداية حياة جديدة للشعب المختار مع بناء الهيكل الثالث، يراه المسيحيون كمعركة هرمجدون –نهاية العالم في حريق وقيام القيامة، والارتفاع لحياة جديدة في المسيح (تسمى أحيانا "شدة السرور"). إن من يؤمنون بيسوع كمخلص للعالم سيجدون الخلاص؛ أما من لا يقبلون "يسوع كمخلصهم" فسيحترقون في نار جهنم إلى أبد الآبدين. وستهبط أورشليم الجديدة من السماء. وللأصوليين أيضا تأثير سياسي فيما يخص التحكم في أورشليم حيث إن اليهود والمسيحيين كليهما لديهما أسباب للسيادة عليها. هذه القصة الطويلة مثال سافر على خطورة هذه الأيديولوجية المتطرفة، وهي تدعم الحاجة إلى التحول إلى نموذج يسوده التوازن بين الرجال والنساء. لكن للأسف توجد مساندة سياسية قوية للموقف الأصولي الراديكالي، كما يشير المثال التالي.

---

(١٠) لم يكن يسوع أول من نادى بما اعتبر القاعدة الذهبية للمسيحية. فهو بوصفه يهوديًا لا يفعل أكثر من إعادة قول هذا المبدأ المحوري.

يحيئيل أكشتاين حاخام أمريكي أورثوذوكسي، وهو رئيس الزمالة الدولية للمسيحيين واليهود، ورالف ريد، الرئيس السابق للتحالف المسيحي، وأحد مستشاري جورج دبليو بوش قد شجعا تمويل هجرة اليهود لإسرائيل وبناء المستوطنات غير الشرعية في الضفة الغربية لتأمين الصورة التي رسماها لمستقبل إسرائيل(١١). وما زالت إسرائيل مستمرة في دعوة مواطني البلدان الأخرى من اليهود وتمويلهم ليهاجروا إلى إسرائيل ويزيدوا من أعداد مواطنيها (وذلك أساسًا بسبب الخوف من تزايد السكان الفلسطينيين). وكان من المتوقع أن يصل أكثر من ١٥٠٠ مهاجر يهودي أمريكي بحلول خريف عام ٢٠٠٤(١٢)، وما زال نقل اليهود مستمرًا.

وتتفاقم المشكلة حيث إن للقدس [أورشليم] قيمة خاصة في قلوب المسلمين أيضا. في بداية رسالة الإسلام، ولى المسلمون وجوههم حرفيًا تجاه القدس في صلاتهم. وما زال الحج إلى أورشليم [القدس] أمرًا مرغوبًا فيه بشدة. وحين قام النبي بالرحلة المعجزة إلى السماوات السبع، مر بالقدس فيما يعرف بالإسراء والمعراج. يقال إن الملاك جبريل اصطحب النبي في رحلة صوفية جوانية إلى القدس، ومن هناك صعد إلى السماوات السبع. بنى المسلمون بعد ذلك المسجد المعروف بمسجد قبة الصخرة في الموضع الذي مر عنده محمد بتلك التجربة الصوفية. وكان ذلك أيضا تكريما لإبراهيم وللهيكل في المقام الأول.

---

(١١) *Daniel Hass. (July 10, 2002) US Christians find Cause to Aid Israel, Evangelicals Financing Immigrants, Settlements. San Francisco Chronicle. http://www.haaretz.co.il/hasen/pages/ShArtVty.jhtml?sw=Israel+War+of+the+Jews+by+Daphne+Berman&itemNo=458105*

(١٢) *12 Israelś Pligt Draws American Jews to Homeland. (July 18, 2004). San Francisco Chronicle. http://sfgate.com/cgi-bin/article.cgi?f=/c/a/2004/07/18/MNG617NH0R1.DTL*

بدأ بناء قبة الصخرة في عام ٦٨٥ ميلادية، وتم بناؤها في عام ٦٩١ ميلادية. وبعد الانتهاء من بناء قبة الصخرة، بدأ المعماريون في بناء مسجد جامع كبير يسع أكثر من خمسة آلاف عابد، وأتموه في عام ٧٠٥ ميلادية. ويقع كل من مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في منطقة مقدسة واحدة تعرف باسم الحرم الشريف، تضم ما يزيد على ٣٥ آكرا(*) من المنشآت، والحدائق، والمباني، والقبب. وتعتبر المنطقة بأكملها مسجدا يشغل حوالي سدس مساحة القدس. وهذه المنطقة هي ثالث المواقع المقدسة في الإسلام بعد مكة والمدينة (Daryle et al., 1996).

وقد شكّلت هزيمة العرب في عام ١٩٦٧ نقطة تحول في تاريخهم حين سقط أحد أهم أماكنهم المقدسة في أيدي إسرائيل. وحلم كل مسلم – ليس في العالم العربي فقط، بل أيضا في الكثير من أنحاء عالم المسلمين– الآن استعادة القدس وحماية المسجد، قبة الصخرة(١٣). يرى بعض المسلمين آيات معينة في القرآن كنبوءة بأنهم سيستعيدون القدس، ويهزمون إسرائيل:

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝. (الإسراء ٤–٨).

(*) الفدان الواحد يساوي ١،٠٣٨ آكر، ويساوي ٤٢٠٠،٨٣ مترا مربعا (المترجمة والمراجعة)

(١٣) أحرق المسجد في ٢٠ أغسطس ١٩٦٩ (وقد قطعت المياه قبيل بدء المتطرفين في إشعال الحريق). وفي عام ١٩٧٠، أغار ٤٠ مستوطنا على المسجد. ووجد بداخله مواد متفجرة في عام ١٩٨٠. وفي عام ١٩٨٤ اكتشف ١٠٠ كيلوجرام من المتفجرات قبل انفجارها. وفي عام ١٩٨٩ قرر الإسرائيليون أن يصلوا داخل المسجد، وصلوا تحت حماية الجيش. وفي عام ١٩٩٠ قتل مسلمون في ساحة المسجد. وفي عام ١٩٩٦ حفر نفق في جدار المسجد تسبب في تداعيه، حيث قتل ٨٥ فلسطينيا وجرح مئات غيرهم. والمتطرفون مستمرون في محاولاتهم لحفر أنفاق تحت أساسات المسجد وما زالوا مستمرين في التهديد بنسفه.

يعتقد الكثير من المسلمين الأصوليين أن هذه الآيات تشير إلى حدثين عظيمين في تاريخ "بني إسرائيل". حدث الأول في عام ٥٨٦ ما قبل ميلاد المسيح حين أُسِر بنو إسرائيل في بابل. وحدث الحدث الثاني حين دمر الرومان الهيكل اليهودي في أورشليم [القدس] وطردوا اليهود من أرض إسرائيل، فعاشوا في المنفى (يسمى "الشتات"). تشير بعض التفسيرات إلى أن هذين الحدثين حدثا كعقاب إلهي لانحراف اليهود عن توجيهات موسى، وإتيانهم لغير ذلك من السلوكيات الضارة. ويعتقدون أنه لو لم تتوقف إسرائيل عن تدميرها المنظم للفلسطينيين، فستحصد نتائج سلوكياتها وستكون نهاية إسرائيل. يعتقد مصطفى محمود، وهو مسلم مثقف وكاتب بارز، أن الآيات المذكورة عاليه تتنبأ بنهاية دولة إسرائيل(١٤).

والأهم أن استمرار العدوان الإسرائيلي ضد الفلسطينيين لن يؤدي إلا إلى استمرار العنف والعنف المضاد، وضياع الحياة الغالية لكثير من الناس على الجانبين. ويعتقد الكثير من المسلمين أن إسرائيل تخسر جميع فرص السلام مع جيرانها نتيجة لعدوانها الدائم على الفلسطينيين. كما أن الأصوليين الراديكاليين الذين يتطلعون إلى تدمير إسرائيل يزيدون الوضع سوءا ويقدمون للحكومة الإسرائيلية مبررات لاستمرار هجماتها ضد الفلسطينيين. وبالاختصار، ما زالت العقليات الأصولية ذات النوايا السيئة من جانب المسلمين، واليهود والمسيحيين مستمرة في إثارة العنف في الأرض المقدسة.

---

(١٤) ***http://answering-islam.org.uk/Walid/12israel_quran.htm***

الخلاصة

ركز اليهود الصهاينة المتطرفون على إعادة بناء الهيكل(١٥)، ناسين أنه استعارة مجازية للهيكل الحقيقي الموجود في القلب؛ أما المسيحيون الأصوليون الراديكاليون فقد ركزوا إلى حد بعيد على دمار العالم ونهايته، ناسين أن يسوع قال لهم إن مملكة السماء بداخلهم، أما الإسلاميون المتطرفون فيحلمون بطرق لتدمير من يختلف عنهم، متجاهلين أن الوحي المنزل على محمد أكد على أن التنويعات البشرية جميعها طبيعية، مع تأكيده على التراحم والرحمة مع الآخرين. لقد فشل كل منهم في التركيز على التعاليم الحكيمة لأنبيائهم، الذين نصحوهم بأن حب بعضهم للبعض الآخر هو السلوك الذي يقع موقع القلب من الحياة الروحية.

إن هذه الأصولية الراديكالية تسهم في زيادة الفوضى السياسية والنضال الديني. إن الولايات المتحدة تخسر موقعها كقائد للعالم على نحو متسارع والحكومة الإسرائيلية تتلقى التوبيخ من كثير من بلدان العالم، ومعظم الأمم العربية وقعت في شرك نمط حياة عفا عليه الزمن وشرائع أسيء تفسيرها. إن هذه السلوكيات، مع السيادة السياسية، والجشع الاقتصادي، والاحتقار العميق الذي يكنه الفرد لأي فرد خارج جماعته المحددة تمثل المسيح الدجال.

ومع اقتراب المواقف الدينية والسياسية الأبوية من نهايتها المحتومة يزداد تهديدها للبشر. إذا قدر للبشرية أن تنجو، لا خيار آخر أمامنا إلاّ أن ندرس جوانب الفشل في تاريخنا الماضي بينما نضع رؤية وخطة عمل لعلاقة صحية، محترمة

---

(١٥) *Jonathan Lis& Yair Ettinger. Police Ban Jews from Temple Mount for Tisha B'Av. (July 28, 2004). Haaretz News . http://www.haaretz.co.il/hasen/spages/456926.html*

ومتوازنة بين جميع أعضاء عائلتنا البشرية. إن الأخطار تحيط بمستقبل البشرية والحياة العضوية المشتركة. ربما يتغير مسار هذه الرؤية للعالم المكونة من الذات والآخر مع ازدياد مشاركة النساء في القيادة على قدم المساواة واشتغالهن الفعال بها، في مجال ديني وسياسي إنساني.

يحتاج بلدنا في الوقت الحالي إلى مثالية النساء وقوة عزمهن، وربما احتاج ذلك في السياسة أكثر من أي مجال آخر

شيرلي تشيشولم

الفصل الرابع

حكايات الديموقراطية والقوة والفساد
صدام الدين والسياسة في الولايات المتحدة الأمريكية

رؤية للعالم في إطار الأنساق

إن النظرة التي ترى العالم على أنه نسق واحد متكامل، تتيح المزيد من التعاون والتفاعل عما تتيحه النظرة القائمة على المراتب الهرمية. فنظرية النسق المتكامل تدعو للمساواة من حيث اعترافها بأن كل عنصر، وكل شخص، وكل تفاعل له تأثيره على الكل. فإذا أخذنا في اعتبارنا التهديدات الحالية لسلامة البشر، فعلى القيادات الدينية والسياسية (وعامة الناس) الأخذ برؤية أكثر اتساعًا للعالم فيما يخص صدامات القوة الكثيرة الموجودة، وذلك إذا كان هناك أي أمل في إيجاد حل وإقرار السلام العالمي. إن المعرفة المأخوذة من الدراسة العلمية للسيبرنطيقا ونظرية الأنساق العامة تعطينا إطارًا أوسع لفهم أن كل أمة، ودين، وجماعة عنصرية أو عِرقية عنصر منسَّق في سياق التنظيم الأوسع للعالم. فكل جماعة لها وظيفة داخل هذا النسق حتى ولو أنها يمكن أن ترى أنها تعمل باستقلال عنه. تفحص نظرية الأنساق المبادئ العامة التي تشترك فيها الأنساق الحسابية، والجزيئات، والخلايا، والبشر، والأمم،...إلخ. أما السيبرنطيقا فتدرس الاتصال والتحكم داخل هذه الأنساق التنظيمية.

وقد كانت نظرية الأنساق العامة نتيجة لإدراك عالم البيولوجيا لودفيج فون برتالانفي لما يلي :

> افصل كائنًا حيًّا عن البيئة المحيطة به فلا يلبث أن يموت بعد فترة قصيرة بسبب نقص الأكسجين، والماء، والغذاء. إن الكائنات الحية أنساق مفتوحة: فلا يمكنها البقاء على قيد الحياة دون أن تتبادل المادة والطاقة باستمرار مع بيئتها. وتكمن خصوصية الأنساق المفتوحة في أنها تتفاعل مع غيرها من الأنساق خارج ذاتها ... فإذا أنعمنا النظر في بيئة أي نسق من الأنساق؛ نراها تتكون أيضًا من أنساق تتفاعل مع بيئتها. فمثلاً، بيئة أي شخص مليئة بغيره من الأشخاص. فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه المجموعة من الأنساق التي تتفاعل مع بعضها البعض، يمكننا أن نرى هذه المجموعة مرة أخرى كنسق. فمثلاً، جماعة من الناس تتفاعل مع بعضها البعض قد تكون عائلة، أو مصنعًا، أو مدينة. والتفاعلات المتبادلة بين الأنساق المكونة للجماعة "تلصق" هذه المكونات ببعضها البعض بشكل ما مكونة كلاً متكاملا. فلو لم تتفاعل هذه الأجزاء مع بعضها البعض، لن يزيد الكل عن مجرد حاصل جمع مكوناته. لكن تفاعلها مع بعضها البعض يضيف إليها شيئًا ما. وترى الأجزاء بالنسبة للكل كأنساق فرعية. ويرى الكل بالنسبة للأجزاء كنسق فوقي[١].

---

(١) *Basic Concepts of the Systems Approach. Principia Cybernetica Web*
http://pespmc1.vub.ac.be/SYSAPPR.html

كما يلاحظ أن الأنساق الفرعية يندرج تحتها غيرها من الأنساق الفرعية

جميع الأنساق الأخرى بأنواعها: المجتمعات تتكون من أُناس، تتكون أجسادهم من أعضاء، وتتكون تلك الأعضاء من خلايا، تتكون بدورها من عضيات، تتكون هي الأخرى من جزيئات كبيرة، تتكون من جزيئات، تتكون من ذرات، تتكون من نيوكليونات، تتكون من كواركات (المرجع السابق).

تختلف نظرية الأنساق عن العقلية الديكارتية الاختزالية التي حكمت البشرية الحديثة لعدة مئات من السنين. فمثلاً، لا يأخذ منظِّرو النسق الأسري بوجهة نظر اختزالية تلوم شخصًا واحدًا في عائلة معينة (يشار إليه كما هو المعهود باسم *الوالد الذي يتوحد معه الطفل*) على مشكلات العائلة. تنطبق نفس هذه النظرية على الجماعات في إطار نسق عالمي أوسع. الشخص الاختزالي يعتبر أن جماعة عِرقية أو دينية واحدة هي المرشحة لإثارة المشكلة، ويفشل في فحص التفاعلات المركبة داخل العلاقة نفسها. أما رؤية العالم في إطار الأنساق فتأخذ علاقة جميع أجزاء النسق (الأمم والجماعات) ببعضها البعض، المرئي منها والخفي، لأن كل جزء تربطه بالكل علاقة وثيقة. تُدرك نظرية الأنساق العامة أن الأنساق، البسيط منها والمركب، في حالة نشوء مستمر بطريقة ما.

فلنعتبر كل أسرة أو أمة أو ديانة على حدة ممثلة لنسق من الأنساق، لهذه الأنساق عناصر لها علاقات ببعضها البعض، ولهذه العناصر سمات مميزة معينة تعمل بطريقة مستقلة. كل هذا يخلق بنية – عضوية في نسق أو نسق فرعي معين، وحدودا بين هذا النسق وبيئته. ويظهر داخل كل نسق نمط من أنماط التفاعل المتبادل. ويخلق تكرار هذه الأنماط توازنًا معينًا يعرِّف أعضاءه بكيفية التواصل داخل النسق. وتحدد حدود النسق ما إذا كانت أشكال التواصل فيه مفتوحة أو مغلقة. فمثلاً، توجد قواعد داخل الديانة أو الأمة إما أن تسمح بالتغير أو تمنعه.

ويمكن أن تسمح الحدود المحيطة بالنسق إما بدخول طاقات وخبرات جديدة إليه (تسمى حلقات "مفتوحة" لاستقبال رجع الصدى)، أو قد تعزل أعضاءه عن الأنساق الأخرى (الأسر، أو الأمم، أو الديانات، أو جميع هذه الأنساق الأخرى) ومن ثم يظل هذا النسق معزولاً ومنغلقاً على ذاته أمام تبادل التفاعل مع النسق الأكبر (وتعتبر هذه الأنساق حلقات "مغلقة" في وجه رجع الصدى).

ولكل نسق أنساق فرعية. فالأحزاب السياسية المختلفة في أي أمة أنساق فرعية داخلها. وأي جماعة دينية أصولية تختلف عن أي جماعة غيرها قائمة على أساس تفسيرات أعمق أو قائمة على التجربة للنص المقدس. تمثل هاتان الجماعتان نسقين فرعيين مختلفين داخل ديانة معينة. وتمثّل مختلف الجماعات الدينية والسياسية داخل أي نسق من أنساقه الفرعية. وكل منها يمثل صوتاً مختلفاً (ربما كان صوتاً غير مسموع لأعضاء الجماعات الأخرى). يشمل هذا من يتحدون النسق ويوقعون فيه الاضطراب إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لجذب الانتباه إلى منظور غائب أو إلى حالة عدم توازن. وقد يغير الفرد موقعه من نسق فرعي إلى آخر في أي وقت مع تغير موقعه/موقعها داخل أي نسق بعينه.

> **الأنساق المغلقة: تمنع حلقات الأنساق المغلقة أي نوع كان من التشكيك [في المألوف] أو الانحراف عنه. أعضاء هذه الأنساق محبوسون داخل حدود وهياكل معتقدات جامدة، ويحكمهم إحساس متفش بأن هذه الحدود والهياكل مطلقة. لا يمكن أن تتناول العائلات العواطف، أو تتبادل الحديث عن إدمان بابا للكحوليات أو عجز ماما عن التعبير عن مشاعرها. وأعضاء الأنساق السياسية المغلقة لا يمكنهم التشكك في الحزب أو تجاوز سياساته. وبالمثل، فإن أعضاء أي نسق ديني مغلق لا يمكنهم التفكير خارج نطاق تعاليمه الأساسية (حيث التفسيرات الحرفية للنصوص الدينية حسب**

المعهود). ويظل الأعضاء تحت عين الفحص مع تهديدات تخوفهم من فقد إيمانهم أو من تأثرهم بالقوى الشيطانية. حتى حماية القيم والمعتقدات المحكوم عليها بالقدسية يمكن أن تشجع الانغلاق، وتمنع المزيد من النقاش أو النمو، أو تفعل كل هذا. ليس من المتوقع من أي فرد أن يفكر أو يتصرف خارج حدود النسق، بل حتى ليس مسموحًا له بذلك. وأي دليل على النفاق يواجه بالإنكار.

الأنساق المفتوحة: أنساق التواصل المفتوحة تسمح بالتغيير. تشجع هذه الأنساق أفراد الأسرة على التعبير عن مشاعرهم ومشاركة الآخرين في أفكارهم. تتساوى أصوات الذكور والإناث، ويتناولن المشكلات ويدعون إلى التغيير على قدم المساواة. وتسمح هذه الأنساق بالخطاب المفتوح، بما في ذلك الصراع، بل حتى تشجعه. والحكومة الديموقراطية حقًا مثال للنسق المفتوح، من حيث إن لجميع أفرادها أصوات متساوية (لا تعتمد القيادة على شراء أصوات الناخبين وغير ذلك من التصرفات المريبة). وتقدر النظم الدينية استكشاف الأفراد لحالتهم الروحانية واكتشاف الرب. ويحترم الأفراد لتنوعهم الديني وتنوع الطرق التي يتجلى بها الرب لديهم.

يزيد الصعود المتزايد للعقليات الأصولية من أنساق التواصل المغلقة. كما أن اختلال ميزان القوة بين الجنسين يتلافى المحافظة على توازن التمثيل العضوي في العالم. لقد درسنا في الفصول السابقة كيف أثرت المُثُل الدينية الأبوية في ازدراء النساء؛ ولندرس الآن كيف أثر اختلال هذا التوازن في أنساقنا السياسية. يعرض الفصلان القادمان تأثير الأنساق الحكومية الأبوية، وما يتهددنا من تأثيرات القوة السياسية حين تمتزج بالدين والجشع الاقتصادي/جشع جماعة ما. إن دافع

القوة والجشع يغذي التسيُّد على الآخرين، مع تبني الفساد السياسي، وإساءة استخدام المال والحرب. وقد أسهمت الأنساق الدينية المغلقة في بث التعصب والكراهية. وامتزاج الأنساق السياسية التي تأخذ بنظام الحزب الواحد مع الأصولية الدينية تعتبر وصفة للدمار. نبدأ الجزء التالي بوصف لحياة قبائل السكان الأصليين لأمريكا، لأنها تمثل نسقا مفتوحا في الحكم، والروحانيات والتوازن بين الجنسين. ولتقاليد المجتمع المحلي أيضا تأثير مهم على تطور دستور الولايات المتحدة الأمريكية. لقد سبق أن ناقشنا بعض الميثولوجيات المبكرة التي أثرت في التطور الديني؛ ونعتقد أن من المهم بنفس القدر أن نفحص التأثيرات المبكرة على تطورنا السياسي. يكشف هذا الفصل عن التباين الحاد بين أخلاقيات ومُثل الشعوب الأولى للأمة الذين كونوا الأرض التي تعرف الآن باسم الولايات المتحدة، في تعارضها مع التطورات الأيديولوجية الأخيرة لما يسمى "قدرنا" الذي أدى إلى النمط الحالي للحكم فيها ومناوراتها الرامية إلى التسيد على العالم. هل كان الأمر سيختلف لو شاركت النساء على قدم المساواة في تطور هذه الأمة؟ تشير دراسة تقاليد أهل أمريكا الأصليين الأوائل إلى أن هذا ربما كان أمرا واردا.

الشعوب والأمم الأولى:

الديموقراطية وروحانية السكان الأصليين لأمريكا

لا تولي الثقافة السائدة إلا القليل من التفكير للتهديدات التي يشكلها ارتفاع حرارة كوكب الأرض وغير ذلك من الأخطار البيئية، من حيث إنها تنظر إلى الطبيعة بأكملها كشيء يستغل للربح. يشمل هذا طرق استغلال شعوب العالم الثالث(٢) في سوق العمل، وتدمير الغابات المطيرة الطبيعية وغير ذلك من المواطن الطبيعية، وتلويث عناصرنا الثمينة: الهواء، والماء والأرض. تختلف هذه الاتجاهات والسلوكيات اختلافًا كبيرًا عن طرق حياة السكان الأصليين، الذين أولوا احترامًا وتبجيلاً عميقين "لأمهم الأرض".

---

(٢) أطلق على شعوب العالم الثالث مصطلح أحدث هو "الأمم النامية". يشير هذا المصطلح إلى شيئين: أولهما أن ثقافات هذه الأمم لا تحظى بالاحترام إلا لو قلدت ثقافتنا، والثاني أن الوقت قد حان كي يحصد الاستغلال الاقتصادي هذه الأمم.

إن العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأهلها من السكان الأصليين لأمريكا علاقة مهمة، لأن السكان الأصليين يرون أن الطبيعة كلها من أقاربهم، مما يقدم لهم خريطة طريق لإنقاذ الحياة على كوكبنا من الدمار. والمسيحية ذات الطابع الغربي تزدري البيئة الطبيعية، عن وعي أو عن لا وعي (يتمثل هذا في تفكيك نظام بوش لسياسات حماية البيئة). وكما ناقشنا في الفصل الثاني، فإن تأثير تأكيد القديس أوغسطين على بناء الإيمان في السماء والإله "الخفي" تسبب في أن تصير المسيحية أكثر اهتماما بالعالم الآخر، وهي سياسة تجاهلت مناداة يسوع *بأنها ملكوت الله داخلكم* (لوقا ١٧: ٢٠-٢١) لماذا؟ سيبدو أن تأكيد يسوع على أن ملكوت السماء يقع *داخل* (القلب الذي يعرف الاتحاد مع المقدس) سيحد من القوة السياسية للكنيسة وتأثيرها الديني على الحكومة. إن إساءة التفسير وإساءة التوجيه على هذا النحو هي التي جعلت مسيحيي العالم الغربي يتعامون عن الجشع وغيره من السلوكيات الهدامة. وقد نفت المسيحية ذات الطابع الغربي قدسية الأرض، وسمحت باستغلالها بشكل خاطئ. وقد أسهم هذا في الخلط الخطر بين السياسة والدين. فبدلا من أن يكون هذا النموذج المحدود مادة لخدمة بيئتنا وسكانها، أشار إلى أن العالم موجود هنا لمجرد أن نستغله (ونسيىء استغلاله).

تقدم روحانية السكان الأصليين لأمريكا مكونا غائبا من المكونات اللازمة للصحة الروحية، لأن فيها احترامًا وحبًّا لمظاهر الإله الكثيرة في الحياة. الكثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا أمومية، بمعنى أن خط قرابة الدم يقوم على الأم لا الأب. وللأنثى موقع بارز ومتساو مع الرجل في المجتمعات المحلية لسكان أمريكا الأصليين. وبغض النظر عن انحدار النسب عن الأم أو عن الأب، فلا يوجد لدى معظم القبائل نسق تراتب هرمي يحط من قيمة الآخرين، إما على أساس نوع الجنس أو أي حالة طبيعية أخرى. وثانيا، لكل فرد موقع مهم، وصوت في حكومة المجتمع المحلي.

والتنظيم السياسي والمعتقدات الروحية ليسا مجالين منفصلين في حياة السكان الأصليين لأمريكا، لأن رؤيتهم للكون شاملة. يشمل الكون لديهم ارتباط السماء والأرض بعلاقة (السماء الأب والأرض الأم)(٣). يعتبر البشر، والحيوانات، والطيور، والزواحف، والأشجار، والعناصر مثل الهواء، والتراب، والنار، والماء كلها أقارب (يعتنق القديس فرانسيس الأسيزي أيضا هذا الاعتقاد فيما يخص رؤية الكون). لا تعني كلمة *روحانية* أي شيء بالنسبة للسكان الأصليين لأمريكا من حيث إنها تعلن ازدواجية لا وجود لها.

وما يلي يتعلق ببعض القبائل في السنوات الأولى لتطور الولايات المتحدة الأمريكية. كان لبعض القبائل(٤) هياكل اجتماعية وسياسية عالية التنظيم، مثل قبيلة الإيروكوا *(Johansen, 1999)*. فقد كان عندهم مثلا زعيم مدني، وزعماء يعملون تحت رئاسته، كما كان عندهم زعماء ثابتون ومؤقتون لوقت الحرب. وفي الطرف الآخر من الطيف نجد قبائل صغيرة من البدو الرحل، لها حقوق محدودة في الأرض تتطلب تنظيمًا اجتماعيًا أبسط بكثير، ومن ثم قدرًا أقل من الحكم السياسي. وقد اختير الكثير من الزعماء لشغل مناصبهم بسبب حكمتهم الظاهرة وسلوكياتهم التي تعتبر قدوة (الهوبي، والكريك، والإيروكوا وغيرهم). وفي قبائل أخرى تقوم المطالبة بالزعامة على أساس ما لدى الزعيم من ثروة متراكمة أو لمجرد أنها حق موروث، بينما يكتسب أحد المحاربين الزعامة في القبائل التي تعيش في السهول بسبب شجاعته وطموحه. والزعيم يقود المجلس الاستشاري المكون من ممثلي القبائل والعشائر.

---

(٣) يرتبط السماء الأب بحركة الرياح والفضاء الذي نعيش فيه، بينما الأرض الأم هي الطبيعة بأكملها.

(٤) تقوم هذه المعلومات على أساس البحث التاريخي في الحياة القبلية المبكرة بأمريكا قبل إرغام أهل أمريكا الأصليين على الحياة في أراض مخصصة لهم تحت التحفظ.

والمجتمع داخل القبيلة يقوم غالبًا على أساس الانحدار عن سلف واحد. وكما لاحظنا، فقد كانت الكثير من العشائر أمومية، بمعنى أن أنسابهم تنحدر عبر خط قرابة الدم من جهة الأم (على الرغم من أن قبائل كاليفورنيا وقبيلة الموهاف وقليلاً من القبائل الأخرى يتتبعون انحدار أنسابهم عبر خط قرابة الدم من جهة الأب). لا يعني هذا أن المرأة قد سادت على الآخرين، لأن هذه القبائل لم يكن لديها تنظيم ذو تراتب هرمي. كان لكل من النساء والرجال أدوارهم. كرمت النساء لأنهن يأتين بالحياة. وقد كان كل فرد من أفراد العشيرة (وما زال) خيطًا في نسيجها، مكونين لوحة نسجية تحدد الهوية القبلية.

وتغيرت أراضي سكان أمريكا الأصليين مع إرغامهم على العيش في أماكن معينة تحت التحفظ. وتوجد الكثير من الأمثلة التاريخية على الحكم القبائلي قبل حدوث هذه التغيرات وبعدها. في عام ١٦٨٠ امتدت أمة الإيروكوا عبر الشمال الغربي، وشمل ذلك أجزاء من بنسلفانيا، والجزء الجنوبي من أونتاريو، وكينتوكي، ونيو إنجلاند. وكانت النساء يقررن القرابة، كما كن يمتلكن جميع ممتلكات الإيروكوا. وقد عرفت أمة الإيروكوا تاريخيًّا بوحدتها، وإحساسها بالهدف، ومبادئها الممتازة، وتنظيمها السياسي العظيم. تتكون أمة الإيروكوا من عصبة القبائل الخمس (التي تشمل قبائل الكايوجا، والموهوك، والأونونداجا، والسينيكا) وقد أسست هذه الأمة على أساس إقرار السلام، والأمن، والصحة للجميع والحفاظ على استمرار ذلك، والدعوة للعدالة والدفاع عنها، والمساواة واحترام سلطة القانون، والقوة السحرية.

ولا يعرف الكثير من الأمريكيين أن دستورنا تأثر جزئيًا بالتنظيم الديموقراطي لقبائل الإيروكوا *(Grinda, 1994)*. وقد سعى بنيامين فرانكلين وغيره من الآباء المؤسسين إلى محاكاة الإيروكوا في إنشائهم لمُثلنا الديموقراطية. وقد لاحظ تشارلز براونيل أن "طبيعة عصبة [الإيروكوا] كانت ديموقراطية بشكل حاسم؛ ولم توضع سلطة التحكم المطلق في أيدي أي حاكم ... وقد لوحظ في

مجالسهم الاستشارية عمومًا وفاق تام فريد من نوعه" *(Brownell, 1855, p. 287)*. وقد اعتبروا هذه الطريقة *الكومونولث العظيم*، وسيستخدم بنيامين فرانكلين، وتوماس جيفرسون، وصمويل آدم وغيرهم من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية هذا المصطلح فيما بعد *(Grinde, 1994; Champagne, 1994)*. وقد تأثر فرانكلين والآخرون أيضا بالقانون العظيم للإيروكوا وما فيه من أنساق التفتيش والتوازن عالية التنظيم. كانت لهم اتحادات كونفدرالية مركبة وحسنة التخطيط، وكان لعشائر قبائلهم ممثلون في المجلس الاستشاري القبائلي. والحق إن الإيروكوا هم من اقترحوا أن تتحد المستعمرات البريطانية، واستخدم فرانكلين مدخلاتهم في وضع خطة ألباني وبنود الاتحاد الكونفيدرالي *(Champagne, 1994)*. لقد مثل الإيروكوا نسقا مفتوحا من أنساق الحكم، وقد امتزج هذا النمط جيدا مع مُثُل الآباء المؤسسين.

وقد قدم أدولف جندرسون بحثًا في الملتقى الأمريكي الشمالي الرابع عن المجتمع وإدارة الموارد في عام ١٩٩٢ عنوانه *الدين، والسياسة، وأخلاقيات الأرض لدى سكان أمريكا الأصليين* ***Religion, Politics and the Native American Land Ethics***، لاحظ فيه أن :

> **حكم القرى لدى مجتمعات سكان أمريكا الأصليين كان توسعيًا ... وقد اهتمت عمليات اتخاذ القرار اهتمامًا خاصًا بالأفراد الذين شعروا بظلم شديد ... لوجود رؤية اعتبرت أن تكامل المجتمع يعتمد مباشرة على من يشعرون بأن المجتمع يقهرهم أكثر من غيرهم، ولدى المجتمع أسباب معقولة لتطييب خاطر الأفراد المتبرمين. وفي نفس الوقت، يطلب من الأفراد الذين لم يشعروا بذلك التبرم أن يفعلوا ما هو أكثر من مجرد الاعتراض: فقد كان يطلب منهم أن يفكروا في حسن حال القرية من موقف بديل. لقد كانت [هذه] العبقرية**

السياسية الحقة لمجتمعات سكان أمريكا الأصليين: فقد كان الفرد يحترم كفرد ويدمج في المجتمع عن طريق عملية تمزج بين الاستشارة والإقناع بالحجة (Gundersen, 1998, p. 181-203).

وقد مارست معظم قبائل سكان أمريكا الأصليين الحكم الديموقراطي. كانت لديهم وحدة طبيعية بين الحياة الروحية والتنظيم السياسي، وكان لهذين الأمرين علاقة بالأرض التي يعيشون عليها. كان الحكم السياسي يهدف إلى ضمان حسن الأحوال والمساواة لجميع أعضاء المجتمع. كانوا يتقاسمون السلع، حيث إن الجشع لم يكن جزءًا من الحياة القبلية. وقد دمرت حياتهم وأساليبهم بفظاعة حين وصل الرجل الأبيض قاصدًا خلق أمة تمثل مُثُله الجديدة في الحرية والدين والحكم الديموقراطي، فمع محاكاة شخصيات بارزة مثل بنيامين فرانكلين للنمط المجتمعي المحلي للشعب الأول للأمة، إلا أن ميل الرجل الأبيض إلى السيادة والجشع أبعد القبائل في النهاية ليعيشوا في أراضٍ خصصت لهم تحت التحفظ.

الفصل بين الكنيسة والدولة

لقد تصور الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الفصل بين الكنيسة والدولة وخططوا لتنفيذه، وكانت تلك محاولة فريدة لمنع جماعة من داخل النسق من حيازة قوة يمكن أن تسيىء للغير. لقد خلقت أمة حديثة النشأة ذاتَ أغلبية مسيحية رؤية ستسمح لأنساق فرعية بالوجود داخلها، بل وحتى بظهور الجديد منها. لقد خلقت دستورًا وإعلان استقلال مؤسسين على المبادئ الديموقراطية، فهي حكومة وجدت لحماية مواطنيها لا لقهرهم *(Hart, 2004)*.

قصد الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية الفصل بين الكنيسة والدولة الذي من شأنه أن يضمن مراعاة هذه المبادئ. وقد بدأ جيمس ماديسون خطابا وجهه للمجلس العام لكومونويلث فرجينيا بما يلي:

> **نحن الموقعين أدناه، مواطنو ما يسمى الكومنويلث، وقد أخذنا بعين الاهتمام الجاد بيانًا طبع بأمر من آخر جلسات المجلس العام بعنوان "بيان عن وضع شروط معلمي ومعلمات الديانة المسيحية"، ومع إدراكنا بأن نفس هؤلاء لو تسلحوا أخيرًا بالمسوغات القانونية، سيكون في هذا إساءة استخدام خطر للقوة، فنحن ملزمون كأعضاء مخلصين في دولة حرة بالاحتجاج على ذلك، وإعلان الأسباب التي قررنا الاحتجاج على أساسها**

إن احتجاج ماديسون على البيان قد جاء نتيجة إمعان الفكر فيه، ويستحق أن نوليه الكثير من الاهتمام. فقد لاحظ أنه :

> **لأننا نؤمن أنها حقيقة أساسية ولا يمكن إنكارها "أن الـدين أو الـواجب الـذي نـدين به لخالقنا وطريقة أدائه، لا يمكن توجيهه إلا بالعقل والإقناع، لا بالقوة ولا بالعنف". فلابد إذن من ترك ديانة كل إنسان إلى اقتناعه وضميره؛ ومن حق كل إنسان أن يمارس دينه حسب ما يمليه عليه اقتناعه وضميره ... لـذلك نصرُّ على أنه في شئون الدين، لا تختصر مؤسسة المجتمع المدني حق أي إنسان في دينه، وأن الدين معافى تمامًا من اعتراف تلك المؤسسة به ... والحكام المذنبون بارتكاب هذا التعدي، يتجاوزون التفويض الذي يستمدون منه سلطتهم، وهم طغاة. والناس الذين**

يخضعون لـه تحكمهم قوانين لم يضعوها بأنفسهم ولا وضعتها سلطة مستمدة منهم، وهم عبيد ...

... من الذي لا يرى أن نفس السلطة التي يمكنها أن ترسخ المسيحية وتستبعد جميع الديانات الأخرى يمكنها أن ترسخ بنفس السهولة أي طائفة معينة من الطوائف المسيحية مع استبعاد جميع الطوائف الأخرى؟ ... فلو أن "جميع الرجال كانوا يتمتعون بالحرية والاستقلال على قدم المساواة بحكم طبيعة الأمور"، فيجب اعتبار أن جميع الرجال يدخلون إلى المجتمع بشروط متساوية؛ لا يتخلون عن حقوقهم الطبيعية أكثر مما يتخلى غيرهم، ومن ثم لا يحتفظون بحقوق طبيعية أقل من بعضهم البعض ...

... لقد جربت المؤسسة القانونية للمسيحية عبر حوالي خمسة عشر قرنًا. ما ثمارها؟ كانت ثمارها تقريبًا في جميع الأماكن النعرات وبلادة رجال الإكليروس، وجهل العلمانيين وخنوعهم، سواء في الخرافة، أو التعصب للرأي، أو الاضطهاد. استفهموا عن معلمي المسيحية على مر العصور التي ظهرت فيها في أوج رونقها؛ كل هؤلاء من جميع الطوائف يشيرون إلى العصور التي سبقت دمج المسيحية في السياسة المدنية ... أفضل وسيلة لدعم مثل هذه الحكومة هي حماية تمتع كل واحد من مواطنيها بدينه بنفس يد المساواة التي تحمي شخصه وممتلكاته؛ وذلك بألا يتعدى أي مواطن على الحقوق المتساوية لأي طائفة، وألا تعاني أي طائفة من تعدي طائفة أخرى على حقوقها المتساوية ... لأن من شأن ذلك أن يدمر التوسط والتآلف

الذي نتج عن تسامح قوانيننا مع التدخل في الدين بين مختلف طوائفه. لقد سفكت دماء كثيرة في العالم القديم، عن طريق المحاولات التي ذهبت سدى للجيش العلماني للقضاء على التنافر الديني بتحريم أي اختلاف في الرأي في الدين. وقد كشف الزمن على طوله عن العلاج الحقيقي. فقد وجد أن أي إرخاء لقبضة السياسة الضيقة الأفق والمتزمتة، أينما جربت، يخفف من وطأة المرض.

وهكذا بدأ الجدل والتخطيط لفصل الكنيسة عن الدولة. لقد فحص جيمس ماديسون والآباء المؤسسون الآخرون جميع أشكال الفشل للماضي التاريخي. لقد أرادوا خلق بلد يسمح بالحرية الحقيقية، بلد يعترف بتعبير الفرد عن نفسه، والحرية الدينية، وحقوق الإنسان. وقد أعلنوا أن "من حق كل مواطن أن يمارس دينه وفقا لما يمليه عليه ضميره، وذلك على قدم المساواة مع غيره من جميع المواطنين وأنه لابد من احترام ذلك كأي حق آخر من الحقوق. لقد عبرت وثيقة ماديسون بوضوح عن نية فصل الدين عن الحكومة السياسية حيث إن التاريخ يقدم شواهد على الآثار السيئة التي تحدث حين تفعل هاتان القوتان فعلهما مع بعضهما البعض. كانت تلك محاولة لتجنب الأصولية الدينية، مع إدراك أنها ستهدم المثال الديموقراطي.

وقد ارتبطت جماعات دينية متباينة بإنشاء هذا البلد منذ بدايته. وجد خليط من الجماعات المسيحية مع أعضاء في طوائف سريَّة ممن اعتنقوا رؤية نظام عالمي جديد. وكان الكثير من الآباء المؤسسين ماسونيين(٥) (مثل بنيامين فرانكلين،

(٥) أول محفل ماسوني عرفناه تأسس في إنجلترا في عام ١٧١٧، على الرغم من وجود شواهد على وجود الماسونيين في القرن الرابع عشر، بل يعتقد البعض أن نشأتهم ترجع إلى مدارس الغموض المصرية. توجد مستويات عديدة للماسونية كما يصوره اسمها الذي يشير إلى الماسونيين على أنهم "البنائين". في الماسونية ٣٣ خطوة لتدشين العضو. الكثير من الماسونيين يلتحقون بالماسونية لمجرد الحصول على عضوية الجمعية الإخوانية، بينما يسعى آخرون إلى

وبول ريفير، وجون هانكوك) متأثرين برؤية السير فرانسيس بيكون لعالم جديد، *أرض الديموقراطية والحرية الموعودة* *(Hall, 1944/1972)*. ويبدو أن الرمزية (كالختم العظيم مثلاً) وجميع الوثائق التي أثرت في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية، كان مخططًا لها بعناية مع وضع صورة هذا النظام العالمي الجديد نصب أعين من أنشأوها. لكن الأمر كان يشوبه خطأ ما منذ البداية؛ *وبالتحديد أن هذه الحقوق وهذه الرؤية كانت تنطبق في الأساس على الذكر الأبيض الأنجلو ساكسوني*.

قوة الرموز ومشكلات الرأسمالية

للرموز قوة وتأثير نمطيان فطريان عظيمان. من أمثلة هذا القوة التي مارسها الصليب المعقوف (وهو أصلاً أحد رموز الفيدا) على الشعب الألماني أثناء الرايخ الثالث. درس هتلر كتابات فلسفة الباطن، وعرف أن الرمز يبعث القوة الموجودة في اللا وعي الجمعي للبشرية. واستخدم الرمزية للحصول على القوة لكي يخلق ما حكم عليه حكمًا مغلوطًا بأنه البشرية النقية. نرى في الأفلام القديمة هتلر وهو يتحدث وقد وضع رمز الرايخ الثالث مكبرًا تكبيرًا شديدًا خلفه بحيث يعلوه بالضبط. وقد أثرت قوة الرمز في لا وعي المحيطين به بقدر ما أثرت فيهم كلمات هتلر. لقد عرف أن الرمز يحدث العقل اللا واعي.

يختار القادة الرموز بنية ذات معنى. يظهر هذا في التصميم الذي اختير للختم الكبير للولايات المتحدة الأمريكية، الذي قدمه وليام بارتون في عام ١٧٨٢ *(Hall, 1988)*. كان تصميمه الأساسي فيه طائر ينهض من وسط اللهب (إشارة إلى العنقاء العتيقة التي تنهض من النيران التي تحولها إلى حياة جديدة). لم يقبل هذا

ما فيها من قوة وتأثير. كلما ارتقى الفرد في سلم المراتب الماسونية يزداد الطابع السرّي للخطوات وقوتها. كان جورج واشنطن ماسونيا معروفا باسم الساحر الأسود آليستير كراولي.

التصميم، واختير النسر بدلا منه. كتبت كتب وأبحاث كثيرة فيها وصف للكم الهائل من الرمزية في الختم الكبير، فقد اختيرت كل تفصيلة من تفاصيله بعناية لغرض معين. يتكرر الرقم ١٣ في بعض تفاصيل الختم. (على الرغم من وجود ثلاث عشرة مستعمرة في هذا الوقت يمثلها هذا الرقم، فإنه يمثل أيضا معنى صوفيا يضفى على الرقم). وتدل صيغته على العناية الإلهية المقدسة التي أججت الحماسة لإنشاء الأمة. وقد بثت فيه الرمزية الدينية، والغيبية، والماسونية. وحين نفحص الجانب الخلفي "للختم العظيم" المطبوع على ورقة عملة الدولار الواحد يظهر لنا أن التأثير الماسوني المستمر تحديدا أكثر من مجرد تخمين *(Hall, 1951)*. إن صورة الهرم مع العين الوحيدة التي ترى كل شيء، الموضوعة في أعلى نقطة من هذه العملة ترمز للاستنارة، وهي معروضة في المعابد الماسونية في طول العالم وعرضه. أما العين التي ترى كل شيء فهي رمز معروف في جميع أنحاء العالم يستخدمه الماسونيون الأحرار، مثلما هو حال "المكعبات" الماسونية الموجودة في الهرم[٦]. وقد صمم تشارلز والاس هذا الرمز الأخير وأقره فرانكلين د. روزفلت في عام ١٩٣٥، وكلاهما ماسوني من الدرجة الثانية والثلاثين[٧].

وجانبا الختم العظيم لهما أهمية كبيرة. إن بحثا سريعا في شبكة الإنترنت يكشف عن كمية هائلة من الأبحاث، والمناقشات، والخلاصات المتضاربة فيما يخص كل جانب من جوانب تشكيل الختم الكبير والقصد منه. نقرأ على أحد الجانبين عبارة ***E Plueribus Unum*** (ومعناها واحد من كثير)، ونقرأ على الوجه الآخر عبارة ***Novus Ordo Seclorum*** (نظام جديد للعصور)، التي تؤكد رؤية مجتمع مصمم على التأثير في مستقبل العالم. وفوق هذا التأكيد بنظام جديد (فوق العين التي ترى كل شيء) نقرأ عبارة ***Annuit coeptis***، وهي تأكيد على "أنه [الإله] راضٍ عن مساعينا". وهذه الرمزية تشكل خلفية الدافع القوي الذي يدفع

---

(٦) توجد أيضا نسخة من هيكل سليمان (الذي ناقشناه في الفصل الثالث) في المحافل الماسونية.

(٧) ***www.greatseal.com/levels/fdr1935.html***

أمريكا إلى النزعة التجارية، والثروة، والحق في البترول، وخطتها الحالية من أجل "قيادة العالم"(٨). وهي تمثل تأكيدا واعتقادًا بأن الله راضٍ عن جميع مساعي أمريكا وأنه يدعم موقفها في الانفراد بالقيادة. تصور هذه الرموز والعبارات المعلنة بوضوح الاعتقاد في أمة عليا، أمة ذات مصير واضح. باختصار، اختيرت كل صفة من صفات التصميم لتمثيل أيديولوجيا مقدر لها أن تمثل القوة العليا في العالم. هاهي فكرة *الشعب المختار* تظهر مرة أخرى.

والشعارات أيضا تخدم كرموز قوية على المستوى العملي. فالرئيس ريجان مثلا أشار إلى الاتحاد السوفييتي باسم "إمبراطورية الشر". وكثيرًا ما كان الرئيس جورج بوش يستخدم مصطلح "الشر" عند حديثه عن نظام حكم صدام حسين. وقد صك دافيد فورام (وهو أحد كاتبي أحاديث بوش) مصطلح "محور الشر" كما صك مصطلح "محور الكراهية"، ونسبه إلى أي نظام حكم يرعى الإرهاب، مثل العراق، وإيران، وكوريا الشمالية. وقد تغير المصطلح إلى "محور الشر" ليتماشى مع اللغة الدينية التي كان بوش يستخدمها بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. والتوسع في استخدام هذه العبارات يحدد "الطيب أو الشرير"، "والعدالة أو الشر"، و"نحن وهم" بطريقة خفية وإن كانت قوية، كما أن هذه الرموز تؤثر في اللا وعي وتشكل الاتجاهات. وهي أيضا تؤكد أن الطريقة الأمريكية مستقيمة والطرق الأخرى مضللة، ومغلوطة، أو أنها مجرد شر خالص.

قدرنا: عبء الرجل الأبيض

أول من صك مصطلح *قدرنا* هو جون ل. أوسوليفان في عام ١٨٤٥، ليشرح رؤية أمريكا وقوتها وهي تمتد من سواحل المحيط الأطلنطي إلى سواحل المحيط الهادي. وفي بحر ما يقل عن ٢٥٠ سنة بعد توقيع إعلان الاستقلال توسعت

(٨) *www.newamericancentury.org*

المستعمرات الثلاث عشرة الأولى حتى صارت أمة بأكملها. اعتقد الكثيرون أن العناية الإلهية هي التي قدرت هذا النمو (كما يرى في الختم العظيم) لكي يحكم الأرض وينشر فيها المسيحية، بينما رآه الآخرون توسعًا للأمة بحيث تتمكن الأعداد المتزايدة من الناس من استكشافها والمشاركة في ثرواتها. وأعلن أوسوليفان أن"... من حق قدرنا أن يبالغ في التوسع ويتملك القارة التي أعطتنا إياها العناية الإلهية بأكملها من أجل تطوير تجربة الحرية العظمى والتطوير الفيدرالي للحكم الذاتي الذي أوكل إلينا" *(Brinkley, 1995)*.

وقد صار هذا الدافع ومصطلح *قدرنا* "صيحة لجمع الشتات" ترددت في طول الأمة وعرضها[٩]. وقد داس الإنسان الأبيض العديد من أرواح الناس وانتزع منهم حياتهم لخدمته وخدمة قضيته. اختطف الأفارقة من بلدانهم التي نشأوا فيها وبيعوا في المستعمرات ليكونوا عبيدا؛ وذُبِحَ السكان الأصليون لأمريكا وأرغموا على النزوح إلى أراضٍ يعيشون فيها تحت التحفظ كالحيوانات؛ وقُتِلَ المكسيكيون وأرغموا على النزوح من الأراضي التي كانت لهم ذات يوم، وحين صارت العبودية غير قانونية، تلقى "الحمالون"[١٠] الصينيون وعودًا بالحصول على ثروات، وخدعوا ليأتوا إلى أمريكا ليستخدموا في الأعمال الخسيسة (مبدئيًا في بناء السكك الحديدية).

---

(٩) *Michael T. Lubragge. Manifest Destiny. The Philosophy that Created A Nation.*
http://odur.let.rug.nl/~usa/E/manifest/manif1.htm
أنشأت جماعة من طلبة كلية الآداب بجامعة كرونينجن ***Croningen*** في هولندا في عام ١٩٩٤ تحت إشراف جورج م. ويلينج ***George M. Welling*** موقعا من مواقع الإنترنت خصصوه لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية فيما قبل الحرب العالمية الأولى.
http://odur.let.rug.nl/~usa
في هذا الموقع تاريخ موثق بشكل جيد لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وقدرنا.

(١٠) استخدم لفظ "حمَّال" للدلالة على المهاجرين الصينيين الذين جلبوا إلى أمريكا ليباشروا الأعمال الشاقة (في فترة الاندفاع للبحث عن الذهب وبناء السكك الحديدية). وكانوا يتعرضون للاحتقار، وكثيرًا ما يتعرضون للضرب، والسخرية، وتدفع لهم أقل أجور ممكنة. وقد انتاب العنصريين الأمريكيين القلق من كثرة أعداد العمال الصينيين وغيرهم من العمالة الآسيوية، واحتجوا لدى الحكومة الأمريكية، التي أنهت هجرة الصينيين إليها في عام ١٨٨٢.

ويعرف هذا البيان أيضا باسم "العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض"، وهو عبء يدعمه الاعتقاد بعلو مكانة الرجل الأبيض وديانته المسيحية، والذي كانت مهمته أن يقود سكان العالم الآخرين الأدنى منه وينقذهم من الجهل و الظلام. بُني هذا المصطلح وتلك الفلسفة على قصيدة العبء *الملقى على عاتق الرجل الأبيض* لروديارد كيبلينج[١١]. بررت هذه القصيدة العنف ضد *الآخر* وإساءة معاملته (لأن النتيجة النهائية يفترض أن تكون في صالح الضحية).

قدم قدرنا أيضا مبررا لسياسة أمريكا الخارجية، المعروفة بسياسة التوسع والإمبريالية. وبعض الأمريكيين الذين دعموا سياسة التوسع برروا وجهات نظرهم أيضا بنظرية الداروينية الاجتماعية. وقد وصف الفيلسوف وعالم الاجتماع البريطاني هربرت سبنسر في عام ١٨٩٣ الطريقة التي ناضلت بها الأمم من أجل البقاء على قيد الحياة. اعتقد سبنسر أن المجتمعات المتقدمة قد ازدهرت بينما انقرضت الثقافات غير المتقدمة. وبنص كلماته "ومن ثم، يرغم النظام الطبيعي الأمم القوية المتمدينة على الاستحواذ على الموارد المحدودة للضعفاء" *(McGrarth, 2003, p. 5)*. وهكذا خدمت حجة سبنسر التوسع كأساس أيديولوجي له.

وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كان الاقتصاد الصناعي المتنامي للولايات المتحدة الأمريكية ينتج سلعًا تفوق قدرة الأمة على استهلاكها. وبحثت الولايات المتحدة الأمريكية عن سُبل لتأمين مستقبلها الاقتصادي من خلال سياسة التوسع. لقد احتاجت إلى أسواق جديدة من أجل نموها الصناعي الغزير. وواجهت الأمم الأوروبية (مثل إنجلترا، وإسبانيا، وفرنسا، وروسيا، والبرتغال، وألمانيا وبلجيكا) نفس هذه المسألة، وحلتها بادعاء ملكيتها لأراضٍ في آسيا وإفريقيا واحتلالها إياها. وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية في اتباع نفس السبيل.

---

(١١) ***http://odur.let.rug.nl/~usa/E/manifest/manif5.htm***

لم تكن رؤية القوة والتوسع مفهومًا جديدًا، لأن الإمبراطورية الرومانية امتدت منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة في ثلاث قارات، وتملكت ما يزيد على خمس سكان الكرة الأرضية. كانت الولايات المتحدة الأمريكية مختلفة عن ذلك في أنها اعتقدت أن "العناية الإلهية" تقود خطواتها وأن الإله أعطاها هذا الحق في سلب أراضي الآخرين وتحويل أهليا إلى ضحايا. وهنا تتضافر الفكرة الداروينية "البقاء للأصلح" مع الحماسة الدينية وفكرة القلة المختارة. وقد اعتقدت الولايات المتحدة الأمريكية أن موقعها حق لها أنعمت عليها به مؤسستها المسيحية. وكان الاعتقاد الكامن خلف كل هذا أن العالم سيتبوأ مكانه الصحيح لو أن جميع سكانه تحولوا إلى المسيحية الغربية. وتلك هي النقطة التي ظل عندها الدين والسياسة في كتيبة واحدة منذ بدء تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من زعمها على الورق بفصل الكنيسة عن الدولة. وهاهو الأمر واضح لكل ذي عينين في حكومتنا الحالية حيث تسللت معتقدات اليمين الديني وحركاته إلى حكومتنا وانتشرت فيها. فمثلاً، في المؤتمر الذي عقد حديثا لأعضاء اليمين الديني، قال قائد الأغلبية السابق في مجلس النواب توم ديلاي عن مبادرات بوش القائمة على الإيمان "إنها فرصة عظيمة لإعادة الإله إلى المؤسسات العامة في بلدنا" (علما بأن توم ديلاي أقيل من منصبه بسبب اتهامه بالتآمر لصب التمويلات المؤسسية في مجرى الحملات السياسية للدولة). افتتح المؤتمر السياسي برؤية منقحة لقسم الولاء "أقسم بالولاء للراية المسيحية، وللمُخلِّص الذي ترمز هذه الراية لملكوته. مُخلِّص واحد، صُلِب، وقام من بين الأموات وهو عائد مرة أخرى، بالحياة والحرية لجميع المؤمنين".

وللحركة أيضًا جداول أعمال تمكّنها من أن تجحف بحقوق النساء باقتدار. علينا أيضًا أن نضع في اعتبارنا الدور المؤثر الذي لعبه الدين والسياسة في الإساءة إلى الأنثى واحتقارها، لأن هذه الممارسات جلبت أيضًا إلى الأرض الجديدة.

نضالات النساء من أجل المساواة في الحقوق

اتبعت المستعمرات القانون البريطاني فيما يخص حقوق النساء في الملكية. وبالاختصار، وقع حق النساء في تملك الممتلكات تحت تحكم أزواجهن. كانت هناك متطلبات مفروضة قانونًا في فترة الاتفاق على الخطوبة والزواج، تؤكد أن أي انفصال للملكية يقع تحت تحكم الرجل. والحق أنه:

> **أثناء التاريخ المبكر للولايات المتحدة الأمريكية، كان الرجل يمتلك زوجته وأطفاله بحكم الأمر الواقع كما يمتلك ممتلكاته المادية. وإذا اختار رجل فقير أن يرسل أطفاله إلى مأوى الفقراء، كانت الأمهات قانونًا بلا حول ولا قوة بخصوص الأمر، ولا يمكنهن الدفاع عن أنفسهن وأطفالهن. لكن بعض المجتمعات المحلية عدّلت القانون العام لتسمح للنساء بالعمل في مهنة المحاماة أمام المحاكم، لرفع القضايا التي تخص التملك، والسماح لهن بتملك الممتلكات بأسمائهن إذا وافق أزواجهن. ومنحت الولايات النساء تدريجيًا حقوقًا محدودة في الملكية. وبحلول عام ١٩٠٠ كانت جميع الولايات قد منحت النساء المتزوجات حقًّا معتبرًا في التحكم في ممتلكاتهن[١٢].**

والحق إن النساء لم يسمح لهن بإملاء إرادتهن حتى عام ١٨٣٩، حين وضعت ولاية المسيسيبي قانونًا لمنح النساء حقوقًا محدودة في الملكية، كان بداية سلسلة من النجاحات، وهي جزء من نضال شاق طويل الأمد.

---

(١٢) مقتبس من موسوعة *Compton's Interactive Encyclopedia* (١٩٩٤-١٩٩٥)، منشورة على موقع:
http://www.wic.org/misc/history.htm

رأت لوسي ستون، ولوكريشيا موت، وسوجورنر تروث، وهارييت توبمان، وإليزابيث كادي ستانتون، وسوزان ب. أنتوني، وغيرهن من النسويّات، علاقة تربط بين حقوق النساء والسود. وقد سمح تحرير العبيد للحركة النسوية بالتطور، بغض النظر عن استمرار التفسير الأبوي لإرادة الإله في تقويض المساواة. لقد عملت هؤلاء النساء من أجل حقوق النساء والسود على قدم المساواة. وقد مثّلن المُثُل الحقيقية للحكومة الديموقراطية، بالسماح بالحرية للجميع. فمثلاً، صدر إعلان في يوليو ١٨٤٨ يقوم على أساس إعلان الاستقلال. وقد كتبت مؤلفته إليزابيث كادي ستانتون أن "النساء والرجال قد خلقوا سواسية"، مع ملاحظة كيف "أن تاريخ البشرية تاريخ للإصابات واغتصاب الحقوق التي أوقعها الرجال بالنساء" (المرجع السابق). وأدى هذا إلى وضع قائمة طويلة من القرارات التي تتناول مسائل مثل القوانين المنصفة، وتكافؤ فرص التعليم والعمل، والحق في الاقتراع.

كان حق النساء في الاختيار من أكبر التناقضات في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن حق الإجهاض لا يجب أن يؤخذ باستخفاف، فإن القواعد التي يضعها الرجال يمكن أن تجحف بحقوق النساء في نفس الوقت. بعد أقل من شهر من تعيين صمويل إليوت في دار القضاء العالي، مررت داكوتا الجنوبية عن طريق الضغط إجراء في محاولة جعل الإجهاض غير قانوني وأسقطت الحكم الصادر في عام ١٩٧٣ والمعروف بحكم رو ضد وايد. إن الحق الديني للأصوليين يسير قدمًا في جدول أعماله؛ من ثم يجب ألا تدع النساء هذه التحديات تمنعهن من التحكم في أجسادهن، وهي خطوة لازمة في النضال من أجل المساواة بين الرجال والنساء.

ومع استمرار النساء في تقلد المناصب القيادية في الحكومة، والمؤسسات الدينية، والجماعة، سيمكنهن تقديم التوازن اللازم مع رؤية أصح للعالم أكثر مما تقدمه الحركة الحالية نحو العولمة. قد تصدّ هذه التطورات المد التدميري المواكب

لسعي النسق الأبوي نحو القوة العليا وهو يلفظ آخر أنفاسه، كما تدل على ذلك سياسات الولايات المتحدة الأمريكية التي تدعم النظام العالمي الجديد(١٣).

نظام عالمي جديد

العولمة، وتسييد التجارة، والجشع

أنشئ مشروع القرن الأمريكي الجديد رسميًا في عام ١٩٩٧ عن طريق مركز أبحاث بدافع اتجاه النية نحو القيادة العالمية. وقد ركز هذا المركز تركيزا كبيرًا على الحفاظ على "التأثير الأمريكي في جميع أنحاء العالم" و تشكيل "قرن جديد مواتٍ للمبادئ والمصالح الأمريكية" وأولى ذلك اهتمامًا كبيرًا(١٤). وقد روج هذا المشروع لاستخدام القوة المسلحة لحماية علو شأن أمريكا على الجميع، وحمايته من أي تهديد أو تحديات. وقد أيد مشروع القرن الأمريكي الجديد "قوة عسكرية قوية ومستعدة لمقابلة التحديات الحالية والمستقبلية؛ وسياسة خارجية تروِّج بشجاعة وعن قصد للمبادئ الأمريكية في الخارج؛ وقيادة وطنية تقبل المسئوليات الملقاة على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية في عصر العولمة" (المرجع السابق). وقد حددت جداول أعمال المشروع بشكل واضح: "زيادة الإنفاق على الدفاع بقدر كبير ... وتحديث قواتنا المسلحة ... وتقوية روابطنا مع حلفائنا الديموقراطيين ... وتحدى نظم الحكم الكارهة لمصالحنا وقيمنا ... والترويج في الخارج لقضية الحرية السياسية والاقتصادية ... وقبول مسئولية أمريكا عن دورها الفريد في حفظ نظام دولي صديق لأمننا، ورفاهيتنا، ومبادئنا والتوسع فيه" (المرجع السابق).

---

(١٣) من الإنصاف أن نقول إن الكثير من الرجال التقدميين لا يؤيدون هذا الموقف السائد، وإن النساء من جهة أخرى، وبعض السود، وبعض الأقليات الأخرى يتفقون للأسف مع الموقف الأبوي السائد.

(١٤) *http://www.newamericancentury.org/statementofprinciples.htm*

وقد كان تصعيد الحرب في الشرق الأوسط جزءا من الخطة الاستراتيجية التي وضعها مشروع القرن الأمريكي الجديد. أنشأ المحافظون الجدد روبرت كاجان ووليام كريستول مشروع القرن الأمريكي الجديد، ومعهم الأعضاء المشهورون ديك تشيني، ورونالد رامسفيلد، وبول ولفويتز (الذي يرأس الآن منظمة البنك الدولي)، وجون بولتون (الذي عين سفيرا للولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة) ودوف زاخيم (الذي أقسم بعد ذلك اليمين كمساعد لوزير الدفاع، ومراقب للحسابات، والمسئول المالي الرئيسي عن وزارة الدفاع في مايو ٢٠٠١). وقد صدرت الصياغة الكتابية لأهدافهم في وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٩٧. وقد تغير العالم بأسره منذ ذلك الوقت. لكنَّ الأمريكيين اقتيدوا للاقتناع بأن أحداث ١١ سبتمبر هي التي أدت إلى حدوث جميع هذه التغيرات الكبيرة.

لقد تشوَّه مثال الديموقراطية. فبينما قصد أن تكون *الديموقراطية* شكلاً من أشكال الحكومات تكون فيها "القوة العليا مملوكة للشعب الذي يمارسها مباشرة أو من خلال وكلائه المنتخبين بموجب نظام انتخاب حر" ***(Webster, 1989, p. 384)*** غصبت الاستراتيجيات العالمية لمشروع القرن الأمريكي الجديد الأمم الأخرى (كالعراق مثلا) على الأخذ بمفهومها للديموقراطية الأمريكية. هذه السياسة تحيطها الكثير من الشكوك، إذا سلمنا بطبيعة الديموقراطية وتعريفها. ومن الواضح أن مشروع القرن الأمريكي الجديد قد أخذ اتجاها يقول بأن العراق وغيرها من الأمم العربية ستكره *دور أمريكا الفريد* في السياسات العالمية؛ ومن ثم وُضعت خطط لضمان السيادة على الشرق الأوسط والتحكم فيه. إن مخزوننا من البترول على وشك النفاذ، الأمر الذي يلعب دورًا في السياسة العالمية. وقد وصف كيفين فيليبس (وهو من واضعي الاستراتيجية السابقين بالبيت الأبيض) التقارير الحكومية عن احتياجات الولايات المتحدة الأمريكية من البترول مقارنة باستهلاكها له في كتابه *الأرستقراطية، والثروة وسياسات الخداع في بيت بوش* ***Aristocracy, Fortune and the Politics of Deceit in the House of Bush***، كما نقل لنا في هذا الكتاب كيف أن قوة العمل التي كونها ديك تشيني قد :

> توقعت أن الإنتاج المحلي من البترول سيتناقص بنسبة ١٢% بحلول عام ٢٠٢٠، مما سيدفع الولايات المتحدة الأمريكية لاستيراد ثلثي بترولها بالكامل. وسيستمر المؤشر في التأرجح نحو الشرق الأوسط، حيث يتوقع أن يقدم منتجو الخليج وحدهم ٥٤ إلى *٦٧ من صادرات البترول العالمية في عام ٢٠٢٠ احتلت المملكة العربية السعودية المرتبة الأولى بمخزونها المؤكد الذي يبلغ ٢٦٢ مليار برميل، يليها العراق في المرتبة الثانية بمخزون يقدر بـــ ١٢٠ مليار برميل ... حقا، لقد أسهم تشيني بالفعل ومعه لويس ليبي، رئيس طاقم عمله في كتابة مسودات ٢٠٠٠ تقرير لمشروع القرن الأمريكي الجديد دعت إلى تولي إدارة أمور العراق – وقد حدث هذا قبل أحداث ١١ سبتمبر بفترة – كجزء من السلام الأمريكي الذي يشغل عقله بالبترول (Phillips, 2004, p. 255).

والولايات المتحدة الأمريكية في نظر مشروع القرن الأمريكي الجديد وخطته مقدر لها أن تكون فوق كل لوم. فقد تجاهل هذا المشروع مبدأ التفقد والتوازنات، ولم يسمح بالخلافات، وغالبا ما يشار إلى من يجرؤون على إبداء أي اختلاف باسم *الخونة*. وهذا بالتأكيد أحد أمثلة النسق *المغلق*.

وقد تطور الاعتقاد الكامن خلف قدرنا إلى بناء إمبراطورية –رؤية للتسيُّد على العالم– مصحوبًا بفكرة مؤداها أن هذا الإنجاز سيتم "لمصلحة الجميع". وقد وضعت خطط خلف الأبواب المغلقة (وهو أمر فيه تناقض غريب مع المُثُل الديموقراطية).

(*) غالبًا ما تقصد الفقرة بهذه الأرقام نسبًا مئوية، وإن كانت علامة النسبة المئوية (%) لم تظهر في النص الأصلي المكتوب باللغة الإنجليزية (المترجمة).

وقد هاجمت القاعدة مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ودمرته، وفتحت الباب أمام مشروع القرن الأمريكي الجديد لتحقيق هدفه في الزيادة الهائلة في الإنفاق على الدفاع وتضخيم القوات العسكرية "من أجل تأمين سلامتنا". أما الباقي ففي ذمة التاريخ. انتقلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى أفغانستان. واستولت على العراق بالتحالف مع حلفائها (أساسًا بريطانيا وإسبانيا)، وهي تهدد إيران وسوريا. وقد أصاب العطب العلاقات مع فرنسا وألمانيا وروسيا بسبب عدم موافقتهم على القرار الذي أخذ من جانب واحد بمهاجمة العراق. (ولا شك أن قادة الأمم الأخرى يعرفون أيضًا جدول أعمال مشروع القرن الأمريكي الجديد). لكن نادرا ما يناقش جدول أعمال مشروع القرن الأمريكي الجديد (هذا إذا نوقش أصلاً) سواء باختصار أو بإسهاب في البرامج الإخبارية التي تبثها وسائل الإعلام.

وقد استقال بول أونيل وزير المالية الأمريكي السابق من منصبه ردًا على سياسات السرّية والخداع في نظام حكم بوش، علمًا بأن "بول أونيل قد شغل أيضًا منصب أعلى مسئول اقتصادي في الإدارة الأمريكية لمدة عامين، ورأس مجلس الأمن القومي، وكان معلمًا للرئيس الجديد" *(Suskind, 2004, jacket)*. وبعد أن غادر أونيل منصبه، أصر على الحصول على نسخ من جميع الوثائق المرتبطة به وبمنصبه (وعددها يصل إلى تسعة عشر ألف وثيقة). ولأنه مجبول على احترام الصراحة، والأمانة، وكشف الأسرار فقد سلم تلك الوثائق إلى رون زوسكيند، المراسل السابق لوول ستريت جورنال، وهو من قدامى مراسليها المختصين بالشئون القومية، بنية إعلام عامة الشعب بسياسات نظام حكم بوش. ونتج عن هذا تأليف كتاب *ثمن الإخلاص: جورج دبليو بوش، والبيت الأبيض، وتعليم بول أونيل* ***The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul ÒNeill***، كما ظهرت عنه مقالات في الصحف، واستضافات في برامج التوك شو التليفزيونية. لكن يبدو أن قلة من الأمريكيين الذين يشغلون مناصب مؤثرة هي التي اهتمت اهتماما جادا بالسرية والخداع. وسرعان ما انتقل

اهتمام مقدمي البرامج الإخبارية إلى موضوعات جديدة، وصارت القضايا الخطيرة مجرد ذكريات ترد على الخاطر. وقد صار الكثير الجمُّ من المواطنين مطيعين، غير راغبين في مواجهة الحقائق الواضحة كعين الشمس. فقد اكتفى الكثيرون بمجرد تجاهل الخداع، وتغييب مُثُلنا الديموقراطية والحرية في ثنايا ظلال الأقدار المحتومة.

من أحد مؤسسي مشروع القرن الأمريكي الجديد روبرت كاجان، وقد أعلن أن أوروبا قد صارت أكثر ليونة (ضعيفة وقليلة الحيلة في العدوان). ودعم الحجة القائلة بأن "الأمريكيين [كان] لديهم من القوة ما يكفيهم عناء الخوف من الأوروبيين... وأن أوروبا [لم تكن] قادرة حقًّا على كبح جماح الولايات المتحدة الأمريكية" وأنه منذ أن تشاركنا في معتقدات واحدة صار من مصلحتنا أن نجلب دعمًا أوروبيًّا ***(Kagan, 2003, p. 102)***. كان التحرك نحو النظام العالمي الجديد في أوجه، حين أذاعت السي إن إن وغيرها من المحطات الإخبارية خطاب جورج بوش الذي يطمئن فيه الجماهير على أن الولايات المتحدة الأمريكية ستحمي نفسها وتخلص العالم من الإرهاب إذا ساندوا جدول أعمالها. ومن ثم، فجميع تصرفات الولايات المتحدة الأمريكية مبررة، باعتبار هذه النوايا التي أعلنها بوش. وزرعت فكرة تحويل الأمم العربية التي تقودها أنظمة *شريرة* إلى الديموقراطية، ومن ثم تحرير الشعوب العربية. وكان هذا يعني ضمنًا أن رمي الشعب العربي بالقنابل العنقودية وقصفه بغيرها من أسلحة الدمار أثناء حملة *الصدمة والخشوع أمام الهيبة* كان لابد أن تعتبر أفعالاً رحيمة. وهذه الفكرة تدعم المعتقد الذي يكمن خلفها بأن هذه الطريقة لم تكن إلا مهمة أخرى من مهام "العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض".

إن هذا الاعتقاد بعظمة النمط الأنجلو الساكسوني للولايات المتحدة الأمريكية قد جلب على جميع أنحاء العالم الكثير من الظلم الموجع. وفي فترة أحدث، كشفت الرياح العنيفة لإعصار كاترينا عن وجود نواحي فشل مهولة في نموذج الولايات

المتحدة الأمريكية؛ حيث فشلت الحكومة في الوفاء بحركة "عبئها" المتخيل حتى تماميا، حيث إنها سرعان ما أنقذت البيض من الفيضانات والدمار بينما تركت معظم السود ليدفعوها عن أنفسهم بقدراتهم الذاتية. هل توجد ديموقراطية حقاً؟

إن سؤال الديموقراطية سؤال وجيه إذا أخذنا تعريفها في الاعتبار، ألا وهو: إنها شكل من أشكال الحكومة تستثمر فيه القوة في شعبها. بأخذ هذا التفسير في الاعتبار، نجد أن الشكوك تحيط بهدف إعادة صنع النمط الحالي من الديموقراطية الأمريكية في الأمم العربية *وغصبها* على ذلك. إن نمط الديموقراطية الذي تأخذ به الولايات المتحدة الأمريكية قد لا يناسب نماذج ثقافية أخرى، ومن الواضح أن التنوع والهوية الثقافية لا علاقة لهما بجدول أعمال مشروع القرن الأمريكي الجديد. كما أن أهل الشرق الأوسط أكّدوا –وهم على حق في ذلك– أن هذه الأمم "الديموقراطية" حديثة التشكل ستتحكم فيها في الواقع مراكز القوى الأمريكية الفائقة ومصالحها الاقتصادية. لقد انكشفت أشكال نفاقنا بوضوح.

صدام الحضارات

تنبأ صمويل هنتنجتون أستاذ العلوم السياسية بصدام الحضارات وأعلن أن "صدام الحضارات أخطر ما يهدد السلام العالمي، والنظام العالمي القائم على أساس الحضارات أضمن حماية ضد حرب عالمية" ***(Huntintgron, 1997, p. 13)***. كما لاحظ هنتنجتون أن حضارات الغرب (الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في المقام الأول) أول حضارات لها مصالح مالية، واقتصاديات، وقوة تؤثر في جميع الحضارات الأخرى. أما معظم الأمم الأخرى فتعتمد حياتها في السوق العالمي على المعونات التي تأتيها من الأنظمة المالية الغربية لأنها "تمتلك النظام البنكي الدولي وتديره ... وتقدم معظم سلع العالم في شكلها النهائي ... وتسود السوق الرأسمالية الدولية ... وتتولى القيادة المعنوية في الكثير من المجتمعات بقدر

معتبر... وتتحكم في خطوط الملاحة البحرية ... ولها مدخل إلى الفضاء ... وصناعة الطيران والفضاء... والاتصالات الدولية ... وصناعة الأسلحة ذات التقنية العالية" *(Huntington, 1997, p. 81-82)*. وقد لاحظ هنتنجتون أن الغرب قد حافظ على استمرارية قوته بحكم أولوية تمكنه من هذه القوة، وذلك بتعريف مصالحه بأنها رفاهية المجتمع *العالمي* وأمنه.

وفي نفس الوقت، كانت قناة السي إن إن وغيرها من وسائل الإعلام الإخبارية تذيع تقارير عن كيف كانت غنائم الحرب تقسَّم، حيث منحت الشركات الكبيرة قطعة من الفطيرة العراقية *وفرصة* لإعادة بناء العراق التي مزقتها الحرب. ونحن الآن *نحتل* العراق (تعريف *الاحتلال* أنه "وضع اليد على منطقة ما بالقوة العسكرية والتحكم فيها") *(Webster, 1989, p. 996)*. ولم يقلل النظام العراقي الذي خلقته أمريكا من الوجود الأمريكي بشكل واقعي. فلا عجب أن يفقد الكثير من العراقيين إيمانهم بالحكومة الأمريكية. لقد قيل لهم في البداية إن الولايات المتحدة الأمريكية قد أتت لتحريرهم من النظام الشرير لصدام حسين؛ بينما سرعان ما عرف الشعب العراقي أن الولايات المتحدة الأمريكية قد حازت التحكم في موارد العراق، وبذلك فهي تحتل بلدهم. (كما أدى التفسخ المستمر إلى إشعال لهيب العداوة القديمة بين الشيعة والسنة، مما أدى إلى العديد من الوفيات بين المدنيين بشكل يومي).

وقد كانت أطراف غير غربية (لكنهم أعضاء في هذا المجتمع العالمي) يلاحظون هذا النفاق الصارخ، حيث لم تحترم القوة الغربية المهيمنة المعايير الثقافية والمعتقدات الدينية للعراقيين، ونهبت مواردهم وتحكمت في أراضيهم. يصف الغلاف الخلفي لكتاب *الجهاد مقابل عالم ماك* ***Jihad vs. McWorld*** بوضوح نتائج شكل من أشكال الرأسمالية الجامحة وصدامها مع غيرها من الحضارات.

> **يقدم بنيامين ر. باربار، أستاذ العلوم السياسية تحليلاً**
> **ثاقبًا للصراع المركزي في زمننا الحالي، ألا وهو الرأسمالية**

الاستهلاكية مقابل الأصولية الدينية والقبلية. إن هذه القوى المتعارضة تقف على طرفي نقيض، لكنها متضافرة، وهي تمزق العالم الذي نعرفه إربا، لكنها تجمع شمله، وتقوض الديموقراطية والدولة القومية التي يقوم عليها هذا العالم. ومن جهة أخرى، فالرأسمالية على المستوى الكوكبي تذيب الحواجز الاجتماعية والاقتصادية بين الأمم بسرعة، فتحول بذلك سكان العالم على اختلافهم إلى سوق واحد متجانس بنعومة. ومن جهة أخرى، تفتت أشكال الكراهية العرقية، والدينية والعنصرية المشهد السياسي إلى وحدات قبلية أصغر فأصغر (Barber, 1995/2001, back cover).

وأوضح باربار أنه:

لا سياسات السلع ولا سياسات الاستياء تعد بالحرية الحقيقية؛ وقد نتج عن التفاعل الجدلي بين الجهاد مقابل عالم ماك مزيج -فلنسمه تسليع الاستياء- لا يعد إلا بعبودية خفية جديدة (المرجع السابق ص ٢١٩).

وقد كتب باربار مقدمة جديدة لطبعة أحدث من هذا الكتاب في عام ٢٠٠١ لاحظ فيها أن القاعدة قد ضربت:

معبد الاستثمار الحر في مدينة نيويورك وكاتدرائية القوة العسكرية الأمريكية في واشنطن العاصمة، وذلك بهدمها للبرجين التوأمين لمركز التجارة العالمية وتدمير قسم من مبنى البنتاجون بقنابل بشرية أعدت بتدبير شيطاني.

يرى باربار أن هذين الخيارين المحوريين مرعبان ومدمِّران. يؤدي الاتجاه الأول إلى عالم مكون من دول قومية (أو قبائل) عديدة منخرطة في عراك دامٍ. أما الاتجاه الثاني فيؤكد القوة الاقتصادية الكوكبية، وبذلك يخلق وحدة متجانسة ويقوض الأرباح الفردية.

ويعتقد الاقتصادي الشهير جوزيف إ. ستيجليتز (الذي حاز تكريم نوبل، وهو رئيس اقتصاديي البنك الدولي) أن العولمة يمكن أن تكون قوة تعمل لصالح العالم وأن لديها القدرة على مساعدة الثقافات الفقيرة اقتصاديًا وتغيير حياة الشعوب الفقيرة (إذا تم التعامل معها بذكاء وبطريقة أخلاقية). ولاحظ أن خطة صندوق النقد الدولي لمساعدة الإثيوبيين وغيرهم من الأمم الفقيرة قد فشلت، وأن خطط صندوق النقد الدولي لم تفد الآخرين كما كان مأمولاً لأن "التأثير الخالص للسياسات التي وضعت بناء على إجماع واشنطن غالبًا ما كانت تفيد القلَّة على حساب الكثرة، والقادرين على حساب الفقراء" وأنه "في الكثير من الحالات تغلبت المصالح والقيم التجارية على الاهتمام بالبيئة، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية" *(Stiglitz, 2002, p. 20)*. وفي نفس الوقت، وضع بول وولفويتز، وهو أحد أعضاء مشروع القرن الأمريكي الجديد على رأس البنك الدولي. ولا يسعنا إلاَّ أن نتعجب مما قد يكون قد أصاب المثال الأمريكي مع وجود جون روبرتس وصمويل آليتو على رأس المحكمة العليا، حيث يبدو أن جميع من عيَّنهم بوش قد صاروا من كبار اللاعبين في هذه الحركة (إما بسبب انتمائهم للأصولية المسيحية، أو للكيانات الضخمة، أو لمراكز الأبحاث والتفكير لليمين المتطرف).

لقد ظل نعوم تشومسكي، الناشط السياسي البارز على المستوى العالمي، يزدري السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية عبر العديد من السنوات، مشيرا إلى أنها تقوض الديموقراطية، وتسحق حقوق الإنسان وتروج لمصالح القلة الثرية. تفترض الديموقراطية التي تقوم بوظائفها مسبقًا وجود فرص متساوية نسبيًّا للوصول إلى الموارد، وأن اتخاذ القرارات التي تمس العامة يجب أن يتم في

الساحة العامة. ويشير تشومسكي إلى أن "أكثر الطرق فاعلية لتكبيل الديموقراطية هو نقل مركز صنع القرار من الساحة العامة إلى المراكز التي لا يمكن محاسبتها، مثل: الملوك والأمراء، أو قسس الطوائف، أو الطغم العسكرية الحاكمة، أو ديكتاتوريات الأحزاب، أو الشركات الحديثة" *(Chomsky, 1999, p. 132)*.

لقد وضع مشروع القرن الأمريكي الجديد في عام ٢٠٠٠مشروع خطة "إعادة بناء القوى الدفاعية لأمريكا: الاستراتيجية، والقوات والموارد المطلوبة لقرن جديد"[١٥]. وقد حدد هذا المشروع أربع استراتيجيات بالاسم هي: "الدفاع عن الوطن الأمريكي؛ وشن *الحرب والتصميم على الفوز في ثلاث حروب كبرى تجري في وقت واحد* [التشديد للمؤلف]؛ وتأدية واجبات الحارس المرتبطة بتشكيل البيئة الأمنية في مناطق حرجة"؛ و" تحويل القوات الأمريكية من أجل إحداث ثورة في الشئون العسكرية". لو قام القارئ من جهته بشيء من البحث والدراسة لاكتشف جسامة رؤاهم. لقد اعترفت المجموعة أن خططها "للسيادة التامة" ستأخذ وقتا طويلا، ما لم تحدث كارثة مثل بيرل هاربور. من ثم، قدمت لهم أحداث ١١ سبتمبر الفرصة لتنفيذ خططهم بسرعة، والتحكم في العراق.

لا يوجد إلا بصيص ضئيل من أمل (ذلك إن وجد أمل أصلا) في السلام في الشرق الأوسط طالما ظلت هذه الأيديولوجيات مؤثرة في سياسات الولايات المتحدة الأمريكية (وسياسات إسرائيل). إن خطط مشروع القرن الأمريكي الجديد لاستمرار الحروب وإعادة تشكيل الشرق الأوسط المصحوبة بتعطش اليمين المسيحي المتطرف لمعركة هرمجدون أمر لا يبشر بخير. إن أي أمة ليست على وفاق مع جدول أعمال هذا المشروع مستهدفة للهجوم. إن هؤلاء المحافظين الجدد لا يهتمون بـ "الدمار متعدد الأطراف" (فقد الأمريكيين، أو اليهود، أو العرب لحياتهم)، لأن المثال والقضية أهم للنسق الأبوي من حياة الآدمي المتوسط، *أما بالنسبة للمرأة الصادقة، فالشخص هو القضية*.

---

(١٥) *http://www.newamericancentury.org/RebuildingAmericasDefenses.pdf*

تظهر فكرة الديموقراطية النبيلة في إعلان الاستقلال، والدستور الأمريكي، بل في خطاب مارتن لوثر كينج الابن "عندي حلم"، والمفكرون الحديثون يدرسون هذه الفكرة بعين التمحيص. نحن نشهد فجوات تزداد اتساعا بين الأغنياء والفقراء، وظهور هياكل قوة ضخمة للكيانات الكبيرة، وتدني معدلات الإدلاء بالأصوات في الانتخابات. يبدو أن الحلم والواقع يسيران في سبل منفصلة، ويبدو أن المجتمع الأمريكي يمر بحالة تبلُّد حسي. يلاحظ روبرت كابلان:

> **تبزغ قوة الكيانات الكبرى بمعدل أسرع من تحول الجماهير إلى اللا مبالاة واستحالة محاسبة النخبة. إن الممتلكات المادية لا تكتفي بجعل الناس يركزون على الخاص وتبعدهم عن الحياة المجتمعية بل تشجعهم أيضا على سلاسة الانقياد. كلما زادت الممتلكات التي يحوزها الشخص تزيد التنازلات التي يقدمها لحماية ممتلكاته (Goodland, 2001, p. 66).**

وهكذا تصير الديموقراطية المزعومة غير ذات موضوع بالنسبة للجماهير، ومن ثم تفقد قوتها كأداة من أجل التغيير الاجتماعي الإيجابي. والكثير من النشطاء الاجتماعيين، كنعوم تشومسكي ، وهوارد زِن ، وآروندااتي روي، وغيرهم ينقدون قوة الكيانات الكبرى والفساد السياسي نقدا لاذعا حيث إنهما كليهما يقوضان الديموقراطية وحقوق الإنسان. وتلاحظ سوزانا آروندااتي روي أن:

> **جميع المؤسسات "الديموقراطية" في هذا البلد قد أظهرت أنها غير قابلة للمحاسبة، وبعيدة المنال عن المواطن العادي، و أنها إمَّا غير راغبة في التصرف من أجل مصالح**

العدالة الاجتماعية الأصيلة، أو أنها غير قادرة على ذلك ... والآن تفرض العولمة التابعة للكيانات الكبرى بلا رحمة وبشكل متعسف على مجتمع إقطاعي بالأساس، فتمزق نسيجه الاجتماعي المركب البالي، وتمزقه إربًا ثقافيًا واقتصاديًا (Roy, 2003, p. 41).

لقد قدمت أمريكا نفسها للعالم كممثلة للديموقراطية، وعلى الرغم من فشلها، ما زالت العديد من الأمم تناضل لتتبعها كقدوة. وقد قادت أمريكا العالم كله إلى الفوضى نتيجة للفساد، والقوة، والجشع. هل سيستمر الأمريكيون في مساندة هذا الاتجاه التدميري القائم على أساس أيديولوجية تعسة، هي أيديولوجية العظمة الثقافية والادعاء بحقوق أعطاها لهم الرب؟ أم ما زال هناك وقت لإعادة تقييم القيم الإيجـابية المـوجودة فـي الديموقراطية الحقَّة؟ كيف نصل من الألف إلى الياء؟ ما الذي حدث للمُثُل التي أرسيت في دستورنا بخصوص ورطتنا الحالية؟ لقد بدأت هذه الأمة بمُثُل النسق *المفتوح* وقد أغلقت الآن أبوابها أمام السياسات التي تسمح بالحوار، والتفاوض، والأخلاقيات. نحتاج إلى العودة للمُثُل التي تمثل جذور الديموقراطية وممارساتها. نأمل أن يكون اختيار نانسي بيلوسي كأول امرأة في منصب المتحدثة باسم مجلس ممثلي الأغلبية الديموقراطي الذي انتخب حديثًا، تغيرًا نحو الاتجاه الإيجابي.

الخلاصة

ولدت الولايات المتحدة الأمريكية في خضم تمرد ضد القوى الإمبريالية، لكنها الآن، تحت نظام حكم العولمة، تتصرف كما لو كان لا حدود لهيمنتها. وكما يدَّعي مايكل هاردت وأنطونيو نيجري في كتابهما *الإمبراطورية* ***(Hardt Empier & Negri, 2002)***، حولت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها إلى أمة تملي على الآخرين ما تشاء بينما تزعم أنها في موقع يعلو على القانون الدولي. لقد اتخذت قرارا منفردا بقصف العراق بالقنابل واحتلالها، وقد تجاهل نظام حكم بوش في هذا القرار مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية واهتماماتها، وحلف الناتو الذي هو حليفها، والبابا وغيره من القادة الدينيين، والذين كرموا بجائزة نوبل، والكثير من جماعات مواطنيها ونشطائها الموجودين في جميع أنحاء العالم. لقد ألحق نظام بوش دمارا خطيرا بعلاقات الولايات المتحدة الأمريكية بغيرها من البلدان، اعتمادا في النهاية على التهديدات والوعود المالية بخصوص من سيدخل ضمن المستحقين في غنائم الحرب أثناء *إعادة إعمار العراق*. كما أن تهديدات البناء التي توجهها الولايات المتحدة الأمريكية لإيران قد تزيد من عزلنا عن المجتمع العالمي.

إن فكرة إرغام الأمم العربية على الديموقراطية فكرة باعثة على السخرية. لقد أشار هذا الفصل إلى أن نظام بوش ومشروعه الخاص بقرن أمريكي جديد من السيادة "التامة" على الكوكب يناقض تمامًا المُثُل التي أسس عليها هذا البلد. الكثير من أعضاء نظام بوش مسيحيون أصوليون يساندون الأفكار المسيحية–الصهيونية الراديكالية عن التحكم في الشرق الأوسط، وخاصة في أورشليم [القدس] (كما ناقشنا ذلك في الفصل الثالث). وهم منجرفون نحو معركة هرمجدون كوكبية لا علاقة لها إطلاقًا بالرب، ولا بالدين الحق، ولا بيسوع، ولها علاقة تامة بانعدام عقلانية المعتقدات الأصولية التي يتبعها الناس اتباعًا أعمى.

وقد قال جورج دبليو بوش في خطاب ألقاه أمام الأمة في ١٣ أبريل ٢٠٠٤ إننا "نغير العالم، وسيصير العالم مكانا أفضل بفضل ما نفعله". وقد كرر هذه التصريحات وتصريحات مماثلة طوال خطابه. وتوضح ادعاءات بوش بدقة هذا الاعتقاد الذي جبلت عليه أمريكا في قدرنا والأخذ بمهام "العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض"، وإن كان قد أسيء توجيهه. وقد امتزج هذا بمكيدة عسكرية هادفة *للسيادة التامة* (التحكم في العالم)[١٦]، ويمثل هذا المزيج موقفاً نحو تهديد المجتمع العالمي.

إن الإنسانية تتسابق نحو العولمة. ومن المحزن أن هذه الحركة تبدو مدفوعة بالقوة السياسية وجشع الكيانات الكبرى. لكن فرصة التعرف الحقيقي على الكثير من الشعوب الأخرى، والديانات، والأمم التي تشكل النظام العالمي الأوسع نطاقاً تقدم وعدا بعالم أكثر صحة واتحاداً، عالم نكون فيه أكثر من مجرد أجزاء مختلفة عن بعضها البعض وهادفة لمناهضة بعضها البعض. نعتقد أن هذا التغير النظامي يعتمد على حصول النساء على المساواة وقيادتهن له، لأن البحث قد أظهر أن النساء أقل استعدادا للتأثر بالقوى السياسية الفاسدة، بل يهتممن أكثر بالتعليم، وبالصحة، والرفاهية الاجتماعية، كما سنناقش بمزيد من التفصيل في الفصل السادس ***(Dollar et al., 1999)***.

تقدم الاتصالات الكوكبية فرصة حقيقية لاحترام الفوارق بيننا وبين بعضنا البعض ولأن ننخرط في نسق مفتوح يضمنا ونحترم فيه بعضنا البعض. ولكي نحقق هذه الغاية، من المهم أن نفهم الأحداث التاريخية والمعتقدات التي تشكل خلفية المعتقدات التي سمحت لانحرافات الدين والحكومة بوصم الآخرين بالعار، هم وأراضيهم، وممارساتهم الدينية. لقد بررت الإمبراطورية عبر التاريخ المسجل

---

(١٦) ***http://www.newamericancentury.org***
و ***http://www.dtic.mil/jointvision/***

جشعها حين تتسيد على الآخرين وتتحكم فيهم. وقد لاحظ المؤلف والناقد السياسي إدوراد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) أن:

جميع الإمبراطوريات - بما فيها الإمبراطورية الأمريكية- تقول لنفسها وللعالم دائمًا إنها لا تشبه الإمبراطوريات الأخرى، وإن لديها رسالة، وهي بالتأكيد ليست رسالة سلب وتحكم، بل رسالة لتعليم الشعوب والأماكن التي تحكمها وتحريرها بشكل مباشر أو غير مباشر. لكن الناس الذين يعيشون في هذه الأماكن لا يشاركونها هذه الأفكار، وكثيرًا ما تكون آراؤهم عكس ذلك(١٧).

وقد اندمج المفهوم الكلاسيكي للإمبريالية في غضون القرن الماضي في التكنولوجيا، والاقتصاد، والعولمة، والسياسة الحديثة. وقد كان العهد السابق من عهود الإمبريالية مزيجًا من السيادة الأوروبية والتوسع الرأسمالي، ولم ينته بعد؛ بل كل ما حدث أنه غيَّر مظهره. كما أننا ما زلنا نعاني من أثره المدمر كما يتضح من ردود الفعل المضادة للاستعمار الكولونيالي بين شعوب آسيا وإفريقيا. يعرف قاموس وبستر الاستعمار بأنه "سياسة أمة تسعى للتوسع أو الاحتفاظ بسلطتها على شعوب أو أراضٍ أخرى" ***(Webester, 1989, p. 291)*** ومازالت عملية الاستعمار تلك تنتشر كالطاعون، حتى على الرغم من اتخاذها لأسماء وأشكال أخرى.

---

(١٧) ***Al-Ahram weekly online: Issue 648. July 24-30, 2003. Cairo, Egypt***
http://weekly.ahram.org.eg/2003l648lop2.htm

لا يمكن الحصول على الحرية إلا إذا تحررت النساء من جميع أشكال القهر. ونحن جميعنا نعلن أن أهداف برامج تنمية [جنوب إفريقيا] وإعادة بنائها لم تكن لتتحقق ما لم نر بعين عملية أن أحوال النساء في بلدنا قد تغيرت تغيرًا جذريًا للأحسن، وأنهن قد حصلن على التمكين اللازم لهن ليتدخلن في جميع جوانب الحياة كشريكات مساويات لأي فرد آخر من أفراد المجتمع.

نيلسون مانديللا

٢٤ مايو ١٩٩٤

الفصل الخامس

الانشقاقات والصراعات العالمية
مزيد من حكايات السياسة والدين

تستمر الحكاية بينما نحن ندرس نتائج تسيُّد قوة معينة على شعوب أخرى وأراضٍ أخرى. يقدم الاستعمار الكولونيالي والاحتلال - حيث يعيش السكان الأصليون لأرض ما تحت حكم ثقيل لثقافة سائدة - مثالاً صارخًا على الآثار المدمرة للقوة والجشع. ومن المحزن أن هذه الفظائع مقبولة لدى من يرتكبونها من حيث إنهم يعتبرون أنفسهم أعظم ممن يحكمونهم.

ولسوء الحظ، صار هذا الفكر المتمركز حول العِرق اتجاهًا راسخًا داخل الحضارات الغربية نحو بقية العالم. تقدم علاقة الغرب بالشرق مثالاً على هذا. فعند "اكتشاف" البلدان الغربية للشرق، أدركت هذه البلدان أن الثقافة الشرقية أدنى من ثقافتهم. وقد استخدم إدوارد سعيد في مناقشته لهذا التحيز مصطلح "الاستشراق" ليوضح كيف شكل التمركز حول عِرق معين الهيكل الثقافي لاتجاهات الفكر الغربي نحو الأمم الشرقية. يعتقد سعيد أن الاستشراق شكَّل طريقة تعامل الغربيين مع أقربائنا الآسيويين "بإطلاق تصريحات عن الشرق، وإعطاء حجية للآراء التي تمسُّه، ووصفه، وإرسائه، والتحكم فيه؛ باختصار، الاستشراق كنمط غربي للسيادة على الشرق، وإعادة بنائه، وامتلاك سلطة عليه" (Said, 1995, p. 3).

يمكن أيضًا رؤية التفكير النمطي في تاريخ الأنثروبولوجيا نفسها، التي بدأت بدراسة الثقافات التي افترض أنها ثقافات أقوام "بدائيين"، و"متوحشين" و"غير

متحضرين"، أو أنهم يجمعون بين بعض هذه الصفات أو كلها. لم يتمكن الباحثون الأوائل من رؤية هذا التحيز الثقافي الخفي. بعبارة أخرى، أكدت الأنثروبولوجيا في بداية نشأتها على منظور ذي خط واحد للتطور يقوم على أساس أفكار عظمة الحضارة الأوروبية، ومن ثم اعتبار الثقافات الأخرى في مراحل أدنى في سلم التطور. اقترح بعض علماء الأنثروبولوجيا، مثل فرانز بواس منظورًا أوسع للنظر إلى الثقافات. أشار هؤلاء الأنثروبولوجيون الجدد إلى نسبية الثقافات. فلا يجب الحكم على أي ثقافة بأنها أعلى من ثقافة أخرى، حيث إنه يجب الحكم على كل ثقافة على حدة وفقًا لنسق القيم الذي تأخذ به. وقد وجد الأنثروبولوجيون الآن أن الغطرسة تترعرع في ظل افتراض وجود معيار ثقافي مطلق، وكان من عواقب ذلك جلب الآلام والمعاناة على تلك الثقافات التي تختلف عن الثقافة السائدة.

وعلى الرغم من تأكيد الأنثروبولوجيا الأكاديمية على احترام الثقافات، فإن النظم المتمتعة بالقوة استمرت في فرض معاييرها الثقافية على الأطراف الأضعف منها. وقد وقفت هذه الظاهرة خلف الصراعات القديمة والأحدث منها في جميع أنحاء كوكب الأرض. والصراعات السياسية في آسيا، وإفريقيا، والشرق الأوسط تضرب بجذورها في أرض هذه المداخل التي تأخذ بالتمحور حول عِرق معين-كما سنوضح فيما بعد. وقد أدت هذه الصراعات إلى انفجار المشكلات الاقتصادية والاجتماعية. وقد خلقت الحكومات الأقوى ثقافات مختلفة متعددة حين فرضت نموذج العالم الحديث كما تراه على من تستعمرهم، وتجاهلت أساليبهم الثقافية. وأدى التشوش الناتج عن ذلك إلى استمرار حدوث العنف.

وكما ذكرنا في الفصل الرابع، يكرر النظام السياسي الأمريكي بقيادة جورج دبليو بوش نفس الأخطاء التي ارتكبها الاستعمار الكولونيالي في القرن التاسع عشر؛ وذلك بإرغام العالم العربي على الأخذ بمعايير الديموقراطية الأمريكية. يجري هذا الإرغام على خلفية من افتراض مسبق بأن الغرب يجب أن يفرض إصلاحاته على الشرق الأوسط، ويعني هذا ضمنا تطرفا في التمحور حول عِرق معين، ومنظورا خطرا.

ونحن نجد أن التمحور حول عِرق معين شكل من أشكال العنصرية. وعلى الرغم من أن العنصرية تمثل موقفا غير مقبول على المستوى العِرقي، وأنها فكرة غير صالحة علميا، فإنها ما زالت سائدة بشكل أو بآخر. وهي تتخفى بينما تتولى تشكيل العلاقات الدولية وتحافظ على الطبقية الاجتماعية. ويزعم عالم الأنثروبولوجيا توماس سي هولت أن "معنى العنصر وطبيعة العنصرية يتمفصلان مع التشكيل الاجتماعي المعين في لحظة تاريخية معينة، بل قد يتحددان بهذا التشكيل (Halt, 2002, p. 22). إن العنصرية كلمة حديثة تدل على العقلية القبلية القديمة (توجد قصص توضح هذه العقلية القبلية في العهد القديم و الريج فيدا). بعبارة أخرى، أخذت النزعة القبلية الموجودة في المجتمعات القديمة شكلا جديدا مع أخذ الثقافات بالهويات القومية والثقافية، مما يذكي نيران التعصب والنعرات الزائفة. قامت الأخلاقيات القبلية على الولاء للقبيلة، والخوف من القبائل الأخرى. وقد أدى هذا الخوف إلى نشوء اتجاهات عنيفة وخشنة نحو الغرباء. يزداد فهمنا لهذا الموضوع حين نفحصه في سياق الأوضاع الاجتماعية لهذا الزمن.

قامت النزعة القبلية الصرفة على "الأنا" مقابل "الآخرين"؛ ولقد أسست "الأنا" أساسا على فكرة العظمة، سواء كجماعة، أو أمة، أو جنس (الذكر مقابل الأنثى)، أو ديانة، أو مجتمع. والقبلية الحديثة لا تقوم على أساس هذا الولاء القديم لأقارب المرء وما تربطه بهم من علاقات؛ بل صارت الجماعات أكثر تعقيدًا. فالدولة القومية مثلا، أو الجماعة الدينية تمثل الشكل الحديث من النزعة القبلية. والتجمع على أساس النوع نوع آخر من الأنواع الأولية للاجتماع، إذ حكم للذكر بعلوه على الأنثى في جميع أنحاء الكرة الأرضية. والعنصرية، والتمركز حول عِرق معين، والنزعة القبلية جميعها وجوه للنسق الأبوي. ومما يدعو للأسف أن هذه الروح الأبوية العنصرية تتغذى على الديانات المدعاة التي تشعل نيران الكراهية وتبرر القهر. لكن لا العنصر ولا النسق الأبوي يمثلان عاملاً ثابتًا يحدده قانون إلهي ما خارج السياق الاجتماعي والثقافي. ومن هنا تأتي أهمية ما تعرضه الأقسام التالية من هذا الكتاب من فحص للطرق العديدة التي أسهم بها اختلال التوازن على هذا النحو في القهر في جميع أنحاء العالم، وكيف أن كل حالة -مهما بدت فرادتها- تكرر نفس نمط "أنا" الأعظم، و "أنا" لي الحق في السيادة على *الآخر* والتحكم فيه.

الاستعمار الكولونيالي والتوسع الأوروبي

اعتبر القرن التاسع عشر العصر العظيم للتوسع الأوروبي. وقد شاعت في هذا العصر الاستعماري تجارة العبيد وما قد يمكن اعتباره ربحًا فاحشًا. نهبت بريطانيا موارد الهند الثرية واعتمدت بشدة على المواد الخام الهندية؛ فمثلاً، حكمت شركة الهند الشرقية الطلب الهائل على الشاي والقطن وربحت منه(١). وكان الهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من الأراضي الأجنبية لتوفر للصناعات البريطانية موردا للمواد الخام وسوقًا متميزًا لها. وعدا ممتلكات بريطانيا العظمى في الهند وجنوب إفريقيا، وممتلكات روسيا في سيبيريا في آسيا الوسطى، وممتلكات فرنسا في الجزائر والهند الصينية، اقتصر الرهان الأوروبي في عام ١٨٧١ على المحطات التجارية والمواقع الاستراتيجية. ففي أمريكا الجنوبية مثلا قسمت جويانا وحدها إلى مستعمرات بريطانية، وهولندية، وفرنسية، واستغلوها جميعًا.

وقد أخذ الدين صف هذه الحركات السياسية. ففي أثناء فترة استعمار أمريكا وصولاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية (الأرض المحتلة التي قام على خدمتها فيما سبق سكانها الأمريكيون الأصليون)، سرعان ما نظم المبشرون الكاثوليك والبروتستانت صفوفهم ليضمنوا تمكنهم من تحويل الوثنيين (لفظ يستخدم غالبًا للإشارة إلى سكان أمريكا الأصليين وغيرهم ممن لا يدينون بالمسيحية)(٢) إلى المسيحية. وقد أرسل المبشرون الأوروبيون بالمثل إلى المستعمرات الهندية والإفريقية ليضيفوا سكانهما الأصليين إلى مراتب من يقودونهم للخلاص. وقد بلغنا

---

(١) كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية أصلاً هيئة تجارية احتكارية تورطت في السياسة وعملت وكيلا للاستعمار البريطاني الإمبريالي في الهند منذ بدايات القرن الثامن عشر الميلادي وحتى منتصف القرن التاسع عشر.

(٢) (أ) دع العالم يعرف المسيح، واحدًا فواحد

Letting the World Know about Jesus: One Person at a Time

http://www.crwm.org/wmab/wmab_htm_1800.htm

(ب) ***http://www.lewisandclarck200.gov/people_land_water/bluecloud.html***

أن مؤتمرًا عالميًا للمبشرين قد عقد في عام ١٩١٠. وعلى الرغم من اهتمام أعضائه بتصاعد الاستعمار الإمبريالي والكولونيالي فإنهم كانوا أكثر من واعين بالفرصة المتاحة لهم لكسب متحولين إلى ديانتهم، وقد أخذوا جانب هذا الهدف. لكن لسوء الحظ سبب هؤلاء المبشرون الأمراض والموت، وكثيرًا ما أدى احتقارهم لشعائر السكان الأصليين لتلك البلاد إلى فقدهم للجانب الروحي، مما أدى إلى انتشار تعاطي الكحوليات وحالة من اليأس الصامت، وبذلك بذرت بذور الحروب المستقبلية. لكن هذا لم يؤثر في الحركة نحو جمع الثروات من الأراضي المهزومة وسكانها الأصليين. وفي هذا العهد، أخذت الأغلبية الكبرى من النساء أيضًا جانب الوضع القائم.

وقد هدم آدم سميث و*مدرسة مانشستر* لعلماء الاقتصاد الأسس التي قامت عليها مبررات الاستعمار التجاري في منتصف القرن التاسع عشر. ومصطلح *مدرسة مانشستر* مصطلح استخدمه السياسي البريطاني بنيامين ديزرائيلي للإشارة إلى حركة التجارة الحرة في بريطانيا العظمى. وقد أشار ازدهار التجارة بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية إلى أن التحكم السياسي لم يكن ضروريا للنجاح التجاري. وقد لاحظ ديزرائيلي في عام ١٩٥٢ أن المستعمرات قد صارت "أحجار طاحون معلقة في رقابنا" (Barraclough, 2003, p. 244). وعلى الرغم من اعتقاد ديزرائيلي في توسع الإمبراطورية البريطانية، فإنه أدرك أيضا ما ينطوي عليه حكم المستعمرات من صعوبات. وقد استغرقت جميع هذه الإمبراطوريات حوالي قرن من الزمان للاعتراف بالعبء الملقى على عاتقها. لم يكن الاستعمار الكولونيالي خاليا من المتاعب، لأن الشعوب الأصلية طالبت بحريتها (وهو أمر تواجهه الولايات المتحدة الأمريكية حاليًا في استعمارها الحالي للعراق). وبحلول عام ١٨٨١ كان المد القومي في تصاعد، واندلعت ردود فعل مضادة للاستعمار في طول آسيا وإفريقيا وعرضهما.

من هنا، أنشئ المؤتمر الهندي القومي في عام ١٨٨٥، وهو يرمز إلى ثورة عظمى ضد الإمبراطورية البريطانية. وقد أسهمت الحرب العالمية الأولى التي قامت في عام ١٩١٤ أيضًا في تحريك النزعات القومية الناشئة. وقد أذكى لهيب المقاومة في وقت مبكر في عام ١٩٠٤ بفضل انتصار اليابان في الحرب الروسية-اليابانية. لقد أثبتّ هذا الانتصار أن القوى الأوروبية ليست بمستعصية على الهزيمة. وقد حولت الإمبراطورية الأوروبية بؤرة اهتمامها أثناء الحرب العالمية الأولى عن المستعمرات. فبينما كانت الإمبراطوريات مشغولة في جبهة الحرب، بدأت المستعمرات في تنظيم نفسها، وبذلك خلقت فرصة للمعارضة والتمرد.

ولم تحظ أي من القوى التي قسمت آسيا وإفريقيا إلى مستعمرات متعددة بالأمان في ممتلكاتها. فقد سعت المستعمرات التي أسيئت معاملتها في طول الأرض وعرضها إلى هويتها واستقلالها، وقاومت المحتلين الأجانب. وعلى الرغم من صغر حجم إنجازات القوميين نسبيًا في هذه المرحلة، فقد حافظوا على اتقاد شعلة المقاومة.

لكن الحركة الأبوية التي يغذيها التعصب والعقليات الأصولية استمرت في التوسع في قوتها. وفي عام ١٩٣٩ طالبت بريطانيا العظمى، وفرنسا، وهولندا، وإيطاليا، وبلجيكا، وإسبانيا والبرتغال بممتلكات في المستعمرات. لكنهم اشتركوا في تصور جديد عن الحكم الاستعماري الإمبريالي، وهو تصور مؤقت ومحدود. ومع تصاعد المعارضة في المستعمرات، انتهى الأمر بهذا التصور الجديد إلى جعل الإمبراطوريات تحكم مستعمراتها بدرجة أكبر من الاستقلال. لكن الانتقال من الاحتلال إلى السيادة لم يكن سهلاً. يخبرنا التاريخ أن القرن العشرين صنع توترًا متزايدًا بين مختلف العناصر في الكثير من المستعمرات السابقة. فحيث إن القوى التي كانت قد نوت أن تنعم على أراضي مستعمراتها بمؤسسات لم يكن لها إلا القليل من الجذور الأصلية في هذه الأراضي، فلا عجب أن يعقب انسحاب

الاستعمار منها أعمال عنف ثوري في كثير من الأحيان (مما أسهم في نشوء نظم حكم تقهر شعوبها). قسمت الإمبراطوريات أوروبا، وآسيا وإفريقيا وفقًا لاحتياجاتها الجشعة، بغض النظر عن أي منطق عِرقي/ثقافي/تاريخي، ثم تركت مستعمراتها وسط أزمة. من الأمثلة الجيدة على هذا ما حدث في فلسطين وفي الهند. لقد حصلا على وعد بشكل من التقسيم، وأدى هذا التقسيم إلى أزمة زادت من حدة الحرب في الحالتين. انسحبت الإمبراطورية البريطانية من فلسطين والهند (من بين مستعمرات أخرى) عندما ازدادت حدة التوترات بين العناصر وبين الأديان (تحدث نتيجة مماثلة في العراق، حتى على الرغم من أن القوات الأمريكية ما زالت تحتل البلد).

باختصار، المزيج المكون من الجشع مع القوة السياسية والتعصب الديني مزيج قاتل. وقد انتشر مفعوله في جميع أنحاء العالم. وما يلي يصور كيف دفعت المستعمرات السابقة (وما زالت تدفع) ثمنًا باهظًا من أجل إعادة تعريفها ككيانات قومية. ويوضح أيضًا المشكلات التي ما زالت تظهر كلما حاول البشر إيجاد علاقة بين الدين والتنظيم السياسي. وقد وصلنا إلى خلاصة مؤداها أن البشرية تستكشف بالفعل استخدام هاتين القوتين الدافعتين والمنظِمتين. ومن المدهش أن كل أمة قد وجدت تركيبتها الفريدة على ما يبدو.

تقع تغطية الأحداث الكثيرة للاستعمار والاحتلال ونتائجهما خارج نطاق هذا الفصل، لكننا سنوثق جيدًا فيما يلي استراتيجيات الاستعمار ونتائجه. من الملحوظ أن الاستعمار لم يكتف بتجاهل أوجه التنوع العِرقي والديني للمستعمرات، بل خلق أيضًا عداوة بين الشعوب المحلية وفقا لمبدأ *فرِّق تسد*. فقد شجعت الإمبراطورية البريطانية مثلاً هجرة اليهود إلى فلسطين التي كانت تحت الاحتلال، بينما تجاهلت مصالح السكان المحليين وتطلعاتهم. وهكذا خلقت وضعًا تصير فيه الصراعات بين اليهود المهاجرين والعرب الفلسطينيين سكان الأرض الأصليين حتمية. وقد شجعت نفس القوة روح الانفصال بين المسلمين والهنود في الهند بعد الاستقلال، إذ أنشأت باكستان كأمة مسلمة محددة، منفصلة عن الهند، بينما تركت مشكلة كشمير بلا حل.

وظلت كشمير تذكّي نيران الكراهية والحروب بين الهندوس ومسلمي باكستان، الذين كان الود يجمعهم من قبل. وتكررت نفس القصة بفروق بسيطة في إثيوبيا، وإريتريا والسودان.

إن دولة إسرائيل التي يحكمها اليهود[٣]، ودولة باكستان التي يحكمها المسلمون، وإثيوبيا التي يحكمها المسيحيون، والسودان الذي يحكمه الإسلاميون لها جميعًا سمات مشتركة، فجميعها لها أنساق مغلقة يعيش فيه "الآخرون" بالكاد كأنساق فرعية، أو أنساق متداخلة. وتأخذ القوى الحاكمة فيها بمداخل تتمركز حول عِرق معين مختلطة بالعنصرية. وصارت الديانات راية يختفي تحتها التمركز حول العِرق والعنصرية (كما يتضح في القصص التي سنذكرها فيما يلي). لقد أولينا اهتمامًا معتبرًا للعلاقة بين إسرائيل وفلسطين، لأنها تهدد توازن العالم بأسره.

شعبان وأرض واحدة: إسرائيل وفلسطين

يمثل الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني تعقد الموضوعات التي نوقشت في الفصل الرابع، مثل الدولة والانتماء الديني، ودور الاقتصاد، وتأثير القوى السياسية الخارجية والداخلية. ولابد لنا لكي نتناول القضية بإنصاف أن نأخذ في اعتبارنا التاريخ الفريد للشعب اليهودي الذي نفي دون أرض لحوالي ألفي عام. إن تجربة اليهود مع الاضطهاد الذي لاقوه في كل أرض عاشوا فيها، والذي بلغ ذروته في القرن العشرين بإبادة أعداد كبيرة من يهود أوروبا كان لها وقع عميق على النفسية اليهودية. فقد مثل إنشاء دولة إسرائيل للشعب اليهودي عودة لأرض الميعاد. وقد

---

(٣) في الواقع، ينتمي اليهود والعرب كلاهما إلى الأرض التي عرفت ذات مرة باسم يهودا (حيث إن إسحاق وإسماعيل كليهما كانا ابني إبراهيم)، لكن تدخل القوى السياسية التي تغذي المعارضة الدينية تمنع اليهود، والفلسطينيين المسيحيين منهم والمسلمين من العيش في تآلف (انظر/انظري *Chacour, 1984*).

مكَّن ذلك الشعب اليهودي من الشعور بإحساس حي بوجود مكان لهم في العالم، بعد أن تعرضوا للهولوكست وقرون من إساءة المعاملة في أراض أجنبية. ولابد أن نعترف في نفس الوقت بأن السكان الأصليين (الفلسطينيين) قد احتلوا فلسطين بشكل مستمر عبر فترة طويلة من الزمان، وكان الفلسطينيون يعيشون بالفعل على أرض مشتركة مع اليهود حين بدأت هجرة عدد محدود من اليهود إلى هذه الأرض في القرن التاسع عشر.

إن الهوية اليهودية مغروسة بعمق في هذه البقعة من بقاع العالم، لأن فيها الموقع المقدس للهيكل الأول والهيكل الثاني. والأمر يماثل ذلك لدى المسلمين، فقد كانت أورشليم (القدس) موضع الرحلة الداخلية التي قام بها النبي محمد من مكة إلى "المسجد الأقصى" ومعراجه الروحاني بقيادة الملاك جبريل. وقد صار "المسجد الأقصى" هو المسجد الأقصى(*) الموجود بالقدس (انظري/انظر الفصل الثالث)، ألا وهو موقع الهيكل الأول والهيكل الثاني. لقد كانت القدس ذات مرة قِبلة المسلمين التي يولون نحوها وجوههم في الصلاة، كما يولون وجوههم الآن شطر مكة(٤). إذا أخذنا هذا التاريخ في الاعتبار، يتضح لنا أن للجماعتين انتماء دينيًّا عميقًا للأرض المعروفة الآن باسم فلسطين وإسرائيل.

ونولي مزيدًا من الاهتمام لهذا القسم من الفصل الخامس لتأثيره الهائل على اليهود، والمسيحيين، والمسلمين بنفس القدر، وكما لاحظنا، تؤثر التوترات والحروب في توازن العالم ككل. إن الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني أوسع نطاقا مما يمكن لهذا الفصل أن يستكشفه تمامًا، ولا يرجح أن يحل في المستقبل القريب.

(*) اسم المسجد الأقصى الموجود بين علامتي تنصيص مكتوب بالإنجليزية "**Furthest Mosque**" بينما كتب اسمه بالمنطوق العربي والحروف الإنجليزية ***Al-Aqsa Mosque*** حين ذكر موقعه بالقدس (المترجمة).

(٤) "تقول الأسطورة المحلية إن إبراهيم قد زار إسماعيل في البرية، وأنهما بنيا الكعبة معًا في مكة، أول بيت وضع للإله الواحد في الجزيرة العربية". من تقديم كتبته كارين آرمسترونج لكتاب تشيتيستار وآخرون ***Chittister et al. (2007) p. xi***.

(والحق إن تصعيد الهجمات الإسرائيلية على لبنان كما حدث في ١٢ يوليو ٢٠٠٦ يشير إلى أن الوضع يسوء نتيجة لعواقب تلك الأحداث(٥). لكن لو ألقينا نظرة على الأحداث السابقة لكشفنا عن جذور الصراع ودور الأمم الأجنبية في حياة سكان إسرائيل. لم تبدأ القصة كمجرد خلاف داخلي على الأرض بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بل تمثل صدامًا بين قوى أكبر من ذلك بكثير. لقد ساندت الولايات المتحدة ذات القوة الكلية إسرائيل (وما زالت تساندها)، أما الفلسطينيون فيساندهم العالم العربي. وقد كان للقوى الخارجية وحاجتها للسلطة والتحكم وقع عميق على هذا الصراع، فهو يمثل أنماطًا أبوية، ولا يولي اهتمامًا كبيرًا لحسن أحوال *الآخر*.

إنشاء الدولة اليهودية

دانيال بويارين أستاذ في دراسات الشرق الأدنى وبلاغته، وله كتاب بعنوان *الحدود: فصل المسيحية–اليهودية Border line: The Partition of Judaeo-Christianity* يقول فيه إن الشعب "اليهودي" لم يكن يسكن المنطقة المسماة فلسطين في الزمن الذي أخمد فيه الرومان انتفاضة بار كُخبة التافهة من ١٣٢ – ١٣٥ ميلادية، حيث إن الشعب المتحدث باللغة الآرامية (نسل العبرانيين التوراتيين) هم فقط الذين سكنوا هذه الأرض. تاريخيا، تحول بعض هؤلاء الساميين إلى المسيحية

---

(٥) وفقًا لتقرير كتبه ناعوم تشومسكي في ١٤ يوليو، كانت إسرائيل والولايات المتحدة تزيدان من الضغط على حكومة فلسطين ومواطنيها انتقامًا لتصويتهم لحماس. كما كان هناك شيء من ضم الأراضي الفلسطينية بالقوة، وأعلنت خطة تقول إن إسرائيل ستستولي على وادي الأردن. وبعد ذلك "اختطف الإسرائيليون اثنين من مواطني غزة، أحدهما طبيب والآخر شقيقه، أخذوهما إلى إسرائيل، ولا يعرف أحد مصيرهما. وفي اليوم التالي، قام مقاتلون من غزة، يحتمل أن يكونوا من حركة الجهاد الإسلامي، بخطف جندي إسرائيلي ..". وقد قتل تسعة فلسطينيين، وألقيت قنبلة وزنها ربع رطل على منزل أحد قادة المقاتلين وقتلت أسرته كلها. ثم اختطف حزب الله جنديين إسرائيليين على الحدود لسببين، أحدهما كذريعة لاستبداله بسجناء والآخر لإبعاد انتباه الإسرائيليين عن الفلسطينيين. وقد أشارت تحليلات مختلفة إلى السبب الأخير وظهر ضمن مقال نشر في جريدة لندن فيناشيال تايمز.

بينما صار غيرهم يهودا بعد ظهور اليهودية الحاخامية. كما أن العرب أتوا من الجزيرة العربية، ولم يصل منهم إلى هذه البقعة البعيدة شمالاً إلا حفنة قليلة. وفقًا لبويارين، لم توجد أصلاً لإسرائيل ولا لفلسطين أي حدود، حيث إن الرومان قد قسموا الأرض إلى يهودا، والجليل، وما يعرف الآن باسم الجليل الغربي (الذي يشمل أجزاءً من لبنان). باختصار، الحدود المرسومة الآن للإسرائيليين أو للفلسطينيين في الأرض التي تعرف الآن باسم إسرائيل (لدى اليهود) وفلسطين (لدى الفلسطينيين) لم تكن موجودة في الأزمنة العتيقة (Boyarin, 2004).

وبدأ السكان العرب أنفسهم في التزايد مع ظهور الإسلام. حين أنهى المسلمون الحكم البيزنطي في عام ٦٣٨، واعتنق عرب هذه المنطقة الإسلام، وعلى الرغم من أن عددًا من هؤلاء الفلسطينيين كانوا (وما زالوا) مسيحيين. وسكنت أيضًا أقليَّة يهودية صغيرة في المنطقة عبر الزمن الذي حدثت فيه هذه التغيرات.

وهزم الصليبيون القدس وأسسوا مملكة أورشليم اللاتينية (١٠٩٩–١١٨٧). وانتهى هذا الوضع حين حرر صلاح الدين القدس، وأسس نظامًا حكمت مصر بموجبه الفلسطينيين. ثم دمجت فلسطين بعد ذلك في الإمبراطورية العثمانية حتى تحللت هذه الإمبراطورية، وسيطرت القوات البريطانية على الأرض. وكان العرب في هذا الوقت يمثلون أغلبية كبيرة.

لكن نسبة السكان بدأت في التغير في نهايات القرن التاسع عشر، حيث هاجر يهود أوروبا الغربية الذين اضطهدهم النظام الروسي إلى المنطقة. وفي عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى أعلنت الحكومة البريطانية *وعد بلفور*، الذي نظر بعين العطف لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وكان من شأن إنشاء وطن قومي لليهود تحت الحماية البريطانية أن يتحايل على الوعد الذي تلقاه الفرنسيون بتدويل فلسطين وإدراج فلسطين في المنطقة العربية. وقد قدمت بريطانيا المساعدة للصهاينة لينشئوا هذا الوطن، وبذلك تمكنت من وضع قواتها في فلسطين، ومن ثم التحكم في هذه الغنيمة الاستراتيجية القريبة من قناة السويس علاوة على

الإشراف على الأماكن المقدسة في القدس (Lesch & Tschirgi, 1998, p. 8). لقد شكلت بريطانيا المُثُل والاستراتيجيات، ولم تول إلا قليلا من الاعتبار لحقوق السكان الأصليين من العرب والفلسطينيين واحتياجاتهم.

وازدادت هجرة اليهود من أوروبا زيادة حادة كرد فعل على سياسات هتلر. وقد شكّل اليهود في عام ١٩٢٢ ١١% من السكان. وازدادت هذه النسبة حتى بلغت ٢٩ بالمائة بحلول عام ١٩٣٦. ترجع هذه الزيادة جزئيًا إلى الهجرة غير الشرعية (Barraclough, 2003). وفي غضون سنوات الانتداب (١٩٢١-١٩٤٨) قيدت بريطانيا الهجرة للدفاع عن تحكمها في سكانها العرب، واحتياجاتها ومصالحها. وقد أدى هذا إلى حدوث مآس إنسانية، لأن الناجين من الهولوكست واللاجئين المحتجزين في السفن في البحر الأبيض المتوسط لم يجدوا ترحابا عند وصولهم للشاطئ. فمثلا، في عام ١٩٤١ كانت السفينة *"ستروما"* آخر سفينة تغادر أوروبا في زمن الحرب وعلى متنها ٧٦٩ لاجئًا يهوديًا، وقد منعت من دخول فلسطين أو الرسو في تركيا، وانتهى بها الأمر إلى الإبحار إلى البحر الأسود.

وبعد المحرقة التي تعرض لها يهود أوروبا في الهولوكست، طالب الشعب اليهودي بالسماح للناجين بالهجرة إلى فلسطين. وقد ساندت لجنة التحقيق الإنجليزية-الأمريكية التي شكلت في عام ١٩٤٦ توطين الناجين من الهولوكست واقترحت أن تتحول فلسطين إلى دولة تجمع بين اليهود والعرب (lesch & Tschirgi, 1998). ومارس اليهود الأمريكيون ضغوطًا معتبرة لمساندة هذه الحركة. لكن العرب خشوا من أن تغير هذه الهجرة التوازن السكاني، الذي كانوا فيه الأغلبية. وأدى ازدياد حدة الأمور في المنطقة إلى إعلان الحكومة البريطانية لنواياها في الانسحاب من هذه الأرض.

وفي عام ١٩٤٧ وضعت الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين، إحداهما يهودية والأخرى عربية، بينما تبقى القدس تحت الحكم الدولي، على الرغم من المعارضة الشرسة للحكومات العربية لهذه الخطة. وحينئذ صار الوجود

مزدوج الهوية القضية المركزية في سياسات الشرق الأوسط. وقد كانت "الدول الكبرى" التي شكلت المنطقة أثناء الحرب الباردة هي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية أساسا. وعلى الرغم من أنهما ساندا فكرة التقسيم، فإن كلاً منهما كان له جدول أعماله الخاص. يحتمل أن تكون المساندة السوفيتية قد قامت على أساس رغبة موسكو في أن ترى نهاية الحكم البريطاني في فلسطين بأسرع ما يمكن، حيث إن هذا من شأنه أن يفتح إمكانات لتوسع التأثير السوفييتي. وقامت المساندة الأمريكية أكثر ما قامت على التعاطف الشعبي مع مشروع الدولة، الذي زرعه الصهاينة ورعوه بعناية أثناء الحرب العالمية الثانية، وعلى اهتمام الرئيس ترومان بتخفيف حدة مشكلة اللاجئين اليهود (Taylor, 1991, p. 26).

يشرح ناعوم تشومسكي في كتابه *المثلث المشئوم* *The Fateful Triangle* أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لديها أمل في إنشاء علاقة قوية مع جمال عبد الناصر، الرئيس الأسبق لمصر، لكي تزيد من تثبيت أقدامها في الشرق الأوسط. وكان ناصر قد حصل على مساندة من وكالة الاستخبارات الأمريكية (السي آي إيه)، بينما كانت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بإسرائيل ضعيفة في ذلك الوقت. يكتب تشومسكي، "منذ نهاية خمسينيات القرن العشرين، ازداد قبول الحكومة الأمريكية للنظرية الإسرائيلية القائلة بأن إسرائيل القوية 'ذخيرة قيمة' للولايات المتحدة الأمريكية، تخدم كحاجز ضد التهديدات القومية الراديكالية الداخلية للمصالح الأمريكية، التي يمكن أن تحصل على مساندة من الاتحاد السوفييتي (Chomsky, 1983, p. 3).

وفي وقت أحدث، قال تشومسكي إن إسرائيل سلاح عسكري قصد به مساندة المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط. والحق إن إسرائيل هي أكبر متلق للتمويل العسكري الأمريكي. فجماعة الصوت اليهودي من أجل السلام تسجل مثلاً أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تدفع ثمن البنادق والذخيرة، وقاذفات القنابل من طراز إف ١٦، وطائرات الهليكوبتر من طراز الآباتشي التي تستخدم من أجل

استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأرض والشعب الفلسطينيين". وقد استخدم الكثير من المال، والقوة، والمُثُل الدينية لمساندة دولة إسرائيل، لكن هذه الجماعة اليهودية توضح أن الاحتلال "لا يخدم الإسرائيليين، ولا الفلسطينيين، ولا الأمريكيين"(٦).

لقد شكل أعلى مستشاري هذه الأمم السياسات التي زادت من الصراع. وقد أكد هنري كيسنجر بشدة إبان فترة تولي الرئيس نيكسون (١٩٦٩-١٩٧٤) على العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. كان كيسنجر يعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تعتمد على إسرائيل ويكون لها دور أكبر في المنطقة لكي تحتوي السوفييت. واعتبرت واشنطن أن "الدور الموكل لإسرائيل أهم للمصالح الأمريكية من إقرار السلام النهائي بين إسرائيل والعرب، بما في ذلك الفلسطينيون" (Taylor, 1991, p. 131). بعبارة أخرى، أعطيت لمصالح القوة أولوية عليا مقارنة بحياة الناس وحسن أحوالهم (وهذا فرق أوّلي بين القيم الذكورية والأنثوية). وأدى هذا إلى مزيد من قهر العرب والفلسطينيين الذين يعيشون على هذه الأرض، والذين لم يكن لهم صوت في أي من القرارات التي اتخذت.

وأثناء العقد الماضي، شهدنا تدهورًا آخر للوضع مع يأس متزايد على الجانبين. كتب بيني موريس بكثافة عن الصراع العربي-الصهيوني في كتابه *ضحايا على حق* *Righteous Victims*، و استخدم في تقديره للعنف الدائر ما اقتبسه من الشاعر و. أودين: "أنا والعامة نعرف ما يتعلمه جميع أطفال المدارس: إن من يقع عليهم فعل الشر يردونه بإتيان أفعال الشر" (Morris, 1999).

أما اليهود، الذين ظلوا أقليّة مخلوعة من جذورها لمدة قرون، فيحكمون فلسطين الآن في ظل احتلال عسكري. وهم يهاجمون المقاتلين، والمدنيين الأبرياء، وأطفالهم ويقتلونهم بانتظام. والجانبان يدفعهما القانون القبلي القائل بأن العين بالعين والسن بالسن، على الرغم من أنه من الواضح أن إسرائيل لديها القوة العسكرية وأنها

---

(٦) *http://www.jewishvoiceforpeace.org/publish/article_17.shtml*

تقوم بكمٍّ من العنف لا يتناسب مع العنف الذي يقوم به الطرف الآخر. وقد ازداد خوف الشعب الإسرائيلي بسبب التهديد بالانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم كقنابل بشرية، بالضبط كما تجعل الهجمات العسكرية الفلسطينيين في حالة رعب دائم. وقد فشل الإسرائيليون في الاعتراف بأن هذا القمع يكفل تلك الاستجابة العنيفة، بالضبط كما كفل تاريخ القهر الذي مروا به موقفهم الحالي. قد يكون بين الإسرائيليين والفلسطينيين نقاط مشتركة أكثر مما قد يصدقون. لقد أوذي المدنيون من الجانبين. الحكاية باختصار قصة شعبين، متورطين في قتال دموي، كلاهما يحارب من أجل الأرض، والدين، والأمن، والكرامة، والسيادة. ومن بواعث الأسى أن تلك المُثُل كانت ذريعة للعدوان العسكري وجداول الأعمال الأصولية المغلوطة وغير الرشيدة.

الثمن الباهظ للسيادة

في يوم انسحاب بريطانيا، في ١٤ مايو ١٩٤٨، أعلن ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل، وبدأت الحرب بين اليهود وعرب فلسطين. في يوم إعلان قيام دولة إسرائيل حرفيًا، شنت البلدان العربية حربًا كبيرة معارضة لقيامها. "أرسلت مصر قوات عسكرية إلى قطاع غزة والنقب، وأسرعت الأردن بإرسال سكانها الكثيرين من العرب إلى الضفة الغربية، واقترب الجيش السوري من بحر الجليل، وأرسلت لبنان قوات رمزية إلى شمال الجليل" (Lesch & Tschirgi, 1998, p. 11). وقد هزمت هذه القوات الهائلة وتحول الجزء الأكبر من فلسطين إلى إسرائيل.

كان الأمر بالنسبة للشعب اليهودي تحقيق حلم طال منذ ٢٠٠٠ عام؛ رآه البعض إشارة مجازية إلى قصة داود وجالوت، التي تغلب فيها الشاب الصغير ذو العزيمة على العملاق المخيف. واعتقد الكثيرون أن الرب قد قدر انتصار إسرائيل. وكان للحرب تأثير هائل على البلدان العربية أيضًا. فقد أدت هزيمتهم إلى سلسلة

من الأحداث، فقد قامت من انقلاب (استيلاء دموي على الحكم) في سوريا في ١٩٤٩، واغتيل الملك عبد الله في الأردن في عام ١٩٥١، وحدث انقلاب عسكري في مصر في عام ١٩٥٢ بقيادة الصاغ جمال عبد الناصر. وقد صار ثلثا عرب فلسطين لاجئين بعد الحرب، لجأوا إلى الأردن، وغزة، وسوريا ولبنان. وسمحت الدول العربية المجاورة بهجرة الكثير من الفلسطينيين إليها، لكنها رفضت استقبال عديد من الفلسطينيين الآخرين. كما أن الكثير من الفلسطينيين لم يرغبوا في المغادرة والتخلي عن الأرض التي عرفوها طوال عمرهم، لكن كثيرًا ما كانت حقوقهم في الملكية تنتزع منهم، وألجئوا إلى أماكن محددة مغلقة عليهم. قام موقف إسرائيل السياسي – من منظورها الخاص – على أساس حبِّها للأرض التي احتفت بها كمثال ديني، وعلى انعدام ثقتها في البلدان العربية المحيطة بها التي رفضت الاعتراف بوجودها كأمة. (وقد أسهم الأمر الأخير في خوف إسرائيل من الاضطهاد واعتقادها بأن العدوان سيؤدي إلى النجاح ويضمنه).

وقد أدى تدخل القوى الخارجية إلى المزيد من الحروب. فبعد انتصار سريع لإسرائيل في حرب الستة أيام في عام ١٩٦٧ (التي بدأت حين أغلقت مصر معابر تيران أمام مرور السفن الإسرائيلية)، بدأت في مد حكمها على مرتفعات الجولان، والضفة الغربية، وقطاع غزة، ومدينة القدس بأكملها. قابل الإسرائيليون هذه الملكية بالدهشة، والفرح العارم، والارتياح حيث توافدوا أفواجًا إلى القدس الشرقية لزيارة الأماكن المقدسة. وتمكن اليهود من الصلاة مرة أخرى عند حائط المبكى في مدينة القدس القديمة، وهو الجزء الباقي من الهيكل الثاني. وكان هذا الجزء هو الوحيد الذي تركه الرومان قائمًا إثر عمليات الهدم التي قاموا بها في عام ٧٠ ميلادية. وبينما كان الإسرائيليون يحتفون ويبتهجون، خيم اليأس المتزايد على الفلسطينيين، وكان هذا اليأس أرضًا خصبة لنمو حركات المقاومة.

كان ديفيد بن جوريون ضيف الشرف في مؤتمر حزب العمل الذي انعقد بعد الحرب بفترة قصيرة. لكن بن جوريون لم يكن يحتفل. لقد اعتقد أن "إسرائيل قد

أفرطت في التوسع، وأنها قضمت قضمة أضخم مما يمكنها مضغه وأنها يجب أن تعيد جميع الأراضي المهزومة تقريبًا على الفور" (Lazare, 2003, p. 25). ووجدت الحكومة الإسرائيلية نفسها عاجزة عن صياغة سياسة متماسكة. نظر البعض إلى الأرض على أنها قطعة يمكن استخدامها للمساومة مقابل السلام، وأراد البعض تعميق المنطقة العازلة المقابلة للجبهة العربية شديدة الاتساع، ورأى آخرون أن هذه الأرض جزء من مملكة إسرائيل الموعودة. وقد نازعت إسرائيل السكان الفلسطينيين باستماتة وكراهية متزايدة، هؤلاء السكان الذين وضعوا تحت الحكم العسكري، مع تصاعد التوتر العربي - الإسرائيلي بوتيرة ثابتة حتى الذروة.

ربما كان من الممكن أن يسير الوضع في اتجاه أصح إذا كان الشعب اليهودي قد امتزج مع الشعب الذي كان يسكن الأرض بالفعل؛ لكن كان في حكومتي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا قوى سياسية ودينية قوية تساند تمامًا إنشاء ما سيصير حكومة إسرائيلية. لم يقدم أي أحد الدعم النفسي والروحاني اللازم لتمكين التغيرات من عمل مفعولها بشكل فعال لصالح كل من الشعبين اليهودي والعربي. والقسم التالي يقدم تاريخ إنشاء دولة إسرائيل.

الامتزاج بين المؤثرات الدينية والسياسية

إن الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني أساسًا صراع على الأرض، تدفعه قوى خارجية ذات مصالح استراتيجية في المنطقة. يوجد خط ديني فاصل واضح (اليهود مقابل العرب الفلسطينيين، وهم مسلمون في المقام الأول)، لكن يبدو أن للسياسات دورًا أكبر في المشكلة مما للأديان. لقد تشارك العرب واليهود في الأرض لسنوات عديدة قبل أن تتحكم فيهم هذه الطموحات القومية لقد تغيرت طبيعة الانتماء إلى الأرض بفضل الدور الذي لعبته *السياسة الواقعية* حين شرعت العوامل العملية والمادية، لا القيم النظرية أو الأخلاقية، في تشكيل السياسات. لابد

أن نتذكر أن أمم الشرق الأوسط الحالية لم تكن موجودة في الأزمنة القديمة كأراض منفصلة عن بعضها البعض، فقد كانوا جميعًا جزءًا من "الهلال الخصيب".

تاريخيا، دعا اليونانيون والرومان هذه الأرض باسم *فلسطين* بسبب كثرة الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في المنطقة، وكانت في العموم معروفة باسمها العربي، فلسطين في فترة الإمبراطورية العثمانية حين كانت هذه الأرض جزءًا من سوريا (*Columbia Encyclopedia*, 2000). ربما يكون بعض الفلسطينيين الحاليين من نسل قدماء الفلسطينيين الكنعانيين بينما بعضهم الآخر مهاجرون من أصل عربي. كانت الشعوب القديمة بدوًا رحلاً[٧]، بما فيهم الإسرائيليون الأوائل[٨] والشعوب العربية الأولى. لكن على الرغم من الآراء المتعارضة بشأن أي الجماعتين لها حقوق أكثر في الأرض، يشير التاريخ إلى أن الجماعتين كلتيهما لهما تاريخ طويل في المنطقة، وكما لاحظنا فيما سبق، لا تملك أي من الجماعتين حق الادعاء بامتلاك قطعة معينة من الأرض من قديم الزمان، لأن الحدود كانت تتغير باستمرار عبر حقبة طويلة من الزمان. كما أن من الحقائق أن الفلسطينيين قد عاشوا بشكل مستمر على الأرض لعدة مئات من السنين. لكل من الجماعتين حق متساو في ملكية الأرض. يقرر سفر التكوين ١٥: ١٨ بوضوح أن الرب قال لإبراهيم إن الأرض قد منحت "لبذرته"، التي تشمل كلاًّ من إسماعيل وإسحاق.

وقد عرَّف المسلمون أنفسهم تاريخيًا ككيان واحد اسمه *الأمة*[*]. لكن الأمة لم تقتصر في بدايتها على المسلمين، فقد شملت اليهود والمسيحيين بصفتهم من

---

(٧) لابد أن نتذكر أيضا أن الاكتشافات العلمية تؤكد أن جميع البشرية بدأت في إفريقيا ثم امتدت إلى أراض أخرى. فجميعنا مهاجرون.

(٨) كان الإسرائيليون الأوائل من نسل يعقوب، أي إنهم كانوا قبائل من البدو الرحل. ويشير سفر التكوين ٣٢:٢٨ بوضوح إلى أن الرب غيَّر اسم يعقوب إلى إسرائيل تكريمًا *لحالة تغير الوعي التي مر بها* بعد ليلة قضاها في المصارعة مع أحد الملائكة (كما ناقشنا في الفصل الثاني).

(*) كتب هذا المصطلح في النص الإنجليزية بمنطوقه العربي بحروف إنجليزية مائلة ***Ummah*** ثم وضع تعريفه باللغة الإنجليزية بين قوسين ***(nation)*** (المترجمة).

المؤمنين بإله واحد (ديانة توحيد). وفي القرن العشرين، أنشأت الحكومتان البريطانية والفرنسية سوريا، ولبنان، والأردن، والمملكة العربية السعودية ككيانات منفصلة عن بعضها البعض، وهكذا نحتت من الأمة كيانات لكل منها تميزه. ويتجلى هذا الحكم في الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني الحالي، كما تتجلى فيه المشكلات التي سببتها سياسات المُثُل الدينية الأبوية والنظم السياسية على الجانبين كليهما. ويقدم ما يلي خلفية عن الأيديولوجية الصهيونية، وتأثيرها على الأمة الإسرائيلية.

وضع تصور تاريخي لإسرائيل في إطار مفهوم *الدولة اليهودية* كما تصوره تيودور هرتزل في بيانه الصادر في عام ١٨٩٦ (Lazare, 2003, p. 23). وقد وضع زئيف جابروتينسكي ومناحم بيجين الأسس الأيديولوجية للصهيونية الإصلاحية في عشرينيات القرن العشرين. قامت تلك الحركة على ثلاثة أعمدة، هي تحديدا "الشعب اليهودي، واللغة اليهودية، والأرض اليهودية: ولابد من استرداد الثلاثة بأكملهم لضمان تكامل المشروع الصهيوني" (Kaplan, 2005). وقد هيأت هذه الحركة، ممتزجة بحيرة الكثير من اليهود الذين احتاجوا مأوى بعد الهولوكست، الساحة للمأزق الحالي للشعب اليهودي الإسرائيلي، والعرب والفلسطينيين.

ومنذ نادى هرتزل بأول مجلس صهيوني عقد في عام ١٨٩٧ "كان عرضة للهجوم الأيديولوجي والسياسي" حيث لم يوافق الكثيرون على مبادئه (Lazare, 2003, p. 24). وحصلت الحركة السياسية اليهودية المعروفة باسم الصهيونية على قوة دفع في نهايات القرن التاسع عشر كرد فعل على تنامي العداء للسامية. سعت تلك الحركة لإنشاء وطن يهودي في فلسطين. واسم الصهيونية (القومية اليهودية) مستمد من تل صهيون بالقدس الذي بنيت عليه مدينة داود. وقد شملت السنوات الـ ٢٠٠٠ من التشوق إلى صهيون جميع جوانب الحياة الروحية اليهودية. فمثلاً، تشمل الصلاة اليومية المزمور ١٣٧ الذي يقول: "إن نسيتك يا أورشليم تنس

يميني". وقد كان الشوق إلى أرض بها إرث ديني موضوعا كبيرا في اليهودية. ولهذا استخدم هرتزل شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ليروج لأيديولوجيته. لكن ذلك التصريح قوض تاريخ السكان العرب وطموحاتهم نحو نفس الأرض، لأن كلاً من الشعبين كانت له حجة وجيهة. كما أن هذا المثال الأبوي لقهر الأراضي وتملكها يسيء إلى السكان الطبيعيين للأرض، وهو في نفس الوقت إرث سيئ، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى استمرار العنف، لأن أساسه فاسد. لكن التاريخ لا يفتأ يكرر نفسه، والظاهر أنه سيستمر في ذلك حتى نعي رسالته.

لقد زادت حدة النزاع الإسرائيلي–الفلسطيني بسبب الفوارق الدينية. من ثم، لن يسهل الحصول على حل عن طريق دولة علمانية ديموقراطية تضم قوميتين وتكون للعرب ولليهود. إن الجدال الأيديولوجي حول تلك الأفكار في إسرائيل جدال مرير، وجاد، ومستمر. وعلى الرغم من أن الدين ليس السبب الوحيد للمشكلة، فإنه قدم لها عامل توحيد قوي. إن الفكرة الأبوية عن الرسالة المقدسة توحد الذكور والإناث. يتضح هذا في اتجاهات المستوطنين الذين يسكنون على أراض فلسطينية. أغلبية المستوطنين في الأراضي المحتلة في إسرائيل يستخدمون نصوص التوراة لتبرير حقهم في الأرض (كما نوقش في الفصل الثالث). فمثلا، يستخدم الأصوليون الصهاينة سفر حزقيال ٣٦: ٢٤ لتبرير الاحتلال الإسرائيلي واسترداد إسرائيل. تقول الفقرة التي يستشهدون بها "وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم".

وكما هو واضح، وجدت الكثير من المؤثرات التي أدت إلى بناء الدولة الإسرائيلية. وقد اعتقد الإصلاحي يهوشوا هيشيل يفين أن من المهم لليهود أن يكتسبوا القوة، بينما اعتقد أ. د. جوردون مؤسس ما يعرف باسم الصهيونية العمالية أن من المهم أن ينشأ أولاً مجتمع قوي بالعمل في الأرض. وقبل إنشاء الدولة الإسرائيلية ركزت الصهيونية العمالية على:

> إنشاء مؤسسات اجتماعية تسمح بتطور مجتمع حي ومنتج [كمستوطنات الكيبوتز مثلا]. وقد أنشأوا شبكة من الشركات، والنقابات، والخدمات الاجتماعية التي ستكون العمود الفقري للمجتمع اليهودي المحلي الناشئ في فلسطين ... من جهة أخرى، لم يبدِ الإصلاحيون أدنى اهتمام بالمشروع الاجتماعي؛ فلم ينشئوا مستوطنات، لا زراعية ولا غير ذلك. كانت الصهيونية تعني لهم السعي نحو هدف واحد، وبالتحديد تطوير قوة عسكرية كافية لاسترداد الأرض كلها (Kaplan, 2005).

كان "الحق الصهيوني" تحت قيادة جابوتنسكي أولاً في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وتبعه في القيادة مناحم بيجين بعد عام ١٩٤٣، وقد أثر هذا الحق في حركة لم تؤمن بأي شكل من أشكال الحلول الوسط بشأن الأرض ولم تساندها

> نبدأ القول بأن اليهود ظلوا في حرب دائمة ضد قبيلة العماليق التي ترمز إلى النمط القطري لعدو الشعب اليهودي في كل جيل من الأجيال. وبعد الهولوكست صار العرب عماليق العصر الحديث، ورثة النازيين، الذين خرجوا لتدمير الشعب اليهودي ... لقد كان هذا القتال الأسطوري بين الشعب المختار وأعدائه الفانين [قتالاً تنزل به الوحي] (المرجع السابق).

وهكذا، أسهم الخوف نفسه إسهاما قويا في إنشاء دولة إسرائيل. وبعد حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل المنتدبة صارت مُثُل القوة والمكان حقائق واقعية. وأدى هذا إلى ظهور أعداد متزايدة من المستوطنات، تأثرت كلها بالمُثُل التي سبقتها.

وقد مثلت اليهودية منذ بداياتها الأولى نوعا من القتال على الأرض في حد ذاتها. فقد حارب اليهود من أجل الأرض، وحازوها، وفقدوها، وحملوا هوية "التائهين" حتى واتتهم فرصة لإنشاء دولة يهودية، ووضع سياساتها، مع التوسع في بناء مستوطناتها.

ووفقا لقول المكتب الإسرائيلي للشئون الداخلية يوجد في الضفة الغربية ما يزيد على ٢٥٠٠٠٠ مستوطن يهودي، علاوة على ٢٠٠٠٠٠ مستوطن في القدس الشرقية. ولم يكن إخلاء أربع مستوطنات أمرا مبشرا بالأمل كما جرى تصويره، خاصة مع مراعاة أن مستوطني الضفة الغربية قد زادوا بمقدار ٩٠٠٠ مستوطن في الفترة من ٢٠٠٤-٢٠٠٥. والواقع أن القوات الإسرائيلية لم تنسحب أبدا من الضفة الغربية، وأن الجدار العازل يمثل أضخم سجن بني على الإطلاق. وفي نفس الوقت، تبقي الحكومة الإسرائيلية مواطنيها الإسرائيليين في حالة خوف بطمأنتهم أن أعمالها العدوانية ستحميهم، وهي بذلك تستغل خوفهم من العداء للسامية، بينما هي تحميهم من شواهد عنفها ضد السكان الفلسطينيين.

ويمثل تزايد السكان الإسرائيليين تهديدا للحكم الإسرائيلي للأرض. من الحجج الرئيسية التي يسوقها الإسرائيليون ضد الدولة مزدوجة القومية، أنهم يخافون من الأغلبية العربية/الفلسطينية. إن ارتفاع معدل المواليد بين السكان العرب وانخفاضه بين الإسرائيليين (عدا الأورثوذكس المتطرفين منهم) سيخلق في النهاية وضعا سكانيا يصير فيه اليهود أقلية. وقد رحبت الحكومة الإسرائيلية بالهجرة المتزايدة ليهود أمريكا وأوروبا إليها[٩]، بل مولت هذه الهجرة، في محاولة منها لتجنب هذه الإشكالية، ولضمان سيادتها على السكان الفلسطينيين العرب وعلى الأرض. والحقيقة ما قالته تقارير وسائل الإعلام من أن إسرائيل

---

(١٠) كتب أميرام باركيت وإيفال آزونلاي في هاآريتس نيوز في ٢٩-٧-٢٠٠٤ مقالا بعنوان: ٢٠٠ مهاجر فرنسي يصلون إلى إسرائيل.

تقدم قروضا تصل إلى ٢٥٠٠٠ دولار أمريكي للمساعدة في نفقات انتقال اليهود إليها واستيعابهم فيها، وفقا للحاجة، ويتحول القرض إلى منحة إذا بقي القادمون لمدة ثلاث سنوات. تتلقى الأسرة المتوسطة من ١٥٠٠٠ إلى ١٨٠٠٠ دولار أمريكي ويتلقى الشخص الأعزب من ٥٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ دولار أمريكي ... بالإضافة إلى رحلات الطيران المدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية(١٠).

لكن الصهيونية وهوس اليمين المسيحي المتطرف بمعركة هرمجدون تقبع أيضا خلف هذه الانتقالات.

فبالنسبة لليهودي الأرثوذوكسي، الذي يرى دولة إسرائيل جزءا من تحقيق العهد كما عبر عنه سفر حزقيال ٣٦: ٢٤، فإن أي تنازل في موضوع الأرض سينتهك ذلك العهد نفسه. ومع استمرار تأثير النضال الأسطوري، أدى تحقيق تدمير هذا الموقف إلى سيادة الفلسطينيين، ومطالبتهم بالأرض، وخلق الموقف الذي ظهر فيه الفلسطينيون المتطرفون والانتحاريون الذين يفجرون أنفسهم؛ مبررين القتل بأنه واجب ديني لحماية ما يعتقدون أنه حقهم. وقد أدى بالحكومة الإسرائيلية إلى إيقاع العقاب الجماعي بالسكان الفلسطينيين.

لقد أسهمت السياسة والدين كلاهما في هذا الكابوس المستمر؛ لكن الدين ذاته آلية قوية تقف خلف المُثُل التي تلهم الناس وتوحد شملهم، كما تلهم السياسيين، والمناضلين من أجل الحرية، والفدائيين، والإرهابيين بالانخراط في سلوكيات

---

(١١) *Come "Juli Stahl. (July 15, 2004). North American Jews Realize Dream to to Israel. CNS News.com, Jerusalem Bureau Chief."Home http://www.cnsnews.com/ViewForeignBureau.asp/Page=%5CforeignBureaus%5Carchive%5C200407%5CFOR20040715c.html*

تدميرية. لدى كل من اليهود والفلسطينيين أسباب تاريخية تجعلهم يفهمون تعليق آرنداتي روي القائل

> **إنهم [الفاشيست] قد حشدوا البشر باستخدام القاسم المشترك الأصغر بين عامة الناس، ألا وهو الدين. الناس الذين فقدوا التحكم في حياتهم، الناس الذين انتزعوا من بيوتهم ومجتمعاتهم، والذين فقدوا لغتهم، وجعلوهم يشعرون بالفخر بشيء ما ... شيء كانوه. ويغذي زيف تلك النعرة وفراغها غضبا من نوع غضب الجلادين، الذي يوجه بعد ذلك نحو هدف مقلد زج به إلى ساحة المصارعة (Roy, 2003, p. 41).**

وقد تأثرت الحكومة الإسرائيلية بجدول أعمال مشروع القرن الأمريكي الجديد، الذي نوقش في الفصل السابق. وقد قدم معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدمة في نهايات تسعينيات القرن العشرين تقريرا بخصوص خطط الاستراتيجيات الإسرائيلية التي كانوا يأملون في تدشينها في عام ٢٠٠٠. وقد قدم هذا التقرير إلى نتنياهو، الذي كان رئيس الوزراء وقتها، الذي تجاهل هذا التقرير بما لديه من حكمة. قدمت وثيقة "استراحة نظيفة: استراتيجية جديدة لتأمين الوطن "A Clean Break: A New Stratagem for Securing the Realm"[١١] الخطوط العامة لخطة *الشرق الأوسط الجديد*[١٢]. وهكذا، كما ساند اليمين اليميني المتطرف خطط مشروع القرن الأمريكي الجديد ودعم مُثُله القائلة بأن العنف والسيادة سيحميان حدود الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أثر اليمين الصهيوني المتطرف في

---

(١٢) تناولت هذه الوثيقة العراق واستهدفته، فقد اعتبر تهديدا لإسرائيل. وقد كان لهذا ولموقع العراق الاستراتيجي في سوق البترول في الشرق الأوسط ضلع في الهجمات التي حدثت بعد ذلك بسنوات قليلة.

(١٣) معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتطورة، القدس وواشنطن *http://www.iasps.org/start1.htm*

عدد هائل من الإسرائيليين وأقنعهم بأن العنف والعدوان سيضمنان سلامتهم. والأصوليون الإسلاميون يردون على هذا النموذج. وكل جماعة تعتقد أن القوة والعنف فقط هما اللذان سيضمنان تحقيق أهدافها. وقد امتزج الدين بالسياسة دون اهتمام بموت الأبرياء.

وإسرائيل، مثلها مثل الكثير من الأمم العربية، لا تعترف بفصل الدين عن الدولة، لمجرد أنها الدولة *اليهودية*. لكن الدولة قد تمزقت أيضا بفعل ما يمكن تعريفه بأنه "حرب أهلية" بين اليهود العلمانيين والمتدينين حول القضايا الاجتماعية بالإضافة للقضايا السياسية. ومنذ إنشاء دولة إسرائيل، اتسعت الفجوة بين اليهود العلمانيين والأورثوذوكس.

وبغض النظر عن المعتقدات الدينية وقضايا السكان، يرى الباحث العربي أسعد غانم أن نموذج الدولة ثنائية القومية ضرورة، حيث إنه "ليس للشعبين اختيار آخر عدا العيش معا في دولة واحدة" (Ghanem, 2001, p. 169). وستخلق ثنائية القومية وضعا مشابها لوضع الأغلبية السوداء في جنوب إفريقيا، كما يصفه غانم

> **.. في المرحلة الأولى، وبمراعاة توازن القوى في المنطقة، سيستمر اليهود في السيادة على الفلسطينيين، بل حتى ستزداد الأمور شدة في أحوال التحكم، والتمييز، والقمع. لكن مع نمو التفتت الجديد بين الفلسطينيين، والرغبة في بدء أعمال عنف ضد التحكم اليهودي ... يمكننا توقع نشوء ضغوط محلية ودولية للسماح للفلسطينيين بالمشاركة ... في إدارة أحوال البلاد على قدم المساواة (المرجع السابق).**

وغني عن القول أن مثل هذا الحل ليس مقبولا حتى بين معظم ليبراليي الجناح اليساري في إسرائيل. لقد أنشئت إسرائيل كدولة يهودية، وهي تناضل

للحفاظ على هويتها بسبب مُثلها ومخاوفها المتعلقة بتاريخ لا يفتر من معادة السامية في العالم. ويذهب يوري آفينيري (الناشط من أجل السلام) أيضا إلى أن الإسرائيليين والفلسطينيين كليهما "ليسوا على استعداد للعيش معا كمواطنين متعالين على القوميات ... توجد حاجة إلى دولتين لشعبين. وستوجه هذا المشاعر القومية ... نحو قنوات معقولة وبناءة"(١٣). لابد أن تفرج الجماعتان عن مخاوفهما ودفاعاتهما التاريخية. ولابد أن تناقشا باحترام حقوق كل منهما في الحياة في سلام. ومن الواضح أن هذا الخيار ليس مفتوحا للمناقشة في هذا الوقت، ولن يحدث دون مساعدة من المجتمع الدولي.

وفي الواقع، يقف حاجز أكبر بين السكان اليهود والفلسطينيين. لقد أنشئ جدار هائل ليفصل الفلسطينيين عن الإسرائيليين، وبوسع المرء أن يقول إنه بني لكي "يسجنهم". استخدم المسئولون الإسرائيليون الرسميون مصطلح "الجدار الأمني" لوصف هذا الجدار؟! بني هذا الجدار بأمل منع الإرهابيين من دخول إسرائيل وارتكاب مذابح ضد المدنيين في الحافلات والمقاهي (على الرغم من أن هذا "الفصل" لم يمنع العسكريين الإسرائيليين من دخول الأراضي الفلسطينية، وقتل الفدائيين المستهدفين والمواطنين العاديين الموجودين بالجوار، وهدم البيوت والبساتين)(١٤). والحقيقة أن تبرير خطف الفلسطينيين ومقاتلي حزب الله لجنود إسرائيليين في عام ٢٠٠٦ قد قام على أساس الانتقام من العدوان الإسرائيلي، مع النية لتتفاوض لإطلاق سراح بعض السجناء الفلسطينيين المحتجزين في السجون الإسرائيلية والذين يقدر عددهم بـــ ٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ شخص (الكثير منهم محتجز دون تهمة رسمية)(١٥).

---

(١٤) مقتبس في *The Nation (2003, December). P. 1*

(١٥) *Mosaic: Daily News from the Middle East. LinKTV. San Rafael, CA.*

(١٦) لإسرائيل تاريخ طويل ومرير مع حزب الله. في أواخر سبعينيات القرن العشرين كانت لبنان تحت حكم نظام فلسطيني راديكالي. هاجم الإسرائيليون لبنان وطردوا القادة الفلسطينيين منها. شعر الشيعة بالسعادة في البداية، لكن إسرائيل بدأت بعد ذلك في مهاجمتهم. وحكم بأن آرييل

وقد أحزن الموقف قلوب من يحبون المساواة بين جميع الناس. المواطنون الأبرياء على الجانبين المتنازعين على الأرض والجدار العازل يعيشون في خوف مستمر. كل ما يريدونه أن يكسبوا عيشهم بعرق جبينهم، ويستمتعوا بأسرهم وحياتهم. يريدون أن يتحركوا بحرية في شوارعهم ومدنهم بلا خوف، لكن الجدار العازل يسبب للفلسطينيين معاناة ومتاعب شديدة، كما ورد في تقرير البنك الدولي (مقتبسا في جريدة هاآريتس)[١٦]. فالجدار يقسم القرى إلى نصفين في كثير من الحالات، ويمنع الأطفال والمعلمين من الوصول إلى مدارسهم، ويفصل بين الأسر، ويقطع الطريق بين الفلاحين وأراضيهم، ويحد من فرص العمل. وقد زاد الجدار من حدة الكراهية بين الكتلتين السكانيتين. إنه يقف كتمثيل واضح لحالة الانقسام البشرية، وقد خلق بذور العنف الانتقامي.

العمل العسكري والحقوق الفلسطينية

يوجد تعصب ضد الفلسطينيين خوفا منهم وكرها لهم. إن كون المرء عربيا ليس سببا أخلاقيا لحرمان الشعب العربي والفلسطيني من الحق في دولة ذات سيادة، بما في ذلك الحق في حياة كريمة آمنة. إن الإصرار المستمر على إخلاء الأراضي المحتلة من الفلسطينيين يمثل تهديدا مستمرا لوجود الشعب الفلسطيني نفسه، وكل ما تفعله السياسة أنها تفاقم من الكراهية وتزيد من النشاط العنيف. فجولدا مائير (١٨٩٨-١٩٧٨) مثلا أنكرت وجود الشعب الفلسطيني[١٧]، ويعني ذلك ضمنا ضرورة إدماج الفلسطينيين في البلدان العربية، ومغادرتهم للأرض التي

شارون هو المسئول عن اغتيال المئات من المدنيين الفلسطينيين، واتهم بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. ظهر حزب الله في تلك الأثناء كقوة عسكرية لطرد الاحتلال الإسرائيلي. فالعداوة بين إسرائيل وحزب الله لها تاريخ طويل. ومساندة إيران وسوريا لحزب الله يمكن أن تطلق شرارة المزيد من الحرب بينهما.

(١٧) *http://www.gush-shalom.org/thewall/worldbank.html*

(١٨) *Meir quoted by Sarah Hongi, Jerusalem Post, 25 November 1995.*

"تملكها إسرائيل" الآن وإلى الأبد. وعلى الرغم من أن مائير كانت امرأة، فإن أيديولوجيتها وحكمها كان لهما طبيعة أبوية.

وقد تخلت الولايات المتحدة الأمريكية عن العرب لأنها استمرت في نفي ما يتعرض له الفلسطينيون من كرب ، متجاهلة بذلك حرفيا التقارير الواردة من العديد من منظمات حقوق الإنسان. وقد أصدرت منظمة العفو الدولية تقريرا في ١٥ مايو ٢٠٠٤ قالت فيه:

> **لقد اتبعت إسرائيل على مدى عدة عقود سياسة الإخلاء القسري للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة وهدم بيوتهم، وبيوت عرب إسرائيل بداخل إسرائيل. وعلى مدى السنوات الثلاث والنصف الماضية، وصل معدل التدمير الذي نفذه الجيش الإسرائيلي في الأراضي المحتلة إلى مستوى غير مسبوق.**
>
> **دمر الجيش الإسرائيلي وقوات الأمن الإسرائيلية ما يزيد على ٣٠٠٠ بيت، ومئات من المباني العامة، ومساحات شاسعة من الأراضي الزراعية في إسرائيل والأراضي المحتلة في غضون السنوات الثلاث ونصف الماضية. وتعرض عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال للإخلاء القسري من منازلهم، وشردوا أو فقدوا مصدر عيشهم. ودمرت الآلاف من البيوت والممتلكات الأخرى، وقد بلغ الدمار بالكثير منها حدا يستعصي معه إصلاحها. كما أن عشرات الآلاف من البيوت الأخرى تقع تحت تهديد الهدم، ويعيش سكانها في خوف من الإخلاء القسري والتشرد.**

لقد هاجم جيش الانتداب الإسرائيلي المتظاهرين وقتلهم برصاصات معدنية مغلفة بالمطاط أو البلاستك والذخيرة الحية. وجاء في تقرير منظمة العفو الدولية أن هذه الأسلحة "يحتمل أن تكون قاتلة، تصلح لمواقف المعارك، لا لحفظ النظام في المظاهرات العنيفة". ووفقا لتقرير الولايات المتحدة الأمريكية عن حقوق الإنسان: "لدينا تقارير موثوق بها عن فشل الشرطة في حماية أرواح العرب وممتلكاتهم في عدة أحداث هاجم فيها مواطنون إسرائيليون مواطنين عرب"[١٨]. كما أن وسائل الإعلام في كل من الولايات المتحدة وإسرائيل تتجاهل أعمال العنف التي يرتكبها المستوطنون ضد المدنيين في الأرض المحتلة والقدس. وقد ساءت هذه الأحوال، لأن ردود فعل الإسرائيليين ازدادت بشدة مع قيام الفدائيين الفلسطينيين بعمليات انتقامية. إن الاعتقاد بأن زيادة مستوى ما تمارسه الأمة من عنف وتخويف سيجعلها تهزم أعداءها اعتقاد أبوي، وهو نموذج خطر حقا.

وقد رفع معظم المجتمع الدولي (عدا الولايات المتحدة الأمريكية) صوته معارضا لرد فعل إسرائيل على خطف بضعة من جنودها "بما لا يتناسب" مع ما حدث؛ وذلك بقتلها للكثير من الفلسطينيين المدنيين الأبرياء بعد الحادث (ومنهم أطفال)، وقطعها للمياه والكهرباء والوقود عن قطاع كبير من السكان الفلسطينيين. وقد دمرت البنية التحتية للبنان بأكملها، مع قتل مئات من مواطنيها. وما زالت خسائر تحدث بسبب تزايد الموتى سواء في لبنان أو في إسرائيل. معظم الضحايا من النساء والأطفال. ومن يموتون ويقاسون الويلات في إسرائيل هم بالمثل أبرياء، وذلك من جراء الأيديولوجيات الأبوية.

ونذكــر القــراء بأن الكثير من المواطنين الإسرائيليين اليهود أناس طيبون لا يساندون إهانة الفلسطينيين وإساءة معاملتهم عند نقاط التفتيش، ولا العنف العسكري الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية. توجد في البلد الكثير من حركات السلام. المشكلة أساسا في السياسيين، والمتعصبين دينيا وأتباعهم. كما أن الكثير

---

(١٨) *http://www.state.gov/g/drl/rls/hrrpt/2000/nea/794.htm*

من مواطني إسرائيل قد لقنوا مذاهب معينة ولا يعون مدى العنف الذي تمارسه الحكومة الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني (بالضبط كما يجهل الكثير من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية التاريخ الصحيح للسياسة الخارجية الأمريكية في جميع أنحاء العالم).

لكن انعدام المساواة المذكور عاليه لا يبرر تفجير الانتحاريين لأنفسهم في يهود إسرائيليين أبرياء ولا قتلهم لهم. العنف ليس مقبولا من أي من الجانبين. لكن النسق الموجود نسق مغلق، وتميل الحكومة إلى مساندة السياسة الإسرائيلية على حساب حقوق الفلسطينيين. ويلاحظ ناعوم تشومسكي في نقده لها الاتجاه العام للسياسة الأمريكية كيف أن

> **حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت ولا زالت من كبار مؤيدي الإرهاب الذي تدعمه الدولة، فهي تحبذ العدوان الانتقامي أو الاستباقي وتفضله على التوسط في المحكمة الدولية، وتتحاشي المحاسبة باستثنائها لنفسها من التعريف المتفق عليه عالميا للإرهاب (Chomsky, 2002).**

إن إسرائيل قصة ناجحة، بعبارة القوة الفائقة (الولايات المتحدة الأمريكية). ففي بحر نصف قرن أتت جماعة من الناس كان يغلب عليها صفة المهاجرين إلى منطقة متخلفة وخلقت فيها أمة ديموقراطية ذات مستوى حياة متقدم، واقتصاد يعتمد على التقنية العليا، وجيش محنك. لكن منظور الحالة الإنسانية يرى أن المصالح السياسية والتمركز حول عِرق معين قد فرضا حاجزا شنيعا بين اليهود والعرب. فهذه المنطقة قد صارت بالنسبة للشعبين الذين يسعى كل منهما إلى فردوس آمن مكانا يزداد خطرا سواء كان المرء يهوديا أو فلسطينيا. فبالنسبة للإسرائيليين تتهدد الحرب المتصاعدة بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية مع جيرانهم العرب والمسلمين حسن حال العالم بأسره.

انفصال الديانات واستقلال كل ديانة بدولة: الهند وباكستان

كانت السياسة والقوة أيضا خلف الصراع بين المسلمين والهندوس على كشمير. تاريخيا، انتشر الاستعمار الكولونيالي في الهند، ووضعها تحت الحكم البريطاني لما يزيد على قرن. وقد كانت هيمنة شركة شرق الهند البريطانية على القارة الهندية حقيقة متفقًا عليها؛ إلى درجة أن الهند قد امتصت فيما بعد في الاقتصاد العالمي بوصفها بلدا تابعا لبريطانيا العظمى، لا على أساس استحقاقها هي نفسها لذلك. لكن العنصرية البريطانية السافرة دعمت تزايد الوعي بالهوية الهندية، وفي عام ١٨٨٥، تأسس الوفد الهندي الوطني، وهو أول منظمة سياسية تضم الهند كلها. وقد تأسس هذا الوفد الهندي الوطني استجابة لتزايد الوعي بالهوية الهندية. وسرعان ما نشأ فيه جناح متطرف شكك في حق الغرباء في حكم الهند. وفي هذا النضال من أجل الاستقلال، حشد غاندي سلاحه، ألا وهو *الساتياجراها* (المقاومة السلمية)، وأنشأ حركة حاشدة مضادة للعنف. وكان الرد السياسي على ذلك مذبحة آمريتسار التي أصابت الهنود، فزادت من الشعور بمرارة العنصرية.

كان الهنود المسلمون أعضاء نشطاء في قوات مقاومة البريطانيين، وكانوا حانقين على معاملة الحلفاء لقائدهم الروحي، وهو سلطان تركي. هدفت حركة عدم التعاون ١٩٢٠ - ١٩٢٢ إلى إعادة تناول "خطأ الخلافة" وكسب الـ *سوارا*ج (الحكم الذاتي)، فنظمت أول حركة جماهيرية هندية. لكن وحدة الهندوس والمسلمين كانت مؤقتة.

عاش الهنود المسلمون والهندوس معظم الوقت معا في صداقة، وعاشوا على هذا المنوال لعدة قرون. وفي أغسطس ١٩٤٧ حصلت شبه الجزيرة الهندية على استقلالها عن البريطانيين بعد ٤٠٠ عام من الحكم الاستعماري الإمبريالي، وسرعان ما تحللت الصداقة طويلة الأمد وتحولت إلى إرهاب وعنف. قبل سبع سنوات، نادى محمد على جناحًا (١٨٧٦-١٩٤٨)، الذي سرعان ما سيصير قائدا لباكستان، بالانفصال عن الهند وإنشاء باكستان المستقلة. وكانت الجامعة الإسلامية قد كسبت تأثيرا متناميا وساندت جناحًا. ورئي أن حل الانفصال طريقة لحل الصراع بين الهندوس والمسلمين.

وفشلت المحادثات بين غاندي وجناح حيث استمرت الخطط التي أدت في النهاية إلى إعلان اللورد مونتباتن لانفصال باكستان عن الهند. كان غاندي ضد الانفصال تماما، فقد كان يعتقد أن الهندوس والمسلمين يجب أن يظلوا متحدين، لأن علاقتهم ببعضهم البعض في الماضي كانت إيجابية. وفي البداية، لم يكن جناح يحبذ الانفصال أيضا. وعلى الرغم من أن جناحًا لم يكن متدينا، فإنه تأثر بشدة بالمتطرفين في الجامعة الإسلامية (Purcell, 2004). وتنبأ هو وغاندي بالمأساة الإنسانية التي ستنتج عن هذا الانفصال. كانت الهند البريطانية قد فصلت عنها باكستان ذات الأغلبية المسلمة. وحيث إن الهند كانت هندوسية في المقام الأول، فقد حدث تزاوج عميق بين الدين والسياسة في هذه الحركة. وتركت للدول الإمارات(١٩)، التي تشمل كشمير، حرية اختيار الانضمام إما إلى الهند أو إلى باكستان. وبدأت بريطانيا في هذه الحالة -كما في حالة إسرائيل وفلسطين- في مراجعة حكمها للمستعمرات وسط توتر عِرقي متزايد. وحين ازداد تفاقم أعمال الشغب التي قام بها الهندوس والمسلمون، رحل الحكم البريطاني عن الهند ومنح باكستان استقلالها.

وأدى إنشاء الدولتين إلى حدوث هجرات جماعية مدمرة، نزح فيها ملايين المسلمين إلى باكستان التي صممت حديثا، بينما عزل ملايين الهندوس أنفسهم على الحدود الهندية الجديدة. لم يحدث أبدا من قبل في تاريخ البشرية كله مثل هذا الخروج الجماعي للناس الذي حدث في هذا الزمن القصير. ففيما بين أغسطس ونوفمبر ١٩٤٧ عبر ما يصل إلى ٢٨٠٠٠٠٠ لاجئ الحدود على متن ٦٧٣ قطار خصصت لنقل اللاجئين. استخدم الأثرياء الطيران، وكانت ست إلى سبع طائرات تطير يوميا بين الهند وباكستان. وكان على الناس الأكثر فقرا أن يغادروا سيرا على الأقدام، في صف بشري ضخم عرف باسم *القوافل*. رحل المسلمون غربا إلى باكستان بينما تحرك الهندوس والسيخ شرقا نحو الهند. وقد بلغ من ضخامة بعض صفوف القوافل

---

(١٩) حكم البريطانيون الهند بنظامين إداريين: المقاطعات (التي تقع تماما تحت الحكم البريطاني) والدول الإمارات (مناطق لها حاكم محلي أو ملك يحمل ألقابا شرفية مثل المهراجا، أو الراجا،... إلخ).

المكونة مما يزيد على ٤٠٠٠٠٠ شخص أن عبور مثل هذا الصف من المشاة لنقطة معينة استغرق ثمانية أيام. تشرح أورفاشي بوتاليا، وهي مؤلفة ولدت بالهند وابنة للاجئين مـــن جراء الانفصال، أن الجميع تعرضوا للهجمات في هـــذه الرحلة التي لا أمـــان لها. لا يهـــم ما إذا كـــان الشخص يسافر بالقطار، أو بالسيارة، أو بعربة نقل، أو سيرا على الأقدام، أو ما إذا كـــان الفـــرد هندوسيا أو مسلما، أو ضربه الفقر. كان الجميع عرضة للخطر أثناء تقاطع صفوف القوافل ببعضها البعض في حالة العبور (Butalia, 2000, p. 61).

ومن لم يعانوا من العنف مباشرة تحملوا آثارا مدمرة أخرى. لم يكن جنون فرض الغربة على ملايين الناس أمرا مفهوما، والظاهر أن الحكومتين لم تكونا جاهزتين لنتائجه. قسمت جميع الوحدات الإدارية أثناء الانفصال. وقد آذى هذا جميع نواحي الحياة: فقد قسمت الأسر، ودمرت البيوت، وتركت المحاصيل لتتعفن، وهجر الناس القرى، وتفكك التعليم، وفقدت المرتبات، والمعاشات والتمويلات. وقد حاولت الحكومتان لسنوات بعد ذلك أن تصلا إلى اتفاق ما بشأن الديون ومستحقيها. والمحزن أن هذا الحدث المدمر قام بأكمله إلى حد بعيد على أساس الهوية الدينية.

كشمير

شنت الهند وباكستان الحرب على كشمير للمرة الأولى في أكتوبر ١٩٤٧. تتكون كشمير من ديانات مختلفة كثيرة. فمنطقة جامو مثلا تتكون من أغلبية هندوسية؛ بينما توجد في منطقة أداك أغلبية بوذية؛ أما منطقتي ميربور ومظفر آباد ففيهما أغلبية مسلمة. أما وادي كشمير فأكثر منطقة مرغوبة وأكثر المناطق تعقيدا، ففيها معظم سكان الدولة ومعظم الموارد. سكان الوادي أساسا من المسلمين السنيين، لكن الأغلبية الهندوسية في الوادي تشمل البراهميين الكشميريين (البانديت)، وهي من أهم الطوائف الهندية، التي ينتمي إليها الكثير من كبار السياسيين والبيروقراطيين الهنود.

هكذا، يدور الصراع الرئيسي في كشمير حول من يحكم الوادي. لقد شنت الهند وباكستان الحرب على كشمير مرتين (في عام ١٩٤٧، وعادتا إلى الحرب في عام ١٩٦٥، مع حدوث صراع كبير في عام ١٩٧١ لم يتمخض عن حرب) وما زالت حرب العصابات مستمرة. وقد دخلت الأمم المتحدة في النزاع في عام ١٩٤٨ وصارت كشمير أقدم صراع مسجل في قراراتها. وأرادت الصين أيضا نصيبا من كشمير. احتلت الصين في عام ١٩٦٢ قطاعا من غرب كشمير، أخذته أثناء حربها مع الهند، في خضم الحرب بين الهند وباكستان على كشمير. وقسمت كشمير في عام ١٩٧٢ إلى قسمين بخط عرف باسم "خط التحكم": فباكستان تتحكم في الأراضي الشمالية بينما تتحكم الهند في الأراضي الجنوبية. لكن النزاع لم يتوقف، حيث إن الوادي ذا الأغلبية المسلمة قد ضم إلى الأراضي الهندية.

وقد جادل الباكستانيون لفترة طويلة في أن مشكلة كشمير تنبع من طموح الهند للهيمنة وقبولها لواقع باكستان صاحبة الحق. وتظل كشمير بالنسبة للباكستانيين "موضوعا لم ينته" من مواضيع الانفصال الذي حدث في ١٩٤٧. وما زالت غارات محاربي العصابات المسلمين مستمرة حتى يومنا هذا. وهدفهم إما ضم كشمير كجزء من باكستان أو إنشاء دولة كشميرية مستقلة. يقف ما يزيد على مليون فرقة من القوات الباكستانية والهندية على شفا الحرب. وازداد خطر الموقف منذ ١٩٤٧ بدرجة هائلة حيث حشدت كل دولة أسلحتها النووية. لكن المشكلة الحقيقية بدأت منذ زمن بعيد، حيث دفعت القبضة الأبوية التي تتحكم في الأرض، والقوة والمعتقدات عجلة السبب والنتيجة وحركتها.

وما زال العنف مستمرا بين الهندوس والمسلمين. وقد هددت أكبر منظمة هندوسية (المجلس الهندوسي العالمي) بمذبحة أخرى في عام ٢٠٠٦ شبيهة بمذبحة كوجارات ضد الأقلية المسلمة من الهنود إذا لم يسلم من ارتكبوا تفجير قطار مومباي إلى يد العدالة.

جمهورية الصين الشعبية: الشيوعية والتغيير

تحقق الصين أرباحا سريعة في القوة الاقتصادية والسياسية. ويعتقد الكثيرون أنها لو استمرت في النمو فقد تحل محل الولايات المتحدة الأمريكية كأعظم دولة قوية في العالم. للصين تاريخ طويل وثري ومثير للاهتمام يساند ظهورها الحديث كقوة عالمية بارزة.

بدأت الأسرات الصينية الأبوية تحت حكم شانج (١٧٠٠-١٠٢٧ فيما قبل ميلاد المسيح) حين ثارت قبيلة كانت في السابق من البدو الرحل وأسست سيادتها. وتبعتها أسرات أخرى. كانت النظرة إلى الحكومة الملكية تراها نسخة شبيهة بنظيرتها في السماء. وأسس نظام الطوائف وفقا لذلك، لأنه حتى أرباب السماوات كان يحتاجون إلى محاربين، وتجار، وخدم ليخدموهم. وهكذا، تبوأ نمط الحكم الأبوي الصيني مكانه.

وقد كان للحكيم العظيم كونفشيوس (٥٥١-٤٧٩ فيما قبل ميلاد المسيح) تأثير عميق على أفكار خلق توازن صحيح بين السماء والأرض، والحاكم والمواطنين، والأبوين والأطفال. وقد كانت مختلف الشعائر، والاحتفالات، والأضحيات تمارس لتكريم الأسلاف أو تبجيلهم، حيث كان يعتقد أن تأثيرهم العميق على الحياة الأرضية يظل باقيا بعد موتهم. وقد أكدت الفلسفة الكونفوشيوسية على معرفة المرء بمكانه في سلم المراتب وضمان الالتزام بالاحتشام والوقار الصحيحين لضمان حدوث تآلف سليم بين السماء والأرض. وقد أسهمت هذه الفلسفة في قواعد الأخلاق الاجتماعية التي تحدد السلوكيات السليمة داخل هذا التراتب الهرمي. كان هدف القانون الصيني ضمان الخضوع للحاكم. وقد كانت عقوبات الخروج عن هذا الالتزام وما زالت عقوبات خشنة (Werner, 1994).

كانت الكونفوشيوسية، والطاوية، والبوذية أول الديانات التي أثرت في الصين. ويمكن اعتبار البوذية بشكل ما تهديدًا للكونفوشيوسية وللحكومة الصينية، حيث إنها هاجرت من الهند إلى الصين؛ لأن البوذية مصنوعة من حالة استثارة وراء الما وراء[٢٠]- ومن ثم إلى ما وراء الثنائية السياسية بين السماوي-الأرضي التي تتحكم في الشعب الصيني. وبغض النظر عن ذلك، قبلت البوذية كجزء لا يتجزأ من الحياة الصينية، حتى ظهور جمهورية الصين الشعبية.

تشكل الحزب الشيوعي الصيني في عام ١٩٢١ أثناء الحرب الأهلية الصينية. وأطاح الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو تسي تونج بالحكومة الوطنية وأنهى الحرب في عام ١٩٤٩. كان الصينيون يريدون الاستقلال عن المؤثرات الغربية؛ وهكذا استولت معتقدات لينين على انتباه البلد، وهي معتقدات تقول إن الإمبريالية الغربية قد مثلت تأثيرا شريرا. وتسابق الشعب الصيني لمساندة هذه الحكومة الجديدة وسياساتها للتنمية الاقتصادية والإصلاح الاجتماعي. ودشن ماو حملة كبيرة للتغيير معلنا أن "القوة السياسية تنمو من برميل البنادق"، وقمع كل وأي معارضة بالقوة.

وبدأ ماو في التركيز في الداخل على الحملات الكبيرة من أجل التغيير. كان لابد من التخلص من الأفكار والعادات والأعراف والثقافة القديمة. وقامت حملة أخرى مسئولة عن التخلص من الإسراف، والفساد والبيروقراطية المفرطة. وكانت الحملة الثالثة *الحملة ضد الأشياء الخمسة*، التي ركزت على التخلص من التهرب الضريبي، وجميع أنواع الرشوة، وسرقة ممتلكات الدولة، وجميع أشكال الغش في عقود الدولة وأي سرقة متعلقة بالمعلومات الاقتصادية. صممت هذه الحملات نظريا لتدمير جميع بقايا ما كان يعتبر مؤثرات رأسمالية. وأعيد تسمية شركة

---

(٢٠) ترجمت هذه العبارة من كتاب الهارتسوترا ***HeartSutra*** البوذي حيث يسعى المريد إلى الذهاب إلى ما وراء جميع الفكر، والتصورات، والأحاسيس، والمشاعر، وما إلى ذلك للحصول على حالة النيرفانا، السلام التام.

إذاعة يانان شينخوا باسم محطة الإذاعة المركزية الشعبية؛ لتخدم كأداة لسياسات الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي للحزب الشيوعي الصيني. ونزعت الأراضي والثروات من أيدي ملاكها السابقين ووزعت بالعدل على الفلاحين الصينيين. كما أعدم حوالي ثلاثة ملايين من ملاك الأراضي.

وأخمدت أصوات المثقفين غصبا، وحظي الزراعيون بالدعم. فمثلا، أثناء حملة *المائة زهرة* التي قادها ماو، دعا ماو المثقفين والفنانين إلى البوح بما لديهم، وفعلوا هذا، وأكدوا علنا معارضتهم لسياسات ماو، فأدى هذا إلى نفيهم إلى معسكرات الأشغال الشاقة وإصدار أحكام بالسجن عليهم.

وصار الفكر الديني والانتماء الديني هدفا أوليا للإصلاح. بدأت الصين الشيوعية في حملة "لتحرير" شعبها من الأيديولوجيات والطقوس الدينية. وغزا جيش التحرير الشعبي التبت في عام ١٩٥٠ "ليحرر الطبقة العاملة" (Kolas, 2003). ونزعت السلطات والثروات من اللامات، والرهبان وملاك الأراضي. وأعيد تصنيف مواطنيها حيث أخذت الثروات من الأغنياء وأعطيت للمزارعين وغيرهم من الطبقة العاملة. وكانت هذه هي النسخة الصينية من الإصلاح الديموقراطي (المرجع السابق).

وأغلقت الصين أبوابها في وجه بقية العالم لكي تشرع في خطتها الإصلاحية. وتوسعت في خطتها في عام ١٩٧٢ تحت حكم دينج خياو بينج، المعروفة باسم خطة أنواع التحديث الأربعة، للسماح بإدخال تحسينات على عدة مجالات، بالذات في الصناعة، والعلم، وتكنولوجيا الزراعة، والدفاع الوطني. وفي عام ١٩٧٨ لاحظ أحد المنشقين عن الحرس الأحمر الحاجة إلى نوع خامس من التحديث، مشيرا بذلك إلى *الديموقراطية*. وفي بحر عام، اعتقل هذا المنشق وحبس (لمدة ١٥ سنة). وفي عام ١٩٨٩ تظاهر الشباب القائمون بعمليات التحديث مطالبين بالإصلاح السياسي والاقتصادي. وأدى هذا إلى المذبحة الشهيرة في ميدان تيانانمين أثناء ممارسة الحكومة لتحكمها في الناس.

لكن على الرغم من القمع الحكومي، يظهر ما جبل عليه الشعب الصيني من إبداع وخيال وقوة بعدة طرق. فشلت محاولات الحكومة الصينية للقضاء على الدين. وتسمح الصين الآن بخمس ديانات، هي بالتحديد البوذية، والطاوية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام؛ على الرغم من ضرورة تسجيل كل دين بمعرفة وزارة الدولة للشئون الدينية وإقرارها له. لم يمكن إخماد الروح الداخلية للشعب الصيني. ويبدو أن الاقتصاد العالمي كان له أعظم الأثر على الصين ، حيث أعادت فتح حدودها لزيادة اقتصادها بالتنافس في السوق العالمي. وسيكشف الزمن عن كيف سيسير كل هذا إلى نهايته في العلاقات العالمية.

الإسلام: خلط الدين بالقانون

على الرغم من أن اهتمامنا في هذا الفصل تاريخي وليس تحليليا، فإن من المهم أن نفحص أصول المشكلات المعاصرة في علاقتها بالكيفية التي صبغ بها الإسلام بصبغة السياسة. الإسلام فريد من نوعه من حيث إن رسوله (النبي) كان أيضا حاكما، ألهم بنسق سياسي من أصل سماوي.

وقد كانت الحركات الإسلامية تاريخيا مدفوعة بنموذج النبي في إنشائه لدولة المدينة بعد هجرته من مكة (التي وصفناها في الفصل الأول). وقد أدت التفسيرات المختلفة للنصوص المقدسة واختلاف الأمثلة التي تمثل حياة النبي إلى إنشاء تنويعة مختلفة من الأنساق السياسية الإسلامية طوال تاريخ الإسلام. وبقدر ما تتنوع نظم يبدو أنها تردد نفس اللغة البليغة تتنوع أساليب تنفيذ المبادئ الإسلامية. لكنها جميعا يجمعها نسق مغلق، وكل من يقع خارج حدودها الثقافية يعتبر منحرفا.

لقد شرحنا بإيجاز في الفصول السابقة أن النسق السياسي في الإسلام في زمن حياة النبي محمد قد ظهر نتيجة لعمليات سياسية معقدة. حين عاش النبي في المدينة، أرغم أولا على حماية قومه، وثانيا على تنظيم طرق التعامل مع القضايا

القانونية والدينية. لكن سياسات النبي لم ترسم وفقا لنسق مغلق. لقد رحب باليهود والمسيحيين في المدينة ودمجهم في *الأمة*. وسمح لغير المسلمين بالفصل في نزاعاتهم بطرقهم الخاصة. ونصح النبي اليهود باتباع التوراة، والمسيحيين باتباع الإنجيل. نقرأ ما يلي في القرآن:

لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (المائدة: ٤٨).

وأخيرا، تظهر طوائف إسلامية راديكالية تعلن أن "المؤمنين" هم فقط من اتبعوا فكرة صارمة عن الإسلام، وهو ما يتعارض مع هذه السياسة التي أخذ بها النبي.

نهوض الحضارات الإسلامية وسقوطها

أتى نمو الحضارات الإسلامية نتيجة لهذا النسق المفتوح. استفاد المسلمون من الحضارات اليونانية، والهندية، والفارسية ومن الكثير من الإرث الثقافي الذي قابلوه في ذلك الوقت. وقد أثرتهم الثقافات الأخرى كما أثروها. وقد أشركوا أوروبا في إنجازاتهم في الكثير في مجالات الثقافة، والفن والعلم. ومرت الحضارة الإسلامية بأزمة عنيفة في القرن الخامس عشر حين أغلقت الإمبراطورية العثمانية (وهي نسق مغلق) أبواب التفاعل اللازم لمزيد من النمو الثقافي. سميت الإمبراطورية العثمانية باسم عثمان، وهو أمير تركي مسلم أسس خط حكمه الخاص في عام ١٣٠٠ ميلادية. وبحلول عام ١٤٥٣ ميلادية، كان العثمانيون قد دمروا الإمبراطورية البيزنطية واستولوا على عاصمتها قسطنطينبول، التي صارت منذئذ عاصمة الإمبراطورية العثمانية. وبحلول منتصف القرن السادس عشر، صارت الإمبراطورية العثمانية أكبر إمبراطورية في العالم، وحكمت أجزاء

من فارس، ومعظم الجزيرة العربية، وأقساما كبيرة من المجر والبلقان. وأضعفت الحروب التي جرت في القرن الثامن عشر مع روسيا والنمسا وبولندا الإمبراطورية العثمانية. وكانت تلك الإمبراطورية تدعى في القرن التاسع عشر باسم "رجل أوروبا المريض"، حيث استولى الاستعمار الكولونيالي الأوروبي على أجزاء من الشرق الأوسط، تشمل البلدان التي كانت من قبل جزءا من الإمبراطورية العثمانية. وحدد الاستعمار الكولونيالي الأراضي السياسية للعالم الإسلامي الحالي. وكان الإسلام في الشرق الأوسط مختفيًا خلف جدران من الجهل، نتيجة للعقلية الدينية العقائدية الجامدة التي سادت النهج الديني للعثمانيين.

> **ظل العثمانيون غافلين عن التحولات الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية التي كانت تحدث في أوروبا. وقد بذلوا جهودا جبارة لإحياء الهياكل الحكومية للقرون المبكرة. ولا عجب أن هذه الاستراتيجية لم تق الإمبراطورية من فقدان حرفي ومجازي لمزيد من الأرض، التي آلت إلى أعدائها (Heper, 2000, p. 6).**

ونتيجة لغزو الفرنسيين لمصر (١٧٩٨-١٨٠١)، التي كانت حينئذ جزءا من الإمبراطورية العثمانية، استيقظ المصريون على ما لدى أوروبا من معارف متقدمة في مجالات العلوم والتكنولوجيا العسكرية، فأدركوا أنهم متخلفون، وأن القيود التي فرضت على البلدان الإسلامية قد عزلتهم عن بقية العالم. وهكذا بدأ عهد جديد. فتح المضريون أبوابهم للحاق بالعالم الحديث. وأكد الرواد من أمثال رفاعة الطهطاوي عدم وجود تناقضات بين التعلم من الغرب والحفاظ على العقيدة الإسلامية.

حركات الإصلاح والنكوص

في بدايات القرن العشرين، اتسعت دائرة الخلاف حول كتاب *الإسلام وأصول الحكم* لعلى عبد الرازق (Hourani, 1962, p. 183). هوجم المؤلف

بقسوة. ذهب عبد الرازق إلى أن نظام الخلافة ليس مقدسًا، وبالتالي فهو ليس جزءًا جوهريا من الشريعة (النظام القانوني للمسلمين). وقد نادى بالفصل بين السياسة والدين. تصادف نشر هذا الكتاب مع الإصلاحات السياسية التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا والتي أنهى بمقتضاها نظام حكم الخلافة في عام ١٩٢٤. وعلى الرغم من أن على عبد الرازق ومصطفى كمال أتاتورك قد ناديا معا بفصل الجوانب السياسية عن الجوانب الدينية، فإن مبادئهما الأيديولوجية كانت شديدة الاختلاف. أسس عبد الرازق حجته على موارد إسلامية، ودافع عن موقفه بتأكيد أهمية الإسلام كأساس للمجالات الأخلاقية والاجتماعية، بينما فسخ كمال أتاتورك علاقته بالخلفية الإسلامية تمامًا وقلّص استخدامها لتقتصر على الجوانب الشخصية المحدودة. لقد أنشأ أتاتورك تركيا الحديثة على مبادئ الحضارة الغربية، وغيَّر الخط الذي تكتب به اللغة ليساير الحروف اللاتينية، واستبدل بمبادئ الشريعة الإسلامية القوانين الأوروبية.

وترددت أصداء إصلاحات كمال أتاتورك في جميع الأنحاء بموضوعات وإيقاعات مختلفة. وقد اتضح هذا على وجه الخصوص بعد الاستعمار الكولونيالي الأوروبي لمعظم العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا عقب الحرب العالمية الأولى. ركزت هذه البلدان الإمبريالية على التحديث، معتبرة إياه طريقة للتقدم في العلوم والتكنولوجيا، مع ضمان مبادئ العدالة والحرية.

وأدى هذا إلى رد فعل مضاد لأفكار التحديث ذات الصبغة الغربية. أدرك الناس في هذه البقعة من العالم أن التحديث فرض لثقافة أجنبية عليهم. وقد أكد حسن البنا في نهايات عشرينيات القرن العشرين على الدور السياسي للإسلام، مدافعًا عن موقفه كدين يهتم بالسياسة كمبدأ محوري. كان شعار هذه الحركة 'الإسلام دين ودولة'. وقد شكل هذا الشعار جذور حركات الإسلام السياسي بدرجات مختلفة من التطرف.

يمكن تحديد ثلاثة أنواع عريضة للاتجاهات الإسلامية: الراديكالية، والمحافظة، والمعتدلة أو العلمانية. يأمل المعتدل في الحفاظ على الثقافة والمعايير الإسلامية، لكن دون أن تمتد إلى المجال السياسي، ويعتقد في إصلاح المجتمع الإسلامي على أسس حديثة، ويذهب إلى أن الدين يجب ألا يستدعى في المسائل السياسية، والقانونية والاقتصادية، التي يجب التعامل معها في سياق العالم في يومنا الحالي. أما حركة الإحياء الإسلامي أو الأصولية في وجهها الراديكالي فتسعى لتفسير الإسلام كحركة إصلاحية وتعارض التفسيرات الآخذة بالحداثة بتعاليم الإسلام، علما بأن من يحاولون السعي إلى هذه التفسيرات هم المسلمون الآخذون بالحداثة وذوو العقليات الليبرالية. أما المحافظ فيفسر الإسلام بعبارات شرعية-طقوسية ساعدت النخبة الحاكمة في استخدام الإسلام كأداة سياسية (Ghazali, 1999/2004).

الشريعة الإسلامية

إن فحص الطريقة التي تستخدم بها الشريعة يقدم لنا وسيلة أخرى لفهم إلى أي مدى صار الإسلام نسقًا مغلقًا. اعتبرت الشريعة الطريقة التي أوحى بها الله لتنظيم المجتمع. تغطي الشريعة نطاقًا عريضًا من العلاقات الاجتماعية، من حقوق الفرد وواجباته في مجتمع معين إلى العلاقات بين الأمم. فالشريعة تنصح الأطفال المسلمين مثلا باحترام والديهم بغض النظر عن ديانتهما. وحظرت الشريعة أي عدوان من أمة على أخرى على المستويين القومي والدولي. فالحرب لا تكون مشروعة إلا في حالة الدفاع. من جهة أخرى، تشمل الشريعة نسقًا للتحكم الاجتماعي يقوم على أساس الفلسفة الإسلامية، ويقدم المبادئ الأساسية لبناء

الأنساق السياسية. فالعقاب في إطار هذه الفلسفة لم ولن يعتبر أداة للانتقام، بل أداة للتطهير. فالاعتقاد أنه من الأفضل أن يعاقب المعتدي في هذا العالم عن أن يكون عرضة لعذاب أفدح في العالم الآخر. تقدم الشريعة التوجيهات الخاصة بالعلاقة بين القائد والشعب، حيث العدالة هي المبدأ الأسمى ومن مسئوليات القائد بذل الجهد لتحقيقها.

والشريعة في وجهها المثالي تعتبر مصدر جميع التشريعات في المجتمع الإسلامي. توجد مذاهب مختلفة للتشريع عبر التاريخ الإسلامي، أشهرها لدى السنة الشافعي، والحنبلي، والمالكي، والحنفي، ولدى الشيعة الجعفري. ولكل من هذه المذاهب طريقته في تفسير الموارد الإسلامية الأصيلة، ويقدم كل مذهب آراءه وفقًا لذلك. ولسوء الحظ، يميل المتعصبون إلى لَيِّ معاني النصوص الأصلية؛ ليبرروا نظم الحكم الأوتوقراطية، كأن ينزعوا آية قرآنية معينة من سياقها مثلاً.

ومن يزعمون أن الشريعة المصدر الرئيسي للقانون تواجههم مشكلة التفسير، التي ما زالت مصدرًا للتشوش في البلدان الإسلامية. تتشبث المؤسسات أحيانا بقواعد الشريعة القديمة، وترفض مواجهة الأوضاع الجديدة بأفكار مبتكرة. يمكن أن يكون هذا الموقف إشكاليًا كما سنشرح فيما بعد في هذا الفصل. منذ خمسة عشر قرنًا تنبأ النبي محمد بروح الطائفية التي ستأتي نتيجة للجمود، فشجع الناس على استخدام عقولهم وقدراتهم الإبداعية حين تواجههم مواقف جديدة. تسمى هذه العملية *الاجتهاد*. والاجتهاد هو الجهد الذهني المستخدم لاستنباط اتفاق شرعي مقبول، وقد مارسه المسلمون بقدر كبير من الشجاعة. لقد حظر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قطع الأيدي كعقاب على السرقة. يلام الخليفة عمر بن الخطاب بمعايير اليوم على اجتهاده[٢١]. وكما لاحظنا، فشلت الكثير من الأمم الإسلامية في الخروج بأفكار

---

(٢١) الاجتهاد هو الجهد الذهني الذي يبذله خبراء الدين والشريعة لتقديم حلول لمواقف جديدة. لا يوجد في القرآن أي شيء خاص عن الاجتهاد بالمعنى القانوني للكلمة، لكن فيه نصائح دائمة موجهة للبشر باستخدام عقولهم.

مبتكرة لمواجهة المواقف الحديثة. ففي مصر مثلا، كما في كل مكان آخر، أدى الانصياع المتعصب للشريعة إلى أن تشهد امرأتان في أي قضية قانونية، بينما تكفي شهادة رجل واحد للحصول على نفس النتيجة. لم تعد هذه الطريقة مقبولة ولا ذات جدوى، طريقة تقييم مصداقية الفرد على أساس النوع من رجل أو امرأة. لقد أشار القرآن الكريم على الناس باستخدام امرأتين للشهادة على الصفقات المالية؛ لأن النساء في ذلك الزمان لم تكن لهن معرفة ولا خبرة بأمور المشروعات والتجارة.

النساء في طول العالم الإسلامي وعرضه محرومات من الحقوق الأساسية للإنسان نتيجة لخلط الروح القبلية التي عفا عليها الزمن بإساءة تفسير النصوص المقدسة. فالنساء في مصر مثلاً على الرغم من أنهن صرن وزيرات، وسفيرات، وأستاذات في مختلف المجالات، ما زلن يعانين داخل أسرهن. لقد ناضلت الكثيرات من أجل تحسين أوضاعهن في المجتمع الإسلامي. لكن قانون الأسرة ما زال متخلفا عن جهودهن وتقدمهن.

النساء لا يمكنهن السفر (حتى في مهمات حكومية رسمية) دون الحصول على موافقة أزواجهن. ولا يتمكن بالمثل من مغادرة بيت الزوجية لزيارة عائلاتهن، وصديقاتهن دون أخذ إذن من أزواجهن. إن قوانين غير رشيدة هي التي تفرض هذه المعايير. فالمرأة التي تترك زوجها تخسر جميع حقوقها القانونية بموجب إجراءات الطلاق. وعقاب المرأة على الزنا أقسى من عقاب الرجل عليه، ويمكن أن ينتهي الأمر بالإعدام في بعض البلدان التي يحكمها نظام إسلامي. لا يمكننا تنميط جميع الأمم العربية، لكن بعض بلدان المسلمين فيها أوضاع أسوأ من بعضها الآخر. فالنساء في المملكة العربية السعودية مثلاً محظور عليهن قيادة سياراتهن، ولا خيار لهن في طريقة لبسهن. من المتوقع منهن أن يغطين أجسادهن بأكملها ووجوههن، ليختفين عن أنظار الآخرين. إن هذا التحيز القائم على النوع يتعارض بحدة مع المبادئ الرئيسية للشريعة.

ومن المفارقات أن من يدافعون عن قانون الأسرة الحالي يزعمون أنه يتماشى مع أحكام الشريعة. وهم يعتمدون على آيات قرآنية، فسرها ذكور بقصد إضعاف مكانة النساء. وترجمة آيات معينة منحازة بوضوح للرجال باعتبارهم أرقى من النساء. في كتاب سابق بعنوان *الإسلام من آدم حتى محمد وبعده* *Islam from Adam to Muhammad and Beyond*، تعاون في تأليفه علي وعلياء وعائشة رفاعة، يقال إن:

> **الشريعة الإسلامية تراعي الخطوط العامة الدالة على ما يوحد الرجال والنساء من حيث كيف يمكن لأحدهما العناية بالآخر والتمتع بعنايته به بدوره، بطريقة تعطي قيمة لدور كل شخص. الشريعة لا تفرض قواعد جامدة، ليتبعها الناس بشكل جامد وصارم، وإلا اعتبر الشخص منحرفًا عن الشريعة. فالزوج مثلاً حمل بمسئولية الإنفاق على الأسرة ليسمح لزوجته بأن ترتاح أثناء متاعب الحمل، وبعده في الرضاعة ورعاية المواليد. والنساء يتمتعن كأمهات بقدرتهن على العطاء بلا حدود والحب بلا شروط. إن هذا التقسيم للعمل بين الزوج والزوجة قد ذكر بإسهاب في القرآن ليشجع الرجال والنساء أساسًا على الاستجابة لأدوارهم الطبيعية، التي حددتها الفوارق البيولوجية بينهم، وليس على أن يسجنهم في هذه الأدوار أو يهين أيًّا منهم (Rafea, 2004, p. 149).**

أشار النبي أن على الرجال تبجيل النساء، كما يتضح في قوله الذي كثيرًا ما يتردد "الجنة تحت أقدام الأمهات"، كما أن عليهم رعايتهن. كان هذا متفقًا مع ذلك العهد في أن الوعي الأبوي كان هو السائد. كما كان ردًّا على العنف ضد النساء الذي كان يحدث في ثقافة ذلك الزمن قبل بعثته. لكن قمع النساء تنامى بعد وفاة النبي. ومع تنامي الحركات الأصولية، صارت الشريعة فريسة لتفسيرات عقائدية جامدة ومتصلبة.

توجد أيضا قضايا إشكالية أخرى. فمثلاً توجد مسألة كثيرًا ما يسأل الناس عنها، ألا وهي هل يمكن أن يتفق النظام القانوني الإسلامي والنظام القانوني العلماني لغير المسلمين؟ هل يمكن تحديث الأمم الإسلامية دون أن تتفرنج أو تأخذ بالعلمانية؟ هذا السؤال يفترض وجود تناقض داخلي بين مبادئ الشريعة الإسلامية والمبادئ الغربية للديموقراطية والحرية. وجد باحثون من أمثال كارين آرمسترونج أن هذه التناقضات وهمية فقد علقت بقولها "الواقع أن بين الإسلام والغرب تقاليد مشتركة. فمنذ زمن النبي محمد أدرك المسلمون هذا، لكن الغرب غير قادر على قبوله" (Armstrong, 2000, p. 301).

وقد غذت هذه الأنواع من الاستقطاب روح العداوة، التي ربت الإرهاب بدورها. إن الإسلام كدين سلام يحترم التنوع والتمايز بين الثقافات ويدعو إلى التعايش بتآلف بين الأمم. يمكن لأي بلد في العالم الإسلامي أن تنشئ نظامها القانوني وفقًا للمبادئ الإسلامية دون أن يتطابق معها تمامًا بالضرورة. تقدم الشريعة الإسلامية خطوطا عامة توجه الأنساق القانونية، وتوجد مساحة للتفسير. وهكذا لا سبيل إلى أن تكون الشريعة محدودة أو مقيدة بنموذج معين من نماذج التنفيذ، سواء من الماضي أو الحاضر. بناء على ذلك يجب ألا يوجد تناقض بين حرية الفكر التي تقدمها العلمانية وحرية الإبداع التي تشجعها تعاليم محمد. قد توجد وجهات نظر مختلفة في تناول مشكلات معينة، لكن هذا لا يستدعي بالضرورة أن تحارب الأمم الإسلامية الغرب.

وقد صار تسييس الإسلام اليوم مرادفًا لما يحدث في مختلف أنحاء العالم الآن من حيث النضال من أجل القوة السياسية. إن الدور الأساسي للإسلاميين الراديكاليين أن يهزموا العدوان الغربي. يقدم نظام طالبان السابق في أفغانستان مثلاً واضحًا على هذا. لم يمكن لطالبان قبول منظور إمكانية وجود القيم الإسلامية مع قيم الآخرين. من المحزن أن نرى قوة الإسلام التي كانت في وقت ما قوة تحرير وهي تستخدم لقهر الجماهير. والأسوأ أن الناس يحظر عليهم باسم الدين أن يفكروا بأنفسهم، خوفًا من أن يحيدوا عن "الصراط المستقيم"، وبدلا من ذلك يطيعون السلطات الدينية.

من المؤكد أن هناك حاجة ماسة إلى التغيير في الكثير من البلدان العربية. الكثير من هذه الأمم كانت ولا زالت تحت حكم أنظمة إسلامية أصولية جامدة. وكما سبق أن ناقشنا، تتحكم هذه النظم بقوة في النساء العربيات وتقمعهن. إن الجماعات التي تبني وجودها على أنساق مغلقة ترعى الاستعلاء، حيث تؤدي المعتقدات، والمشاعر والسلوكيات ضيقة الأفق إلى التمييز وتبرير العنف. وإذا لم تجد هذه الجماعات "الآخر" الذي تحاربه يبدءون في محاربة بعضهم البعض. ومن أمثلة هذا الحروب الأهلية في الجزائر، ولبنان، ونيجيريا وإريتريا.

إفريقيا: الصدام بين الديانات والسياسة والثقافة

وإفريقيا مثال قوي آخر على النتائج المدمرة لخلط النسق الأبوي بين السياسة، والاقتصاد والدين. لنبدأ قولنا بأن الدين والسياسة قد لعبا دورًا مهمًا في إبقاء إفريقيا في حالة فقر وخلاف ديني. أدخل القديس مرقص المسيحية في القرن الأول الميلادي إلى الإسكندرية(٢٢). وسرعان ما انتشرت المسيحية غربًا عبر الجزء الشمالي من إفريقيا، ثم انتقلت لكل من الأراضي الجنوبية والغربية حتى وصلت إلى القرن الإفريقي (الذي يشمل الآن إثيوبيا، وجيبوتي، وإريتريا والصومال).

ثم بدأ الإسلام في الامتداد أثناء القرن السابع حيث لجأ المسلمون إلى إثيوبيا هربًا من اضطهاد قريش لهم. وسرعان ما حلَّ الإسلام محلً المسيحية في الكثير من المناطق، تشمل الصومال ودول شمال إفريقيا. لكن ظلت أغلبية إثيوبيا مسيحية. ومع وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر وصلت المسيحية إلى البلدان التي تقع جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا. وأنشأ الهولنديون بدايات

(٢٢) تقول الكنيسة القبطية إن القديس مرقص قد شهد كرازة يسوع، وكتب أول إنجيل. وصل القديس مرقص إلى الإسكندرية في عام ٤٨ ميلادية، ومات في عام ٦٨ ميلادية.

كنيسة الإصلاح الهولندية في جنوب قارة إفريقيا في عام ١٦٥٢. وبدأ المبشرون في الوصول من أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وبدأت المسيحية في الحلول محل الديانات الأصلية للبلدان الإفريقية مع انتشارها عبر البلاد. لكن ثبت للمبشرين أن من الصعب السيطرة على المناطق التي تأسس فيها الإسلام بالفعل.

واليوم، نجد الإسلام يغطي شمال إفريقيا وإقليم الساحل وشرق إفريقيا بأكملهم. ثلاثة وعشرون بلدًا من بين خمسين أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي. وتوجد الأغلبية المسيحية في الجنوب. لم تختف الديانات الأصلية تماما؛ بل غالبا ما تمتزج طقوسها ومعتقداتها بطقوس الإسلام أو المسيحية ومعتقداتهما، وكل منها تؤسس نكهتها الفريدة. وهذا واضح في مختلف أنحاء إفريقيا.

إثيوبيا وإريتريا

يشير كل من القرآن والكتاب المقدس إلى إثيوبيا باعتبارها من الحضارات القديمة العظمى. وتتكون الإمبراطورية في هذا البلد الشاسع الامتداد جغرافيا من أنواع متنوعة ومختلفة من الجماعات العِرقية. من بين هذه الجماعات تدعي جماعتا الأمهرة والتيجري الأصالة والعلو على الآخرين، إذ يعتبرون أنفسهم "الشعب المختار" باعتبارهم من نسل موسى وسليمان. وينص في دستور ١٩٥٥ أن الأسرة الإمبراطورية الحاكمة للبلد انحدرت من نسل مينليك الأول، ابن الملك سليمان وملكة سبأ.

والجزء الشمالي من إثيوبيا (الذي يشمل إريتريا) تسكنه أغلبية مسلمة. كانت إريتريا مستعمرة إيطالية في بدايات القرن العشرين، لكنها خضعت للإدارة البريطانية في عام ١٩٤١. لكن بريطانيا سعت لتقسيم إريتريا على طول خطوط دينية، فأعطت المناطق الساحلية ومناطق المرتفعات لإثيوبيا، وأعطت القسم الشمالي منها (الذي يشمل الأراضي المنخفضة ويسكنه المسلمون) للسودان. كان

الاتجاه إلى تقسيم المستعمرات وخلق صراعات دينية خطًا سياسيًا ضمن لبريطانيا التحكم في المستعمرات. وصارت سياسة "فرق تسد" استراتيجية بريطانية معروفة. وفي عام ١٩٥٠ اعتبرت إريتريا أمة مستقلة مرتبطة بإثيوبيا باتحاد فيدرالي. لكن الإمبراطور هيلاسلاسي أعلن في نوفمبر ١٩٦٢ نهاية الاتحاد الفيدرالي واعتبر إريتريا جزءًا من إثيوبيا. ولكي تضعف حكومة إثيوبيا المتمردين من بين السكان الإريتريين، أطلقت برنامج إعادة توطين قسري في عام ١٩٨٤، نقلت بموجبه أكثر من مليون مزارع مسلم من أماكنهم إلى المناطق المركزية والجنوبية لإثيوبيا. وقد مات الآلاف (وما زال الناس يموتون) في معسكرات إعادة التوطين هذه.

ولم يتوقف الإريتريون عن محاولة الحصول على استقلالهم. وقد نجحوا في نيله أخيرا في عام ١٩٩٣، لكن لا توجد خطوط واضحة تفصل الحدود بين البلدين. وقد أدى هذا في النهاية إلى المزيد من العنف. ويقدر أن الصدامات التي حدثت فيما بين ١٩٩٨-٢٠٠٠ بين إريتريا وإثيوبيا بسبب الخلافات على الحدود قد أدت إلى موت ما يزيد على ١٠٠٠٠٠ نسمة(٢٣). وعلى الرغم من توقف الإنذارات، فإن التوتر ما زال قائمًا. وتوجد حاليًا قوة حفظ سلام تجوب المنطقة الأمنية التي تقع بين البلدين.

إن الصراع بين إثيوبيا وإريتريا صراع سياسي واقتصادي وليس صراعًا دينيًا ولا أيديولوجيًا. لكن الدين قد استغل كأداة لإذكاء نيران الكراهية في قلوب الأمتين. ويوجد توتر شديد سواء على حدود إريتريا أو في داخلها.

أزمة السودان

على الرغم من أن السودان قد ساند إريتريا في نضالها الذي استمر لمدة ٣٠ عامًا من أجل الاستقلال (١٩٦١-١٩٩١)، فإن العلاقات بين هذين البلدين سرعان

---

(٢٣) ***http://www.biddho.de/portal/article4219.html***

ما تدهورت حين بدأت حركة الجهاد الإسلامية الإريترية في التنافس على القوة. وقد نشأت حركة الجهاد الإسلامية الإريترية -وفقًا لتفسير حكومة إريتريا- بمساعدة الجنرال عمر البشير، الذي قاد انقلابًا عسكريًا في عام ١٩٨٩. وفي عام ١٩٩٢ خاضت الجبهة الشعبية الإريترية حربًا شرسة ناضلت فيها ضد حركة الجهاد الإسلامية الإريترية المسلحة.

واستمرت القلاقل الاجتماعية في إريتريا بسبب تحديات معينة فرضتها عليها قوات المتمردين. كما أن التوتر بين إريتريا وإثيوبيا ظل مشتعلا، وزاد تدهور علاقاتها بالسودان من مشكلاتها.

السودان مجتمع مركب فيه الكثير من القبائل، لكل منها هويتها الإقليمية، لكن تغلب عليها الثقافة العربية. وجنوب السودان هو الاستثناء الوحيد، حيث تظهر الهويات المحلية أقوى من الهويات القومية. وعلى الرغم من أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية، توجد أيضا أكثر من مائة لغة محلية يتكلمها الناس في السودان. يشكل الإسلام أساس الثقافة السائدة. ثلثا السودانيين مسلمون، وخمسة بالمائة منهم مسيحيون، وبقية السكان من عبدة الأرواح التي تسكن الطبيعة animists الذين يتبعون معتقداتهم القبلية.

دخل الإسلام إلى السودان في القرن الرابع عشر مع التجار الذين وصلوا من الشمال جالبين معهم أيديولوجياتهم الدينية إلى السكان الأصليين. وبعد ذلك هاجر معلمو الإسلام الصوفيون (*الشيوخ الصوفيون*) إلى السودان وأنشأوا طرقهم الصوفية فيه. وبحلول القرن التاسع عشر، ظهرت اتجاهات دينية ركزت على السياسة أكثر من غيرها. المهدية هي أشهر هذه الاتجاهات. حاولت المهدية إنشاء دولة إسلامية، لكنَّ البريطانيين والمصريين هاجموها، وهزموها في عام ١٨٩٨. وكانت المنظمات المسيحية قد أنشئت بدعم من المبشرين الأوروبيين، وسيطر عليها رجال الدين الأوروبيون حتى ما بعد استقلال السودان في عام ١٩٥٦.

وفي فترة حكم أول حكومة وطنية في السودان، بدأ الجنوب في الشعور بأنه مهمَّش وبدأت حركات التمرد في الحدوث. وظل الوضع على هذا المنوال حتى عام ١٩٧٢ حين سمح الرئيس النميري لمجلس الكنائس العالمي بالتوسط من أجل السلام مع حركة تحرير السودان، ووقعت اتفاقية، تمنح جنوب السودان الحكم الذاتي الإقليمي.

ومع حلول الهدوء على الوضع في الجنوب، كان النميري يواجه تحديات في الشمال. كان الإخوان المسلمون، الذين نشأوا في مصر وصار لأيديولوجيتهم شعبية في الكثير من البلدان العربية، قد حققوا قوة سياسية في السودان. ولكي يتمكن النميري من مقاومة تزايد شعبية الإخوان المسلمين، أعلن أن الشريعة الإسلامية هي مصدر جميع التشريعات في البلد، وبذلك يضمن التحكم في أي معارضة. كان النميري يلعب لعبة سياسية، تهدف لزيادة شعبيته في شمال السودان بينما ما زال يواجه المشكلات في الجنوب. قسم النميري الجنوب إلى ثلاث مناطق لكي ينهي النزاعات على القيادة. لكن هذا الحل لم ينفع. نتيجة لذلك حُلَّت الحكومة الإقليمية في الجنوب. وأطيح بالنميري في ٥ إبريل ١٩٨٥ بسبب عدم رضا المسلمين والمسيحيين عن القوانين الإسلامية التي وضعها. ولم يستمر نظام الحكم الذي تلا ذلك طويلا، وأطاح به البشير في عام ١٩٨٩.

وشعر أهل غرب السودان وشرقه وجنوبه أن الشمال الإسلامي قد همَّشهم سياسيًا واقتصاديًا. واستمرت القلاقل بين هذه المناطق. وقدر عدد من فقدوا حياتهم نتيجة لتلك الصراعات بـــ ٢ مليون شخص. وأخيرًا، استخدم متمردو جنوب السودان المسيحيون ١٠ آلاف طفل على الأقل تتراوح أعمارهم بين ٨ إلى ١٨ سنة كجنود على الخطوط الأمامية، كما أرغم ٤ ملايين آخرين على الأقل على النزوح من بيوتهم(٢٤). وقد أبلغت منظمة هيومان رايتس ووتش عن أن جماعة

---

(٢٤) مركز الحدّ من الصراعات الدينية.

الجنجويد (وهي جماعة عسكرية من العرب المسلمين) ما زالت مستمرة في إبادة الصوفيين المسلمين المعتدلين في دارفور (في غرب السودان). ويقدر أن ٥٠٠٠٠ شخص قد قتلوا مع استمرار هذا "التطهير العِرقي". ودمرت بلدات وقرى مع إعدام المدنيين. إن الحكومة السودانية مسئولة عن هذه المآسي من حيث إنها زودت الجنجويد بالأسلحة. إن هذا لمن أشد أمثلة الدمار الناتج عن خلط السياسة بالدين.

نيجيريا: مشكلة تطبيق الشريعة

إن قصة نيجيريا نسخة أخرى من قصص النضال، والخوف والتجمد العقائدي. يعيش في نيجيريا ١٢٠ مليون نسمة، نصفهم من المسلمين، ويبدو أن الصدامات بين المسلمين الذين يتبعون مذهبًا أصوليًا عقائديًا جامدًا من الشريعة وبين المسيحيين مستعصية على الحل. وقد سجلت الإذاعة البريطانية (البي بي سي) في ١٤ سبتمبر ٢٠٠٣ أن:

> **عدد من ماتوا أثناء السنوات الأربع الأولى من حكم الرئيس أوباسانجو (من ١٩٩٩-٢٠٠٣) يقدر بما يزيد على ١٠٠٠٠ نسمة، قضوا نحبهم في الصدامات بين مسلمي البلد ومسيحييها.**
>
> **يرى الكثير من المراقبين أن هذه القلاقل قد نتجت عن النمو التلقائي للتوتر الديني، الذي أثاره السياسيون المهمشون، باستخدام زرع الفُرقة بين الثقافات وأوجه سوء الفهم لزعزعة استقرار أجزاء من البلد من أجل غاياتهم الخاصة.**

وهي تقدم قصة شبيهة بقصص انتشار الأصولية، التي تؤثر في التفسيرات الراديكالية للشريعة لتكسب موقعًا. والمسيحيون يعون أيضًا أن المسلمين المتطرفين لا يقبلونهم.

لكنَّ المسلمين ليسوا راضين. لقد اعتقدوا أن الشريعة ستوفر العدالة للجميع وتصلح النظام الاجتماعي، لكنهم علموا منذئذ أن التطبيق الراديكالي للشريعة قد قيد حريتهم بدلاً من أن يوفر لهم العدالة. وقد انتهى الناس في التطبيق العملي إلى أن صاروا محكومين بقبضة الأقوياء والنخبة لأنهم يطالبون بأن تقبل تفسيراتهم للنص المقدس وبداياته التاريخية باعتبارها التفسيرات الوحيدة. وهم يحكمون على تفسيرهم بأنه مقدس ويخرسون صوت أي معارضة. وهكذا نجد قصصًا متشابهة في مختلف أنحاء العالم يلعب الأدوار فيها ممثلون مختلفون. حينما يجري التأكيد على التراتب الهرمي لا يوجد إلا صوت واحد، وسلطة واحدة، وجميع الآخرين تخرس أصواتهم. وهذا يؤدي إلى كل من القمع والظلم.

لم تكن تلك إلا أمثلة بسيطة، حيث إن الكثير من جماعات السود الأبرياء يعيشون في فقر في جميع أنحاء القارة الإفريقية، يتضورون جوعًا، ويعانون من وباء نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) ويموتون من جرائه، ويتعرضون للاغتصاب مع القتل، أو يقتلون، أو يغتصبون ثم يقتلون، وهكذا دواليك. ويستحيل أن نتجاهل انعدام الخدمات الفاحش للسكان الأصليين لإفريقيا أثناء تنقيب الغرب عن الماس في مناجمهم، وسرقته لمواردهم الطبيعية، وفرضه لحياة الفقر على السكان الأصليين، مما يشعل نيران عدم الرضا. ما قوة الشر التي تقنع الناس بالسيادة على أرض جماعة أخرى، واستخدام السكان الأصليين كأيدٍ عاملة رخيصة للتنقيب عن الماس (سيرا ليون مثال جيد على هذا) وغير ذلك من الموارد، بينما يغصبونهم على العيش في فقر؟ لم يكن الفقر موجودًا حين كان هؤلاء السكان الأصليون من الأفارقة يعيشون على طبيعتهم، في تآلف مع الأرض. أتى الفقر نتيجة لاستغلال

الأغنيـــاء الســـاعين إلى مزيد من الثراء لهؤلاء السكان، إنها القصة البطولية التي لا تنتهي عن من يملكون من لا يملكون.

الخلاصة

قدم المؤرخ آرنولد توينبي إسهامات مهمة في دراساته عن نهوض الحضارات وسقوطها، وهي إسهامات تفيد في دراسة عملية التدهور المجتمعي. لاحظ توينبي أن "زيادة الطلب على الموارد البيئية يصاحب التحلل لا النمو" وأن:

> **النزعة العسكرية ملمح من الملامح المشتركة بين الانهيار والتحلل، وهي كثيرًا ما تكون فعالة في زيادة طلب مجتمع ما على كل من المجتمعات الحية الأخرى وقوى الطبيعة غير الحية. ولربما صدقت تقديرات الفيلسوف الأيوني هيراقليطس على المسار الهابط لمستقبل أي حضارة منهارة، إذ قدر أن "الحرب هي أب جميع الأشياء"، وحيث إن التقديرات الدارجة للرخاء البشري تحسب بعبارات القوة والثراء، فكثيرًا ما يحدث أن يهلل عامة الناس للفصول المفتوحة من التدهور المأساوي للمجتمع باعتبارها فصولاً تعبر عن ذروة النمو الرائع. لكن لابد من أن يلي ذلك انقشاع غمامة الوهم سواء طال الأمر أم قصر؛ لأن المجتمع الذي ينقسم على نفسه إلى حد يتعذر معه شفاؤه يكاد يكون واثقًا من أن الجزء الأعظم من هذه الموارد الإضافية، البشرية منها والمادية، "سيعاد وضعها في مشروع الحرب"، وهي نفس الموارد التي وضعها نفس المشروع عرضًا في أيديهم (Toynbee, 1946/1974, p. 364).**

وقد لاحظ توينبي معايير مهمة لسقوط أي أمة عظمى، وهي بالتحديد حدوث انشقاق في الفوارق المميزة للطبقات، وظهور قوى معارضة داخل الدولة؛ وفقد الأقلية القائدة لملكاتها الإبداعية مع قدرتها على جذب الأغلبية بما لديها من جاذبية شخصية (كاريزما) لا بالعدوان. والأقلية القائدة إذ تفعل هذا تحاول التشبث بموقعها المتميز بالقوة.

لقد جمع بحث توينبي بين فحص فكرة وجود "عنصر عظيم بالفطرة" وبين رفضه لهذه الفكرة. يقول بحث توينبي إن "من أمثلة العنصر العظيم بالفطرة العنصر النوردي في العالم المسئول عن خلق الحضارة" (المرجع السابق ص ٥٦٨). يعني هذا أن فكرة قدرنا و فكرة "العبء الذي يقع على كاهل الرجل الأبيض" مفاهيم وهمية. لقد جلبت هذه الأفكار بالاختصار مزيدًا من الأذى لا الخير. لكل ثقافة، أو عنصر أو دين قيمته الخاصة الفريدة، وهي تتقوض حين تخطو داخلها ثقافة سائدة وتتسيد عليها.

ويبدو أيضًا أن البشرية تحاول باستمرار خلق (أو فرض) توازن سليم بين المعتقدات الدينية، والحكم الاجتماعي والحياة السياسية، محققة في هذا نجاحا محدودًا. وينتهي الأمر بدوافع الجشع والقوة المدمرة إلى الفشل بينما هي تنخر في محاولاتنا لخلق مجتمع ديموقراطي حقًّا، وستؤدي الشواهد المستمرة على الدمار الذي يجلبه اختلال توازن القوى بين النساء والرجال إلى تلطيف هذه الميول. لم يعد من الممكن تحمل الأنساق المغلقة والعزلة الناتجة عن التمحور حول عِرق معين. يبدو أن الكوكبية ستغدو الخطوة التالية في التطور الاجتماعي، لكن من الأفضل أن تتقوى باحترام الجميع. إن الفأل السيئ الناتج عن انتشار الإمبراطورية الأمريكية يهدد مستقبل البشرية، من حيث إنه لا يمثل احترامًا للجميع، بل يتجلى فيه تهديد أبوي متطرف لموارد العالم ورغبة فيها. وقد لاحظت الناشطة والمؤلفة العالمية آرونداتي روي هذا التهديد في خطابها السياسي الذي ألقته أمام الملتقى الاجتماعي العالمي في مومباي:

إن البلدان الفقيرة التي لموقعها الجغرافي قيمة سياسية للإمبراطورية، أو بها "سوق" أيًا كان حجمه، أو لها بنية تحتية يمكن خصخصتها، أو كان عندها (لا سمح الله) موارد طبيعية ذات قيمة كالبترول، والذهب، والماس، والكوبالت، والفحم، لابد أن تفعل ما تؤمر به وإلا صارت أهدافًا عسكرية. والبلدان التي لديها أعظم مخزون من الثروات الطبيعية هي أكثر البلدان عرضة للخطر. وما لم تسلم هذه البلدان مواردها طواعية لآلة الكيانات الكبرى، سيحدث فيها تحريض على القلاقل الاجتماعية أو ستشن عليها الحرب (Roy, 2004).

ويشرح باربار في مقدمته لكتابه *الجهاد مقابل عالم ماك* *Jihad vs. McWorld* أن "السياسة الحقة لا يمكن أن تأخذ خطوة دون تقديم التكريم للأخلاقيات" (وهو هنا يقتبس من كانط (Kant, 1957, p. 46). تشمل هذه المراعاة للأخلاق احترام جميع أفراد العائلة البشرية. لا يمكن أن تنجح الديموقراطية إلا لو لم تحتقر الفوارق الثقافية والفوارق بين الجنسين.

وقد اكتشفنا في بحثنا أمثلة عديدة لمؤسسات حكومية ودينية تسودها مُثُل أبوية تفضي إلى التقليل من شأن *الآخر*، وجميعها قصص محزنة عن التعصب ضد النساء والملونين. أما المُثُل الدينية التي تحضنا على أن نحب بعضنا بعضًا ونكرم بعضنا بعضًا فقد فشلت مرارًا وتكرارًا. كما فشلت بالمثل المُثُل السياسية للمجتمعات الديموقراطية. ربما يكون الوقت قد حان لحدوث تغير كبير، تغير يعترف بدور النساء في المساعدة على خلق توازن صحي بين الحكم السياسي والحياة الدينية. لقد اعتقد آينشتاين أن المشكلات يستحيل أن تحل على نفس المستوى التي نشأت عنده (Covey, 1994). لابد أن نمد الأيدي إلى تفاهم جديد، قبل أن يحدث مزيد من الدمار. ومن المؤكد – بمراعاة التاريخ المذكور سلفًا– أننا نضجنا لاستقبال منظورات جديدة.

لكن النساء اللاتي يعرفن جيدًا ثمن الصراع، كثيرًا ما يكن أكثر تأهبا من الرجال لمنعه أو حله. لقد عملت النساء على مدى أجيال كمربيات ومعلمات من أجل السلام، سواء في أسرهن أو في مجتمعاتهن. وقد أثبتن نفعهن في بناء الجسور لا الجدران. وقد كنّ مهمات في حفظ النظام الاجتماعي حين كان المجتمع ينهار.

ونحن في الأمم المتحدة نعرف عن كثب ما تقدمه النساء من دعم لا يقدر بثمن للعاملين معنا في حفظ السلام، بتنظيم اللجان، والمنظمات غير الحكومية، والجماعات الكنسية التي تساعد على تخفيف حدة التوتر، وبإقناع رجالهن بقبول السلام.

كوفي عنان، الأمين العام للأمم المتحدة

٤ أكتوبر ٢٠٠٠

الفصل السادس

هرمجدون أم نموذج جديد؟
المنظور الأفقي والمنظور الرأسي

هل الحروب والعنف من العبارات التي لا مناص منها في الحياة؟ بعض الناس يزعمون أن هذا صحيح؛ لكن لو قبلنا هذه الرؤية للعالم لكانت البشرية محكوما عليها بالفناء. يمكننا الاستمرار في تطوير تقنيات حربية متقدمة، والمعاناة من عواقب العنف الذي يلد العنف، أو يمكننا أن نتخذ مسارا آخر فيه المزيد من الاحترام للحياة بجميع أشكالها. نحن نقف على عتبة، وما نتخذه من قرارات لن يقتصر أثره علينا نحن فقط، بل سيؤثر أيضا في مستقبل البشرية جمعاء! وهذا هو السبب الذي جعلنا نختار أن ندرس تاريخ النسق الأبوي وتأثيره في ساحات الدين، والنظام السياسي وقوة كيان الجماعة. هل يمكننا أن نتعلم من أخطائنا وننتقل إلى نموذج جديد؟ أم هل سنختار خوض حرب عالمية جديدة؟.

على الرغم من أننا ركزنا في المقام الأول على الجانب المظلم للنسق الأبوي، فإننا نعي بوضوح أن هذه المرحلة من التطور قد حققت أيضًا إنجازات عديدة، وخلقت أيضا الكثير من الجمال. يتضح لنا حين ندرس الإنجازات التاريخية العظيمة في الفن، والموسيقى، والفلسفة والعلم أن الجانب الذكوري للإنسانية قد أنتج الحكمة والجمال. لكن -كما سبق أن أشرنا- فشلت هذه الصفقات والإنجازات الأبوية في معظم الأحوال في أن تجعل العالم مكانًا أفضل، وذلك بسبب اختلال موازين القوى بين الرجال والنساء.

النساء يتساوين مع الرجال في القدرة على أن يكن حجة في مجالات الفنون والعلوم والفكر الفلسفي، والفهم الروحي، وقد أدى قمع النساء إلى انفراد الرجال بالفضل الأول في تقدم البشرية. وحتى عند هذه المرحلة من تطورنا البشري، ما زالت معظم نساء العالم لا يحصلن إلا على القليل من فرص التعليم. والأمم الأشد فقرا تعتبر التعليم وما شابهه أهم للذكور منه للإناث. ولأن المعرفة قوة؛ لم يكن تعليم النساء على رأس الأولويات في الكثير من البلدان. وطالما بقت النساء جاهلات أو معزولات، يظل التحكم في يد الذكور. ربما كان هذا هو السبب في أن المعتقدات الدينية الأبوية تندد بالقدرات الثقافية والقيادية للنساء، لأن ذلك يؤكد احتلال الذكر لموقع الصدارة. وتؤثر كراهية النساء في دعم هذا الخطأ البشري الفاحش، وتأثير هذه الكراهية أكثر من هائل. فتعاليم الفيدا المبكرة مثلاً تعلم الناس أن "الرب إندرا نفسه قال إن النساء قدرتهن الذهنية ضعيفة" وإن المرأة "يستحيل أن تعلمها شيئًا" *(Rig Veda 8.33.17)*. ويشرح دليل الزواج الكونفشيوسي أن "مائة امرأة لا يساوين خصية واحدة". وقد قال جريجوري العظيم (مع أن عظمته أمر خاضع للجدال) مخاطبًا الآخرين إن "المرأة بطيئة الفهم وعقلها المتقلب التافه يلجئها بحكم ضعفها الطبيعي إلى ضرورة وجود يد قوية لدى زوجها" لأنها "'تُستخدَم' بطريقتين: الجنس الحيواني والأمومة" *(Chittister, 1983, p. 3)*، بينما فلسف أرسطو الموضوع بقوله إن "الأنثى تكون أنثى بفضل نقص ما في خصائصها، وهذا عيب طبيعي فيها" *(Mills, 1989)*.

وقد عقد اجتماع عرف باسم مجلس ماكون في عام ٥٨٤ ميلادية في ليونز بفرنسا لتحديد ما إذا كانت النساء "آدميات" أو (وحوشاً). تكونت المجموعة التي ستتخذ القرار من ٦٦ رجلا، (كثيرون منهم أساقفة كاثوليكيون). صوّت واحد وثلاثون رجلا من هؤلاء الرجال ضد آدمية النساء. و تعامل القوانين النساء في الكثير من المجتمعات في الأمم الإسلامية بطرق فيها تمييز ضدهن بالمثل، فتعتبرهن ناقصات عقل، وغير جديرات بحمل المسئولية، وبحاجة إلى ولي أمر.

يقدم كل مثال من هذه الأمثلة بيانا عمليا واضحا على الكذبة الكبرى التي قوضت مساواة النساء بالرجال.

لقد لاحظنا اتساع رقعة الإساءات الموجهة للنساء والملونين. ونقول بكل أمانة، إننا على الرغم من تقديمنا للكثير من صور الجانب المظلم من سجلات النسق الأبوي، فإننا لم نتناول إلا قسما صغيرا من الإساءات العديدة التي ارتكبها هذا النسق ضد *الآخر*. فإلى أين نذهب من هنا؟ كيف يمكننا تغيير مجرى التيار؟.

لا يمكننا أن ندع الحكم والجشع الأبويين يدمران الطبيعة. لقد حان الوقت للعودة إلى الارتباط المحسوس بكوكبنا، كوكب الأرض، والعمل معا على شفائه من التلوث الذي سببه البشر للأرض، والماء والهواء، وذلك لكي نقلل من إسهامنا في زيادة حرارة الكوكب، هذا إذا لم نقضِ عليه تمامًا. ما زال لدينا شواهد من جماعات السكان الأصليين الحديثة على أن الثقافات الأولى قد احترمت العالم الطبيعي، وكانت (وما زالت) تعتبر علاقتها بالطبيعة *علاقة القيِّم بما يقوم على أموره*، لا علاقة *تسيُّد على* الطبيعة. إن سلب الأرض، واستخدامها في اختبار القنابل النووية وما إلى ذلك يمثل إهمالاً فادحًا، لأن القوامة والرعاية الحقيقيتين تتطلبان روحًا وشكلاً (مادة)، مع تبجيل لهما معًا. وعلى الرغم مما يبدو من أنه لا مناص من أن يحركنا تطورنا إلى استكشاف المزيد مما يمكن أن نصل إليه في الكون، فإننا لابد أن نبدأ أولاً بشفاء علاقتنا بالأرض التي نقف عليها.

نحتاج إلى العمل معًا لخلق حكم يتميز بتوازن القوى بين النساء والرجال، مدفوعين بالرغبة والنية في شفاء علاقاتنا البشرية. يصف المؤلف جاري هارت في كتابه الممتاز القوة الرابعة – استراتيجية عظمى للولايات المتحدة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين ***The Fourth Power- A Grand Strategy for the United States in the Twenty-First Century*** يصف المؤلف، جاي هارت، الفرق بين الجمهورية القائمة على أساس "الالتزام بالفضيلة المدنية وواجبات المواطن، ومركزية السيادة الشعبية، ومقاومة الفساد، والإحساس بالمال العام" ***(Hart, 2004m***

p. 138) وبين الإمبراطورية القائمة على أساس القوة العسكرية، واحتلال الأراضي الأجنبية واستغلال مواردها. وكما ناقشنا في الفصل الرابع، سعى مؤسسو الولايات المتحدة الأمريكية (متبعين مُثُل التنوير الأوروبي) إلى خلق أمة مثالية، جمهورية تتيح الفرص للجميع (خاصة لو كنت ذكرًا أنجلو ساكسونيًّا). وقد فشل هذا المثال الأبوي حيث إننا نرى جانبه المظلم وهو ينتشر في جميع أنحاء كوكب الأرض، متمثلاً في سياسات العنف الاستباقي، والفساد الاقتصادي وفساد الجماعة، وزيادة التحكم في الأمم الأخرى. قد يصير هذا المثال واقعًا متجسدًا لو كان لدينا حكومات تراعي التوازن بين الجنسين والحقوق المتساوية للجميع.

سينتهي العهد الأبوي في النهاية. وما قبضته النهائية على القوة إلا آخر الأنفاس التي يجود بها عهده المحتضر. لا مناص من ظهور عالم أكثر مساواة، مدفوعا بالكوكبية، ونهضة الإنترنت وسهولة السفر. نحن نرى أطباق التقاط الفضائيات معلقة على أسطح الأكواخ البدائية في الأحراش في المناطق النائية من المكسيك، وأمريكا الجنوبية، وإفريقيا، وغير ذلك من بقاع الأرض. ولدينا صور كثيرة جدا لنماذج ثقافية أخرى. صار *الآخر* معروفا! ونضجت الإنسانية لهذا التغير اللازم، على الرغم من أن الحكم الأبوي والأيديولوجيات الأبوية يمكن أن تخلق الكثير من الأذى قبل حدوث الانتقال المطلوب. ويتطلب هذا الانتقال جزئيا تكاملا في الأفكار التي *يجري الحديث عنها*، لكنها ما زالت بحاجة إلى أن *تتجسد*. يحتل موضوع "الديموقراطية" موقع الصدارة في محطات الأخبار حول العالم. إن المثال القائل بإمكان فرض الديموقراطية بالغصب على الأمم الأخرى مثال مثير للسخرية، لأنه يسير عكس طبيعته. لابد من فهم مثال الديموقراطية فهما عميقا كي يمكن توظيفها.

يمكن أن نقول –من منظور الأنساق– إن النفاق نفسه قد زاد من خطر الإرهاب، الذي بدأ في الظهور. قيل للعراقيين إن المقصود إنقاذهم من ديكتاتورهم المستبد. وقد قُتِل الكثير من العراقيين الأبرياء –وما زالوا يُقتَلون– بالقنابل (سواء

من العسكريين أو الثائرين)، حيث إننا نحتل أرضهم وندَّعي ملكية بترولهم. وقد بدأ العنف الطائفي الذي أدى إلى الاستمرار في قتل العديد من العراقيين على أيدي مناورات الولايات المتحدة الأمريكية، وما سببتها من قلاقل في المنطقة. إن الولايات المتحدة الأمريكية تصفق للعنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين (والمدنيين اللبنانيين) وتدعمه، وهو عنف لا يتناسب مع ما يفعلونه، وهي تتحدث عن الشعوب "المحبَّة للحرية". وتسرق من السكان الأفارقة الأصليين مواردهم الطبيعية (كالماس وغيره من الجواهر والمعادن الثمينة) بينما تساعدهم في نفس الوقت بحصص الأغذية، والأدوية، والقروض. وهذه الأفعال المنافقة تدعمها أيضًا فكرة متمحورة حول عرق معين، مؤداها أن التفضيلات العنصرية، والمثل أو المعتقدات الدينية لأمة ما أعلى شأنًا مما لغيرها. يتضح بشدة أن الحـــرب وما يتعلق بها من عنف لا تلد إلا المزيد من الحروب وما يتعلق بها من عنف. وقد فشلت أنواع المحاكاة الموجودة ضمنًا في المثال الأبوي في خدمة البشرية بأجمعها، وذلك ببساطة لأن شخصًا ما يجب أن يكون دائمًا أفضل من غيره؛ بينما تطلب منا السياسات القائمة على المساواة بين الجنسين مراعاة الإنسانية جمعاء كأسرة إنسانية واحدة، معتنقين في ذلك إدراكنا لأن قراراتنا وسلوكياتنا لها تأثير على الجميع.

إننا ونحن نعيد النظر في سياساتنا السياسية مطلوب منا أيضًا أن نعيد فحص تفسيراتنا للتعاليم والممارسات الدينية، لأنها أسست على التفسيرات الأبوية للعقائد الدينية واستخدامها لأغراض التحكم. يمثل تزايد العلاقة بين الأيديولوجيات الدينية والسياسية المتطرفة تهديدًا كبيرًا للإنسانية ومستقبلها. لابد أن نمد أيدينا لبعضنا البعض ونوحد جهودنا لخلق عالم أفضل.إن وجود قيادة متوازنة من الرجال والنساء في كل من الدين والبرلمان سيكون لها دور مهم في هذا العصر المتغير. لقد حان الوقت كي تتبوأ النساء ما يستحققن من مواقع، وأن يتقدمن لشغل مواقع القيادة في الساحات الدينية، والسياسية والخاصة بكيان الجماعة. ونحن نعتقد أن هذا هو التطور في مسار الارتقاء الذي سيضمن بقاء البشرية على قيد الحياة. إن

الرجال والنساء المهتمين والمهتمات بالمساواة، واحترام الحياة بجميع أشكالها وببيئتنا يلزمهم تشكيل تحالف يبنى على هذه القيم. لقد ظهرت في العقود القليلة الماضية جماعات عديدة تؤمن بالمساواة، وتستجيب بترحاب شديد وبحكمة للتحديات التي تواجهنا حاليًا. من أمثلة هذه الجماعات هيومان رايتس، ووتش (مراقبة حقوق الإنسان)، ومنظمة العفو الدولية، والجمعية الوطنية للتقدم بأحوال الملونين (وهي منظمة معنية بالحقوق المدنية للأقليات العِرقية في الولايات المتحدة الأمريكية)، ومنظمة جرين بيس (السلام الأخضر)، ونادي سييرا (منظمة بيئية بارزة في الولايات المتحدة الأمريكية)، ومبادرة السلام الكوكبي للنساء المتدينات والروحانيات، وغيرها كثير من المنظمات غير الحكومية الملتزمة بالمساواة وشفاء الجروح في طول العالم وعرضه. وتوجد ظاهرة أحدث، ألا وهي ظاهرة تزايد أعداد جماعات الروك المتأثرة بالمسعى الإنساني لبونو(*)، واستخدام قادة رجال وسيدات الأعمال مثل بيل ومليندا جيتس لثرواتهم وثرواتهن لمساعدة المجتمعات الأقل حظًا من الثروة، مثل الأفارقة الذين يعانون من مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) والفقر. إن هذه المؤسسات والحركات المهمة تدعم مستقبلنا، لأنها تسعى إلى استئصال شأفة التعصب وما يتعلق به من إساءات حيثما وجد. إن هذا السلوك الذي يُعنى بالآخرين قد تأسس على مُثُلنا السياسية القائلة بالمساواة بين الجميع، كما أنه يقع موقع القلب من مؤسساتنا الدينية.

وعلى الرغم من أن مؤسسي تقاليدنا الدينية قد أخذوا مثالاً لهم من المساواة داخل النفس بين الرجل والمرأة (بمعنى التوازن الداخلي بين خواص الذكورة والأنوثة)، فإن مؤسساتنا الدينية عانت بدلاً من ذلك من الفصام في الصور التي تقدمها للأنثى الإلهية.

(*) هو مغني الروك الإيرلندي بول ديفيد هيوسون المشهور باسم بونو والمهتم بالجوانب الروحية والعمل الإنساني العام (المترجمة).

فمن جهة، يرحب اليهود التقليديون "بعروس" السبت في كل يوم جمعة مع بداية يوم السبت، لكن المرأة الحية تعتبر غير مقدسة أثناء دورتها الحيضية المقدسة، والشرائع التي تتطلب طقوس التطهر تقول لها من طرف خفي إن العمليات الطبيعية التي تجري في جسدها محكوم عليها بأنها غير مقدسة.

يبجل المسيحيون المحافظون قداسة مريم، أمّ يسوع، ومع ذلك يتبعون رسالة القديس بولس القائلة بأن دور المرأة ثانوي بالنسبة لدور الذكر. لقد خلقت لتخدم زوجها، وتحمل الأطفال. وقد أخذت كل من اليهودية والمسيحية بالقصة التعسة التي قدمت حواء كبش فداء لفقد الوحدة مع المقدس (وهو استعارة مجازية لفقدان الفردوس).

والمسلمون يكرمون فاطمة ابنة النبي ويعتبرونها من الأولياء، لكنهم يتبعون الممارسات التي تنزع الشرف عن الأنثى الحية، بل وتتهدد حسن أحوالها بالأخطار. لقد أكد القرآن أن على الرجال أن يجيدوا رعاية النساء، كما قال "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم" (سورة التوبة الآية ٧١). وتلا ذلك إضافات إلى القرآن قدمت فهمًا بأن "الرجال أعظم من النساء بفضل الخصائص التي رفع الله من شأنهم على أساسها"(*) إن هذه الفقرة التي أسيء تفسيرها قد أدت إلى تحقير الأنثى، حيث تخفي الأمم العربية الأصولية النساء تحت البراقع، وتنفذ في ضحايا الاغتصاب قتل الشرف، وتتحكم في النساء تحت العديد من الفرمانات الدينية المستنبطة. (والكتاب

(*) وردت هذه الفقرة في النص الإنجليزي بدون إشارة لمرجع في سور القرآن الكريم، لذلك ترجمتها بمعناها باللغة العربية، وإن كانت على ما يبدو إعادة صياغة لبداية الآية رقم ٣٤ من سورة النساء "الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض" حسب فهم المؤلفات لها (المترجمة)

المقدس بالمثل بعهديه القديم والجديد قد ارتكب جرائم فادحة ضد الأنثى بسبب فقرات مماثلة تدَّعي عظمة الذكر).

وتصور الفلسفة الدينية الصينية رمز الشينج، وهو صورة ناطقة للتوازن بين المذكر والمؤنث، لكن كونفشيوس نفسه أعلن بوضوح أن الأنثى أقل قدرا من الذكر.

ولدى الهندوس العديد من الربات الإناث ولديهم معابد مكرسة للإلهة كالي دورجا، لكن النساء يستخدمن كمخلب قط في سوق الزواج ويتعرضن للضرب إذا لم يتمكن أهلهن من تلبية الأهداف المادية لأزواجهن وأهلهم.

وما زالت الربات يبجلن في إفريقيا. لكن في الواقع، تتعرض أعداد يستعصي حصرها من النساء للضرب، وتشويه الأعضاء الجنسية والاغتصاب في طول القارة وعرضها.

وبمراعاة هذه الفظائع والتباين الشاسع فيما تمثله، سيستكشف الفصل الأخير من كتابنا سبل الشفاء منها والدعوة لتوازن القوى بين الجنسين. انشغلت الفصول السابقة بوصف نتائج التفسيرات الأبوية للدين والحكم الاجتماعي-السياسي، ونحن الآن متشوقون لتقديم صور لمستقبل يأخذ بمزيد من المساواة. فلنواجه الحقيقة: لقد كان الرجال هم من فسروا تعاليم الأنبياء ودونوها، وعادة ما كان هذا يحدث بعد سنوات من وفاة الأنبياء. وسواء عملوا على كلمات إله ذكر أو تسجيلات لكلماته فقد أكدوا على أن أي اعتراضات تعتبر عملاً شريرًا. وقد خالفوا أنبياءهم إذ انتقصوا من شخص النساء ودورهن، بينما هن النصف الآخر من البشرية، بل *النصف الآخر لنفوسهم ذاتها*. لدى كل آدمي نقاط قوة وقدرات تتضح لدى النوعين: الرجل والمرأة. والتكامل بينهما يؤدي إلى اكتمالنا.

وهكذا نشير إلى أن الخطوة التالية في تطورنا البشري هي التوازن بين النوعين: الرجال والنساء، حيث لا غنى عن السمات المتأصلة في المرأة ومنها

اكتسابها للمعنى من علاقتها بالغير. إن هذا التوازن بين النوعين سيرسخ أيديولوجياتنا الروحية وقدراتنا الأكبر ويجعلنا نجسد الهدي الحقيقي لأنبيائنا. ونحن إذ نتناول دور النساء في ترسيخ الروحانية وتغيير أساليب القيادة في عالمي الدين والسياسة نقدم رؤية أصح نفسيًّا للعلاقة بالحياة، كما نقدم رؤية جديدة للتعاليم الروحية القائمة على نتائج فيزياء الكم.

الصحة النفسية السليمة

لقد وهب كلٌ منا *إرادة*. بعبارة أخرى، لدينا القدرة على اختيار ما إذا كنا سنتصرف بنزاهة وتراحم، أو نتبع السبل المثقلة باتجاهات وسلوكيات هدامة. ولكي نتعرف على قوى التعصب الخفي الغامضة الكامنة خلف أفكارنا، وكلماتنا، وأفعالنا والتي كثيرًا ما تظهر بلا موارة، لابد أن نضبط وعينا الداخلي ضبطًا دقيقًا. الكثير من عنفنا في الفكر والفعل هو في الحقيقة نقص في قبول الذات، معكوس في اتجاه الخارج على "الآخر". وهذا يجعلنا لا نعترف تمامًا بما لدينا من ألم، وشعور بالعار، وغضب، وحزن. لقد تعلمنا أن ننزع هذه المشاعر عن أنفسنا لأنها لا تحظى بالقبول الاجتماعي. يتعلم الرجال ألا يعبِّروا أبدًا عن الألم أو الحزن والنساء يحكم عليهن بنقص الأنوثة إذا أظهرن الغضب. إن هذا النوع من التحكم الثقافي الصارم في حياتنا الانفعالية يخدم السلطات الأبوية ويعضدها، حيث يحول دون تحقيقنا للحيوية الكامنة داخلنا بكل عنفوانها. إن عنف الرجال مشروط بظروف معينة، لأن الغضب انفعال مقبول اجتماعيًا من الرجال. والأمر بالعكس بالنسبة للنساء، فغضبهن غير مقبول، فهن مكبلات بالخضوع للنسق الأبوي. وقد شجع النفي الأبوي للجسد على نفي كامل نطاق وعينا الانفعالي ومشاعرنا المتطورة. نحن نشعر بجميع الانفعالات من خلال الجسد، ولذا يلزمنا إدراج الإشارات الخفيفة للجسد في نطاق وعينا. إن التغيرات في نمط تنفسنا، وتوترنا العضلي وأحاسيسنا العصبية تساعد على تنبيهنا حين نكون على حافة القيام بإسقاطات سلبية. يتطلب هذا الأمر حالة من الضبط

الدقيق للوعي الداخلي. إن تحملنا لمسئولية أحوالنا الشعورية ييسر التخلص من الإسقاطات. ونحن إذ نفعل ذلك نتمكن من البدء في تخليص كياناتنا الداخلية من الأنماط والمعتقدات المغلوطة التي كثيرًا ما تأسست على الخوف. تجلب عملية الشفاء هذه معها الكثير من الهدايا، فهي تفتح قلوبنا و"عيوننا" على ما في أنفسنا من جمال مع إدراكنا للجمال الذي في الآخرين.

وهكذا، نحن مدعوون على المستوى المجتمعي إلى الابتعاد عن الأنساق المغلقة، ورعاية الأنساق المفتوحة في التواصل، حيث يكون لجميع الشعوب، والأمم، والأديان صوت ومكان. تعترف أعداد متزايدة من معلمي الدين بأن فهمنا للعزل الديني وممارستنا له يتغيران. لا شك أن الدين سيبدو مختلفًا تمامًا في المستقبل؛ وستلعب النساء دورًا كبيرًا وإيجابيًا في هذه التغيرات، وسيكون التغير للأفضل *(Buehler, 2004)*. تبدو شواهد هذا التغير في تزايد الحوارات في وسائل الإعلام، والإنترنت، وظهور جماعات عديدة مشتركة بين عقائد مختلفة في جميع أنحاء العالم. إذا أنكرنا أمة أو ديانة داخل النسق الإنساني، فسيخلق هذا جيبًا أسود من الكراهية سينبت العنف في النهاية، لأنه ظل معزولاً ولم يحظ بالاعتراف به.

إدخال جانب الظل في حياتنا(*)

لابد من الاعتراف بالجانب الموجود في البشرية المسمى "بالظل". وهذا هو السبب في تقديمنا لأمثلة مختلفة للسلوك الهدام للنسق الأبوي. ما إن نعترف بهذه القوة التي تعد نمطًا فطريًا[1] حتى نجد فيها إمكانيات كامنة خلاّقة هائلة. يبزغ وعينا

(*) الظل عند كارل جوستاف يونج مركب في اللاوعي يتكون من جميع ما يمثل ما تكبته الذات الواعية (المترجمة)

(١) الأنماط الفطرية عبارة عن قوى غريزية فطرية توجد لدى جميع البشر على المستوى النفسي الداخلي. وهي قوى دافعة قوية، كما في حالة البطل أو البطلة اللذين يضحيان بنفسيهما من أجل قضية يؤمنان بها، ويتمثل الجانب المظلم من الكائن البشري في النضال بين الخير والشر الذي ناقشناه في الفصل الأول.

مع استثارة عوالمنا الداخلية والخارجية. يتطلب منا هذا أن ننتبه إلى مختلف أنواع الحضور التي تفعل فعلها داخل الوعي. ظهر مثال توضيحي جيد لهذا في حلقة من حلقات مسلسل الخيال العملي الشهير ستار تريك ينقسم فيها الكابتن كيرك إلى اثنين. مثلت كل نسخة من نسختي الكابتن كيرك جانبًا مختلفًا من جوانب شخصيته. لقد صار الكابتن كيرك المحسن قائدًا ظريفًا لكن تنقصه الكفاءة، لأنه فقد القوة والإرادة اللازمتين لإدارة المشروع. لقد كان طيبًا وحسن النوايا، لكنه كان ضعيفًا وفاقدًا للفعالية. أما الجانب المظلم للكابتن كيرك فكان عنيفًا وغير مهتم بتأثيره على الآخرين. لقد حاول اغتصاب النساء، ومحاربة الرجال، ومثل في العموم خواء ذاتيًا مع فقدان الاهتمام بالآخرين، وهذه من السمات البارزة للشر. يكمن مغزى القصة في أن الجانبين لازمين لاكتمال الإنسان. يحتاج الظل إلى الاستثارة والقبول والدمج من خلال الوعي بالانفعالات المكبوتة في الجسد-العقل. وهذا سيعيد الإرادة الحية والطاقة الموجودة في الظل لكي يملك *قدرة فعالة على فعل الخير*. وبدون هذا الوعي التكاملي ستعبر طاقات الظل عن نفسها بشكل هدام، خارج السيطرة.

ولقد أكدت تعاليم البوذية والطاوية[٢] بشكل خاص، بالإضافة إلى تعاليم قدماء الصوفيين والخيميائيين المنتمين لمذهب الكابالا[٣] على التكامل بين الجانبين المضيء والمظلم من التطور البشري. وكما لاحظنا من قبل، تشمل رسومات الخيميائيين صورًا لكل من الجانبين المظلم والمضيء من الآنيما (النمط الفطري المؤنث) والجانبين المظلم والمضيء للآنيموس (النمط الفطري المذكر)، مما يشير إلى أن هذين النمطين الفطريين كانا يظهران داخل النوعين كليهما (الرجال

---

(٢) يوجد في البوذية سبيل الطريق الوسطي، حيث يمسك الفرد بالتوتر الحادث بين الأضداد. وقد صورت هذه الأضداد أيضًا في الرمز الطاوي للشكلين اللذين تضمهما دائرة واحدة ويمثلان الاكتمال. أحد الشكلين أسود وفيه نقطة بيضاء في مركزه والآخر أبيض مع نقطة سوداء في مركزه.

(٣) كثيرا ما توصف الخيمياء بأنها علم قديم يركز على تحويل الزئبق وغيره من المعادن إلى ذهب. لكن العمل الأعمق للخيمياء يشير إلى عملية إلقاء الضوء على المقدس داخل الكائن البشري *(Shah, 1964)*.

والنساء). إن الوعي بهذه القوى الدافعة المختلفة والاعتراف بها يدنينا من مزيد من المسئولية عن سلوكياتنا. لقد علمنا كارل جوستاف يونج أن الظل يحتوي على طاقة حيوية خلاقة معدة للتحول. وحين نطلق قوى الظل الهدامة من عقالها ضد *الآخر*، فإننا نهدر القوة القوية المتاحة من أجل تطور البشرية.

تشرح الرؤية النسقية للعالم كيف تتصرف أمة ما أو جماعة دينية بشكل هدام حين تخلق الأمم أو الديانات الأخرى شكلاً من أشكال اختلال التوازن داخل النسق أو تحافظ على استمراره. لو وجد نمط هدام في المجال الأوسع للعلاقات الإنسانية، فستأخذ طاقته اللا واعيــة المظلــمة شكلاً من أشكال السلوك الانتقامي أو الهدام في محاولة تضرب على غير هدى لخلق توازن. ويمكن أن يشاهد اختلال التوازن الأصلي على شكل خداع، أو قمع، أو نفاق، وما إلى ذلك. وعلى المستوى الأعمق، تكون السلوكيات الهدامة الناتجة عن ذلك حركات لمجال طاقة في محاولة لرأب الصدع. فإذا ظل النسق مغلقًا أمام التغير، فكل ما في الأمر أن الطاقات التي يكتنفها الظل ستثور مرة أخرى. لابد أن نرتفع إلى مستوى جديد من مستويات الفهم والحوار لكي نفتح الطريق لقوة الإبداع والتغيير داخل هذا المجال.

ولو اعترفنا بإسهامنا الخاص في الدراما البشرية بدلاً من أن نسقط الظل على الآخرين، فستمكننا هذه القوة الإبداعية للحياة من الارتحال إلى عهد جديد من عهود الإنسانية. إن قصة لوسيفار (واسمه باللغة العربية إبليس) حامل الضوء الذي تحول إلى الشيطان، أمير الظلام، الذي طرد من رحمة نور السماوات، تمثل أيضًا هذا العمل على استعادة التوازن. وعندما يبدأ البشر في احترام بعضهم البعض واحترام جميع أشكال الخلق، فسيشفون الانشقاق الذي حدث بين السماء والأرض. إن الجملة الأخيرة من الفقرة المقتبسة من ماري كوريللي والموجودة في بداية هذا الكتاب تعبر عن هذه النية " *وحين ينبذك العالم، سأسامحك وأعيد استقبالك، لكن ليس حتى ذلك الحين*." *(Corelli, 1895, pp. 65-66)*. ستستعيد البشرية وحدتها مع المقدس بوعي، ما إن تنبذ موقفها المتعصب.

شفاء جراح الماضي

لقد شجعنا جهلنا بجذور حضارتنا المعاصرة على أن نرى "الآخر" كعدو لنا. يشير المنظور الأنثروبولوجي إلى أن الإنسان العاقل نشأ في مركز إفريقيا. وسيتقوض التمييز العنصري (وهو ظاهرة خلقتها الثقافة) حين نقدم له المعرفة بأننا نبتنا جميعنا من جذر واحد لا غير. لن يتمكن السودانيون المسلمون عندئذ من اعتبار أنفسهم أعلى من غيرهم من الجماعات الإفريقية. والأمريكيون الذين انتهكوا المبادئ التي وضعوها لحقوق الإنسان بشنهم لحرب غير عادلة على العراق ومعاملتهم القاسية للمساجين العراقيين لن يمكنهم بعد ذلك إبداء هذه السلوكيات اللا إنسانية. ومعادو السامية لن يعودوا قادرين على كراهية اليهود أو إساءة معاملتهم. وسيصير السياسيون الإسرائيليون غير قادرين نفسيًّا على تسمية العرب الفلسطينيين باسم الحشرات، أو قتلهم بلا تمييز. لابد من إعادة النظر في علاقاتنا الإنسانية. إن إدراكنا لنشأة إنسانيتنا من أصل مادي واحد مشترك (ناهيك عن وحدتنا الميتافيزيقية)، تطالبنا بأن نعيد النظر في علاقتنا ببعضنا البعض. تشير أبحاث الحمض النووي (الدنا) التي أجراها علماء البيولوجيا الجزيئية إلى أننا جميعا نشترك في سلف واحد.

يأتي جزء من الشواهد التي تدعم هذه النظرية من البيولوجيا الجزيئية، خاصة دراسات تنوع الحمض النووي (دنا) الموجود بنواة الخلية و(دنا) الموجود بالميتوكوندريا في الخلايا الحية بجسد الإنسان ومعدلات حدوث الطفرات فيه. ويمكن من هذه الدراسات حساب زمن تقريبي حدثت فيه التنوعات التي نبتت من سلف واحد مشترك لجميع البشر الذين يعيشون في عصرنا الحديث. لقد قدم هذا البحث بيانات عن ٢٠٠٠٠٠ سنة مضت. وقد مالت مناهج البحث الجزيئي

أيضًا إلى الإشارة إلى أصل إفريقي لجميع البشر الذين يعيشون في العصر الحديث، بما يعني ضمنًا أن أسلاف جميع الناس الأحياء قد هاجروا من إفريقيا إلى بقاع أخرى من العالم، ومن هنا أتى اسم هذا التفسير "الفرض النظري بأن الإنسان خرج من إفريقيا"(٤).

ومن وجهة النظر الإثنولوجية، أسهمت كلُّ حضارة من الحضارات الإنسانية في الحضارة التي تلتها. فلو وسعنا مجال نظرتنا ليشمل فجر الحضارة، الذي بدأ في مصر، وأدى في النهاية إلى الحضارة الأمريكية الحديثة، يمكننا أن نرى بوضوح كيف أسهمت كل حضارة بما أتاها من وحي من السماء وبتطوراتها في العالم الحديث. كان لحضارة مصر القديمة وقعها على الحضارة الهلينيستية، والحضارة الإسلامية التي تلتها اندمجت فيها السمات المميزة المحددة للثقافات الإغريقية، والفارسية والهندية. وقد استفادت أوروبا من التقدم الإسلامي في الفلسفة، والعلوم، والفنون والثقافة في فترة عصر النهضة. تسمح لنا هذه النظرة الشاملة إلى التاريخ برؤية جميع التنويعات الثقافية كجزء لا يتجزأ من صورة واحدة.

وللأسف يرى الكثيرون أنفسهم على أنهم جزر معزولة متجاهلين الروابط التي تقع في الخلفية والتي تربط البشرية ببعضها على المستويين المادي والثقافي. إن استكشاف جذورنا في الحضارات والثقافات الأخرى يساعدنا على إزالة هذه الحواجز المتخيلة.

تنبع فكرتنا من اقتناعنا بأن المشاعر العنصرية الخفية تقف حجر عثرة في طريق إنشاء حوار بين الثقافات. يسهم غياب التواصل المحترم في إذكاء الصراع، فتشتعل مشاعر العداوة. ونحن مقتنعات أيضًا بأن الحروب العديدة التي تدور في العالم تكشف عن مستوى أعمق من الصراع يجري داخل النفس البشرية. إن

(٤) *http://www.mnh.si.edu/anthro/humanorigins/ha/sap.htm*

اختلال التوازن بين الجانبين المؤنث والمذكر داخل أنفسنا، وداخل دياناتنا وثقافاتنا يؤثر في طريقة رؤيتنا للآخرين وللكون نفسه. نحن نتحدى الرأي القائل بوجود خط واحد للنشوء والارتقاء أثَّر و ما زال يؤثر في الكثير من خيارات المثقفين والسياسيين، لأن هذا الرأي بحكم طبيعته يشير إلى علو حضارة أو ديانة ما على غيرها.

تؤكد الأنثروبولوجيا التفسيرية على فرادة وفردية كل ثقافة من الثقافات. وتؤكد المعاني الكامنة خلف الأفعال، وتشجع علماء الأنثروبولوجيا على النظر بعمق في الثقافات التي يدرسونها، والكشف عما غمض في كل منها وما في كل منها من جمال. لا يجب اعتبار ثقافة ما أعلى قدرًا من غيرها. ويمكن للجميع تطبيق هذا. وكما ناقشنا في الفصلين الأول والثاني، فقد نصح الأنبياء الكثيرون الذين بعثوا للناس أقوامهم بألاً يحكموا على الآخرين، وأن يعترفوا بوجود وحدة تتجاوز الاختلافات. وهذه الوحدة لا تعني ضمنًا وجود تطابق، بل تؤكد طموحاتنا المشتركة. وبنص كلمات كليفورد جيرتز:

> **... لقد حاولت الأنثروبولوجيا أن تجد طريقها إلى مفهوم أكثر حيوية عن الإنسان، مفهوم تؤخذ فيه الثقافة، والتنوع الثقافي بعين الاعتبار بدلاً من التقليل من قيمتها باعتبارها نزوة وتعصب، ولكنها في نفس الوقت ثقافة لا يتحول فيها المبدأ الحاكم للمجال "الوحدة الأساسية للبشرية" إلى عبارة فارغة (Geertz, 1973, p. 37).**

تستخدم "الوحدة الأساسية للبشرية" لتحديد المُثُل التي تضفى عليها قيمة مطلقة باعتبارها أساسية. ولقد تعلمنا من العلوم الاجتماعية عموما، والأنثروبولوجيا خصوصًا أن نحترم تنوع الخبرة الإنسانية في البحث عن القيم، وأن نفهم أن لتعريف "الحقيقة" زوايا متعددة. نتيجة لذلك، يمكن حدوث التواصل مع الآخرين من خلال الإنصات الفعَّال لهم، والتعاطف معهم، وإدراك احتياجاتهم.

وبقدر ما غيرت الحضارة الحديثة العالم بالعلوم والتكنولوجيا خلقت اختلالاً في التوازن النفسي، وهي من ثم تحتاج تغذية من ماضيها القديم. هذا الماضي يمكن أن يعيد بناء مستقبلنا ويجدده. لا يعني هذا أننا خلقنا بعد نهجًا أصوليًا آخر ينظرنا إلى الماضي على أنه كان أكثر قداسة من الحاضر أو من المستقبل، بل يعني أننا يمكن أن نطمح إلى أن نتعلم دروسه، وندرس كيف يمكن الوصول إلى توازن كبير. يمكن للبشرية أن تشفي الكثير من مشكلاتها الحالية بتمكين نفسها من الإحساس بشكل أكبر بوحدتنا مع جميع الشعوب أينما كانوا ومع جميع أشكال الحياة.

لقد نقل التعلم الأنثروبولوجي رسالة مهمة للبشرية لأنه يوضح كيف يشمل التاريخ طبقات من الخبرات الإنسانية المتراكمة. ويعلمنا أنه لولا العمل الشاق الذي بذله أسلافنا ما تمكننا من التمتع بالحياة التكنولوجية الرغدة التي نحياها اليوم. لقد أتى التقدم الذي أنجزناه اليوم ثمرة محاولاتنا لاكتشاف العالم وفهم الوجود الإنساني. وما تعلمناه يسمح لنا بتأمل ماضينا، والتمكن من إحيائه في الحاضر. إن الوعي باتصال حبل التاريخ يجعلنا نعي وحدة البشرية التي تتجاوز جميع الاختلافات، ويجعل من الاختلافات صورة ثرية مكونة من قطع صغيرة كالفسيفساء فيها جمال التجربة. كل منا جزء من الآخر. وحيث إن حاضرنا امتداد لماضينا، فإن عالم مستقبلنا يخلق في زماننا هذا. فإما أن نسهم فيه من أجل الأجيال القادمة، فنجعل العالم مكانًا أفضل، أو نترك لهذه الأجيال إرثًا من الصراع، والدمار، والبؤس. في غضون تأليف هذا الكتاب، أدركت المؤلفات أن الكثير من قصص البشرية لا تُحكَى في الكثير من أنحاء العالم. وقد فحصنا نماذجنا الثقافية بضمير حي، وإن كان بدرجة ما من الضيق، كما فحصنا القصص التي قصت علينا من خلال ثقافتنا وموارد وسائل إعلامها. فمثلاً، بعض القصص عن العراق غير معروفة للشعب الأمريكي؛ وبعض القصص عن اللاجئين اليهود من بلدان المسلمين غير معروفة للكثير من الشعب العربي وبعض قصص الإساءات التي

تحدث عند نقاط التفتيش في قطاع غزة والقرى الفلسطينية غير معروفة للكثير من الإسرائيليين. وما تلك إلا أمثلة قليلة.

لكن الوعي باستمرارية الماضي- الحاضر - المستقبل لا يكفي وحده، لأنه يتشكل بتاريخنا الفردي والثقافي. نحن نقسم أنفسنا إلى جماعات محددة تتأثر بأفكار عن الكمال الثقافي، والانتماء الوطني، والهوية الدينية. إن عملية التنشئة الثقافية تلك مهمة، حيث إنها تزوّدنا بإحساس الانتماء إلى ثقافتنا والتوحد معها. تتشكل أنماط التفكير والسلوك في إطار هويتنا الجماعية، ويجري تحليل هذه المعلومات الجديدة في هذا السياق. لكن الشعور القوي بالانتماء كثيرا ما يتبعه شعور بالتمايز، والفردية، والعظمة. حين يكون الناس مغموسين بعمق في الهوية *الداخلية لجماعتهم*، يوجد لديهم ميل لتنامي الجهل بالآخرين، حتى ولو بشكل لا واع. تخلق البيئة التي نترعرع فيها نموذجًا للفهم يكمن في خلفيتنا، وهو نموذج يصعب نقضه. نتعلم أن نقبل مسلمات معينة. وربما استدعى الأمر حياة بأكملها لننقض ما تعلمناه ونحرر أنفسنا من بعض المعتقدات التي تمثلناها في فلسفتنا الحياتية. والأمر يستدعي الكثير من الجهد، والشجاعة، والتواضع لكي نتشكك في مسلماتنا ونرى العالم بأعين بعضنا البعض.

ولنأخذ في اعتبارنا تأثيرات تاريخ العالم (تاريخ *الرجل*)(*). إنه يشير ضمنًا من طرف خفي إلى سيادة التاريخ الأبوي، ويتجاهل أي مصداقية في ماضيه ذي التوجه الأفقي، والآخذ بالمساواة. لقد قمع النسق الأبوي الجانب الأنثوي للبشرية تاريخيًا وأكد منظوره الرأسي، باستخدام القصص الدينية وضمان الانصياع لها. عزلت هذه الحالة من التقسيم البشرية عن بيئتها الطبيعية. ومن مصلحتنا أن نعيد اكتشاف رؤية العالم القديم لأنفسنا وللكون (ذلك العالم القديم الذي كثيرًا ما ينبذ باعتباره عالمًا وثنيًا)، حيث يكون جميع من في الكون وما فيه من البشر والعالم

(*) في النص الإنجليزي لعب بالحروف، بين **history** بمعنى تاريخ، و **His story** بمعنى حكايته أو تاريخه (حيث يعود الضمير على الرجل) (المترجمة).

الطبيعي امتدادًا لبعضهما البعض كما يكونان مظاهر للمقدس في الحياة. نحن بحاجة للجانب الأنثوي من شخصيتنا، بخواصه التي تؤكد على التعاطف، والتراحم، والتكامل؛ لنغذي حواراتنا ونخلق مجتمعات أكثر صحة في القرن الحادي والعشرين. نحتاج أيضًا إلى أن ننصت لقصص الجميع، لأن لكل منها قيمته.

عدل ميزان التاريخ

خلق ثقافة متوازنة فيما يخص العلاقات بين النوعين (النساء والرجال)

مع انتقال الإنسانية من هذا المنظور الأفقي (منظور يأخذ بالمساواة، وأمومي، وفيه روحانية قائمة على أساس الأرض/الطبيعة) إلى المنظور الرأسي (المهتم بزيادة التطور الثقافي، والفكر التجريدي، والإنتاج، والأيديولوجيات الروحانية المفارقة للعالم المادي)، بدأنا عهدًا جعل في الإمكان حدوث تطورات عظمى في الدين، والفلسفة، والعلم والفن. وكان الجانب الآخر لهذه الظاهرة فك الارتباط مع الجسد ومع تبجيل الجسد، ومع انفعالاتنا وبيئتنا (الطبيعة). وقد أوصلنا هذا الانعدام للتوازن إلى نقطة لابد عندها من حدوث تغيير، وهو تغيير يشير إلى المساواة بين الجنسين والحياة الصحية السليمة. إذا كانت الأساطير المبكرة تتحدث عن فصل السماء عن الأرض، فمهمتنا الحالية إعادة الاتحاد بينهما. يعني هذا على المستوى العملي استخدام كل من السمات الأنثوية والذكورية بغرض التعاون من أجل خلق عالم أفضل.

تؤكد التقارير التاريخية أن بوذا، ويسوع ومحمد قد جسدوا منظورًا فيه توازن بين الرجال والنساء. فقد كانوا مثالاً على الطيبة، والتراحم، واهتموا بحسن أحوال البشرية جمعاء. وقد وضحوا سبيلاً للاكتمال وتحقيق الذات شكّل استقبالاً حسنًا للمؤثرات الروحية بالإضافة إلى القدرة على الكشف عنها في السلوكيات الفعلية. وقد تجسدت مُثُلهم في أفعالهم. وقد أشار عالم النفس كارل جوستاف يونج

إلى هذا الطريق التطوري المتجه نحو الاكتمال باسم التميز(*)، وهو المكان الذي يتحقق فيه وجود النفس الأصيلة.

لاحظ يونج أن الرحلة تشمل وحدة داخلية بين القوى النمطية الفطرية للذكر والأنثى، وأولى اهتمامًا خاصًا لكتابات الخيميائيين القدماء، الذين بجّلوا مثل هذا الاكتمال.. لقد صورت أشكالهم الإيضاحية كلاً من النمط الفطري المذكر والمؤنث، مشيرين إلى وجودهما كعنصر مهم من عناصر الرحلة الروحية.

يعتقد الكثير من علماء الدين والفلاسفة - منهم كاباليون يهود، ومسيحيون آخذون بتعاليم يونج، وصوفيون مسلمون، وطاويون، وأصحاب ثقافات من السكان الأصليين (وأتباع علم النفس عبر الشخصي(**))- أن الرحلة الروحية تتطلب ارتقاءً تطوريًا وتوازنًا بين هذه الانبثاقات المقدسة (الروح والمادة، النور والظلمة، الذكر والأنثى). ولهذا أعجب يونج بشكل خاص برسومات الخيميائيين وكتاباتهم، لأن أبحاثه ونظريته النفسية دارت حول الرحلة الإنسانية نحو التميز، لتكشف الطبيعة المقدسة التي توجد داخل الفرد *(Storr, 1983)*. وقد أسمى نهاية عملية التحول هذه ***Mysterium Coniunctionis*** (الزواج الصوفي)، متأثرًا في ذلك بتعاليم الكابالا اليهودية، والغنوصية (اللا أدرية) والصوفية.

الدين والنوعان (الرجال والنساء)

يمنع عدد هائل من المؤسسات الدينية النساء من تبوّؤ مراكز القيادة، حتى على الرغم من أن إنجيل توما، وإنجيل فيليب، وإنجيل مريم، وهي ثلاثة من الكتب المقدسة الغنوصية (اللا أدرية) صنفت في مكتبة نجع حمادي، تكشف عن أن المسيحية كانت تأخذ بالمساواة بين الرجال والنساء في بداياتها. تؤكد هذه الكتب أن

(*)التميز individuation مفهوم قال به عالم النفس كارل جوستاف يونج (١٨٧٥-١٩٦١) يعني استقلال الإنسان عن العالم الخارجي، محققاً فرادته النوعية على أكمل وجه، وبذلك يستحق كل الاستحقاق اسم فرد (المترجمة)

(**) مدرسة من مدارس علم النفس تدرس الجوانب الروحية للخبرة الإنسانية (المترجمة).

يسوع ترك مريم المجدلية وهي في مركز قيادة. والفقرة التالية من إنجيل مريم تنقل بوضوح قصة مريم حين طلب منها الناس أن تقاسمهم ما علمها إياه يسوع ومركز السلطة الذي تشغله. طلب منها بطرس أن تقاسمه ما علمها إياه يسوع ثم نفى استجابتها. وواجهه لاوي بقوله:

> **يا بطرس، لقد كنت دائمًا حاد المزاج. وأراك الآن تحتج على المرأة مثل الأعداء. لكن لو كان المُخَلِّص قد جعلها ذات قيمة، فمن أنت حتى ترفضها؟ المُخَلِّص يعرفها جيدًا بالتأكيد. ولهذا أحبها أكثر مما احبّنا. دعنا نشعر بالعار بدلاً من ذلك ونرتدي مسوح الرجل الكامل ونكتسبه لأنفسنا (Parrot, 1988).**

على الرغم من هذا، ساد الذكور رسميًّا في المسيحية منذ إنشاء الكنيسة الكاثوليكية وظهور مذهب نيقية (انظري/انظر الفصل الثالث). حقا، لقد اعترفت الكنيسة رسميًّا بمريم أم يسوع، وبالكثير من القديسات، فإن الرجال هم الذين قبضوا على مقاليد السلطة. أين تقف الكنيسة الكاثوليكية اليوم فيما يخص القسيسات؟ نجد الإجابة في تغطية البي بي سي (٢٠٠٢) لخلع البابا السابق جون بول الثاني لسبع نساء كان القس الأرجنتيني المثير للجدل رومولو أنطونيو براشي قد رسمهن قسيسات. وكان الفاتيكان مهمومًا بشكل خاص بأن هؤلاء النساء لم يظهرن "أي ندم" على جريمتهن حيث إن المرأة *لا يمكنها* أن ترسم قسيسة في الكنيسة الكاثوليكية(٥)! وقد اتبع تصريح البابا الأسبق إعلان القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠ ميلادية) بأن "أي امرأة تتصرف على النحو الذي يجعلها غير قادرة على ولادة أكبر عدد تقدر عليه من الأطفال، تكون مسئولة عن قتل مثل هذا العدد من الأطفال ..." ومع ازدراء هذه الكنيسة لسلطة المرأة قامت علاقات جنسية بينهن

---

(٥) *http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/2173868.stm*

وبين أساقفة الكنيسة وقسسها، ونحن نسمع قصصًا عن الانتهاكات الجنسية التي ارتكبها ممثلو الكنيسة مع الصبيان الصغار.

إن الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية، وكنيسة يسوع المسيح لقديسي اليوم الآخر (المورمون) وعددًا آخر من الطوائف الأصولية والإنجيلية ترفض جميعها رسم النساء قسيسات. وفكرتهم الأساسية أن القيادة الدينية محجوزة للرجال وحدهم؛ أما النساء ففائدتهن تنحصر في إنجاب الأطفال وخدمة العائلة. وفي عام ٢٠٠٠ جادلت اتفاقية المعمداني الجنوبي في هذه القضية وأعلنت لجنة دراسة العقيدة والرسالة المعمدانية التابعة له في مايو ٢٠٠٠ أنه "بينما يحظى الرجال والنساء كلاهما بالموهبة للخدمة في الكنيسة، إلا أن وظيفة راعي الكنيسة تقتصر على الرجل كما قال النص المقدس"(٦). يبلغ عدد أعضاء اتفاقية المعمداني الجنوبي حوالي ١٦ مليون عضوًا، وهي تمثل أكبر طائفة بروتستانتية في الولايات المتحدة الأمريكية ترتكب هذا الأذى (ألا وهو الإخلال بالتوازن بين الجنسين). من الـــواضح أن هـــذه الجمـــاعات لم تستكشف بعمق تاريخ النصوص المقدسة وهي لا تعرف إنجيل مريم، أو أنها وجدت مبررًا يجعلها تتنصل منه. وركزوا بدلاً من ذلك على ما صمم عليه القديس بولس من أن:

أنتن (النساء) لابد أن تتعلمن تكييف أنفسكن بما يناسب أزواجكن. فالرجل رأس المرأة

ومن أقواله أيضًا

لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. لكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يُغوَ لكن المرأة أغويت

---

(٦) ***http://www.religioustolerance.org/femclrg13.htm***

فحصلت في التعدي. لكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل (١ تيموثاوس ٢: ١١-١٥).

ولقد أثَّرت هذه الفقرات التعسة الموجودة في الكتاب المقدس تأثيرًا إضافيًا في جرائم النسق الأبوي ضد النساء.

وقد وضعت قوانين عديدة للحقوق المدنية في كندا والولايات المتحدة الأمريكية. ومن المدهش أن هذه القوانين تطبق بشكل خاص على التمييز العنصري، والتمييز على أساس النوع من رجل أو امرأة، والتمييز ضد المعاقين: إلخ، إلا أنها في معظمها لم تطبق في مجال التمييز الديني ضد النساء. لقد استثنى القسم رقم ٧٠٢ من قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤ الجماعات والمنظمات الدينية. *وهذا يسمح لأي كنيسة بالتمييز ضد النساء.*

لكن يوجد أمل. فبغض النظر عما ذكرناه سلفًا، فالطاقات التطورية التي تشق طريقها للأمام تفتح الأبواب للنساء كي يصرن قائدات دينيات. لقد رسمت بعض الطوائف المسيحية النساء قسيسات وأعطتهن حقوقًا متساوية، منها طوائف البروتستانت، والكنيسة الأسقفية وغيرها، كما أن البوذية، والهندوسية، واليهودية، والمسيحية غير الطائفية والبروتستانتية يزداد لديهم عدد النساء اللاتي يعملن معلمات، وخوريات (راعيات أبرشية)، ومعلمات روحيات هندوسيات (جورو) وحاخامات.

ووفقًا لقول مستشاري إونتاريو للسماحة الدينية، واحدة من كل ثمانية رجال دين تكون امرأة، كما أن ٥٠% تقريبًا من طلبة الدراسات العليا في مدارس الفقه المسيحي بشمال أمريكا من النساء. وهذا ارتفاع في عددهن بعد أن كانت نسبتهن ١٠% في عام ١٩٧٢[٧]. وقد كانت جمعية الأصدقاء (الكويكرز) أول من سمحت

---

(٧) *http://www.religioustolerance.org*

بقسيسات من النساء في بدايات القرن التاسع عشر. ولحقت بها مجموعة متنوعة من الكنائس المسيحية فيما بين ١٨٥٣ و ١٩٧٠ فبدأت في رسم القسيسات (ولو أن هذا حدث بخطوات بطيئة جدًا)، وما زالت أعداد النساء اللاتي يرسمن قسيسات في تزايد.

وعلى الرغم من أن البوذية قد تبدو أنها تبطئ في الاعتراف للنساء بالحقوق المتساوية والحق في أن يرسمن في السلك الديني، فإنها كان فيها منذ بدايتها حوار بين النسق الأبوي وغيره من سبل الوجود الأخرى الأكثر أخذًا بالمساواة. يكشف التاريخ البوذي المبكر عن أن مهاباجاباتي جوتامي الأم التي كفلت بوذا (وأرضعت السيدهارتا حين كان رضيعًا) رسمت مع ٥٠٠ امرأة أخرى بمعرفة البوديساتفا (المستنير) نفسه. ومن الواضح أن مهاباجاباتي قد طلبت هذا الأمر ثلاث مرات قبل أن يلبى لها، وأن طلبها قد رفض لأنهن كن نساء. كانت النساء الخمسمائة زوجات للرهبان (أتباع بوذا الأوائل) الذين تخلوا عن موقعهم كأزواج مفضلين حياة الرهبنة. ولم تجد هؤلاء النسوة بدًّا من اتباع حياة الرهبنة هن أيضا. وقد قمن برحلة شاقة سيرًا على الأقدام وثابرن في الإصرار على طلبهن، مما أثبت إخلاصهن. وكان الرد أن عليهن أن يعشن نفس الأدوار الثمانية الخاصة المتوقعة من الأتباع الذكور (على الرغم من أنهن ما زلن في موقع أدنى لأنهن كن نساء).

وفي البوذية التبتية راهبات إناث ولامات ذكور. تقدم العائلات الكثير من النساء إلى حياة الرهبنة وهن فتيات صغيرات (منهن أطفال في الثالثة من عمرهن) لأن عائلاتهن لا تملك الإنفاق عليهن. وفي اليابان، قلب مذهب الزن البوذي، يمكن للنساء أن يصرن راهبات، لكن لا يمكن أن يصرن قسيسات. ومع ذلك، يعترف للوجود الأنثوي بقيمته. ومن الإسهامات المهمة لمعلمات الدارما أنهن أكثر استعدادًا للاستماع إلى التعبير عن الانفعالات ويعترفن بقيمة العلاقات مع الآخرين. لكن الراهبة لا يمكنها أن تصير مدربة (قسيسة أو معلمة) إلا لو شعر معلمها الرجل أنها على استعداد لذلك.

وقد أخذت البوذية نكهة مختلفة في العالم الغربي حيث تمتزج التعاليم البوذية بالفوارق الثقافية. في البوذية الأمريكية معلمات عديدات يمثلن تنويعة من الطوائف التبتية والزن. والكثيرات من معلمات الدارما هؤلاء متزوجات. توجد الكثير من القسيسات، لكن المعلمات من رتبة المدربة قليلات. كانت أول معلمة زن أمريكية هي روث فوللر إيفيرت ساساكي، التي تلقت تشريفًا نادرًا حيث إنها رسمت في اليابان في عام ١٩٥٨، بعد عدة سنوات من التدريب على الزن. يمكن أن نرى في الزيادة البطيئة لدخول النساء إلى عالم القيادة الدينية تأكيدًا لتصاعد الاتجاه التطوري.

توجد الكثير من النساء الجورو الشهيرات اللاتي يمثلن الديانة الهندوسية / الفيدية. ولدينا ب. ف. تريبوراري، وهو معلم لليوجا ومؤلف ومؤسس جماعة السادهو سانجا، وهي جماعة نقاش على الإنترنت لا تأخذ بالطائفية، وهو يعتقد أن "عدد النساء الجورو قد بلغ أرقامًا عالية جديدة. وترجع شهرة النساء الجورو جزئيًا إلى رد الفعل تجاه الإساءات الموثقة التي يرتكبها الجورو الذكور وإلى الاعتقاد بأن النساء أقل استعدادًا من الرجال لاستغلال الآخرين"(٨). وعلى الرغم من أن الديانة الفيدية لها أسس أبوية قوية، فإن تعاليمها العميقة تقول إن الروح ليست بذكر ولا أنثى. ويشرح سوامي تريبوراري أن الجورو الأنثى إذا "مثلت أحد التقاليد أو السلالات التي لها نص مقدس تتخذه قانونًا، والتي تتماشى كلماتها وأفعالها مع هذا القانون ومع معايير هذه السلالة (وإن كانت تطبقها بشكل ديناميكي بشروط عالم اليوم)، فإن تعاليمها تحظى بالاعتراف وتكون صادقة كتعاليم أي جورو من الذكور.

والأم مايا (سواميني مایاتیناناندا) مثال لجورو أنثى حديثة. لقد أبعدت ممارسات التأمل التقليدية في الفيدية تركيزها عن الحياة حيث إن المكرسين يسعون إلى السلام الداخلي، لكن تعاليم هذه الجورو الأنثى تختلف في أنها تركز على تحسين الحياة نفسها. وتركز الأم مايا بالأخص على شفاء النفس والوصول بها للتوازن من أجل شفاء بيئتنا وعالمنا والوصول بهما إلى التوازن. وهذا النوع من

---

(٨) *http://www.swami.org/sanga/archives/pages/volume_five/m228.html*

التـــركيز هـــو الذي يخرج كثيرًا من القيادات من الإناث، بغض النظر عن انتمائهن الديني.

وجميع فروع اليهودية، عدا الأرثوذوكسية، تعترف بقيمة دور الأنثى في الطقوس اليهودية. اليهود الأرثوذوكس لا يسمحون للنساء بتقلد مناصب القيادة في الكنيس ولا في المشاركة في الدراسات الحاخامية. يحافظ اليهود الأرثوذوكس على قواعد صارمة في تطبيق أفكارهم عن الاحتشام، والتي تتطلب فصل الرجال عن النساء أثناء الطقوس الدينية. تذهب النساء إلى الكنيس، لكنهن يبقين في مكان منفصل، مختفيات عن عيون الرجال. واليهود الأرثوذوكس يرفضون أيضًا رسم النساء حاخامات. فهذا التصرف في رأي الأرثوذوكس يعتبر انحرافًا غير مقبول عن التوقعات المستمدة من التقاليد. في اليهودية التقليدية تعتبر النساء منفصلات عن الرجال لكن مساويات لهم؛ ودورهن الأساسي أن يكن زوجات وأمهات، بغض النظر عن أن الكثير من الفقهاء اليهود يعتبرون أن الأمهات المؤسسات [المذكورات في التوراة] (سارة، ورفقة، وراشيل وليئة) كن أعظم من الآباء المؤسسين (إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب) في النبوءة. لكن المتوقع من النساء أن يخفين أنفسهن في حضرة الرجال (كأن يغطين أجسادهن وشعرهن) ولا يأتنسن اجتماعيا إلا مع نساء أخريات. جميع الصلوات العامة لا يصليها إلا الرجال وحدهم. ومن الصلوات الشائعة بين الرجال من اليهود الأرثوذوكس صلاة تقول: "مبارك أنت أيها الرب، إلهنا، ملك الكون، لأنك لم تخلقني امرأة"

لكن الفروع الأخرى من اليهودية أكثر قبولاً للتغير. فمثلاً، حاولت ريجينا جوناس كسب المساواة للنساء اليهوديات فكتبت في عام ١٩٣٠ تحليلاً مطولاً للقانون اليهودي فيه لجاجة في الجدال؛ لتثبت أن النساء يمكن أن يكن حاخامات. وانتهى الأمر بأن نالت ريجينا جوناس دبلومة الدراسات الحاخامية في عام ١٩٤٢ ببرلين، لكن المأساة أن النازي قتلوها بعد ذلك ببضع سنوات. كما أن سالي بريساند كانت أول امرأة يهودية ترسم حاخامة في الولايات المتحدة الأمريكية بفضل حركة

الإصلاح التي جرت في عام ١٩٧٢. واليوم، يمكن للكثير من اليهوديات أن يباشرن الاحتفال المسمى بات ميتزفا وهو احتفال ببلوغ الفتيات سن التكليف الديني، وأن يخدمن أيضًا كحاخامات، ورئيسات لجوقة المرتلين، وقائدات للمجتمع المحلي.

وقد تميز الإسلام في بدايته بالتوازن بين الرجال والنساء. والحق إن خديجة كانت شريكة النبي في رسالته، بينما تعتبر ابنته فاطمة أول معلمة دين في الإسلام. تمثل فاطمة الزهراء وابنتها زينب بالنسبة للمسلمين (السُّنّة منهم والشيعة) النمط الفطري الأنثوي. فهم يشيرون إلى فاطمة باسم الزهراء، وهي كلمة تدل على جودة النور المشع منها، والسيدة ذات المال الظاهر، والمشابهة لخصائص الشجرة التي تزهر بالبراعم ولا تنقطع عن الجود بالثمار. وقد استمد اسم جامعة الأزهر بمصر (٩٧١ ميلادية) من اسم الشهرة لفاطمة، ألا وهو الزهراء، تقديرًا لها، فهما من نفس الجذر اللغوي.

وفي بواكير ظهور الإسلام، كان من الطبيعي للنساء أن تكون لهن سلطات في التعليم الديني، ومن المعروف أن الإمام الشافعي الشهير قد تلقى العلم عن السيدة نفيسة (وهي ابنة حفيدة النبي محمد). كانت السيدة نفيسة تلقب باسم "نفيسة العلم" **(Helminski, 2003)**. بناء على هذا التاريخ، يحزننا أن معظم المناصب المهمة في العالم الإسلامي الحديث تصمم ليشغلها رجال، مثل رئاسة المعاهد الدينية، أو القضاء. هذا النوع من التمييز ضد النساء يعتبر أمرًا دينيًّا، ويبرر بالدين. واعتادت النساء على التخلي عن حقوقهن، معتقدات أنهن سيخرقن القواعد الدينية إذا تمردن على هذه المعايير. لم يعلمهن أحد ما كانت عليه من سبقتهن من النساء. لكن هذا الوضع يتغير؛ فمثلاً، جمعت كاميل هلمينسكي حديثًا قصص حياة النساء الصوفيات منذ بدايات تاريخ الإسلام وحتى وقتنا المعاصر، وذلك في كتابها *نساء الصوفية* ***Women of Sufism***. تشمل القائمة المدهشة لهؤلاء النساء معلمات،

وطبيبات، ومصلحات، وشاعرات، وقديسات، وجميعهن رائدات من أجل تحسين حال البشرية (*Helminsky, 2003*).

وجدت الكثير من الحركات النسائية في الكثير من البلدان الإسلامية، وهي تقوم أيديولوجيًا على أساس المبادئ الإسلامية، وتهدف إلى تحرير النساء من الأيديولوجيات الإسلامية الزائفة. حين تتاح للنساء الفرصة، دون تثبيط من السلطة الذكورية، فإنهن يقدمن لوجهات النظر الذكورية النمطية ما تحتاجه من توازن. وهذا يحدث في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك الأمم الإسلامية. فمثلاً، قدمت الأستاذة الأمريكية أمينة ودود[(٩)] طريقة لقراءة القرآن وتفسيره من منظور نسوي. يتآلف تفسير أمينة ودود مع المبادئ الأساسية للإسلام، مع تأكيده على أن جميع البشـــر يستقبـــلون بـــركاته بغـــض النظر عن فوارق الجنس (سواء كانوا رجالاً أم نساء). تقدم أمينة ودود في كتابها *القرآن والنساء: قراءة النص المقدس من منظور امرأة* ***Quran and Women: Reading the Sacred Text from a Woman's Perspective (Wadud, 1999)*** قضايا مثيرة للجدل بأسلوب واضح، متآلف، ويقدم الكتاب خلاصة مقنعة ذات أسس راسخة تناقض التفسيرات المتحيزة للرجال التي أساءت لقرون عديدة إلى سمعة وجهة النظر الإسلامية ومعاملة الإسلام للنساء. وعلى الرغم من وجود اختلال توازن بين الرجال والنساء بشكل واضح في جميع أنحاء العالم، فإن الرأي العام قد انتبه لوجوده في الإسلام على ضوء الأحداث العالمية الأخيرة، وذلك بفضل الجماعات الإسلامية المتطرفة (مثل الطالبان، والوهابيين في السعودية). توجد الكثير من النساء المسلمات يأخذن خطوات نحو مساعدة الآخرين والأخريات على أن يصيروا نشطاء اجتماعيًا، وذلك

---

(٩) أمينة ودود هي أول امرأة مسلمة في العالم تؤم الصلاة لجماعة مختلطة تجمع بين الرجال والنساء في نيويورك. استدعى هذا الحدث التاريخي الكثير من النقد من الجماعات الإسلامية المتشددة التي تعتقد أن المسلمات لا ينبغي لهن أبدا أن يأممن الصلاة في جماعة مختلطة من الرجال والنساء.

بأسلوب هادئ وصريح في نفس الوقت، وهذا التطور يحدث في جميع أنحاء عالم المسلمين (المرجع السابق).

في جميع الديانات الموجودة في العالم تتجمع قائدات دينيات مهتمات بشفاء جراح العائلة البشرية. كوَّنت دنا ميريام مع القائدة المسيحية القسيسة جوان براون كاميل (من الولايات المتحدة الأمريكية) *مبادرة السلام العالمية للقائدات الدينيات والروحيات* ***Global Peace Initiative of Women Religious and Spiritual Leaders*** التي تجمع قائدات دينيات، وقيادات من نساء الأعمال وقائدات حكوميات من جميع العقائد والديانات، يركزن على بناء السلام وإقامة عالم أفضل للجميع. بزغت هذه الجماعة من قمة السلام العالمي للألفية الجديدة التي عقدت بالأمم المتحدة في نيويورك في عام ٢٠٠٠، وهو جهد هائل يهدف إلى توحيد ممثلي وممثلات جميع العقائد. ومبادرة السلام العالمية ليست إلا مثالاً واحدًا على ظهور الوجود الأنثوي في المجالات الدينية والسياسية. لقد أخذن على عاتقهن مشروع تعليم الأطفال حول العالم وتوجيههم نحو سبل سلمية للعيش مع بعضهم البعض. إنه لأمر مهم أن امرأتين قد فازتا على التعاقب بجائزة نوبل للسلام في السنوات الأخيرة. فازت شيرين عبادي، وهي محامية إيرانية، بهذا التقدير في عام ٢٠٠٣ نتيجة لإخلاصها لقضايا حقوق الإنسان والمآسي التي يتعرض لها الأطفال. أما وانجاري ماتاي الكينية فقد فازت بجائزة نوبل للسلام لعملها على بيئتنا. وهي ملتزمة بحماية البيئة كوسيلة لتحسين الحكم.

السياسة والنوعان (الرجال والنساء)

توجد حاجة ماسة لمساواة النساء بالرجال في تمثيلهن بالحكومة. صدر تقرير بحث عن سياسة النوع والتنمية، وقد درس هذا البحث العلاقة بين النساء، والفساد والحكومة. ونشر البنك الدولي نتائج هذا البحث التي جاء فيها:

إن العديد من الدراسات السلوكية قد وجدت أن النساء أكثر أهلاً للثقة ولديهن روح عامة أكثر من الرجال. تشير هذه النتائج إلى أن النساء لابد أنهن سيكنَّ مؤثرات بشكل خاص في الارتقاء بحكومة أمينة. ويتسق مع هذا الافتراض ما وجدناه من أنه كلما زاد تمثيل النساء في البرلمان انخفض مستوى الفساد. ونجد هذا الارتباط في قطاع عرضي كبير من البلدان؛ وتصدق هذه النتيجة بشدة على نطاق عريض من المجالات المعينة (Dollar et al., 1999).

كان البحث المذكور واحدًا من عدة أبحاث في سلسلة عن النوع والتنمية. وقد نشرت النتائج في *إنتاج التنمية: من خلال المساواة بين النوعين في الحقوق، والموارد، والصوت*. وقد لاحظ الباحثون أن "عدم المساواة بين الرجال والنساء يعرقل التنمية" وأضافوا أن "عدم المساواة في الحقوق، والموارد، والصوت السياسي مجحف عمومًا بالنساء، لكنه أيضًا مجحف ببقية المجتمع، كما أنه يعرقل التنمية" *(The World Bank, 2001, p. 73)*. وهكذا، ينتشر التحرك القوي نحو المساواة بين النوعين في جميع أنحاء العالم(١٠).

وقد حكم منذ فترة طويلة بأن المناصب الحكومية والقيادية مجال للرجال. من ثم، اتجهت النساء القليلات اللاتي جرؤن على الدخول إلى عالم السياسة إلى قمع أنوثتهن والأخذ بسلوكيات ذكورية لكي يحصلن على أي قدر من مكانة القوة. لم يعد هذا ضروريًا. والحق أن الخصائص الفريدة للمؤنث لازمة لخلق تغير إيجابي. فمثلاً (كما لاحظنا في الفصل الثالث) تشير الأبحاث المتزايدة في هذا

---

(١٠) يميل الكثيرون إلى تنميط بلدان الشرق الأوسط والهند كأمثلة على قمع النساء، ناسين أن الناشطات الأمريكيات لوسي بيرن، ودورا لويس، وآليس كوزو، و دوروثي داي وغيرهن قد تعرضن للسجن والضرب المبرح منذ أقل من مائة سنة بتهمة الإحاطة بالبيت الأبيض، مطالبات بالمساواة للنساء في حق التصويت.

المجال إلى أن النساء لا يستجبن لما يقع عليهن من الضغوط بنفس الطريقة التي يستجيب بها الذكور. إن وجود عوامل هرمونية مثل التستوستيرون لدى الذكور والأوكسيتوسين لدى الإناث يدعم هذه الفوارق. النساء أكثر استعدادًا للاستجابة للخلافات أو التحديات بطريقة مد اليد للمشاركين فيها. (وفي نفس الوقت، يوجد بداخل كل كائن بشري القدرة على التصرف بتراحم أو بعدوانية، بغض النظر عن النوع من رجال أو نساء).

ويلاحظ بيتر بيكمان وفرانسين داميكو في كتابهما *النساء، والنوع والسياسة العالمية* ***Women, Gender, and World Politics*** أنه حتى على الرغم من وجود الفوارق البيولوجية بين الذكور والإناث، فإن "السمات المميزة لكل نوع منتج ثقافي، ينقل لأعضاء المجتمع [أو الديانة] الجدد عبر عملية تسمى التنشئة الاجتماعية ***(Beckman & DÀmico , 1994, pp. 3-4)***. الفكرة أن الجنس البيولوجي وموضوع النوع مسألتان منفصلتان من حيث ما الذي يعين الرجل أو المرأة، وأن هذا يختلف حين نقارن ثقافة بأخرى(١١). ويلاحظ بيكمان وداميكو أيضًا التنوعات الواضحة في كل جنس. فمثلاً، قد يركز أحد الذكور تمامًا على فرض سطوته على الآخرين بينما قد يفتقر آخر للقوة اللازمة للقيادة، لكنه يظهر خصائص الاهتمام بـــرعاية الآخـــرين. وقد تظهر الأنثى اعتمادًا كليًا على الآخرين في اتخاذ القرار أو قد تبدي سمات تنافسية، أو قد تجمع على مستوى أكثر تطورًا بين القوة والاهتمام بالآخرين.

يمكن أن تعتبر هذه الأوصاف مستويات من النضج الخيميائي (الذي وصفناه في بدايات هذا الفصل)، بينما يشكل تطور الإنسان علاقة تكاملية بين النمط الفطري للأنيما (الأنثى) والأنيموس (الذكر) داخل الفرد وهو في حالة نشوء وارتقاء. هذا التطور يمكّن الفرد من اكتساب خصائص الرعاية المتوازنة مع القوة

(١١) تؤكد الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية على أن الأدوار الاجتماعية الموكلـــة للرجـــال والنساء لا تنتمي إلى نظام طبيعي، بل إنها مكتسبة ثقافيًا واجتماعيًا.

ويؤدي إلى أسلوب قيادة يتسم بالمساواة يركز على تحسين حياة المجتمع بأسره لا على التضحية بالعديد من أفراد المجتمع الإنساني حين يقبض المرء وحده على زمام الثروة والقوة. يدور اليوم كثير من الكلام المليء بالنفاق عن الديموقراطية، لكن الحقيقة أن القيادة الديموقراطية الحقة تتسم بالمساواة بحكم طبيعتها التي جبلت عليها.

يلاحظ فرين جينوالا، المتحدث باسم الجمعية الوطنية لجنوب إفريقيا أن "بذرة الديموقراطية تكمن في مبدأ أن شرعية سلطة اتخاذ القرارات التي تمس حياة الشعب، ومجتمعه وبلاده لابد أن تستمد من اختيار من سيتأثرون بهذه القرارات لهذه السلطة" *(Ginwala, 1998, p. 1)*. يمثل هذا التصريح منظورًا أميل إلى المنظور الأنثوي، يعترف بأهمية البشر الذين تتألف منهم الثقافة. وتكشف الأبحاث عن أن النساء على وجه الخصوص يملن إلى التركيز بالذات على "قضايا العدالة، والإنصاف، وحقوق الإنسان" (المرجع السابق ص ٢).

إن فكرة القيادة والحكم المتوازنين بين النوعين وممارستهما قد أتت بتغيرات مهمة في المجتمعات الإسكندنافية. وقد لاحظت بريجيتا داهل، المتحدثة باسم البرلمان السويدي أنه:

> **ليس أهم جانب في البرلمان السويدي أن ٤٥ بالمائة من التمثيل فيه للنساء، بل الأهم أن أغلبية النساء والرجال يجلبون للبرلمان خبرة اجتماعية ذات صلة بذلك. وهذا هو ما يجلب الفرق. فالرجال يأتون معهم بخبرة قضايا الحياة الواقعية عن تربية الأطفال وإدارة البيت، ولديهم أفق واسع وفهم كبير لهذه القضايا. ويسمح لنا نحن النساء أن نكون ما نحن عليه، وأن نتصرف وفقًا لشخصياتنا الفريدة. ليس على الرجال ولا النساء الانصياع لدور تقليدي. ولا تضطر النساء للتصرف كالرجال كي يحصلن على القوة؛ ولا يضطر الرجال**

للتصرف كالنساء كي يسمح لهم برعاية أطفالهم. وحين يصير هذا النموذج هو المعيار السائد، سنرى تغيرًا حقيقيًا (Shvedova, 1998, p. 28).

ويعدُّ هذا الإجراء –ألا وهو مساندة النساء والوقوف بجانبهن بهدف مساعدتهن على القيام بأدوارهن في المناصب القيادية بأسلوب أنثوي– من أهم الإجراءات في هذا الصدد. وكم منًا قد عانى من الرئيسات أو المشرفات الجامدات الفاقدات للحساسية والمتسلطات كثيرات العقاب، أي اللاتي يتصرفن بأسلوب أبوي في الحكم. وهؤلاء النساء على الأرجح لم يتعرضن من قبل لنماذج من تلك القيادات الأنثوية يتخذنها قدوة في لعب الأدوار بطريقة غير أبوية. لكن النساء يبحثن الآن عن طرقهن الخاصة ويدعمن بعضهن البعض، حيث إن أعدادًا متزايدة من النساء يشعرن بأنهن مرغمات على شغل مناصب قيادية هامة.

وقد بدأت مسيرة الرحلة الشاقة نحو حقوق النساء في عام ١٨٩٣ حين منحت نساء نيوزيلندا حق التصويت. وسرعان ما اقتفت بلدان أخرى أثر نيوزيلندا. كانت فنلندا أول من سمح للنساء بالتصويت لغيرهن وترشيح أنفسهن في الانتخابات. والآن، وبعد مائة وإحدى عشرة سنة، تسمح جميع الأمم تقريبًا لنسائها بحق المشاركة في اتخاذ القرار بخصوص القيادات المحلية والقومية، على الرغم من أن النساء اللاتي يرشحن أنفسهن في هذه الانتخابات ما زلن قليلات ومتفرقات. وهذا يعني أن النساء ما زلن مستبعدات إلى حد بعيد عن وضع السياسات. لكن هذا الوضع يتغير. فالنساء يمثلن حاليًا (وفقًا للإحصائيات) "١١,٧% من عضوات المجالس التشريعية في جميع أنحاء العالم" *(Lovenduski and Karan, 1998, p. 126)* بحيث تمثل البلاد الإسكندنافية ٣٦،٤% (أعلى نسبة) والولايات المتحدة الأمريكية حولي ١٣%، والدول العربية أكثر بقليل من ٣% (أقل نسبة). ويكشف التاريخ المبكر للولايات المتحدة الأمريكية أن "حكومات سكان أمريكا الأصليين ربما كانت أكثر ديموقراطية في بعض الأحوال [عن حكومة الولايات المتحدة

الأمريكية]، وبالذات فيما يخص المدى الذي سمحوا فيه للنساء بالمشاركة في الشئون الحكومية" وذلك قبل انتشار تدخل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في الحياة القبلية *(Alschuler, 1994, p. 867)*. والحق إن نساء السكان الأصليين لأمريكا ظللن نشطات في شئون القبيلة. وحتى لو كان *رؤساء القبائل* ذكورًا بحكم التقاليد، فكثيرًا ما كان للنساء الكلمة الأخيرة في القرارات الكبرى التي تخص القبيلة.

وقد حدث في عام ١٩٨٣ حدث مشهود حين أخذت النرويج قرارًا بضرورة دخول الرجال والنساء معا في ٤٠% من جميع الانتخابات والترشيحات. وأعلن الحزب الديموقراطي السويدي في عام ١٩٩٤ أن كل ثاني مرشح للانتخابات لابد أن يكون من الجنس الآخر (مما يضمن إمكانية التمثيل المتساوي للرجال والنساء). والنساء يشغلن الآن في المتوسط ما يزيد قليلاً عن ثلث المناصب الحكومية في السويد *(Kran, 1998)*. وتشرح بريجيتا داهل، المتحدثة باسم البرلمان السويدي، أن نظام الكوتا في حد ذاته لا يصنع فرقًا. فالسويديات "مهَّدن ساحة العمل لتيسير دخول النساء في العمل السياسي. وقد أعددنا النساء لنضمن كفاءتهن ... وأعددنا النظام، الذي خفض من شعور الرجال بالخجل إلى حدٍّ ما عند تنحيهم عن الطريق للنساء" *(Dahlerup, 1998, p. 93)*. لقد فتحوا الأبواب للرجال والنساء ليعملوا معا، مع استغلال كل من الجنسين للجوانب الفريدة لنوعه مع إسهامهم وإسهامهن بشخصياتهم وشخصياتهن الفردية. وقد أثّر وجود النساء في البرلمان على سياسات اتخاذ القرار بالنسبة للتعليم، والصحة، والخدمات الاجتماعية ورعاية الأطفال والمسنين. والقيادات النسائية أكثر اهتمامًا (بحكم طبيعتهن) بالمساواة بين الرجال والنساء، والدعاية لحقوق النساء، والقضاء على العنف المنزلي وخلق مجتمعات تأخذ بالمساواة. وهن أقل اهتماما بالحرب، وإرساء تسليح أقوى وأعظم، فهن من ثم يركزن على تحسين الحياة للجميع.

ولا يدهشنا أن تمثيل الإناث محدود في الشرق الوسط (حيث تمثل النساء ٣% من البرلمان). لقد تجاهل الرجال المسلمون لأمد بعيد التأثير السياسي للنساء في صدر الإسلام. وقلائل هم من انتبهوا إلى أن عائشة، الزوجة الثانية للنبي، مارست القيادة السياسية حين قادت جيشًا لصدِّ هجوم قوات عليٍّ بن أبي طالب. على الرغم من أنها ندمت فيما بعد على أخذها لموقف عسكري، فإن معارفها وقوتها العسكريتين قد أعطتنا نموذجًا يقتدى به للأجيال القادمة، يوضح أن النساء يمكنهن الاضطلاع بمسئولية القيادة السياسية. يستغل مسلمو العصر الحديث ندم عائشة ليؤكدوا اعتقادهم بأن قيادة النساء تؤدي للفشل. ونسوا أن قرارها بمحاربة علي قد حكم عليه فيما بعد بأنه خطأ لا علاقة له بنوع جنس من اتخذته.

وفي عصور أحدث، اختيرت النساء رئيسات للدولة في بنجلاديش وباكستان. فمثلاً، كانت خالدة ضياء رئيسة لوزراء بنجلاديش منذ عام ١٩٩١ حتى ١٩٩٦، وتلتها في هذا المنصب الشيخ(١٢) حسينة واجد. وكانت بي نظير بوتو رئيسة لوزراء باكستان من عام ١٩٨٨ حتى ١٩٩٠، ثم شغلت هذا المنصب مرة أخرى من ١٩٩٣ حتى ١٩٩٦. واختيرت تانسو سيلار رئيسة وزراء لتركيا في عام ١٩٩٣ وظلت في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات. كما أن الإسرائيلية جولدا مائير تشتهر أيضًا بأنها شخصية سياسية معروفة في الشرق الأوسط، بدأت حياتها وزيرة للشئون الخارجية (١٩٥٦-١٩٦٩) حتى صارت أخيرًا رئيسة وزراء إسرائيل من ١٩٦٩ حتى يناير ١٩٧٤. وفي ثمانينيات القرن العشرين انتخب شعب مالطا آجاثا باربرا رئيسة لبلادهم (١٩٨٢-١٩٨٦). على الرغم من أن ما سنقوله غير معروف على نطاق واسع، فإن أول نائبة رئيس جمهورية في الشرق الأوسط كانت طبيبة إيرانية تلقت تعليمها في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي د. ماسومي

(١٢) يستخدم مصطلح شيخ لكل من الرجال والنساء في بنجلاديش، بينما يستخدم مصطلح شـيخة في البلدان المتحدثة بالعربية للإشارة إلى المؤنث لتفرقتهن عن المذكر.

ابتكار، التي عينتها إدارة الرئيس خاتمي، واشتغلت كثيرًا على حقوق النساء الإيرانيات. بالاختصار، على الرغم من أن شغل النساء لمناصب القيادة في بلدان الشرق الوسط يبدو رحلة بطيئة الخطوات، فإنهنّ يسرن بخطى ثابتة في هذا الطريق.

اتبعت بعض من النساء المذكورات أسلوب قيادة أبوي. تدرك النساء أهمية الحفاظ على طبيعتهن الأنثوية التي جبلن عليها عند ممارستهن للقيادة، وإلا فلن يحدث إلا تغير ضئيل في الهياكل الأبوية، هذا إذا حدث تغير فيها أصلاً.

وقد شهدت بدايات القرن العشرين صراعات بين الطرق التقليدية في التفكير والمداخل التقدمية التي تصنف عادة على أنها الحداثة (ولابد أن نلاحظ هنا أن الكثير من الأمم الإسلامية ينتابها الشك في الأخذ بمناهج الغرب بسبب نهجه العلماني في الحياة الذي كثيرًا ما يستهين بالأمور الدينية(١٣). ومن المثير للسخرية أن المبادئ المثالية الأساسية للحداثة (المساواة، والعدل، وحقوق الإنسان) مغروسة أيضًا في ثقافة الإسلام الأصيلة(١٤). ويحدث الخلط من أن أمم الشرق الأوسط والأمم الإسلامية تعبر عن نفس المبادئ بلغة وأسلوب يناسبان هويتها الثقافية، وهكذا تدرك الأمم الإسلامية والعربية أن الديموقراطية الغربية غريبة مقارنة بأسلوب أهلها.

وقد كانت مصر رائدة في فكّ تعقد هذا التعارض. لقد وقف رجال شجعان ضد الأغلبية وشنوا حملات تدافع عن حقوق النساء في التعليم والعمل. وقد وجدت

---

(١٣) نشأت ثقافة الحريم أثناء العصور العثمانية والمملوكية في القرن السادس عشر. وقد عزلت هذه الفكرة المتمسحة بالدين كذبًا النساء. كما عارض الإسلاميون الراديكاليون حركات تحرير المرأة لأنهم اعتقدوا أنها مفروضة من الغرب. يمكننا المحاجاة في أن المُثُل الغربية كانت لديها قدرات كامنة على الدفع بطرق جديدة في التفكير وعلى تفكيك الأفكار المتمسحة بالدين كذبًا. وهذه الأفكار الجديدة تمد جذورها ببطء في الأمم الإسلامية.

(١٤) انتخبت أغلبية مواطني المدينة محمدًا لمنصب القيادة في الأمة الأولى (معشر المسلمين). وقد استشار صحابته في أي قرار يلزم اتخاذه، وكان مسموحًا بالمعارضة.

من النساء من لديها الشجاعة لتشجيع نساء القاعدة الشعبية على المشاركة في الحياة السياسية. وقد جرى رفع هذا الوعي الاجتماعي بين المصريات. وفي أثناء ثورة ١٩١٩ في مصر، شاركت النساء مشاركة إيجابية فيها وعبِّرن عن تضامنهن مع قيادات الأمة الذين وقفوا ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر. وقد ظهرت شخصيات مثل هدى شعراوي ونبوية موسى في بدايات القرن العشرين، وتلتهن درية شفيق وأمينة السعيد، وفتحن الأبواب للكثير من النساء للاشتراك في حركة تحرير المرأة. وقد ترددت صدى مُثُلهن في جميع أنحاء العالم العربي.

> **لقد عقد المؤتمر النسائي العربي في القاهرة في ديسمبر ١٩٤٤، ودافعت فيه هدى شعراوي وغيرها من النسويات المصريات دفاعًا مجيدًا عن الحقوق السياسية للنساء، ولم يفعلن ذلك هذه المرة من أجل مواطناتهن، بل من أجل جميع النساء العربيات. وقد كانت هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري والمؤتمر النسائي العربي، وبحكم مناصبها، أعلنت في كلمتها التي ألقتها في المؤتمر أن "المرأة العربية تطالب أيضًا وبأعلى صوت باستعادة حقوقها السياسية، تلك الحقوق التي منحتها إياها الشريعة". ونلاحظ أن هدى شعراوي قد بررت مناداتها بالحقوق السياسية للمرأة بالخطاب الإسلامي لا بلغة الديموقراطية العلمانية (Badran, 1995, p. 216).**

وقد ناضلت النساء في جميع أنحاء الشرق الأوسط وإفريقيا من أجل الحق في التصويت وفي عضوية البرلمان، وقد منحن هذه الحقوق.

والنساء اليهوديات يمثلن الكثير من أكثر القيادات النسوية تأثيرًا في القرن الماضي. فمثلاً، كانت جلوريا شتاينم قائدة نسوية عظيمة في الولايات المتحدة الأمريكية أثناء ستينيات القرن العشرين. عملت جلوريا لفترة طويلة كاتبة وصحفية، تجذب الأنظار إلى القضايا السياسية والاجتماعية الخاصة بحقوق النساء، وتشجع النساء على الاعتراف بموارد تمكينهن. وقد أسست مجلة *Ms*، أول مجلة أمريكية نسائية على المستوى القومي تديرها نساء، وظلت جلوريا امرأة مؤثرة ومخلصة على الجبهة الأمامية لحقوق النساء.

لكن النساء في إسرائيل منقوصات التمثيل في جميع مجالات الحياة العامة. شاركت نساء قليلات في قيادة الأمة منذ استقالة رئيسة الوزراء القوية جولدا مائير في عام ١٩٧٣. كما أن أحزابًا دينية صغيرة ظهرت في السنوات الأخيرة، تعارض عمومًا مشاركة النساء في الحياة العامة، وقد كسبت هذه الأحزاب تأثيرًا سياسيًا متزايدًا. والخدمة العسكرية الإجبارية في إسرائيل مجال آخر للتمييز. لقد مهد الكثير من السياسيين طريقهم إلى الخدمة العامة من خلال العمل بالجيش. على الرغم من أن الخدمة العسكرية إجبارية للرجال والنساء على حد سواء، فإن من الأسهل إعفاء النساء منها، كما يحظر عليهن أيضا تقلد بعض مناصبها. لم تتمكن إلا القليلات من الترقي حتى الرتب العالية في الجيش الإسرائيلي. وتمثل قصة الالتماس الذي قدمته آليس ميلر لتتطوع بالتدرب على الطيران انعدام المساواة في الجيش الإسرائيلي. صارت الأستاذة ميلر أول أنثى تقود طائرة حربية نفاثة بعد القرار المهم الذي أصدرته المحكمة العليا الإسرائيلية. لكن توجد أمثلة لنساء اتبعن نماذج يسودها الذكور مع تزايد أعداد النساء اللاتي يتجمعن لتمثيل نماذج أكثر إنسانية للقيادة النسائية في إسرائيل وفي جميع أنحاء العالم. فمثلاً، الكثيرات من نساء إسرائيل نشطات في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني على الأراضي المحتلة. من جهة، تطالب النساء المتدينات من ساكنات المستوطنات اليهودية بشراسة بحقوقهن في الأرض، ومن جهة أخرى، توجد جماعات مثل *النساء المرتديات السواد* يحتججن على الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة.

لقد تحولت حركة النساء مرتديات السواد إلى شبكة تمتد لجميع أنحاء العالم، وتلتزم بالسلام والعدل، وتعارض بشكل فعال الحرب وغيرها من أشكال العنف. وهي ليست منظمة، بل وسيلة لحشد الناس وتركيبة للتحرك. وهن يزعمن أن:

النشاط من أجل السلام الذي يضم نساء فقط لا يعني أن النساء "يولدن صانعات للسلام بطبيعتهن" أكثر من الرجال. لكن للنساء خبرة خاصة بالحياة، حيث إنهن ينغمسن في العمل برعاية الغير بنسبة غير متساوية مع الرجال. غالبًا ما تقع النساء عند الطرف المستقبل للعنف بين الجنسين، سواء في حالة السلام أم الحرب، ومعظم اللاجئين من النساء. ترى وجهة النظر النسوية أن الثقافات الذكورية أكثر استعدادًا للعنف على وجه الخصوص، وهكذا تميل النسويات إلى أن يكون لهن منظور معين للأمن وأن يقلن شيئا فريدًا عن الحرب(١٥).

د. نوريت بيليد – الحنان إسرائيلية نشطة من أجل السلام فجعت بفقد ابنتها الوحيدة سمادار، التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها، التي قتلت في تفجير انتحاري فلسطيني في القدس في عام ١٩٧٧. على الرغم من فجيعة د. نوريت، فإنها تفهم أيضًا ألم الأمهات الفلسطينيات. وقد أدركت أن أعداءها ليسوا الفلسطينيين، بل من يرتكبون الحروب. وقد أقرت بأن "الحروب تشن لا لسبب إلا للخلل العقلي وجنون العظمة لدى من يسمون قادة الدولة رؤساءها"(١٦). فازت نوريت بجائزة من جوائز السلام (جائزة شاخاروف الشرفية لعام ٢٠٠١) وتسلمتها من البرلمان الأوروبي، وهي تمثل امرأة رحيمة، قادرة على رؤية الحزن الذي يعانيه طرفا هذا الصراع المحزن كلاهما. وهي تقترح دعاية جديدة لمن يريدون

---

(١٥) *http://www.womeninblack.net/*

(١٦) *http://www.nimn.org/jewishper/npel.html*

الحرية والأمان في هذا العالم. وقد أعلنت نوريت في الخطاب الذي ألقته أمام جماعة النساء مرتديات السواد، "... لابد من أن ترتفع صرخة، صرخة عتيقة كالرجل والمرأة، صرخة تتجاوز جميع الفوارق العنصرية أو الدينية أو اللغوية، صرخة الأمومة: انقذوا أطفالنا" (المرجع السابق).

إنها صرخة ينبغي أن نصغي إليها جميعًا ونستجيب لها، لأن جميع الأمم ستستفيد من الاقتداء بما أرسته الدول الإسكندنافية من مُثُل للتوازن بن الرجال والنساء في تقلد المناصب الحكومية (حتى ولو أنها ما زالت بحاجة إلى تحقيق التوازن بنسبة ٥٠% إلى ٥٠%). قد ينفع تعليم النساء وإعدادهن مع تشجيع كل من السمات المذكرة والمؤنثة واستخدامها في المساعدة على تحقيق التوازن اللازم في عالمنا، وتحقيق موقع متوازن يرحب فيه الرجال بالتخلي عن السيطرة ويقفون فيه بجوار النساء، ويساعدونهن كشريكات في القيادة. إن هذا الجهد الخيميائي التطبيقي لإرساء التوازن بين الجنسين سيقربنا من الاكتمال، والوحدة الروحانية.

وقد شاركت جماعة مكونة من ٢٠٠ امرأة يمثلن قطاعًا عرضيًا من المجتمع الإسرائيلي في إنشاء جماعة "النساء، والسلام، والأمن – دليل للنساء من أجل إنشاء فرق للمفاوضات من أجل السلام). تقوم هذه الجماعة على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ١٣٢٥ الصادر في عام ٢٠٠٠، والذي لاحظ أنه حيث إن النساء يتأثرن بالحرب فلا بد أن يشاركن في قرار التفاوض والصراع. ووفقًا لمادة نشرت في جريدة هاآرتس الإسرائيلية في ١٢ يوليو ٢٠٠٦:

> **إن هدفهن المساعدة في التفاوض في محادثات السلام بين ممثلي الفلسطينيين والإسرائيليين. تقول راوية أبو ربيعة "الرجال يشنون الحرب، فلابد أن يسمحوا للنساء بالإسهام في إقرار السلام". تعمل راوية أبو ربيعة أخصائية اجتماعية كما تدرس الحقوق وتدير مركز جماعة يديد الدعوية في منطقة راحات. ورد اسمها في قوائم الدليل كميسرة**

لمجموعة تتناول تمكين النساء وإظهار قيادات سياسية واجتماعية من بينهن من خلال حملات عامة لجعل حقوق النساء أمرًا واقعًا 17.

ربما أمكن لهذا الدليل للنساء الإسرائيليات أن يساعد على التفاوض من أجل السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين إذا أعطيت له الفرصة لذلك. تقول روث سيناء مراسلة هاآرتس: يشمل هذا الدليل أسماء محاميات، وخبيرات أمن، وممثلات عن "الصحة، والحقوق المدنية وحقوق الإنسان، والتعليم، والاقتصاد، والتجارة، والبيئة، والتخطيط، والاتصالات، بل والثقافة والفنون". يشمل هذا القطاع العرضي من النساء الإسرائيليات "يهوديات، وعربيات، ونساء من المزراحيم والأشكينازيم، ونساء محنكات ومهاجرات جديدات، ونساء ذوات توجه جنسي مغاير وأخريات سحاقيات، ونساء ينتمين للتيار السائد وأخريات ممثلات للراديكالية".

ومن المعترف به أن هؤلاء النساء يقتدين بفيساكا دارماداسا ابنة سيريلانكا، أم الجندي الذي قتل في إحدى المعارك، فكان رد فعلها أن دخلت إلى أراضي التاميل بصحبة جماعة من سبع أمهات أخريات للتفاوض على وقف إطلاق النار مع قادة المنظمة الإرهابية التاميلية. وقد أقامت معهم علاقات أدت إلى وقف إطلاق النار في عام ٢٠٠٢.

شفاء جراح الدين

تخيلوا التغيرات التي يمكن أن تحدث لو أن ممارسي الديانات ركزوا تأملاتهم وحبهم للمقدس على اللحظة الراهنة، حيث يمكن الإحساس بهذه الممارسات والتعبير عنها في الحياة. فالحب والتراحم يمكن أن يوجدا في جميع

(١٧) للأسف، نظم اللقاء مع الرئيس الإسرائيلي في نفس اليوم الذي هاجمت فيه إسرائيل لبنان. ونأمل أن تستمر هؤلاء النساء في تحقيق ما انتوينه.

التعاليم الدينية. وكلما ابتعدنا عن التفسيرات العقائدية الجامدة وطبّقنا المبادئ الديناميكية للمدراش والتأويل، فسمحنا بذلك بأن يؤثر في الوعي فهم متجدد للدين لا نهاية لعمقه، فسوف نتقدم نحو عصر جديد.

تقول صلاة بوذية اسمها هارت سوترا لأتباعها أن يتجاوزوا جميع الآراء، والأفكار، والمعتقدات لكي يمروا بخبرة مباشرة بذلك الوجود المتجاوز لكلمات البشر. وربما كانت نفس هذه الحقيقة هي السبب في وجود أحكام من النصوص المقدسة لدى اليهود تقول إن الاسم المقدس لا يمكن أن يقال. إن تبجيل المقدس شأن من الشئون، لكن قد يكون الاعتقاد بأن في مقدورنا أن ننطق ذهنيا باسم الكيان المتجاوز للعقل الإنساني أمرًا مثيرًا للسخرية، ناهيك عن أنه من أشد المغامرات أنانية. إن الأصوليين والتفسيرات الجامدة عقائديًا للنصوص المقدسة تنقصهم قوة الحياة التي تفتح القلب للمقدس. في مثل هذه الأجواء، نادرًا ما يوقظ الفقه الديني الغني بالأحكام القلب. يدرك الصوفيون من جميع الأديان أن الروحانية الحقة تدخل بالخبرة المباشرة. وهذا هو السبب في أن ظهور أنبيائنا في حد ذاته قد أدى إلى هذه الاستجابات القوية حيث إنهم قد تجلى فيهم لقاء مباشر بالمقدس. إن المجادلة في المفاهيم الذهنية عن المقدس إضاعة للجهد. لكن الكثير من الحزن، والجنون، والموت قد حدث من جراء هذا الخطأ البشري الفادح.

لقد لاحظنا في موضع مبكر من هذا الكتاب كلمات القطب الصوفي العظيم حضرة عنايت خان، الذي صور كل ديانة من الديانات كنغمة موسيقية، مؤكدًا أن كل نغمة منها أتت من نفس المصدر وأن هذه المقطوعة الموسيقية العظيمة نتجت عن المزج بين جميع هذه النغمات *(Khan, 1979, p. 19)* مكونة سيمفونية للكون. وحين يبدأ المرء في إدراك أن كل ديانة من الديانات تعبير محدد آخر عن المقدس في أبهى صوره، حينئذ فقط يمكنه أن يقدر القدرة الخلاّقة للإله. ومع تعلم البشرية أن تحترم الحدود والفوارق التي تفرقنا عن بعضنا البعض، يمكننا تجاوز النعرات، والجهل، ومحاكاة الفكر الأصولي. سيمكننا حينئذ أن نفهم قدوة التعبد التي يقدمها لنا قطب صوفي آخر عظيم هو ابن عربي (١١٦٤-١٢٤٠) ونتبعها، فقد قدم تركيبة لتغيير هذا الشر الإنساني حين قال:

لقد صـار قلبـي قـابلاً كـل صـورةٍ	فمرعـى لغـزلان وديـر لرهبـانِ
وبيـت لأوثـانٍ وكعبـة طـائفٍ	وألـواح تـوراةٍ ومـصحف قـرآن
أديـن بـدينِ الحـب أنـى توَجَّهَـت	ركائبـه- فالحـب دينـي وإيمـاني

(shaj, 1964, p. 165)

كان ابن عربي يتكلم عن القلب المفتوح الذي يهلل فرحًا بالتبجيل والجمال حيثما وجد تعبير عنه. إن مشكلة التأثير الأبوي في الدين أنه جعل نصوصه وتعاليمه المقدسة أهم من الإنسان، بل من الحياة نفسها. لقد تجاهل الرسالة الموجودة في قلب جميع الديانات. هذه الرسالة تسمى في المسيحية القاعدة الذهبية، لكن جميع الديانات عبرت عن أهميتها عمومًا. والأمثلة التالية شواهد على هذه الرسالة النمطية الفطرية:(١٨)

الهندوسية: هذه هي محصلة الواجب: لا تفعل بالآخرين ما قد يسبب لك ألمًا لو فعله أحد بك (المهاباراتا ٥: ١٥١٧ (Mahabbarata 5: 1517.

البوذية: لا تعامل الآخرين بطرق تجدها أنت نفسك مؤلمة (بوذا، أودانا-فارجا ٥: ١٨ (The Buddha, Udana-Varga 5: 18.

الكونفشيوسية: توجد كلمة واحدة تلخص أساس كل سلوك طيب .. حب الأقارب. لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعله بك الآخرون (كونفشيوس، المختارات ١٥: ٢٣ (Confucious, Analects 15: 23

---

(١٨) القاعدة الذهبية. بوستر أنتجه سكاربورو ميشانز *Scarboro Missions*، وهو مجتمع محلي في كندا مكون من قساوسة وأناس عاديين *(2000. Paul McJenna)*.

الطاوية: اعتبر مكاسب جارك مكاسبك، وخسائره خسائرك (لاو تزو، تاي شانج كان يينج بييم ٢١٣-٢١٨ (Lao Tzu, T́ai Shang Kan Ying Ṕien, 213-218

الزرادشتية: لا تفعل بالآخرين ما تتأذى منه (شاياست - نا - شاياست ١٣,٢٩ Shayast-na-Shayast 13.29)

ديانة السيخ: لستُ غريبًا عن أي أحد؛ ولا يوجد من هو غريب عني. أنا حقًا صديق للجميع (جورو جرانث صهيب، ص ١٢٩٩ Guru Granth Sahib pg. 1299)

اليهودية: لا تفعل بجارك ما تكرهه. هذا القول هو التوراة بأكملها؛ والباقي تعليقات عليه (هليل، تاحمود، شابات ٣١أ Hillel, Tahmud, Shabbat 31a)

المسيحية: فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء (متى ٧: ١٢)

الإسلام: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (حديث نبوي)

إن المجتمع المتمتع بالمساواة والتوازن بين الجنسين هو فقط الذي يملك القدرة على تقديم حاوية مقدسة يمكن أن يجعل فيها من هذه المُثُل حقيقة واقعة. وهذا سيعدنا للمرحلة التالية من تطور الإنسان لأننا على شفا تحقيق جديد للروحانية. إن هذه الخطوة التطورية ستعتنق الاحترام الأفقي لقداسة الحياة نفسها كما تتبدى في روحانية البدو الرحل بالإضافة إلى المثال الرأسي للمقدس الذي هو أمر مركزي بالنسبة للديانات الأبوية.

قد تتغير قصصنا عن الخلق المقدس حيث إن قصتنا الجديدة ستدعمها نتائج فيزياء الكم وغير ذلك من العلوم التي لا تكف عن اكتشاف نتائج جديدة. فإذا جسدنا الرسالة الحقة للحب، والحكمة، والتراحم الذي جبل عليها القلب المفتوح، بينما نستكشف الأعماق الداخلية والخارجية للكون، فإننا نحمل إمكانية التوسع هذه إلى مرحلة تطورية جديدة هي مرحلة تحقيق الذات. يخشى الأصوليون لغة العلم. وهم يعتقدون أنها منافية لله، لكنهم مخطئون. فسيكشف العلم في النهاية عما في الكون والخلق المقدس من نفائس. سيحملنا هذا إلى ما وراء القصص التي تحدُّ من قدراتنا والتي أسهمت في الإساءة *للآخر* وبدأتها.

تنزه البشر عن النقائص والقصة الجديدة

لقد عزز البحث العلمي ونتائجه أيضًا فهمنا للسلوك البشري. تكشف دراسات تطور المخ في سياق نشوئه وارتقائه (من المخ الشبيه بمخ الزواحف، حتى المخ القديم الشبيه بمخ الثدييات ثم أخيرًا المخ الجديد للثدييات) عن دوافع الإنسان نحو سلوكيات العدوان والدفاع، لكن يوجد مستوى رابع متعلق بتضخم الفصين ما قبل الأماميين للمخ. لقد أتاح هذا المخ الأحدث في سياق التطور قدرات ذهنية وإبداعية عالية. وهو أيضًا مرتبط بالتراحم، والحب وغير ذلك من القدرات الإنسانية الفاضلة. وخصائصه -التي كثيرًا ما تكون كامنة- تقدم رؤية جديدة تمامًا للعالم، رؤية يمكن أن تكبح جماح أمخاخنا الثلاثة الموجودة في مخ واحد وتعيد توجيهها، ذلك المخ ذو المكونات التطورية المبكرة الثلاثة التي لها قوى تتبادل الاعتماد على بعضها البعض *(Pearce, 2002)*. وتكشف الأبحاث التي أجريت في معهد هارت ماث عن أن لهذه الخاصية العليا علاقة بالقلب نفسه. ويتجلى في عملها التأثيرات التطورية الممكنة والمتبادلة بين القلب والعقل وبعضهما البعض. وهذه نتيجة ممكنة لتوازن سمات المذكر (المُثُل) مع سمات المؤنث (الرعاية).

وقد تمكن العلماء منذ زمن قريب من قياس موجات المخ أيضا. ومن القياسات الأحدث المجال الكهربي-المغناطيسي للقلب. استخدمت جامعة يونا جهازا لتصوير الموجات المغناطيسية وتمكنت من قياس قوس من الموجات المغناطيسية (على شكل قطع مخروطي) تنبع من القلب وتصل إلى مسافة تبعد عدة أقدام عنه ثم تعود إليه. ويشرح بيرس هذا الموضوع فيقول:

> **... يقول علماء الفيزياء إن القطع المخروطي شكل شديد الثبات من أشكال الطاقة، ما إن يتولد ويتحرك حتى يميل إلى يظل خالدًا ذاتيًا. ويظن بعض العلماء أن جميع أنساق الطاقة (من الطاقة الذرية وحتى الطاقة على المستوى الكوني) لها شكل القطع المخروطي. يؤدي هذا إلى إمكانية وجود قطع مخروطي كوني واحد فقط يشتمل على عدد لا نهائي من القطوع المخروطية التي تتفاعل مع بعضها البعض في إطار طيفه ... من آثار هذا أن كل منا متمركز داخل القطع المخروطي لقلبه، وهو بذلك مركز الكون بقدر ما، إن أي مخلوق آخر أو نقطة أخرى هو أو هي مركز الكون، وله فرصة للوصول إلى جميع الموجودات تتساوى مع فرصة غيره (المرجع السابق ص ٥٩).**

وهكذا يصل العلم والتصوف إلى نفس المكان، يمكن معرفة مركز الكون من خلال القلب.

بريان سويمي مؤلف حائز على درجة علمية في علم الكون الرياضي، وهو مؤلف كتاب القلب الخفي للكون *The Hidden Heart of the Cosmos*، الذي يشرح فيه أن العلم نفسه يمر بعملية مدراش/تأويل في تأمله للكون. فيلاحظ سويمي مثلاً كيف يختبر العلم الفرضيات العلمية ويرفضها، ويصف كيف "يقدم العلم قصة مفترضة عن الواقع تخضع دائمًا للمراجعة، لكنها تكون أقوى وأكثر قابلية للاعتماد

عليها لدى كل جيل لسبب بسيط هو أنها تحوز أكبر كمٍّ ممكن من الخبرة في إطارها الثقافي عند هذه اللحظة" *(Swimme, 1996, p. 77)*. وفهمنا للمقدس في جميع تجلياته عملية اكتشاف وإدماج مستمرة تؤدي بنا إلى علاقة تزداد تعمقًا مع الإله.

يقوم العلم باكتشافات مهمة. ويمكن لنتائجه أن تغير فهمنا للخلق وعلاقتنا بالمقدس. وقد قدم إسهاماته الخاصة في تطور العالم الذي يأخذ بالمساواة. وحين نفكر في الدمار الواضح الذي تسبب عن العلوم الفقهية الدينية الجامدة، فإن الاكتشافات التي تحدث في فيزياء الكم وغيرها من العلوم تقدم إعادة تنظيم جديدة لحالتنا الروحية. إن فيزياء الكم إذ تكشف النقاب عن ما غمض من مسائل تشير إلى أن بإمكاننا أن نتعاون لخلق واقع جديد، ينقل الإنسانية إلى ما يتجاوز التفسيرات الدينية المحدودة الذاتية ليصل إلى إمكانات لا نهائية في إطار المقدس *(Wolf, 2000)*. إن هذا الكشف العلمي الجديد لا يهتم بالعقائد الدينية الجامدة، ولا بالفوارق العنصـــرية، أو الثقافية، أو الطبقية أو النـــوعية (مـــن حيث كون الإنسان رجلا أو امرأة)، بل إن مبادئه الأساسية تكشف عن أننا واحد على المستوى تحت الذري، مما يثبت الخبرة التي كشفت عنها جميع الطرق الصوفية.

يشرح سويمي أن ألبرت آينشتاين لم يكتشف الآثار الخاصة بالجاذبية في الكون وديناميكياتها حين حدد نظرية النسبية؛ بل لأن شيئا أعمق من هذا كان يحدث مع "سقوط الحقائق المحطمة من أطراف أنامله" لأن "الكون همس من خلال هذه الرموز قائلاً إنه يتمدد في جميع الاتجاهات" *(Swimme, 1996, p. 71)*. فالمجرات تتزايد ومع ذلك تظل كل نقطة هي مركز الكون.

وهذا يعني أن كلاًّ منا يقع في مركز الكون. ويتساءل سويمي نيابة عنًّا "حين نصور ميلاد الكون كنوع من الانفجار الذي حدث بعيدًا عن الموقع الذي نجري منه ملاحظتنا، فأين نقف إذن؟ كيف يمكننا الوقوف خارج الكون إذا كنا منذ البداية خيوطًا في نسيج هذا الميلاد؟ (المرجع السابق ص ٨٢). إذا كان كل منا يتجلى من

مركز الكون، خلقًا فريدًا لأقدس مقدس، فكيف يمكننا أن نهين فردًا آخر أو نؤذيه؟ لأننا بهذا نؤذي أنفسنا في الواقع، بمعنى أن كلاً منا تعبير عن نسيج كوني يوحدنا جميعا.

جميعنا نتبع أنبياءنا العظام في مسيرة إنسانية "قافلة من قوافل الخلق" *(Douglas-:Klotz, 2003, p. 103)* تسير نحو مركز قلوبنا، الذي هو مركز الكون. جاء في الحديث القدسي (وهو تنوير قدسي قدم لمحمد) أن الله أعلن "كنتُ كنزًا خفيًّا، تشوقت لأن أُعرَف. ولهذا خلقت المخلوقات، لكي أُعرَف عن طريقهم" *(Corbin, 1958/1969, p. 183)*. وكما يعتقد الفيلسوف الهولندي اليهودي العظيم سبينوزا فإنه "... لا يمكن الوصول إلى السعادة الدائمة إلا بمعرفة الإله. لكن لابد أن يرتحل كل منا على هذا الطريق بنفسه. إن محطة الوصول النهائية واحدة بالنسبة للجميع، لكن كل وجود فريد وفردي. يجب أن يعرف كل منا الإله بطرقنا الفردية الخاصة" *(Schipper, 1993, p. 123)*. إن إدراك المقدس هو الكنز العظيم الذي يجب أن نكتشفه في الحياة. ومع أن ننتقل إلى ما يتجاوز هياكل الاعتقاد الجامدة ونفتح قلوبنا، سيمكننا أن نتبع نصيحة يسوع *"اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له"* (متى ٧: ٧-٨). جميع ما نرغبه موجود هنا، الآن حالاً. كل ما علينا أن نختار الدخول في *القصة الجديدة* للإنسانية.

تخيلوا عالمًا تسهم فيه المجتمعات البشرية في صالح بعضها البعض وتجلب للوجود رؤية من الحب الروحي والحكمة الرحيمة. تخيلوا عالمًا يشعر فيه كل فرد بأن جميع العائلة الإنسانية تسانده، وتشجعه على أن يطور على نحو إبداعي المواهب الفريدة التي نجلبها جميعًا للعالم. ما نوع الازدهار الذي سيحدث، والذي ما زال غير محسوس؟ تقول ملاحظة آينشتاين – التي كثيرًا ما تقتبس – إنه لا يمكن حل المشاكل على المستوى التي نشأت عنده. لا بد أن نسمح بتدمير العقلية الأبوية وسلطتها المطلقة إذا أردنا أن نعتنق رؤية أوسع وأكثر استيعابا للعالم. إننا ننمو عن طريق

تخلينا عما لم يعد يناسبنا، وعما كبرنا عليه. ويمكننا –إذا اخترنا– أن نخلق معًا عالما جديدًا متمركزًا حول القلب. يمكننا أن نخلق هذا العالم معًا ونهب السلام لذريتنا.

إذا قدر للعالم أن يشهد زمنا تتجمع فيه النساء مع بعضهن البعض بنقاء ولمجرد صالح البشرية، فسيكون تجمعهن قوة لم يشهدها العالم من قبل

ماتيو آرنولد

شاعر بريطاني (١٨٢٢-١٨٨٨)

خاتمة

مكان شاركت فيه المؤلفات بعضهن البعض
في عملهن وأفكارهن

لقد بدأت التغيرات في التوازن بين الرجال والنساء. انتخبت امرأتان في يناير ٢٠٠٦ لمنصب الرئاسة، إحداهما في غرب إفريقيا والأخرى في أمريكا الجنوبية. وقد لاحظ مقال نشر في النيويورك تايمز[١] أن "النساء القويات من الأجيال السابقة لا يشبهن مارجريت تاتشر ولا جولدا مائير. فمن هؤلاء النساء القويات الأستاذة باشليه (من شيلي)، والأستاذة إلين جونسون سيرليف (من ليبيريا)، اللتان اعتنقتا ما أسمتاه الفضائل الأنثوية وقدمناها باعتبارها ما يلزم بالضبط للبلدان الخارجة من تحت نير الطغيان الذي يكسر القلوب". إن هذا لإنجاز مدهش، لأن النموذج الأبوي ترك أثرا عميقا على معظم البشرية. وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية يوجد كلام عن أن هيلاري كلينتون وكونداليزا رايس قد تتنافسان على منصب الرئاسة[*]. لكن من المؤسف أن هاتين المرأتين تمثلان النموذج السياسي الأبوي، بينما ينصب اهتمام الأستاذتين باشليه وسيرليف على الناس الذين يخدمنهم أكثر من أي شيء آخر، فهما تمثلان نموذجا أنثويا. قد تحدث نقلة في النموذج

(1) Lydia Polgreen and Larry Rohter (January 22, 2006). *Where Political Clout Demands a Maternal touch.*

(*) صدرت النسخة الإنجليزية لهذا الكتاب في عام ٢٠٠٧ ، قبل أن ترشح هيلاري كلينتون نفسها لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٨ (المترجمة)

المتبع في تعاملنا مع البلدان المجاورة، والصحة، والتعليم، وما شابه ذلك من مسائل إذا ازداد قبول الأمم لهذه التغيرات، ألا وهي استيعاب القيادات من الإناث(٢).

شاركت أربع نساء، مختلفات في الثقافة والديانة، والنظم السياسية والدينية في مناقشة مفتوحة، شملت أوجه فشل هذه النظم في الحاضر والماضي. وما فعلنه ليس "آمنا" بالضرورة، نظرا للحالة الحالية لهذا العالم. لقد دافعنا عن المثال الإنساني الذي يمكن أن ينشأ من خلال نقلة في التوازن بين الرجال والنساء. وقد كان علينا، نحن مؤلفات هذا الكتاب، أن نفحص تحيزاتنا الشخصية، وننقي قلوبنا، ونختار مساندة ما نؤمن به حقا. وقد حققنا تقدما حثيثا، على الرغم من الأحداث المثيرة للاضطراب التي تحدث في وطن كل منا، وفي حياتها الشخصية، بل وفي كتابة هذا الكتاب. لقد استدعت بعض الأحداث استجابات انفعالية عميقة لدى كل واحدة منا، ألا وهي الصراع الإسرائيلي – العربي، وهجوم إسرائيل على لبنان انتقاما من مقتل وخطف جنودها الرابضين على الحدود اللبنانية، وما يسمى "حرب الولايات المتحدة الأمريكية على الإرهاب". والحق أن هذه الاستجابات قد كانت حافزا لنا لنكتب هذا الكتاب، بل وغالبا ما حفزتنا على إعادة كتابته.

سنشرككم (كل واحدة منا على حدة) في الصفحات التالية في قصصنا الشخصية، التي تشمل الصعوبات التي واجهناها مع بعض مواد الكتاب أثناء كتابتنا له، مع ردود فعلنا على التصاعد الراهن للحرب في الشرق الأوسط ونقاط القلاقل في جميع أنحاء العالم. وهذا سيتيح لكل منا أن تعبر عن الأفكار الكامنة في أعمق أغوار قلبها.

بدأت علياء باقتراح كتابة هذه الخاتمة، لأنها أدركت أنها ستتيح لكل منا فرصة للتعبير الفردي عن آرائها. كما أن علياء تعتقد أن البوح بالخلافات التي حدثت بيننا والطرق التي حلتها بها كل منا ستدعم القصد الذي جبل عليه هذا

---

(٢) منذ أن شغلت ميشيل باشليت منصبها عينت ٥٠% من النساء في جميع المناصب الحكومية. وتخصص حكومتها ٦٤% من ميزانيتها للبرامج الاجتماعية.

الكتاب. اقترحت راشيل فكرة الصياغة الأولية، بأن تقول كل منها تجربتها بنفس الروح المستخدمة في قصص السيرة الذاتية الموجودة في المقدمة. وكان لدى كل من علياء وراشيل فكرة أن تكتب كل منا وحدها منفصلة عن الأخريات، ثم نبدي استجاباتنا لتصريحات بعضنا البعض. وأضافت شارون وجيني اقتراحا بأن نقضي بعض الوقت في التأمل في إسهامات بعضنا البعض، قبل أن نبدي استجاباتنا. وقد اعتقدنا أن هذه الطريقة في الإحساس بكلمات بعضنا البعض، وإنصات كل منا للأخريات من موقع أعمق من شأنه أن يمكننا من الاستجابة لقلوبنا، وبذا نعطي مثالا عمليا للنموذج الأنثوي الحق. ومن ثم، صيغت هذه الخاتمة من جزأين. في الجزء الأول كتبت كل منا منفردة على حدة أما ما كتبناه في الجزء الثاني فاستجاباتنا لما أثارته كتابات كل واحدة منا داخل الأخريات.

يبدأ القسم الأول من خاتمتنا بسرد تجربة جيني. لقد التحقت جيني بالفريق قرب نهاية العمل في الكتاب. وقد قدمت توازنا شديد الأهمية بقراءتها للمخطوط وإضافة صوتها له.

الجزء الأول

جينى إيدا شيبر

من الصعب على معالجة الصراع العربى الإسرائيلى، سواء لكونى يهودية أو لأنى ذات نزعة إنسانية. إنى أنتبه جدا - بوصفى يهودية - حينما تثار القضية الإسرائيلية-الفلسطينية. فحين يحدث هذا أسرع بسؤال نفسى وغيري: أين كان العالم حين أخذ يهود أوروبا بأكملهم (بما فيهم أجدادى، وعماتى وخالاتى، وأعمامى وأخوالي) من بيوتهم وأرسلوا إلى معسكرات الاعتقال (لا معسكرات اللاجئين) وقتل الملايين منهم؟

إذا كان على أن أتسم بالنزاهة مع مُثُلى الإنسانية، يلزمنى أولا أن أعبر عن غضبى من الاستجابات البليدة والغليظة للعالم للمصير الرهيب الذي لاقاه قومى تحت حكم النازى. ولو كنت ولدت قبل ميلادى الفعلى بخمس سنوات فقط، فالاحتمال الأكبر أننى ما كنت بقيت على قيد الحياة لأسهم في تأليف هذا الكتاب.

لهذا، وبسبب ما عاناه اليهود عبر التاريخ من اضطهاد في هذا العالم، أتعاطف مع الاتجاه القائل "لن يحدث هذا مرة أخرى أبدا"! إن هذه العقلية تبرر عمل كل ما هو ضرورى لتأمين دولة إسرائيل التي توجد في خضم بحر من الكراهية، محاطة ببلدان متأهبة لتدميرها. هذه استجابة شجاعة على مستوى البقاء على قيد الحياة يشترك فيها جميع اليهود، بما فيهم أنا نفسى.

لكنى أكثر من يهودية. لقد شعرت دائما بأنى جزء تحتويه البشرية أكثر من مجرد تعريفى بأنى يهودية. إن التجربة المشتركة للقلب والعقل أكثر أهمية لى بمراحل من السمات الخارجية للإنسان مثل لون البشرة أو شكل الأنف. وسيكون

الأمر مثيرا للضحك، ما لم يكن شديد المأساوية، أن كل سمة من هذه السمات الفارقة تكون أساسا لكراهية جماعة أو أخرى من البشر.

بعد أن شاهدت فيلم *ميونيخ* للمخرج ستيفن سبيلبيرج، الذي تدور فكرته الأساسية حول أن الانتقام يولد الانتقام، شعرت بأن شيئا يعتصر أمعائى بسبب تفاهة العنف الذي يندفع إليه الرجال بفعل هرمون التستوستيرون. في الفيلم لحظة لاذعة، حين وقف كل من الإسرائيليين والفلسطينيين أمام الباب، وأدركوا أن الفلسطينيين واقعون في شرك مأزق مماثل، إذ يتحرقون شوقا لوطن يكون لهم. وأثناء معالجة ردى على فكرة الفيلم، أعادت لى اللحظة ذكرى من ذكريات الطفولة. كنت أتجادل مع أخى الأصغر، وكان الأمر يصل بنا أحيانا إلى حد التضارب. وكلما وجهت له ضربة يردها لى بأقوى منها. وسرعان ما أدركت عدم فعالية عراكنا، مع إدراكى لاحتمالات الإصابة. وتخليت عن الرغبة في الفوز كى أنهى العنف بينى وبين أخى، واخترت السلام بدلا من العنف. أعتقد أن هذا المثال يقول شيئا مهمًا، وبالتحديد أن على أحد الطرفين أن يبدأ بإيقاف العنف.

وبما أنى إنسانة تصادف أنى امرأة ويهودية في وقت واحد، فإن ملاحظة ما في عالمنا من انعدام للمساواة وعنف فيه صعوبة على. من الحتمى أن نتوحد مع إنسانيتنا. كلنا جُرحنا، وكلنا بحاجة إلى الشفاء. أعظم رغبة لدى أن يركز الجميع، بمـــا في ذلك الفلسطينيون واليهود - بل هم على الأخص - على ما هو مشترك بيننا لا على ما يفرقنا، واتخاذ هذا المشترك أساسا للتعامل مع بعضهم البعض.

حين كنا نعيش في القرية التي تقع شرق مدينة نيويورك كان لى صديق فلسطينى اسمه ينى. ولم تحُل خلفياتنا الثقافية والدينية دون علاقتنا. احترم كل منا ما لدى الآخر من قدرات خلاقة وذكاء. وكنا قادرين على التواصل، حتى ولو لم نكن على اتفاق. وبوصفى يهودية أتمنى من قلبى أن يتعارف الفلسطينيون والإسرائيليون، علـــى المستـــويين الفـــردى والجمعى. فحين يحظى المرء بالقبول ككائن آدمى، لا كآخر، تـــزداد فـــرصة تقديرنـــا لإنسانيتنا المشتـــركة. آمل أن تدرك إسرائيل

ما يعيش فيه الفلسطينيون من كرب. كما آمل أن تسمح إسرائيل لنفسها (بعد أن أثبتت نفسها كقوة عسكرية هائلة) بفهم المعاناة التي يعيشها شعب بلا وطن. وإسرائيل – من بين جميع شعوب العالم– تعرف هذه التجربة جيدا. فليكن هذا أساسا لفتح قلوبنا لبعضنا البعض بدلا من إغلاقها على من هم على شاكلتنا فقط. أما الفلسطينيون، فأملى أن يقدروا ضرورة الدولة لإسرائيل، بمراعاة تاريخ الاضطهاد المفعم بالرعب الذي عاشه الشعب اليهودى. لقد تقاسما هذه الأرض في الماضى، فتوجد إذن إمكانية لأن يعيدوا هذه السيرة مرة أخرى. أعتقد أن إسرائيل إذا تمكنت من البدء في فتح قلبها بطريقة محسوسة للفلسطينيين، فستشجعهم على ترك ما يشعرون به من مرارة و كراهية.

وقد ركز هذا الكتاب بالخصوص على الدمار الذي سببه النسق الأبوى بما فيه من انعدام للتوازن. لم ينج أحد من تأثيره. بل إنى أدركت حتى في طفولتى أن النساء لم يكن يؤخذن مأخذ الجد كما كان الرجال يؤخذون. بل إنى لم أحب حقا كلمة "امرأة" ولم أكن أرغب في قرارة نفسى أن أكون بنتا. لم أشعر بالإنصاف، حيث أدركت أن هذا العالم يخص الرجال. وقد قاومت أى رسالة تخبرنى أن على أن أتعلم طهو الطعام أو الخياطة، أو أن أشارك في شغل البيت الذي يوكل للنساء، واستأت من هذه الرسائل. وقد كرهت من صميم قلبى ما تتضمنه هذه الرسائل من أن وظيفتى هي القيام بهذه الأعمال.

واستطعت أن أعرف أخيرا أننى يمكن أن أستمتع بالقيام ببعض هذه المهام الأنثوية التقليدية، لكن ما لا يمكن أن أقبله هو الزعم بأنى لا خيار لى في أداء هذه الأعمال أو تركها. لقد قاومت أى تعريف ضيق لى بأى شكل من الأشكال، سواء تعريفى بأنى يهودية، أو بنت، بل وحتى بأنى أمريكية.

شعرت في المقام الأول أننى آدمية. وهذا هو المنظور الذي فتح لى أفقا من الخبرات المتنوعة. كان العالم فاتنا، وأردت أن أتعرف عليه بشكل مباشر. لم أرغب في أن أناسب النمط الذي يراه أى أحد آخر، ولم أرغب في تنميط الآخرين،

بل أردت أن أعرف الآخرين على ما هم عليه، وأن يعرفونى على ما أنا عليه. وكان الفضول يتملكنى لمعرفة ما الحقيقى من تجربتى في الحياة، كما كان يتملكنى الفضول والشوق لمقابلة أناس من مختلف أنحاء العالم. كان قلبى مفتوحا لاحتضان الفوارق الثقافية. والحق أنى سعيت إلى هذه الفوارق.

وازداد وعيى بشكل كبير بالتعصب والقوة فيما يخص اختلال التوازن بين الرجال والنساء. لم أفهم الحركة النسائية لستينيات القرن العشرين، ولا أنا شعرت بالانجذاب إلى النشاط النسوى للسبعينيات. كان يكمن في عقلى الباطن غضب واستياء من النساء، لأنى تمثلت سخط الرجال الأبوى على النساء. شعرت أنى تأثرت بحوافز الرجال ورغباتهم بطرق انتهكت روحى وأرواح جميع النساء بشكل دائم.

كانت المشاركة في تأليف هذا الكتاب وسيلة قوية وإيجابية للتأمل أوصلتنى إلى رؤية واضحة لجذور التعصب، والتسيد والتحكم. تعمق وعيى بقهر النساء، وامتزج وعيى بدور النساء في المستقبل. أشعر برغبة ملحة في المطالبة بطبيعتى الأنثوية وإعلانها وتمثلها في عالم يعارض المساواة بين الرجال والنساء بوجه صفيق.

راشيل فاليك

بدأ المخرج الرومانى رادو ميهيليانو في فيلمه *عش واصبح* *Live and Become* نقاشا حول الانتماء الدينى وزعم عن حق أنه "*كثيرا ما تحاكم الأنماط التي عفا عليها الزمن الناس: العرب، واليهود، والجزائريين، والرومانيين، والفرنسيين، والألمان ... إن هذه الهويات تقريبية ومقيِّدة. فهى لا توضح كيف تتفاعل الثقافات، وكيف تتقاطع سبل الأفراد ومصائرهم*".

يحكى الفيلم قصة طفل إثيوبى مسيحى يهرب من المجاعة القاتلة التي حدثت في عام ١٩٨٤ بعبور الحدود على أنه يهودى. كانت الحكومة الإسرائيلية قد رتبت في الخفاء عملية واسعة النطاق اسمها "عملية موسى" من أجل تهريب قبيلة يهودية إفريقية إلى إسرائيل وإنقاذ آلاف الناس من ظروف غير إنسانية. كانت فرصة الصبى الوحيدة في البقاء على قيد الحياة أن يتظاهر بأنه ابن لأم يهودية ثكلت ابنها منذ وقت قريب. ويتعلم الصبى العبرية في إسرائيل، ويتلقى تعليما يهوديا ويتفوق في دراسة التوراة. وبعد ذلك يخدم في الجيش الإسرائيلى بل يتزوج حبيبته اليهودية في احتفال دينى. إنه لا يختلف عن أى طفل إثيوبي-إسرائيلى. فهل يهم ما إذا كان لم يولد لأم يهودية؟ لم يهتم معارفه ومحبوه في الفيلم (كما يحدث في الواقع) بهذا الشأن، فقد عرفوه كفرد. لكن السلطات الإسرائيلية اهتمت.

لا يوجد في إسرائيل فصل بين الدين والدولة (على الرغم من أن كم تدخل الدولة في الدين والعكس يواجه تحديات ثابتة). ما كان للطفل الإثيوبى أن يُنقَذ ما لم يتظاهر بأنه يهودى. ومن المثير للسخرية، أنه منذ أقل من نصف قرن، كان الزعم بأن شخصا ما يهوديًا في أوروبا تحت حكم النازى يعنى الحكم عليه بالموت.

لكن على الرغم من أن ديانة الشخص أو هويته القومية أمر تعسفى تماما، فإن له قوة تشكيل حياة الفرد. وكما يشير الفيلم، قد يكون في هذا الأمر الفرق بين الموت والحياة. يصدق هذا على الأمريكيين في العراق؛ كما يصدق على الإسرائيليين والفلسطينيين في غزة؛ وعلى من لا ينتمون إلى الجنجويد في دارفور، وهلم جرا.

إن إدراك هذا الأمر لشيء مرعب، لكنه يفتح العيون في نفس الوقت على الحقيقة. لم أختر أن أكون يهودية كما لم أقرر أن أكون إسرائيلية. هل بوسع أحد أن يختار في مثل هذه الأمور؟ ألا تكون لدينا هوية بالفعل حين يحل الوقت الذي يمكننا فيه الاختيار؟ إن العناصر "العَرَضية" التي شكلت ما صرت إليه تشمل المجتمع الذي ولدت فيه، وثقافتى، وانتمائى العنصرى. (إن مسألة الانتماء

العنصرى مثيرة لحيرتى على وجه الخصوص. ما انتمائى العنصرى فعلا؟ هل له علاقة بلون بشرتى المائل إلى الأخضر الزيتوني؟) لم يكن لى تحكم في الديانة أو القومية التي ولدت عليهما. لا يمكننى تغيير ديانتى ولا قوميتى، لكن على أن أتساءل عن أهميتهما. هل لهما أهمية بالنسبة لي؟ ما التأثير الذي يجب أن يكون لهما على طريقة إدراكى لنفسي؟ وربما كان السؤال الحقيقى ليس كيف أدرك *أنا* نفسى، بل كيف يدركنى المجتمع؟

ولدت لأم يهودية. ووفقا للتقاليد اليهودية، يكفى هذا كى أعتبر يهودية. تراوح تدين أهلى بين "العلمانية" و"التقليدية"، لكنى تعرضت كأى طفلة إسرائيلية للأساطير اليهودية (دراسة التوراة إجبارية في المدارس العامة)، وللتقاليد اليهودية (آه من الاحتفال الرائع لكنه مرهق ببلوغ سن التكليف وقصص أسلافنا الذين حاربوا دفاعا عن حريتهم)، والتراث الإسرائيلى (حرب الاستقلال، والأبطال الذين ضحوا بحياتهم ليتيحوا لى حياة أفضل). كانت هذه القصص والطقوس مصدرا عظيما للفخر. لكن زرع معها في نفس الوقت بذرة خوف: لقد تعرض قومى للاضطهاد طوال التاريخ بسبب عقيدتهم وبسبب مظهرهم (بسبب أنهم نقيض الكمال الآري). كما اضطهد قومى أيضا بسبب أعرافهم، وأزيائهم الخاصة، ولعيشهم وسط أمم أخرى دون أن يتمثلوا ثقافاتها، بل كانوا ينتمون دائما إلى مكان آخر، ويحلمون بأورشليم القدس. وقد شكل هذا المزيج الفريد من الفخر، والوطنية، والخوف هويتى.

وحين تركت وطنى وانتقلت إلى هذه البيئة الموجودة خارج إسرائيل، و التي تتسم بالتنوع، والتعدد الثقافى، تمنيت أن أرى نفسى أوسع أفقا وأكثر سماحة. وحين شاركتنى شارون في رؤيتها لهذا الكتاب تخيلت نفسى مناسبة للحوار الذي يؤكد المشترك بيننا وأنى لست متعصبة. رأيت الجمال الفريد للتعاون الأنثوى بين من يمثلن ثلاثة أديان وثقافات مختلفة. لكن الجمال لا يعنى التبسيط، ولا يأتى دون بذل مجهود. لهذا الجمال علاقة بالمزج بين عناصر مختلفة في تآلف أصيل. ولكى

يحدث هذا كان لابد من أن أحدد ما أقدر على الإسهام به في الكتاب، وأن أعاود التساؤل عن هويتى.

أردت أن أعتقد أن هويتى القومية أقل أهمية في السياق الجديد لحياتى في الخارج. فبعد عدة سنوات من عيشى في أمريكا مثلا تسلمت بطاقتى الخضراء. وربما تمكنت بعد بضع سنوات أخرى من الحصول على الجنسية المزدوجة. هل سيجعلنى هذا أقل إسرائيلية مما أنا عليه الآن؟ أتذكر أن ألبرت آينشتاين قال مرة إن "القومية [كانت] مرضا طفوليا". وهو على ما يبدو مرض يصعب الشفاء منه. ومن الغريب أن عملية الكتابة أبرزت أن الدور الذي تلعبه ثقافتي/دیانتي/قوميتى في حياتى أكبر مما كنت على استعداد للاعتراف به بادئ ذى بدء. إن الاشتراك في الكتابة مع نساء رائعات متفتحات العقول كانت تجربة ثرية. أعرف أن شارون كان لديها فضول وتفتح كبيران، ولم تخف أبدا من التشكك في ما لديها من "حقائق". وكان تعرفى على علياء عملية ملهمة أخرى. تعيش علياء في مصر وتعمل فيها، وهى بلد كانت أعدى أعداء إسرائيل لفترة طويلة. أتيحت لنا فرصة فحص الأحداث التاريخية وعقد المقارنات بين منظوراتنا وتفسيراتنا المختلفة لها. لقد مدت كل منا يدها للأخرى برفق حتى أنى كثيرا ما غلبنى التأثر من ذلك.

لكننا عبرنا برفق عن اتجاهات لم تكن متآلفة في وقت ما. وجدت نفسى أختلف مع علياء حول ضرورة عملية مسلحة معينة حدثت في إسرائيل، وذلك بسبب المنظور الذي أرى منه هذه الأحداث التاريخية. ولقد شعرت بدرجة ما أننى أمثل إسرائيل، وأن من واجبى أن أوضح الطابع المعقد للصراع الإسرائيلي-الفلسطينى. وشعرت أيضا أن الكتاب قد أسرف في التأكيد على هذا الصراع، وخاصة حين راجعنا الصدامات الفظيعة التي تجرى حول العالم والتى تبدو أفدح فظاعة. واعتقدت أن لى دورا مهمّا في شرح حقيقتى *أنا*. كان من السهل على انتقاد السياسة الخارجية لإسرائيل حين كنت في إسرائيل، لكن ما إن عشت في الخارج، بين من يرون إسرائيل كمعتد يسىء إلى من لا حول لهم ولا قوة، صرت

أدافع بشدة عن بلدى. وبدا فيما قلته لصديقتى وشريكتى في تأليف الكتاب نغمة اعتذار، ودفاع عالية الصوت بل وأحيانا عدوان.

قال الصحفى الأمريكى الراحل إدوراد ر. مُرو في مناقشته للتعصب أن "كثيرا من الناس يعتقدون أنهم يفكرون، بينما هم في الحقيقة يعيدون ترتيب أنواع التعصب التي لديهم" هل هذا ما كنت أفعله؟ لابد أن أعترف أن الخوف كان جزءا منى، جزءا من فكرتى النمطية الفطرية عن اليهود الذي يعيشون في الشتات. أن خوفنا الذي يفصلنا إلى "نحن" و "هم" هو الذي يسهم في عجزنا عن أن نثق ببعضنا البعض بعد تاريخ طويل من الاضطهاد ومعاداة السامية، وقد رأيت كيف أدمجت هذا الخوف في داخلى. لكنى كنت محظوظة إذ أخرجته في مناخ مساند وسمح، مع شارون، وعلياء، وجينى. جلبت كل منهن حكمة الأمهات وصبرهن اللذين أثبتا أهميتهما وقدرتهما على علاج الجراح.

وقد كان لهذا التآلف علاقة بمزج العناصر المختلفة الذي كان يبدو أنه يحدث دون أدنى جهد. لم يكن هذا المزج بسيطا، ولا بلا جهد، لكن لو بدا أنه كذلك، فحسنا فعلنا.

علياء رافع

نميل إلى تعريف أنفسنا بانتمائنا لعائلاتنا، أو حالتنا الاجتماعية، أو معتقداتنا، أو قوميتنا، أو غير ذلك من الكيانات التي ننتمى إليها. وقد أدركت من أعماق قلبى أن معنى "أنا" أمر محورى أعرفه بالخبرة لكن لا يمكن تعريفه بأى صورة من الصور المذكورة أعلاه. أميل إلى أن أسأل نفسى "من أنا"؟ لا لأجيب عن هذا السؤال، بل لأتطهر بشكل مستمر من "الصور الوهمية للذات".

وقد وجهنى هذا طوال كتابتى لهذا الكتاب. لكن لم يكن من السهل بالنسبة لى أن أفصل بين هويتي "المسلمة" و بين "ذاتي" المحورية. يعني لى أن أكون مسلمة أن أنشغل بنفس عملية تطهير نفسى من "الصور الوهمية للذات"، ومن ثم لم يكن صعبا على أن أنحي هويتي الثقافية جانبا لكي أراقب سلوك المسلمين وأدرس تاريخهم. لكنى جاهدت كى أشرح مسار الإسلام بأسلوب لا يكون دفاعيا أو فيه زعم بامتلاك الحقيقة المقدسة. لقد بذلت أقصى ما في وسعى، لكنى لست متأكدة من أنى نجحت تماما في نقل نواياي. وسأترك الحكم على هذا للقارئ/القارئة.

أثناء كتابتى لهذه الصفحات حدثت الكثير من الأحداث التي تهدد العالم بصدام الحضارات حيث يلعب الدين أهم دور في هذا التهديد. إن الصور الكاريكاتورية للنبى محمد التي نشرت للمرة الأولى في صحيفة دنمركية، ثم نقلتها عنها بقية وسائل الإعلام الأوروبية قد أدت إلى انفجار الغضب بين المسلمين. وقد كنت مشاركة في هذه الأحداث وملاحظة لها في نفس الوقت. لم آخذ هذا الحدث على أنه شيء حدث "هناك"، بل كشيء يحدث هنا، داخل قلبى بالضبط. وسألت نفسى مرة أخرى: من أنا وسط كل هذا الصراع؟ وأتتني الإجابة من أعماق قلبي. أنا إنسانة يمكننى أن أفهم موقف المسلمين الغاضبين كما أفهم موقف الغربيين الناقدين.

وبصفتى امرأة أتت من بلد إسلامى وتفهم العالم الغربى أيضا، يمكننى أن أرى بوضوح أين تقع المشكلة. المشكلة ترتبط ببساطة باختلاف النماذج الثقافية.

المسلمون عموما يرون أن دينهم هو اللمحة الوحيدة من الأمل في عالم قاس ومظلم. وهم يعتبرون من يأخذه مأخذ العبث كمن يدمر جزءا كبيرا من هويتهم، ذلك إن لم يدمر هويتهم بأكملها. وبالطبع، كانت ردود فعلهم على هذا التصرف إشكالية في نفس الوقت، حيث إن العنف الذي أوقعوه بغيرهم كان بالضبط عكس تعاليم الإسلام. وفي نفس الوقت، لم يقل مستوى استفزاز رئيس الوزراء الدنمركي للمسلمين عن مستوى عنفهم، فقد اتخذ موقفا صارما مؤداه أن "هذه حرية تعبير".

ومن لا يفهمون سَوْرة غضب المسلمين لا يفهمون قدسية هذه المسألة في الإسلام، فيعجزون من ثم عن التعاطف مع انفعالات المسلمين. ومن جهة أخرى، فشلت هذه السلوكيات العنيفة في جعل "الآخر" يفهم موقف المسلمين. فمن منظور إسلامى، لا يقع سب نبي الإسلام في خانة حرية التعبير؛ بنفس الطريقة التي يرفض بها الغرب الجهر بتصريحات عنصرية أو مضادة للسامية. من الذي يحكم أين يرسم هذا الخط، أهم المسلمون أم الغرب؟ يجب على الطرفين أن يكفا عن الحكم على "الآخر" وفقا لنموذج كل منهما، ويجب أن يحترم كل منهما "الآخر". وبذا ستزول الحواجز التي بينهما بالتدريج.

لقد مررت بتجربة الشعور بأفكار متضاربة حين فازت حماس في الانتخابات الفلسطينية. يمكنني أن أتفهم خوف الإسرائيلى العادى حين يسمع أن استراتيجية حماس على المدى الطويل هي أن تحرر جميع الأرض الفلسطينية المحتلة، كما يمكننى أن أتفهم أيضا حاجة الفلسطينيين لقيادة قوية يمكن أن تقف في وجه الاعتداءات المستمرة للجيش الإسرائيلي. وبقدر وعيي بما يمكن أن يوجد بين بعض غلاة الفلسطينيين والعرب من تصميم على إنهاء وجود إسرائيل، أعي أيضا أن إسرائيل دولة دون حدود محددة، وأنها تتوسع وفقا لاحتياجاتها السكانية. كل طرف يعرف النوايا الخفية للطرف الآخر، ويتعامل معها بصفتها حقيقة، دون أى محاولة مخلصة لإرساء حل سلمي طويل المدى. لا يمكننى الادعاء أني أتعاطف مع الفلسطينيين والإسرائيليين بنفس القدر. فأنا أصور الفلسطينيين كشعب يحاول أن يدافع عن حقه في البقاء كأمة في مساحة محدودة مما كان أرضه فيما سبق. الفلسطينيون أقل قوة، وهم عرضة لإهانات مستمرة، واعتداءات لا تنتهى. وهم حاليا محرومون من حقوق الإنسان الأساسية، بمعنى أن يعيشوا كأمة لها حق تقرير المصير بكرامة ونزاهة.

ومن جهة أخرى، صارت إسرائيل أمة متطورة في فترة قصيرة جدا، ولديها جيش من أقوى الجيوش في المنطقة. كما أن إسرائيل تتمتع بدعم الولايات المتحدة

الأمريكية، أقوى بلاد العالم، وما زالت تكسب التعاون والدعم من بقية بلدان العالم. ما زلت أتعاطف مع الجيل الإسرائيلي الشاب الذين يوحد أفراده بين ذواتهم وبين أرض إسرائيل حيث يعيشون، ويشعرون أنهم يواجهون تهديدا مستمرا من جيرانهم، لا الفلسطينيين فقط، بل أيضا البلدان المجاورة. إن قوة الدولة وإفراطها الدائم في الاحتراس بأمل تجنب الهجمات لا تشبع حاجتهم للأمان. ولابد أنهم يشعرون بالرعب من انتخاب حماس لتكون على رأس السلطة الفلسطينية.

لا أرى في مجرد الكلام والمفاوضات حلا لهذه المخاوف والمشاعر بانعدام الأمان من الجانبين. فما لم تر كل جماعة "الآخر" كجزء من نفسها، وما لم تتوحد الجماعتان مع كفاحهما المتبادل، فسيظل الخوف جزءا من وجودهما نفسه. لقد أثبتت أزمة يوليو ٢٠٠٦ حين غزت القوات الإسرائيلية لبنان، أن الطريق ما زال طويلا أمام تحقيق السلام. وقد كان قلبي يؤلمني، مثلى مثل بقية شعوب العالم، وأنا أشاهد موت الأطفال، والأمهات، والعجائز الأبرياء. وسألت نفسي، هل سيتمكن اللبنانيون من بناء علاقة طيبة مع الإسرائيليين في المستقبل القريب؟ وإلى متى سنظل نعاني من العنف في الأرض المقدسة التي خرجت منها نداءات السلام من خلال أنبيائنا؟ وقد شاهدت عقب مذبحة قانا الجماهير الغاضبة وهى تهاجم مبنى الأمم المتحدة في بيروت، معبرة عن غضبها العارم ضد المجتمع الدولي الذي أخذ جانب مصالح إسرائيل وحدها، ونسي أن هناك شعبا آخر يستحق الحياة في سلام وأمن. إن الدمار الشامل الذي حل بلبنان، وقتل الأطفال، واستمرار استخدام الفيتو الأمريكى في مجلس الأمن قد ترك الناس منهوكى القوى وغاضبين.

إني لقلقة من تنامي الرفض والكراهية في المنطقة. لو كان حزب الله جماعة إرهابية (وأنا أعتبره حركة مقاومة من أجل التحرير) فلابد أن يترك التعامل معه للحكومة اللبنانية، لا لقوة أجنبية. وكما شرحنا في موقع سابق من هذا الكتاب، كان الهجوم الإسرائيلى رد فعل على اختطاف حزب الله لجنديين (لا اثنين من المدنيين). ودفع مليون لبناني الثمن، كما دفعه آلاف المواطنين الإسرائيليين، فقد

عرف الجميع الخوف وعدم الأمان. لقد غادر مليون شخص بيوتهم وصاروا لاجئين، يعيشون في مواقف السيارات، والمدارس، والمساجد. وقد قتل حوالي ألف لبناني (٩٥% منهم على الأقل من المدنيين) مقابل ١٢٠ إسرائيليا، ٧٠% منهم من الجنود.

وكان ألمى يزداد حين كنت أسمع أصواتا غير مسئولة تهدد الإسرائيليين وتلعنهم. لا يمكننى أن أقبل تسمية من يدافعون عن أرضهم بالإرهابيين. لم يستهدف حزب الله أبدا أي مدنيين قبل هذه الحرب. إن قوة جذب الاستقطاب كبيرة، لكنى أعترف حتى على الرغم من هذه الإحصائيات والشروح إننى لن أساعد قضية السلام إذا صورت الآخر على أنه شيطان.

لا يوجد في الحرب فائزون، فالجميع يخسرون. الخوف يمنع الكثير من الإسرائيليين من رؤية عواقب استخدام القوة على نطاق واسع ضد الآخرين. لكني متأكدة من وجود الكثيرين الذين يرون أبعد من حجاب الخوف هذا، وأنا أعتمد عليهم للمساعدة في المستقبل.

يمكننا أن نرى الآن بوضوح أن روح الأمومة مفقودة في هذا العالم. فالأمهات والنساء رحيمات بطبيعتهن. إن الروح الأنثوية الحقة لن تسمح بحدوث هذه الحرب المجنونة.

وأملي أن يقدم هذا الكتاب الأمل، وأن يجد طريقه إلى قراء في جميع أنحاء العالم. إنه مظاهرة لأربع نساء من خلفيات مختلفة عملن معا وقبلن تحدي نقد ثقافاتهن، ومددن أيديهن "للآخرين" لاحتضانهم بحب. لقد التحقت جيني بنا قرب نهاية مشروعنا، لكنها صارت قريبة جدا من قلبي. لقد كانت عملية كتابة هذا الكتاب قيمة، لا لأنه كان سهلا، بل لأننا واجهنا تحديات وتغلبنا عليها.

شارون ميهاريس

لو كنت سأتكلم من قلبي، فلابد أن أعترف بخوفي وأملي. أنا خائفة لأن أخبار العالم تسير من سيئ إلى أسوأ على ما يبدو. والمسئولون عن القرارات المالية يبدو أنهم غير مهتمين بتلوث الهواء، والماء، والأرض، وآثاره على الأجيال القادمة. إن الأعاصير، مثل إعصار كاترينا، والفيضانات، وموجات الحرارة وغيرها من الكوارث الطبيعية يبدو أنها تزداد قوة. يعتقد الكثيرون أن هذا ناتج عن ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، لكن إدارة بوش* تتجاهل الشواهد التي تثبت هذا. من المحبط أن نعرف أن جورج بوش صرح بأن الولايات المتحدة الأمريكية لن توقع أبدا على اتفاقية كيوتو، وهي اتفاقية بين الأمم الأخرى كوسيلة للتحكم في الانبعاثات الإشعاعية المدمرة.

إن تدمير لبنان، وقتل الكثير من الأبرياء في لبنان، وإسرائيل، والأراضي الفلسطينية قد سبب لي حزنا شديدا. يصعب ألا يقع المرء تحت تأثير أخذ جانب أو آخر، لاسيما حين أرى الكم غير المتناسب من الموتى في الجانب العربي من العنف. لا أستطيع تخيل كيف يكون الأمر حين تدمر بلد المرء بالكامل، وتحاط بالقنابل والموت. ويمكنني أيضا إدراك خوف المواطن الإسرائيلي البريء، الذي لا يريد غير العيش في سلام بقدر الإمكان، لكن الخوف يغلبه من أن يضرب بصواريخ الكاتيوشا أو غيرها من الأسلحة.

تكشف البرامج الإخبارية اليومية عن آخر أخبار القصف بالقنابل وما يليه من الوفيات في الشرق الوسط وغيره من البلدان. يموت حوالي ١٠٠ عراقي يوميا نتيجة لهذه الحرب المشئومة. وأنا أشعر بقلبي ينقبض من جميع الأحداث من شاكلة قصف المساجد والمعابد اليهودية بالقنابل، وكثرة القتلى بين المدنيين والعسكريين في جميع أنحاء العالم، وتزايد التهديدات لحسن أحوال البشر، وسيادة الإسرائيليين

(*) نشر هذا الكتاب قبل انتهاء ولاية بوش وتولي أوباما لحكم الولايات المتحدة الأمريكية (المترجمة).

وإساءتهم للفلسطينيين، وخوف المواطن الإسرائيلي من ركوب الحافلة أو دخول السوق.

إن الحروب الجائرة تهدد أمن الأبرياء في طول العالم وعرضه. ومن يتخذون هذه القرارات ذات التأثير الهائل لا يهتمون - إن اهتموا - إلا قليلا بالآدميين العاديين والكوكب الذي نعيش عليه. والأمر موكول للنساء، أمهات النوع البشري، بالتقدم للأمام وجلب التوازن لعالمنا.

هذا يعطيني أملا. وكلما رأيت أعدادا متزايدة من النساء يعبرن عن اهتماماتهن ويأخذن بزمام القيادة، أشعر بتحرك عجلة التغيير، بنقلة من حالة الموات واختلال التوازن بين الرجال والنساء. تتزايد أعداد جماعات النساء المحبات للسلام في جميع أنحاء العالم. كما أرى الكثير من الرجال الذين يفهمون المساواة، ويهتمون بالأرض وأبنائها وبناتها. هؤلاء الناس يعطون جيل المستقبل أملا. وربما كان مصير النساء أن يساعدن على استعادة الرفاهية واستمرار الحياة، بعد أن منيت بالكثير من الدمار والموت.

يمثل كتابنا اهتمامنا العميق بالموضوع. لم يكن هذا المشروع رحلة سهلة. كان عندي رؤية للكتاب، لكن كان علي أن أجد شريكات الكتابة المناسبات. كانت معاييري أن على كل واحدة من المؤلفات أن تكون قادرة على تنحية تحيزاتها ونقد قوميتها ودينها. فلو لم نكن قادرات على مواجهة جزء الظل من أنفسنا، فستظل قدرتنا محدودة على حب ما يحدث خارج المنظور المحدود لثقافتنا حبا صادقا وفهمه. كان علينا أيضا أن نكون قادرات على تناول المشكلات التي تحدث بصدق، وألا نتخذ موقفا دفاعيا، وإلا ما أمكننا تأليف هذا الكتاب. كنت أحيانا أكون على وعي شديد بأننا نتناول قضايا حساسة، فجينى مثلا يهودية، وراشيل يهودية إسرائيلية، وعلياء مصرية مسلمة. لم أكن أرغب في إهانة أحد. ولهذا ناضلت لأجد مجالا لأنصت لهن، وأدعمهن، ومع ذلك أتحدث بما أعتقده بإخلاص على عكس

موقف الدفاع. ناضلت لأنصت من وجهة نظر الزميلة الأخرى، محترمة تاريخها ومشاعرها.

يمكن كتابة الكثير عن الطرق العديدة التي يظهر بها التعصب، أو الكراهية أو الخوف من الآخر، لكن علينا تضييق مجالنا. ونأمل ألا نكون قد أهننا أي جماعة تشعر بأننا كان من الممكن أن ننفق المزيد من الوقت والجهد في قضيتها. صدقوني، لقد كنا وما زلنا أكثر من واعيات بالإهانات العديدة الموجهة ضد الملونين، وضد توجهات جنسية معينة. لكننا اخترنا التركيز على الأسباب التي هي أس المشكلة، السيادة الأبوية واختلال التوازن بين النوعين. وقصدنا أن يضم تركيزنا على أس المشكلة الحاجة للاحترام والاحتواء، بينما تستحق كل الجماعات ما يستحقه جميع الناس، حيث إن الجميع مظاهر لعائلة إنسانية واحدة.

كانت قضية الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي القضية الوحيدة التي استدعت ردود فعل مختلفة داخل كل واحدة منا، لكننا فصلنا بينها وبين علاقتنا الشخصية ببعضنا البعض، ولم ندعها تقحم نفسها على صداقتنا. لقد قابلت الكثير من الفلسطينيين في رحلة قمت بها لإسرائيل في مايو ٢٠٠١. كان الفلسطينيون، المسلمون منهم والمسيحيون، في منتهى الطيبة والكرم مع جماعتنا. وقد تأثر قلبي بعمق بهم. رأيت ما يتعرضون له من قهر، وفتحت قلبي لمعاناة الفلسطينيين. وبدأت عند عودتي في مشاهدة برنامج لينك تي في الإخباري، وبرنامج *موزاييك* يوميا. صورت مختلف وسائل الإعلام الإخبارية في الشرق الأوسط البولدوزارات الإسرائيلية وهي تقتلع أشجار الزيتون في البساتين، وهي تسوي منازل شوارع بأكملها وتحولها إلى أنقاض، بينما يقف سكانها بجوارها وهم حزاني ولا حول لهم ولا قوة. شعرت بحزن عميق من أجل الناس، وذلك لأن "علاقة إنسانية" قامت بيني وبينهم. أنا الآن أعرف هؤلاء الناس، وقد أدى هذا إلى إحداث فارق هائل في رد فعل قلبي تجاه ما يحدث لهم. وقد شرح لى أصدقاء يهود الخوف الذي يشعر به

الإسرائيليون، لأنهم يعيشون في بلد صغير محاط بأعدائه، لكن كان من الواضح أن الإسرائيليين هم الذين يمتلكون القوة الأكبر، وأنهم لم يستخدموها من أجل الصالح.

ورأيت أيضا في نشرات الأخبار الفلسطينيين الانتحاريين وهم يفجرون أنفسهم ويقتلون إسرائيليين أبرياء. وأدركت – كما أدرك كثيرون غيري – أن العقلية القبلية التي تقول "العين بالعين والسن بالسن" تحكم هذه الأرض، وأن أيدى اليهود والعرب كليهما ملوثة بالدماء. إن الانتقام والخوف ليسا من الدوافع الفعالة للتغيير. يوضح فيلم *ميونيخ* الذي أخرجه ستيفن سبيلبرج في عام ٢٠٠٦ هذه الحقيقة، حيث صور أفعال الانتقام المستمرة، موضحا كيف أنها تلد المزيد من الانتقام. ويصور فيلم سبلبيرج أيضا اللحظة اللاذعة التي توضح تشوق الفلسطينيين للأرض التي عرفوها ذات مرة على أنها أرضهم. إن اليهود والعرب كليهما يشتركان في هذا التشوق.

وبصفتي صوفية مسيحية، وامرأة تهتم بجميع الناس بنفس القدر، يحزنني جدا استمرار هذه الدراما لهذه الفترة الطويلة على ما يسمى الأرض المقدسة. إن سكان هذه الأرض لم يفهموا حقا طريقة استجابة الفرد للأرض المقدسة. لكني أعود فأذكر نفسي أن العالم بأسره أرض مقدسة، وكذلك كل شعلة حياة فيه.

الجزء الثاني

بعد أن قرأت كل منا ما كتبته الأخريات، اجتمعنا راشيل، وجيني وأنا على مائدة الغداء لمناقشة ردود فعلنا على إسهامات بعضنا البعض التي وردت في بداية هذه الخاتمة. وبعد بضعة أيام اتصلت علياء تليفونيا، إذ لم تتمكن من الاتصال بنا أثناء لقائنا، لأنها كانت مسافرة مع زوجها، وكانت في طريقها من مصر إلى واشنطن العاصمة.

واستجبنا للجزء الأول باتفاقنا جميعا على أنه من المهم أن نمضي قدما ونتبادل الرأى في أي مجالات لعدم الاتفاق، وأن نعترف بالمناطق الإشكالية. لقد عملنا في هذا الكتاب عبر السنوات الثلاث الماضية، ولطبيعة المشروع، وللفوارق الثقـافية بيننا، لـم نكن دائما على اتفاق مع بعضنا البعض. لقد اتفقنا أحيانا على ألا نتفق، وفي أحيان أخرى كنا نتفق بالإجماع بمنتهى السهولة، وتارة كنا نجد طريقة لإعادة صياغة شيء ما بحيث يستوعب طرفى النقاش. ثم أظهر تصعيد الحرب بين إسرائيل ولبنان جميع الفوارق التي بيننا، وإن كان على مستوى أعمق. وكان علينا أن نلتقي أكثر من مرة لنستمع لبعضنا البعض بقلوب مفتوحة لجميع جوانب القصة. وجدنا مناطق عدم اتفاق، واستمعنا إلى بعضنا البعض كصديقات، *فالشخص والعلاقة أقيم من الفوارق التي بيننا*. وفى الجزء الثاني من الخاتمة نناقش هذه المجالات، وكيف حللناها بأفضل ما في وسعنا.

وتبادلنا الرأي أيضا في كيف ولماذا تجاوزنا هذه المجالات، لأننا اتفقنا على هدف مشترك بيننا. فنحن كنساء، أمهات للنوع البشري، كانت قلوبنا (وما زالت) مليئة بالاهتمام بالعائلة الإنسانية بأسرها، وبجميع أشكال الحياة الأخرى. ربما سبق لنا أن قلنا هذا، لكنه يستحق أن نقوله مرة أخرى، حيث إن هذا الاهتمام وهذه النية

كانا وما زالا يمدان كل جملة من جملنا، وكل صفحة من صفحات هذا الكتاب بالقوة. ونحن إذ نختم كتابنا هذا نشارك بعضنا البعض أعمق نوايانا.

جيني إيدا شيبر

شعرت باستجابة قوية في قلبي لكل ما كتبته شريكاتي في الكتابة في هذا الكتاب، وخاصة ما كتبته في الجزء الأول من الخاتمة. أتفق مع ما أسهمت به شارون؛ حيث إنها عبرت عن ألمي العميق للآلام والمعاناة التي ما زالت تنمو يوميا وسط قطاعات كبيرة من السكان في جميع أنحاء العالم.

لقد أساءت الحرب الإسرائيلية ضد حزب الله و لبنان إلى قلب إسرائيل وروحها. لا يمكن أبدا ضمان السلام بأعمال القتل الرهيبة تلك، خاصة قتل النساء والأطفال. ربما تتذكر إسرائيل أنها هي نفسها قد استخدمت الإرهاب ضد البريطانيين لمساعدتها على الحصول على دولة إسرائيل. والسؤال الملح هو: ما الأهداف النهائية لحكومة الإسرائيلية ومن الذي تخدمه حقا؟

وحيث إنني قلت هذا، فقد أدركت بشدة كيف يشعل أخذ جانب دون آخر الصراع. يصير كل جانب معزولا داخل قصته بلا أمل في إيجاد أرض مشتركة. والأفعال الكريهة الحالية لإسرائيل دفعتنا نحن الأربع إلى هذا السلوك. كنت خائفة في لحظة ما من فتح بريدي الإلكتروني؛ لأن كوني يهودية جعلني أشعر بالتهديد من تعاطف شارون وعلياء مع التاريخ الذي يقف خلف أفعال حزب الله. ثم شعرنا جميعا بالتدريج بعدم جدوى الانجراف إلى مثل هذا الاستقطاب، واتضح لنا جميعا أننا بحاجة إلى شغل حيز أوسع مما تشغله كل قصة قد يحكيها كل طرف من الأطراف على حدة.

فإلى جانب أهوال الحرب، توجد حقيقة مقبولة على نطاق واسع، ألا وهي الفقر والتضور جوعا في الكثير من أنحاء الكوكب. يبدو أن القسوة التي ينزلها

البشر ببعضهم البعض لا حد لها، وهم يفعلون ذلك بدافع مرَضى لطلب القوة. إن العقلية الجماعية بجوعها القهرى لاستهلاك العالم كما لو كان ساحة سوق كبيرة، تؤذي بيئتنا وإنسانيتنا نفسها بإهمالها واحتقارها لأي شيء غير الأرباح المالية. إن هذا التأثير الأبوى يغرر بنا جميعا.

وقد أثارت راشيل على نحو جميل نقطة حيرتني طوال حياتي، ألا وهي كيف يمكن رفض حياة آدمية، لمجرد أن صاحبها أو صاحبتها قد ولدا دون أن يختارا لأبوين من هوية ثقافية أو قومية بعينها. لو أننا فكرنا فعلا في هذا كأفراد، ولم نقبل افتراضات ثقافاتنا قبولا أعمى، لملنا إلى التخلي عن هذه الأشكال من التعصب، ومارسنا بالفعل ما تدعو إليه دياناتنا. لا يوجد سبب أخلاقي للتعصب ضد أى آدمى، لمجرد أنه أو أنها ولدا في ثقافة أو عنصر مختلف.

وقد قدرت أيضا وبعمق قدرة علياء على فهم جانبين من صراع استقطابي، وهذه خاصية أساسية من المهم جدا أن ينميها كل واحد في نفسه. نحتاج إلى تنمية هذه الخاصية في أنفسنا بقدر ما نحتاج إلى العمل من أجل نشرها على مستوى العالم. وتتلخص في ممارسة البحث عن الاحتواء، والسعي نحو أوسع نظرة نرى بها أن المشترك بيننا أكبر من الفوارق التي تجعلنا مختلفين. إن المشترك بيننا أمر أساسي؛ فجميعنا لنا قلوب وعقول تفكر وتحس. وما يفصلنا عن بعضنا البعض نسبي؛ لون بشرتنا، أو مدى انحراف أعيننا. لماذا جعلنا ما هو نسبي (قليل الشأن) أكثر أهمية مما هو أساسي لنا جميعا؟ لابد أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال ويجيب عليه بأمانة.

منذ عدة سنوات بدأت أشعر بشعور من الارتباط الداخلى بأمى الراحلة، التي تأثرت بعمق بوفاتها المبكرة في عام ١٩٧٤. كانت أمى، روز شيبرد، امرأة ذات جاذبية طاغية، وصريحة، وذات روح معنوية مرتفعة. ولدت أمى في فيينا لأسرة ألمانية يهودية، وكانت الصغرى بين ستة أطفال، والوحيدة التي نجت من المحرقة النازية (الهولوكوست).

كانت أمي أول امرأة تحصل على درجة الدكتوراه في الأدب الألماني من جامعة واينستيت. كان عليها أن تحارب القسم المكون جميعه من ذكور، لا يريدون إعطاء هذه الدرجة المتقدمة لامرأة (وهي علاوة على ذلك يهودية)! كانت رسالتها للدكتوراه بعنوان "صورة اليهودي في الأدب الألماني". وبالرغم من اضطرارها لاتباع النموذج الأبوي (مثلها مثل الكثيرات من نساء عصرها) كي تحصل على منصب، فإنها ظلت في إنجازاتها نموذجا يقتدى به لروح القوة الأنثوية.

وفي السنوات التي تلت موتها، شعرت بإحساس مستمر بوجودها. في ذات يوم، بينما كنت أفكر مليا في سؤال "هل سيأتي يوم يعم فيه السلام العالم"، تلقيت الرد الغريب وغير المتوقع التالي. "سيحل السلام بالعالم حين يقبل اليهود المسيح. أقرئي الرسالة إلى الرومانيين، الإصحاح الحادى عشر، الآية ١٢! " توقف انتباهي عندها، لأنني أنا وأمي لم نكن نعرف العهد الجديد المسيحي. أحضرت إنجيلا ونظرت من فوري في الآية، مندهشة بكلماتها : "فإن كانت زلتهم [اليهود] غنى للعالم ونقصانهم [اليهود] غنى للأمم، فكم بالحرى ملؤهم [اليهود]" المعنى الذي فهمته وقتها من هذه الآية أن الديانة اليهودية لو كان قد اعترفت بتعاليم يشوع (بالإنجليزية يسوع)، لأمكن أن يولد تآلف غير معروف بين الشعوب والأمم، لكنني لم أعرف لماذا ولا كيف.

وبالرغم من أن أمي كانت مفكرة حرة، فقد كانت أيضا ذات هوية يهودية راسخة بشدة، وكان من المستحيل عندما كانت حية أن تقر بمثل هذه الفكرة، ناهيك عن أن تنطق بها. لم يحدث أن أشركت أى أحد معى في معرفة هذا الرد، حتى الآن، لأنه قابل جدا لإساءة الفهم. لقد احترت في هذه الآية البسيطة لمدة العشرين عاما الأخيرة، وظللت أحاول أن أفهم معناها التام.

أدى بى هذا إلى فحص تعاليم يسوع، وفهمت أن تعاليمه كانت تركز تماما على القلب، وتؤكد المحبة والاحترام لجميع الشعوب، من أى عنصر كانوا. إن هذه التعاليم المتجهة بالنية الطيبة والمحبة نحو جميع الشعوب، بغض النظر عن

المراتب، كانت تعاليم ثورية، لأنها كانت غير مسبوقة في العالم في هذا الوقت. ومع تطور الكنيسة المسيحية، لم تظهر هذه التعاليم في العالم. بل بالعكس، زرعت الكراهية، خاصة نحو اليهود، وهي مفارقة تدعو للسخرية حيث إن يسوع كان يهوديا، وولدت المسيحية من رحم اليهودية.

وسألت والدي عما يعتقده اليهود عن يشوع(*)، الإنسان، وتعاليمه، وجاءت إجابته حاسمة، وذات جزأين. عبر عن الجزء الأول بامتعاض واضح. كانت كلماته شيئا كهذا: "لقد عرف اليهود المسيحية لآلاف السنين باعتبارها شيئا دميما، وعنيفا، ومضطهدا لغيره. لم ير اليهود خيرا منذ ظهرت المسيحية. لم تأت المسيحية لليهود إلا بالمعاناة. وكل ذلك باسم رجل كان هو نفسه يهوديا".

أما عن تعاليم يشوع فقال أبي: "لقد علم الناس شيئا يستحيل على البشر اتباعه، ألا وهو هدف الكمال! إن هذا مضاد للطبيعة البشرية. إن الديانة اليهودية يمكن أن تمارس في هذا العالم. المثال المسيحى شيء لا يمكن إنجازه". تركز اليهودية على الحياة على الأرض، وكيف نتصرف في المجتمع، أكثر مما تركز على أي شيء آخر.

وفكرت في رده لمدة سنوات. كان على الاعتراف بأنه على حق. فمثلا، التوجيه الذي يقول "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل" (متى ٥: ٤٨)، موعظة غير متسقة مع الحالة الإنسانية. فرغبة الناس فيها كثيرا ما تحرمهم من امتلاك ظلهم. وقد غطى هذا الكتاب في جميع أجزائه التعصب الذي ينشأ حين يحرم الناس من امتلاك ظلهم فيعكسونه على الآخرين. ينشأ التفسير الحرفي للكمال، كشيء خارج ذات نفس الفرد ولابد أن يكتسبه، من رؤية للعالم مبنية على التراتب الهرمي، وهو من السمات المميزة للنسق الأبوي.

(*) دأبت جيني على ذكر اسم المسيح أحيانا باسم يسوع وأحيانا باسم يشوع، وقد احترمت اختيارها في ترجمتي، لذلك فحيث يظهر أي من الاسمين يكون اختيار هذه المؤلفة (المترجمة).

من جهة أخرى، يولد الكمال كما يرى من الموقف الأنثوي قبولا ومحبة لجميع أجزاء النفس وللآخرين. وهذا في حد ذاته مسبب للتغيير، ويؤدى إلى كمال الفرد كله، أو ما يسمى التوحد مع الإله.

وما فهمته هو أن اتحاد الجسد بالعقل، والمذكر بالمؤنث، والسماء بالأرض، كما تؤكد التقاليد الشرقية يسمح بمعرفة الحب غير المشروط لجميع الأشياء والشعور بالارتباط بها. إن هذا الانسياب الحيوي للطاقة خلال الجسد يفتح القلب، ويطلق سراح احتياج الذات لأن تكون منفصلة عن غيرها وأن تثبت بنفسها أنها أفضل (أو أسوأ) من ذات أخرى. إن الخصائص الإنسانية الأكثر نبلا التي تمثلت في موسى، ويشوع، وبوذا، وغيرهم تصير طبيعة لنا حين ندرجها داخل أنفسنا. وحين نعتنق الجزء الأنثوى الذي انتزع منا يمكننا خطوة بخطوة (من خلال مشاعرنا) أن نشفي الانقسام الحادث بين الجسد والعقل ونفتح قلوبنا للحب الكونى.

وأنا اشك في أن يشوع، الإنسان، قد فهم هذا. لقد لبى مطالب الشريعة بوضعه لخصائص الحب والتراحم الأنثوي في مكان الصدارة من نفسه، ومن الآخرين. وقد تمكن من رؤية الآخرين بما هم عليه، فساعدهم على الوصول إلى تكامل أعظم. وأنا أعتقد أننا بحاجة للوصول إلى هذا المفهوم، مفهوم الحب الكوني، وإلى أن ننشط في إدماجه فينا على المستويات العقلية، والانفعالية، والجسدية. إن إدماج هذا الحب الكوني في أنفسنا يؤدي بنا إلى الكمال والسلام.

أتى يشوع (يسوع) (كما قال) لإتمام الشريعة، لا لنقضها. وقد كان تأكيده على الشريعة هو الوصية بأن نحب بعضنا بعضا، كما أكد في التطويبات. إن إدراك القيمة الأساسية لكل شكل من أشكال الحياة على الأرض ما زال فكرة ثورية، بعيدة عن التحقق العملي. ربما كان الفريسيون، ممثلو الأسلوب الأبوي، عاجزين عن قبول تعاليم الحب الأنثوية التي أتى بها يسوع إلى الديانة اليهودية.

ولو أن اليهود فصلوا رسالة يسوع عن الكنيسة المسيحية، واعترفوا به كشخص له تعاليم أكثر ملاءمة لعالم اليوم الذي يقف على حافة تدمير ذاته، لكان تأثيرهم طاغيا بإرسائهم لسابقة اعتناقهم لكل كامل أكبر، وبذا يمكنهم مواجهة المسيحيين والمسلمين بتحد عميق كي يتخلوا عن ادعاءاتهم الخاصة. وبتجاوز اليهود لخوفهم العميق التاريخي من الاضطهاد والقتل، سيتمكن يهود العالم بأكمله، بما فيه إسرائيل، من بدء نشر عملية سلام محسوسة بالقلب مع الفلسطينيين.

وأنا أدرك كيف يمكن لهذه الفكرة أن تعتبر إهانة عمدية لليهودية. ليس سهلا على أن أشارك في هذا الاعتقاد، الذي فكرت فيه مليا عبر سنين عديدة. لم آخذ تراثي اليهودي بخفة، حيث إني ابنة لناجين من المحرقة، ولا أنوى بأى حال من الأحوال أن أقلل من شأنه. أما ما أقترحه لليهودية ولغيرها من الجماعات فهو أننا بحاجة للتوسع وتجاوز أفكارنا المحدودة عن الهوية لكي نعيش كأبناء وبنات للبشرية. حين أفكر في عواقب المحرقة (الهولوكوست) مع تفكيري في نفس الوقت في المعاناة التاريخية الهائلة لجميع الشعوب عبر العصور، فإن هذا يجعلني أعتنق فهما أكثر استيعابا للبشر.

لقد اعترف منذ زمن طويل بأن المعاناة سبيل يفتح القلب. ولأن الشعب اليهودي قد عانى كثيرا كشعب منفي، فله موقع فريد، في هذه اللحظة الحرجة من التاريخ، يلزمه أن يفى بمفهوم "الشعب المختار". وتوجد مفارقة في نشر اليهود لفكرة أنهم "شعب الله المختار" مع اختيارهم في نفس الوقت لاعتناق فكرة عمومية البشرية جميعها بدلا من ذلك، يمكن لليهود أن يقدموا قدوة لغيرهم من الديانات والأمم للتخلى عن الهويات التي جرى التمسك بها بشراسة، وجمع شمل الجميع كعائلة إنسانية واحدة لها مصالح مشتركة لصالح الجميع. إن هذا لمن شأنه أن يكون وفاء بالتراث اليهودي. وأعتقد أنه المعنى الكامن خلف رسالة أمي المدهشة.

الحروب ليست أمرا جديدة على الإنسانية. لكن حتى لو لم نصبح أكثر عدوانية، فقد صرنا بالتأكيد أكثر قدرة على التدمير. لم يختـــرع المـــدفع الرشاش إلا من ١٢٢ سنة؛ ومنذئذ تعلمنا كيف نفصل نظائر اليورانيوم المشعة وضربنا هيروشيما بالقنبلة الذرية. وتعلمنا كيف نخصب البلوتونيوم، وبعدها غطت الإشعاعات المميتة ناجازاكي. لقد وقعت المجتمعات الصناعية الحديثة في فخ سباق التسلح، وصارت تراكم في ترساناتها الأسلحة المميتة، ويحاول بقية العالم اللحاق بسرعتها الهائلة في التسلح. والأرقام مرعبة! فلدى الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ٦٠٠٠ قطعة من السلاح الذرى المزود برءوس نووية نشطة. بل إن روسيا (الاتحاد السوفييتى سابقا) لديها أكثر من ذلك، كما أن الصين لديها على الأقل ٤٠٠ رأس نووي.

وقد اختبرت الهند قوتها النووية للمرة الأولى في ١٩٧٤؛ ومن المفارقات الساخرة، أن الاسم الكودي لتفجيرها الانشطاري كان "بوذا المبتسم". وبريطانيا، وفرنسا، وباكستان مسلحون أيضا بأسلحة نووية. ويشك في أن كوريا الشمالية دولة نووية، وعلى الرغم من أن إسرائيل لم تعترف أبدا بامتلاك أسلحة نووية، فإن لديها أيضا ترسانتها النووية. وتوجد عدة بلدان أخرى بدأت في وضع برامج للتسليح النووى، كما تمتلك تكنولوجيا نووية هائلة. لكن منذ ضربت ناجازاكى، لم تلوث السماء أبدا بالقنابل النووية، لكنها تنضح بأمواج من الطيران الحربي. فإسرائيل مثلا لديها ٥٧٠ طائرة حربية نفاثة، ومصر لديها ٦٨٠ نفاثة حربية، وروسيا لديها ٢١٠٠ نفاثة حربية، وألمانيا لديها ٤٠٠ نفاثة حربية. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد سجلت رقما مهولا من النفاثات الحربية، إذ يبلغ ما لدى قواتها الجوية منها ٧٦٠٠ نفاثة حربية.

وتوجد مركبات حربية مسلحة، كالدبابات وغيرها من المركبات الحربية المساعدة، يوجد منها في مصر ٧٤٠٠، وفى سوريا ٨٥٠٠، وفى أنجولا ١٢٠٠،

وفي الصين ١٤٥٠٠، وفي فيتنام ٢٨٠٠، وما زالت القائمة مستمرة وطويلة إلى حد مزعج. وجميع هذه المركبات الحربية يلزمها بالطبع أفرادًا عسكريين مدربين لتشغيلها. والحقيقة أن عدد من يعملون بالخدمة العسكرية النشطة في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يبلغ ١,٥ مليون شخص. وأكثر من ١٠% من الإسرائيليين إما أنهم يؤدون الخدمة العسكرية الإجبارية أو موظفون في جيش الدفاع الإسرائيلى. وينتمي حوالي ٣٠٠٠٠٠ شخص إلى القوات العسكرية العاملة في البرازيل؛ ويبلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠٠ شخص في المكسيك؛ كما يوجد في تركيا حوالي نصف مليون جندي، والمدهش أن أكثر من ٣٥٠٠٠٠ مواطن من مواطني ما يسمى سويسرا المحايدة يتلقون مرتبات مقابل العمل في وحدات الدفاع أو المساندة. وهذه هي الطريقة التي تحافظ بها الأمم على توازنها مع الإرهاب.

وها نحن، مؤلفات هذا الكتاب، نتحدث عن الحب والسماح. لا أستطيع مقاومة شعوري بالضآلة وعدم الأهمية، حين تقهرني هذه الأرقام، وهذه القوات المدمرة التي نراها حامية حمانا ورادعة لأعدائنا. أشعر أحيانا أن الكتابة عن الجهد الذي بذلناه للتواصل لا معنى لها. أخشى أن يكون النظر في تحيزاتنا، وتعصبنا، ونقاطنا العمياء، ومخاوفنا وعقائدنا الجامدة رحلة شخصية مهمة، لكن أثرها ضئيل على العالم. إن شكى الذي جبلت عليه يعذبني.

أعرف أن شارون كانت نشطة في المنظمات النسائية والعاملة من أجل السلام لعدة سنوات، وهي من ثم التي ضبطت النغمة المتفائلة والتنبؤية في الكتاب. لقد حركني حماس شارون واقتناعها، لكنى أخذت موقفا يائسا طوال الوقت. سألت شارون وسألت نفسي: من الذي سيقرأ ما كتبناه؟ من الذي سينصت لنا؟ هل نحاول أن نقنع المقتنعين فعلا بالحلول غير العنيفة؟ هل ما كتبناه سيمنع الانتحارى التالى من تفجير نفسه في تل أبيب؟ هل ما قلناه وكتبناه مهم فعلا، أم أن المهم دعوة وزير الدفاع كلي القوة رونالد رامسفيلد للقصف بالسلاح؟ هل لعملنا قيمة؟ ويبدو لى الآن أكثر من أي وقت سبق أنه لا يوجد دائما حل سلمي للتعامل مع التطرف

المتعصب العنيف. نحن المؤلفات نقطن براحتنا في مختلف القارات، لا توجد لدينا مصالح متعارضة وقد تمكننا من أن نجد أرضية مشتركة وأن ندير حوارا متحضرا بيننا. لكن يصعب علي أن أصدق أن الجماعات الأصولية والإرهابية لديها الاستعداد أو الرغبة في فعل ما فعلناه.

لقد اختلفت مع علياء وشارون. فأنا كإسرائيلية أعتقد أن حزب الله منظمة إرهابية، بسبب تكتيكات حرب العصابات التي يتبعها، واستخدامه للمدنيين، وهدفه النهائي الرامي إلى تدمير الأمة الإسرائيلية. لقد سعى حزب الله في البداية إلى تحويل لبنان إلى جمهورية إسلامية وهو ينادي اليوم بالقضاء على "الكيان الصهيوني". أكتب هذه السطور وأنا في إسرائيل قبل إتمام وقف إطلاق النار مع لبنان وحزب الله (لقد صدقت إسرائيل على قرار الأمم المتحدة لكن حسن نصر الله، قائد حزب الله، لن يصدق عليه إلا لو خرج الإسرائيليون من لبنان). لقد كانت آلام الحرب ودمارها ملموسة هنا أكثر مما هي ملموسة في سان دييجو. لقد قابلت لتوي صديقين طبيبين يعيشان في حيفا، وهما طبيبان، وصفا لي كيف قضيا الشهر الماضي في المخابئ. ووصفا لي كيف حاولا أن يؤديا عملهما وسط عويل صفارات الإنذار، التي ما أن تتوقف إحداها حتى تنطلق الأخرى، متنبهان إلى التحذير من أن صاروخ كاتيوشا قد أطلق تجاههما. لقد اعتنيا بالعدد المهول من الجرحى والمصابين، وكان بعضهم من عرب إسرائيل. كان الجرحى غالبا من المسنين ومن الذين لم يجدوا سبيلا للهروب من شمال إسرائيل. نعم، الحال هنا كالحال في لبنان بالضبط.

في البداية، اختلفت مع ما اعتبرته نقاشا قسريا لهذه الأزمة. وكما قلت في الجزء الأول من هذه الخاتمة، أشعر أننا نؤكد على مسائل تنشغل بها وسائل الإعلام والرأي العام في الغرب أكثر مما ننتبه إلى الفقر، والجوع، والعنف في إفريقيا أو قهر النساء في عالم المسلمين. لكنني أدركت أن العملية الدفاعية الإسرائيلية الهائلة في لبنان فرصة لنرى ما إذا كنا نمارس ما ندعو إليه. لقد

صارت لحظة صدق بالنسبة لنا، نحن المؤلفات، أن نتواصل وسط اختلافاتنا. حتى مجرد تعريفي للصراع (بأنه دفاعي لا هجومي) كان من الصعب على صديقاتي المؤلفات قبوله. لكننا اتفقنا على ألا نتفق، ونحن واعيات بالفروق بين مواقفنا السياسية.

أرى هنا في إسرائيل صورا لا ترى في أى جزء آخر من العالم العربي. فمثلا، أرى اعترافات اللبنانيين وهم يصفون كيف بنى حزب الله مستودعات تحت الأرض في قراهم وزودوها بالعتاد، وبنو فوقها عمارات سكنية ليسكن فيها الفقراء. هل هي لمحة إنسانية تجاه هؤلاء الفقراء أم هو استغلال لهم كدروع بشرية بلا رحمة؟ حين أدانت شارون نية إسرائيل نحو تدمير حزب الله قد يعتقد المرء أن حزب الله لم يكن له ضلع في استفزاز إسرائيل للهجوم عليه. لم يحاول الإسرائيليون أبدا القيام بالتطهير العِرقي (القضاء التام على قومية أخرى)(*)، لكنهم حاولوا القضاء على الوسائل التي تستخدم باستمرار لإرهاب إسرائيل، والتى كانت مصحوبة برسائل واضحة تعبر عن نية تدمير "الكيان الصهيوني". أشك في أن انسحاب إسرائيل من لبنان وغزة سيقضي على الإرهاب.

نحن نحاول في هذا الكتاب إقامة جسر بين الديانات، والثقافات، ووجهات النظر، ونواحي الإدراك، ونختار ألا نضفي الصبغة الشيطانية على "الآخر". لكنى أدرك على الـــرغم من ذلك أن "الآخـــر" قد يكون أحيانا عدوانيا، وقاسيا، بل حتى لا إنسانيا، لكن يوجد منا الكثيرون لحسن الحظ ممن هم قادرون على التواصل والتراحم، ومن المتفتحين عقليا، والباحثين عن السلام. ربما قد لا نغير العالم بكلماتنا، لكن بوسعنا أن نصير سفيرات للسماحة، وبذلك نخلق توازنا مضادا للعقلية

(*) وماذا عن مذابح كفر قاسم، ودير ياسين، وقانا؟!!!!!!! (المترجمة).

علياء رافع

تعرفت على د. شارون ميهاريس من خلال الحوار بين النساء الصوفيات المنعقد على الإنترنت(٣)، ثم قابلتها شخصيا في ملتقيات الاتحاد الدولى للطرق الصوفية حيث كنا نحن الاثنتان من المتحدثات في هذا الاجتماع السنوى. ثم تلقيت رسالة بالبريد الإلكترونى في أغسطس ٢٠٠٣ من د. ميهاريس، تصف فيها رؤيتها لهذا الكتاب، وتسألنى ما إذا كنت أحب المشاركة فيه. فتنتنى فكرة الكتاب. لقد وجدتها متآلفة مع خطة عملى التي أردت بها أن أكتشف الأساس الذي يمكن أن تصل عليه جميع البشرية إلى اتفاق مشترك. وقبلت أن أشارك في تأليف هذا الكتاب لأنه رد على حاجة ملحة لفك خيوط سوء التفاهم المتلبكة بين الأمم والحضارات، وللبحث عن "أس جميع هذه الشرور". وفى رحلة المشروع، كان لدى فضول لأعرف المزيد عن راشيل. قرأت سيرتها الذاتية وشعرت بارتياح وتقدير كبيرين نحوها حين قرأت الفقرة التالية:

> **إن إدراكي *للآخر* ككائن بشري يجعلني آمل في أن يحل التواصل المتزايد بين مختلف الأمم والديانات محل الخوف وسفك الدماء والعنف المستمرين. في خضم هذه الفوضى التي تعم كوكب الأرض، الأمر متروك لنا لنمس *الآخر*، ومسئوليتنا الشخصية أن نغير هذه الحالة من الفوضى بقلوب وعقول متفتحة(٤).**

واتضح لي أن كتابة هذا الكتاب مسئولية، لا اختيار. شعرت بالتزام بالمشاركة في هذا المشروع مع التزايد السريع للصراعات بين ما يسمى الجماعات

---

(٣) أنشأت د. ناهد آنغا هذا الحوار وهي التي أنشأت منظمة النساء الصوفيات كنشاط جانبي للاتحاد الدولي للطرق الصوفية.

(٤) مقتبس من الجزء الذي كتبته راشيل فاليك لمقدمة هذا الكتاب.

الدينية في جميع أنحاء العالم وفي السياسة الدولية. واعتبرت أن مشاركتي في هذا الكتاب سيحملنا ثلاثتنا إلى أفق بعيد، يتجاوز المشكلات المفتتة. ومن هذا المنظور، شعرت بمسئوليتي لا عن ما أكتبه فقط، بل أيضا عن ما كانت شارون وراشيل تكتبانه. وقد شاركتاني نفس المشاعر والمسئولية. وقد كنا نعلق على كتابات بعضنا البعض، ونحررها، ونضيف إليها، ودخلنا في مناقشات عميقة، وكنا قادرات في معظم الأحوال على حل الفوارق التي بيننا. في إحدى مرات نقاشنا شعرنا أنه من الأفضل أن نتفق على ألا نتفق. ولهذا أعتقد أننا نكتب خاتمة لنقدم للقراء كل مؤلفة تقديما أمينا، ولنعلن عرفاننا للدور الذي لعبته شارون بصفتها من أنشأت هذا المشروع أصلا وخططت له. وقد لحقت بنا جيني في آخر مراحل كتابتنا لهذا الكتاب. ولم يكن هذا العمل ليكتمل لولا إسهامها فيه.

وقد بذلنا جهدا هائلا في العمل كي نخرج هذا الكتاب في شكله النهائي. وفي المرحلة التي سبقت النهاية، أعادت شارون تنظيم المخطوط لتوضيح الفكرة الأساسية للكتاب، وشاركتها مهمتها بإعادة تحرير الكتاب وجمع مواد أخرى له. واستمتعنا بما نعمل، وفتح لنا هذا العمل سبلا جديدة لإعادة فحص فكرة الكتاب من زوايا مختلفة.

وعلى الرغم من أني لم أرغب في أن تركز هذه الخاتمة كثيرا على الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني، لأن موضوعه أوسع مما يمكن تغطيته بدقة هنا، فإنني يجب أن أؤكد أن المؤلفات الأربع قد وصلن إلى إجماع تمكننا به من الاعتراف بحقوق الفلسطينيين والإسرائيليين في الاستمرار في الوجود كأمتين تحترمان بعضهما البعض. ينبغي ألا توجد جداول أعمال خفية في عقول السياسيين من الجانبين، ولا خطط لتدمير الآخر، أو لخلق جو لاستمرار الهجمات أو تبريرها. وقد اتفقنا على أنه ينبغي غرس السلام في قلوب الناس قبل أن يتجسد في شكل مادي على أرض الواقع. السياسيون بحاجة إلى اتزان جانبهم الأنثوي، واستلهام روح الأمومة في اتخاذ قراراتهم. والأمهات يمتلكن ما يكفي من الحكمة ليدركن أن

السلام لا الحرب، والتراحم لا الانتقام، هو ما سيأتي بالأمان لأطفالهن. إن بناء جدار ضخم أو استخدام العنف لن يأتي بالأمان، ولن يحل المشكلات؛ فالعكس صحيح تماما، إذ سيزيد من الإحساس بعدم الأمان ويعقد الموقف. ولقد دفعتنا أزمة يوليو ٢٠٠٦ في لبنان وإسرائيل إلى مضاعفة جهودنا في العمل والاقتراب من بعضنا البعض. وعلى الرغم من أنى أعيش في القاهرة، وشريكاتي في تأليف الكتاب يعشن في الولايات المتحدة الأمـــريكية حيث يمكنهن أن يرين بعضهن البعض، فإنني تمكنت من التواصل مع ثلاثتهن عبر البريد الإلكتروني حيث ساندنا بعضنا البعض.

وعلى الرغم من أن مؤلفات هذا الكتاب يشتركن في هدف واحد وقد اتفقن على الفرضيات الأولية الأساسية للكتاب، فإننا مختلفات ولكل منا تفردها. واختلافاتنا ليس فيها ما يخجل، ولا ما نخفيه. بل على العكس، نحن نحتفى باختلافاتنا، وقد استفدنا إلى أقصى حد من "كوننا مختلفات". وحين قرأت النسخة النهائية لكتابنا، طربت للتغيرات التي حدثت نتيجة لاختلافاتنا. فأنا مثلا نويت الكتابة عن اختلافي مع تسمية إبراهيم بالنبى "العبري" في هذه الخاتمة. لقد ظل هذا المصطلح باقيا في مسودة الكتاب حتى المسودة قبل النهائية. ولدهشتي، لم أجده في المسودة النهائية. وعلى أن أعبر عن احترامي لتغيير هذا المصطلح. فوفقا لفهمي للأمـــور، جميع الأنبياء أتوا لهداية الجنس البشري، ولا بد أن نذكرهم برسالاتهم، لا بخلفيتهم العرقية. وما كنت لأوافق بالمثل على من يسمون النبى محمد باسم النبي "العربي".

أشعر بأن من مسئوليتي أن أشرح جوانب معينة من تفكيري. لا أدعي أني أحتكر الحقيقة، لكني أتمسك بصرامة بما أعتقد أنه العدل والحق. فمثلا، لم أستطع اعتبار المثلية الجنسية سلوكا "طبيعيا"، وأردت تجنب ذكرها في كتابنا؛ لأني أعتقد أنها قضية حساسة ثقافيا. لكن شارون لم تشعر بالراحة لتجاهلها تماما. وخلال تأليف هذا الكتاب كان على أن آخذ وجهات النظر المختلفة لشريكاتي في الكتابة بعين الاعتبار. وعلى الرغم من أنى ما زلت عند نفس رأيي، اتفقنا على أن نوسع من نطاقنا ونحترم الناس الذين يعتنقون قيما مختلفة بغض النظر عن أي آراء شخصية.

وبغض النظر عن اختلاف وجهات النظر القائمة على أساس النشأة الثقافية لكل منا، فقد وافقنا جميعا على أن أي تعصب ضد المختلفين عنا بسبب الدين، أو الطبقة، أو الأصل العرقي، أو العنصر، أو السلوك الجنسي (كالمثلية الجنسية، وتعدد الزوجات مثلا وما إلى ذلك) ينتهك الاحترام الذي يستحقه كل آدمي(٥).

فى الجزء الأول من الخاتمة، كانت راشيل في شدة الأمانة والشرف حين ذكرت حساسيتها نحو نقد سياسات إسرائيل. وأعتقد أنني كتبت بأمانة وموضوعية؛ فأنا متأكدة من أننى سعيت إلى المصالحة والتعايش المشترك في هذا المجال. لم أكن أجهل خشونتي. لقد تعلمت هنا درسا هاما، ألا وهو أن بإمكاني أن أكون لبقة وألا أؤذي الناس، وفي نفس الوقت أكون واضحة ومفهومة فيما يتعلق بما اعتقده. حاولت أن أرى العالم بعينى راشيل. وهذا ما يحاول علماء الأنثروبولوجيا فعله طوال الوقت (وأنا واحدة منهم)، لكنهم يدركون أيضا استحالة سد جميع الفجوات بين ثقافة الباحث وثقافة الآخرين. ربما كان هذا هو سبب اتفاقنا على ألا نتفق. إن الخاتمة هي المكان الذي نحكي فيه قصتنا كأربع نساء قررن الاحتكام إلى قلوبهن، والوصول إلى اتفاق فيما بينهن. ولهذا قدرنا على الوصول إلى اتفاق بالإجماع على الرغم من اختلافاتنا. وما زال على الخط بعض النقاط التي احب إثارتها هنا.

أولا، بقدر ما يهمني، أنا أعي أننا لا يمكننا أن نعتبر المسلمين جماعة واحدة. أحاول أساسا أن أكون أمينة مع نفسى ومع قرائي وقارئاتي وأن أتحدث عن الإسلام من واقع تجربتي. عرفت الإسلام كعملية ديناميكية لإدراك السلام مع الذات ومع العالم بأجمعه. لهذا لا يمكننى أن أفهم لماذا يوجد هذا الاستقطاب بين الإسلام والغرب. لسوء الحظ، يصور المتطرفون من الجانبين كل طرف بصورة نمطية، ويبنون عداوتهم على تعميمات زائفة.

---

(٥) مقتبس من الجزء الذي كتبته جيني شيبر إيدا لمقدمة هذا الكتاب

بالنسبة لى المسلم(٦) سمة تخص أي فرد، من أي دين، يسلّم بالأوامر الإلهية، ويبحث عن التوازن الصحيح بطريقة ديناميكية، بغض النظر عن أى تسمية لأى ديانة. حين قرأت القرآن ودرست حياة النبى، ازددت وعيا بهذا البعد من أبعاد الإسلام كما كشف عنه الوحى للنبى محمد(٧). ومن ثم ينكسر قلبي حين أرى بعض المسلمين ينتهكون جوهر الإسلام. لماذا ينبغي أن يقارن المسلمون، واليهود، والمسيحيون، والبوذيون، والهندوس بين الديانات وبعضها البعض؟ لماذا لا نتعلم من بعضنا البعض؟

حين قرأت الجزء الثاني الذي كتبته جيني للخاتمة، تردد صدى ما كتبته بعمق في روحي. فهي لم تستخدم معرفتها باللغة أو التاريخ أداة لفك شفرة كلمات التوراة. فقد فسرت الرسالة التي وصلتها من عالم الروحانيات بالتدريج من خلال قلبها النقى ، مدركة أن كلمات يسوع قد أوفت بالرسالة اليهودية. حين تكون قلوبنا نقية، يمكننا أن نرى الرموز الدينية، ونفهمها، ونفك شفرتها.

لا توجد مشكلة لدى المسلمين في الاعتراف برسالات جميع الأنبياء، لكنهم مقتنعين تماما بأن الآخرين يجب أن يتبعوا سبيل الإسلام وطقوسه. وقد قدمت في هذا الكتاب منظورا مختلفا، ولكم أنا ممتنة لأن تجربة ديني تجسد أملي في كيف يمكننا أن نرى رسالة الحب غير المشروط خلف جميع الأسماء، وهكذا يمكننا إدراكها لدى جميع معلمى البشرية، لأن كل وحي جديد يفي برسالة الوحي الذي سبقه. وإني لأعجب، كما تعجبت شارون، وراشيل وجيني، لماذا لا يمكننا أن نرى ما وراء الأسماء، والألوان، والملامح والأماكن؟

---

(٦) كلمة مسلم تعني حرفيا الشخص الذي "يستسلم".

(٧) هذه الرؤية موجودة ومشروحة في أحد كتبي المنشورة: *الإسلام من آدم إلى محمد وما بعدهما*، مؤسسة الكتاب، ٢٠٠٤، المملكة المتحدة *Islam from Adam to Muhammad and Beyond*, Book Foundation, 2004, UK ، وفي مقال لي بعنوان "العالمية في الإسلام"

in R. Hangloo (edit), *Approaching Islam,* Sundeep Books, India, ."Universalism in Islam"2005

والأمر كما يناقشه هذا الكتاب، أن من المرجح أن يكون سبب عمى القلب الفراغ الروحى الذي يعيش فيه الناس ويجعلهم يميلون إلى التمسك بصور زائفة. وأنا أعتبر كل صورة للذات تقف حجر عثرة أمام العثور على جذورنا الإنسانية صـــورة زائفة، سواء نبعت هذه الصورة من الثقافات، أو الديانات، أو القوميات، أو الانتماءات العنصرية، أو النوع (من ذكر أو أنثى). ولم يكن تأليف هذا الكتاب بالنسبة لنا نحن الأربع مجرد عمل علمي، بل كان أيضا عملية روحانية. وآمل ألا أكون أبالغ حين أقول إننا غصنا إلى عمق أبعد غورا من أعماق ثقافاتنا المختلفة، وكنا في نفس الوقت قادرات على أن نرى ما وراءها. وأنا أعتبر هذا الجزء من خاتمة كتابنا بلوغا لمنتهى وحدتنا الإنسانية.

لقد ترجم الحاجز الحائل بيننا وبين الروحانية الحقة في كتابنا هذا بأنه اختلال التوازن. وهو يوجد لدى الأفراد، والهياكل الاجتماعية، كما يؤثر في العلاقات الدولية عبر الكون. إن اختلال التوازن بين النوعين (الرجال والنساء) مظهر من مظاهر اختلال التوازن الروحاني في عالمنا. كنت أناقش صديقا عزيزا في كتابنا، فقال إنه يعتقد أننا نختزل قضية كبيرة إلى الصراعات بين الذكور والإناث. أود أن أؤكد أن رسالتنا ليست عن التشكيل البيولوجى للجنسين، بل عن السمات المرتبطة بالمؤنث – المذكر كجانبين متكاملين داخل الكون وداخل النفس البشرية للفرد، سواء كان رجلا أم امرأة. لقد سادت السمات الذكورية تاريخنا، حتى في أنماط القيادة لدى بعض النساء (مثل مارجريت تاتشر وجولدا مائير).

ونجد بجانب أنبيائنا أن غاندى مثال للقيادة المتوازنة في مجال النوعين (الرجال والنساء)، حيث إنه لم يأخذ بنمط السيادة والتحكم، بل دعم أهل الهند الشرقية ليجدوا طريقهم نحو الاستقلال والحرية من خلال عدم العنف. إن أسلوبه يعبر عن روحانية مع علو للإنسانية على العنصرية، والطائفية، والدين، والنوع (من رجل أو امرأة). وقد كشف عن هذا بإخلاص حين قال:

تعلمت درس المسالمة وعدم العنف من زوجتي، حين أردت أن ألوي ذراعها لتخضع لإرادتي. إن مقاومتها الدءوبة لإرادتي، من جهة، وخضوعها الهادئ لمعاناتها من غبائي الضمنى من جهة أخرى، جعلاني في النهاية أخجل من نفسى وخلصانى من غبائي الذي جعلنى أفكر أني ولدت لأتحكم فيها، وقد صارت في النهاية معلمتى التي تعلمت منها المسالمة[٨].

حين يستجيب الآدميون (رجالا كانوا أم نساء) للدافع الداخلي الملح للتحرك نحو مستوى أعلى من قدراتهم الكاملة، فإنهم يتحركون في النهاية نحو الاتزان الروحي. تمتزج السمات المذكرة والمؤنثة فيهم كجزء من توازنهم الداخلى، ويتجلى قلب إنسانيتنا. يعرف الشخص المتزن روحانيا بتكامله. وقد نوقش اختلال الاتزان في غضون هذا الكتاب.

إن تحرير النساء من قيودهن غير المرئية التي غرسها فيهن المجتمع و "الدين" المتشدد بحبسهن في مجموعة أدوار محددة ضيقة، سيخلق تآلفا عظيما غير مسبوق في عالمنا. وهذا سيجعل إنسانيتنا تتفتح لعصر جديد تتآلف فيه مجتمعاتنا مع نفس الاتزان الذي يتجلى في الطبيعة والكون.

ويكشف عن هذا الاتزان الكونى في التكامل بين الأضداد الذي يكون الكل المتكامل؛ الليل والنهار؛ السماء والأرض؛ الظلام والضوء. من ثم، حين تتساوى النساء بالرجال، فإنهن يجعلن عالمنا يتزن ويتآلف مع النظام الإلهى للكون. والحقيقة إننى أكرر الرسالة التي ظهرت في الكتاب بأكمله بكلمات قليلة وأعيد التأكيد عليها. لسنا نسويات متشددات، بل نحن نساء ذوات نزعة إنسانية عميقة، نسعى إلى حسن أحوال العالم كأسرة واحدة كبيرة.

---

(٨) http://www.mkgandhi.org/nonviolence/index.htm
دخلنا على هذا الموقع في ٢٧ مارس ٢٠٠٦.

اقترحت في البداية كتابة هذه الخاتمة لعدة أسباب، منها إظهار ما أسهمت به كل منا في الكتاب، لكن لم يمكن تحديد هذا بوضوح بسبب الطريقة التي أنجزنا بها المشروع. فمشروعنا لا يشبه المشروعات الأخرى التي تكتب فيها كل مؤلفة فصولا منفصلة عما تكتبه غيرها، فقد اشتركنا جميعا في كتابة كل فصل من الفصول. كانت الخطة التفصيلية للكتاب ثمرة ذهن شارون، وهى التي صممت طريقة كتابة كل فصل، وبدأت كتابة كل فصل. ثم بدأنا في العمل معا فصلا بفصل، وأسهمت كل منا فيه وفقا للخطوط العامة التي أعدتها شارون والهدف الذي حددته.

وقد سررنا نحن الأربع بانضمامنا لقائمة تضم الكثيرين الذين يساعدون على إخراج الجماعات المعزولة من عزلتها إلى المجتمع. ونحن كنساء نمثل ديانات مختلفة وخلفيات ثقافية مختلفة، نؤمن بأن لدينا قدوة إيجابية فيها أمل، وها نحن نقدمها.

وأخيرا وليس آخرا، أحتفي بالعلاقة الحميمة والدافئة التي ربطتني بشريكاتي في الكتابة. إن شارون إنسانة شديدة الخصوصية، ومشاركتي في تأليف هذا الكتاب معها منحنى فرصة حقيقية لتقدير تفتحها وقلبها النقي. وعلى الرغم من أنى لم ألتق أبدا براشيل أو جيني، فإننا تعرفنا على بعضنا البعض، وأنا أتشوق لرؤيتهن شخصيا في يوم من الأيام. يمكننا أن نبنى مكانا أفضل لأطفالنا وأحفادنا جميعا ليعيشوا فيه. وهذا هدف تتفق عليه القلوب النقية في جميع أنحاء العالم.

شارون ميهاريس

لقد تأثر قلبي بعمق وأنا أقرأ كلمات شريكاتي في الكتابة. لقد كان هذا العمل مغامرة كبيرة. من الواضح أن كل واحدة منا لديها اهتمام بأحوال البشر. يظهر هذا في ازدراء جيني للتعصب، والسيطرة والتحكم، وإخلاصها في دعم العملية الأنثوية

التي تظهر لديها وفي فهمها لدور يسوع في اليهودية. وهو واضح في اعتراف راشيل بأننا لا بد أن نعثر على جذور الخوف والتعصب وننزعها من قلوبنا؛ كما يتضح في اعتراف علياء بالحاجة إلى توازن بين النوعين (الرجال والنساء) وتذكيرها لنا بأن علينا أن نرى *الآخر* كجزء من أنفسنا، وبهذا نعترف بنضالنا المتبادل من أجل الاحترام والتعايش. ونحن ندرك أن هذه المسائل لا تقتصر على مجال واحد، مثل الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني؛ بل هي تمثل دراما أبوية تاريخية تظهر وتعاود الظهور مرة بعد الأخرى، في مختلف البلدان، بوجوه مختلفة. في إحدى اللحظات قد تكون جماعة من الناس هي الضحية، وفى لحظة أخرى قد تكون نفس الجماعة هي المعتدية على ضحايا آخرين. علينا جميعا أن نقتلع هذه الجذور من قلوبنا، لأننا يجب أن نبدأ بأنفسنا، من داخلنا.

كان لهذه المغامرة في الكتابة التي استغرقت ثلاث سنوات مشكلاتها، لأننا لم نكن نتفق على طول الخط مع بعضنا البعض. فبصفتى أمريكية أعرف جيدا العنف والإساءة التي يتعرض لهما ذوو المثلية الجنسية من الرجال والنساء، ولى أصدقاء وصديقات من ذوي وذوات المثلية الجنسية، أردت أن أضمن ذكر هذه المسألة أيضا في كتابنا. وقد أثار هذا الاضطراب لدى علياء، كمسلمة تعتقد أن الاتصال الجنسي صمم ليقتصر تماما على العلاقات بين ذكر وأنثى. لذلك فضلت علياء ألا أضيف هذا الموضوع إلى قائمة الأقليات المعرضة للإساءة. لم أرتح لهذا، وحاولت أن أجد طريقة لحله. ثم أتى يوم كتبت فيه علياء شيئا عن النبى محمد، مشيرة إلى عطفه على زوجاته جميعهن. وكان رد فعلى الفورى سلبيا. فأنا، كامرأة غربية، ونسوية لا أستطيع قبول تعدد الزوجات في ضوء إيجابى. وقد جعلنى هذا أفحص تحيزاتى الثقافية. وتحولت الصفقة إلى صفقة "رابح – رابح"، حيث إننا قررنا أن كل منا يجب أن تضع في الكتاب ما هو مهم لنا؛ وفعلنا ذلك. وقد كان هذا درسا لى في *الاستماع* للآخرين *واحترامهم*، بينما أنا أجاهر بمعتقداتى *وأحترمها*، وفى هذه العملية، أجد *حلا وسطا*.

وقد اضطربت جدا حين فقدت راشيل الإيمان بأن الكتاب سينشر. وقد حدث هذا في أعقاب إتمامنا للمسودة الأولى. أخبرتنى أنها لن تشارك بمزيد من العمل، حتى نكتب عقدا. كان هذا صعبا! لقد كان تحديا *لإيماننا* جميعا. وظللت على اعتقادي بأن راشيل كانت الشخص المناسب للمشاركة في تأليف هذا الكتاب. عرفت هذا حين طلبت منها المشاركة في هذا المشروع، وظل معى هذا الشعور طوال عملنا في المشروع، وكان ظني في محله. بدأت هذه الرحلة معها، حيث إنها كانت قد بدأت قبل أن أطلب من علياء أن تنضم لنا. ولراشيل إسهامات جلية في جميع أجزاء الكتاب، وهى تمثل صوتا شديد الأهمية في الحوار. وما إن حصلت على "إثبات" بأن أفكارنا قد حازت القبول، عادت فورا إلى العمل بالمشروع. وقد كان هذا بالنسبة لى درسا في *الصبر* في عملية يدخل فيها شخص.

وكما أشارت راشيل عن حق، أعطتنا حرب لبنان فرصة لنرى "ما إذا كنا فعلا نمارس ما ندعو إليه". لقد اضطربت بعمق حين بدأت الحكومة الإسرائيلية في حملتها لقصف لبنان بالقنابل، وقصدها المعلن تدمير حزب الله. لم يكن مقبولا لى تدمير أمة وقتل النساء والأطفال في حين أن حزب الله لا يمثل إلا جزءا واحدا من مواطني البلد. وقد كان معقولا من وجهة النظر التاريخية للبنانيين ألا يقبلوا احتلال إسرائيل لأراضيهم. أردت أن آخذ جانبا، حيث إننى أعي تماما أن الكثير من البلدان العربية كانت هدفا للتدمير واحدة تلو الأخرى كجزء من "إعادة تصميم الشرق الأوسط". كان علي أن أفصل حبى للشعب "اليهودي" عن معرفتي بنية السيطرة على الشرق الأوسط وإحساسى نحوها، بغض النظر عن أي خسائر بشرية. وشعرت أيضا بالخجل من أني أمريكية، حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية قد باركت استمرار العنف على الرغم من احتجاج العالم الأوسع. وصرت أيضا أكثر وعيا بالخوف الذي يشعر الإسرائيليون الأبرياء، الذين حاصرتهم ويلات هذا العنف.

وفي حوار تليفوني مع راشيل، أشرت إلى أن الوفيات والتدمير في إسرائيل كانت نتيجة للحرب ليس إلا. فكل من يشارك في الحرب يعاني. ثم تجاوزت وسائل الإعلام الخاضعة للتحكم، وأجريت البحث، لأكتشف أن مشروع القرن الأمريكي الجديد ومن ينتمون إليه لديه خطة للحرب والتدمير أكبر بكثير مما يحدث. وقد جعلني هذا في شدة الخوف على مستقبل إنسانيتنا، والغضب على مرتكبى العنف.

أدركت أن ممارساتي الروحية ستساعدني على تجنب الانزلاق الأبوي إلى أخذ موقف الدفاع الذي يؤدي إلى الشعور بالمرارة والانفصال. تطلب الأمر توازنا دقيقا بين إجراء بحثي، وقول ما أعرف أنه صحيح، والتمسك به، مع العناية بالأسرة الإنسانية بأكملها، والأمل بمستقبل أعظم. جميعنا نأخذ موقف الدفاع، ويظهر هذا بعدة طرق. وتغيير هذا النمط يلزمه الإخلاص لقضية أعظم. قد يقول المرء إن مجال علم النفس بركة موهوبة للعالم. جميعنا لدينا مُثُل عن العلاقات الإيجابية، لكن قلة هم من استطاعوا تطبيقها حين يستثار لديهم موقف الدفاع. إن قيمة الفهم النفسي، وما يتعلق به من استكشاف الذات أنه يتيح فرصة أعمق لنرى العلاقة الإيجابية ونزيح العراقيل من طريقها. وهو يسمح لنا أن نسامح أنفسنا وغيرنا.

واتباعا لهذه الخطوط، أجدني أفكر كثيرا في عملية الحقيقة والمصالحة الإفريقية، لأن عالمنا أثخن بالكثير من الجراح، وجميعنا سنكون في حاجة ماسة إلى عملية شفاء الجروح هذه في المستقبل إذا ما استمررنا في السير في نفس الاتجاه. لقد فقد عدد مهول من الناس لا يعد ولا يحصى حياتهم، وما زالوا يفقدونها كضحايا في السعي نحو السيطرة على الآخرين، أو باسم الانتقام. لقد ارتكب الكثير من الدمار باسم الحدود القومية، والهويات الدينية التي يعتنقها الناس عن باطل، ناهيك عن الإهانات والفظائع التي ترتكب يوميا بين الأفراد.

لا تقوم لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا على مثال أبوى يرتكب الانتقام، بل تتميز بالتوازن بين النوعين (الرجال والنساء) من حيث إنها تمزج ما بين الإحساس بالعدالة والتراحم والفهم. وهى تقوم على أساس الاعتراف بإنسانيتنا المشتركة.

كانت لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا عملية تسعى للعدالة أنشأتها حكومة الوحدة الوطنية، بعد انتهاء الفصل العنصري، وانتخاب نيلسون مانديلا رئيسا. اعترفت لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا بأن جانبي الصراع قد عانيا من العنف وانتهاكات حقوق الإنسان، وأنه "لم ينج أي قطاع من قطاعات المجتمع من هذه الانتهاكات"(٩).

أقرت اللجنة المنتدبة نظاما للإدلاء بالشهادة على الجرائم المتعلقة بانتهاكات حقوق الإنسان، وتسجيلها، وفى بعض الحالات للعفو عن مرتكبيها، وشجعت على تعويض الناس وإعادة تأهيلهم. وقد رأس المطران ديزموند توتو هذه اللجنة بمساعدة الكثيرين من بنائى السلام. تقول عبارة وردت في قانون الارتقاء بالوحدة الوطنية والمصالحة.

> **حيث إن من الضروري إرساء الحقيقة فيما يتعلق بأحداث الماضي علاوة على دوافع الانتهاكات الهائلة التي حدثت لحقوق الإنسان والظروف التي حدثت فيها، وإعلان ما نتوصل إليه من نتائج لمنع تكرار مثل هذه الأفعال في المستقبل؛ وحيث إن الدستور ينص على السعي نحو الوحدة الوطنية، وحسن أحوال شعب جنوب إفريقيا وأن السلام يتطلب المصالحة بين شعب جنوب إفريقيا وإعادة بناء المجتمع؛ وحيث إن الدستور ينص على الحاجة إلى**

---

(٩) http://www.doj.gov.za/trc/

التفاهم لا الانتقام، وإلى تعويض الناس عما أصابهم لا على القصاص، والحاجة إلى الأوبونتو [التشديد لي] لا إلى الإيقاع بالضحايا ...

والأوبونتو مفهوم إفريقي، نبع من لغتي الزولو والهاوسا. وهو مفهوم يعترف بالخيط المشترك الذي يوجد بين جميع البشر. ووفقا لقول المطران ديزموند توتو، "الشخص الذي لديه أوبونتو يكون متفتحا وفي متناول الآخرين، يقر بوجود الآخرين، لا يشعر بالتهديد من قدرة الآخرين وحسن حالهم، لأنه أو لأنها لديهما ثقة بالذات أتت من معرفتهما بانتمائهما لكل أكبر منهما وأن إهانة الآخرين أو الانتقاص منهم أو تعذيبهم أو قهرهم ينتقص من هذا الانتماء"(١٠). لقد قدمت فكرة الأوبونتو الدافع لحركات المصالحة.

لقد عانى الأفارقة بالتأكيد. عانوا من العبودية، والعنف، والإساءات المرتبطة بالحركات الاستعمارية. ويبدو أن من الصحيح أن نضع لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا في الخاتمة، لأنها تمثل نموذجا إيجابيا للمصالحة في جميع أنحاء العالم. توجد قصص عديدة عن الطرق التي أخذ بها هؤلاء القضاة العظام. فمثلا، وقفت امرأة مسنة كان ابنها قد قتل بوحشية إثناء فترة الفصل العنصري أمام القاتل أثناء محاكمته؛ حيث أنها قد منحت حق عقابه. وحكمت عليه بأن يحل محل ابنها، أن يصير ابنها، ومن ثم يملأ الفراغ الذي تركه فقد ابنها! وقد بُهت الرجل باختيارها، حتى أنه أغمى عليه على الفور.

وقد طعن أربعة شبان باحثة أمريكية شابة اسمها أيمي بيهل في ٢٥ أغسطس ١٩٩٣حتى قتلوها، وقد كانت هذه الشابة تعيش في مدينة الكيب تاون وتعمل ضد الفصل العنصري. وقد سجن نفس هؤلاء الشبان الأربعة لمدة خمس سنوات، ثم أفرج عنهم في عفو سنة ١٩٩٨. وقد كانت العقوبة قرارا لوالدى إيمى.

---

(١٠) http://speakingoffaith.publicradio.org/programs/2004/01/01_truth/

واثنان من هؤلاء الشبان، هما إيزي نوفيميلا ونتوبيكو بينى يعملان الآن في *مؤسسة بيهل*، وهى شركة ائتمان أسست باسم إيمي بيهل، بقصد الردع عن فعل المزيد من العنف. إن ليندا، أم أيمى، تعتقد في "الأوبونتو" من كل قلبها. وقد رفضت اعتبار نفسها ضحية، وهي تعترف بالمثل بأن الشابين لا يريدان أن يريا نفسيهما كقتلة. فهما يعتقدان من وجهة نظرهما أنهما كانا يحاربان من أجل تحررهما.

وبنص كلمات إيزي "أنا لست بقاتل، ولم أفكر في نفسي أبدا على أني قاتل، لكنى لن أنتمى بعد الآن أبدا لأى منظمة سياسية، لأن هذه المنظمات تملي عليك أفكارك وأفعالك. أنا أعتقد الآن بكل حماس أن الأشياء لن تتغير إلا عبر الحوار. الناس مصدومون لأني أعمل في شركة مؤسسة أيمى بيهل. وأقول لهم إنى أعمل هنا لأن بيتر وليندا جاءا إلى جنوب إفريقيا ليتكلما عن المسامحة"(١١).

قد يكون في الأمم المتحدة وجماعات حقوق الإنسان مكان للإسرائيليين والفلسطينيين، بل حتى للميليشيات، مثل ميليشيات حزب الله، للسير على إثر هذه الخطوات. إن القوات التي تزدهر ماليا من خلال خلق المزيد من الحروب لا بد أن تتوقف. ولا بد أن يحل محلها الحب، والكرم، والرعاية.

كانت العلاقات الإنسانية هي الرسالة المحورية لتعاليم يسوع. وقد نست المسيحية المعتادة هذه الرسالة، التي عبرت عنها وصية يسوع المزدوجة، أن نحب الله بكل كياننا، وأن يحب أحدنا الآخر كما يحب نفسه. كانت نشأة البروتستانتية وصعودها في وقت وقعت فيه الكاثوليكية فريسة للثروة والقوة محاولة للعودة إلى رسالة يسوع البسيطة، العناية بالفقراء والمحتاجين، ومعرفة أن هذه الرعاية هي الطريق إلى الله. وقد حل محل هذه الرسالة إلى حد بعيد كنيسة متحدة مع شركات كبرى وحكومات فشلت في رعاية الكثير من احتياجات إخوتنا وأخواتنا في جميع

---

(١١) http://www.theforgivenessproject.com/stories/linda-beihl-easy-nofemela

أنحاء العالم. إن مستقبلنا يعتمد على تحقيق الأوبونتو. وأنا حزينة لأن بلدي وديني قد استولى عليهما إلى حد بعيد إله زائف.

لا عجب أن القوى غير المرئية قد أدت إلى استعادة الأناجيل الغنوصية التي ظلت مختفية لفترة زمنية، خاصة أناجيل مريم وفيلبس، لأن هذه النصوص لم تتعرض للتزوير. إنها تصور بوضوح تعاليم يسوع التي فيها توازن بين النوعين (الرجل والمرأة)، واحترامه لمريم المجدلية. وأنا أضع أملي في العلماء التقدميين، ومحبى البيئة، والمعلمين الروحانيين وجميع الناس ذوي النوايا النقية في جميع أنحاء هذا الكوكب. كل هؤلاء يفضلون كوكبا فيه توازن بين النوعين (الرجال والنساء)، فهذا التوازن نموذج للسلام وحسن النوايا.

البوذيون يدعون في صلواتهم أن يأخذوا جزاء أفعالهم، ويدعون أن ينفعوا جميع الأحياء ويفعلوا ما هو في صالحهم. ننهي كتابنا بهذا الدعاء. كل منا يلعب دورا في عملية التحول الإنساني. ومن اللازم أن نفتش جميعنا قلوبنا، لننزع منها جذور تعصبنا، واتجاهاتنا الدفاعية والتدميرية، لحظة بلحظة، فكرة بفكرة، حتى تتآلف سلوكياتنا مع مُثُلنا العليا. وفى الختام، نريد أن نقول إننا ممتنات لأن بإمكاننا الكلام عن النموذج القادم، نموذج زمن تتبوأ فيه النساء مكانهن ويساعدن على إعادة التوازن لعالمنا.

المؤلّفات في سطور

د. شارون ج. ميهاريس:

أستاذة الديانات المقارنة بمعهد كاليفورنيا للعلوم الإنسانية، وهي تتولى أيضا تدريس مقررات متنوعة في علم النفس بجامعة تشابمان. درست التصوف المسيحي لما يزيد عن ستة وثلاثين عامًا، وأنفقت الستة عشر عامًا الأخيرة في دراسة التعاليم الآرامية الأصلية ليسوع. عضو في حركة الروحانيات الصوفية الدولية، وقد رسمت خادمة في مصاف عباداتها المسكونية، التي تكرم جميع مأثورات أديان العالم بأسره.

عنوان موقعها على شبكة الإنترنت: www.sharonmijares.com

د. علياء رافع:

أستاذة وباحثة إسلامية مصرية مرموقة، وعضو بهيئة تدريس جامعة عين شمس. كانت أستاذة زائرة في كلية راندولف ماكون للبنات في عام ٢٠٠٢. تنحدر الدكتوره علياء رافع من سلالة عريقة من مشايخ الطرق الصوفية، وهي من آل بيت النبي محمد(ﷺ). حصلت على درجة الدكتوراه في علم الأنثروبولوجيا. ألّفت وشاركت في تأليف العديد من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية، آخرها *كتاب الإسلام الأساسي* *The Book of Essential ISlam* (مؤسسة الكتاب ٢٠٠٥ Book Foundation 2005)• وهي زميلة جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية، وعضو في العديد من المؤسسات الأكاديمية الدولية. وهي أيضًا عضو في العديد من المنظمات غير الحكومية بمصر.

راشيل فاليك:

حاصلة على ماجستير الدراسات العليا في علم النفس التنظيمي، ولها اهتمام خاص بديناميكيات ما بين الثقافات. ولدت في إسرائيل ونشأت بها، وخدمت في القوات الجوية الإسرائيلية برتبة ملازم. بعد ذلك عملت بمجال الإدارة كأخصائية للموارد البشرية، وهي تعيش حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

جيني إيدا شيبر:

حاصلة على درجة الماجستير في القيادة والاستشارات من جامعة دوكين. تعمل معلمة لليوجا، ومعالجة بالتدليك، وفنانة، وتتولى حاليًا المشاركة في تحرير كتاب:

The Jewish Woman Muslim Woman in the 21st Century: Transcending Differences.

المترجمة فى سطور:

سهام بنت سنية وعبد السلام

– طبيبة، وباحثة أنثروبولوجية، ومترجمة ، وناقدة سينمائية ، وممثلة

– حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة عام ١٩٧٢، ثم دبلومة الدراسات العليا في الطب المهنى وطب الصناعات عام ١٩٧٦، من كلية الطب جامعة عين شمس.

– حصلت على الماجستير فى الأنثروبولوجيا من الجامعة الأمريكية فى القاهرة عام ١٩٩٨.

– كما حصلت على دبلوم الدراسات العليا فى النقد الفنى عام ١٩٨٥ من أكاديمية الفنون، ودبلوم الدراسات العليا فى الترجمة من جامعة القاهرة عام ٢٠٠٧.

أتمت ورشة إعداد الممثل بمركز الإبداع الفنى تحت إشراف المخرج خالد جلال عام ٢٠٠٥م، ومارست التمثيل المسرحى والسينمائى.

من أهم أعمالها فى الترجمة:

– حين يكون الداء فى الدواء: دليل من إعداد الحركة الُحية الدولية، قبرص، ١٩٩١.

– برنامج بورتيدج للتربية المبكرة، الطبعة المعربة التجريبية ١٩٩٣.

- على هواها.. نظرة فاحصة: أفلام تجريبية لمخرجات من النمسا، صندوق التنمية الثقافية ١٩٩٤.
- السينما العربية والإفريقية. تأليف روي آرمز وليث مالكموس. القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣.
- الأدب والنسوية. بام موريس. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣.
- صور ما بعد الكولونيالية : دراسات فى أفلام شمال إفريقيا: روى آرمز. القاهرة : المركز القومى للترجمة ٢٠٠٨.

مجموعة كتب غير منشورة ومجموعة مقالات ترجمت للاستخدام الداخلى فى معهد إعداد العاملين فى مهنة تنمية قدرات المعاقين بمركز عين شمس للتأهيل التابع للهلال الأحمر الفلسطينى. ومجموعة مقالات لمجلة الثقافة العالمية الكويتية، ولجريدة الجزيرة السعودية ، ولبعض الجمعيات الأهلية المصرية.

- كما عملت بالترجمة الفورية والتتبعية من الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية بمركز عين شمس، وبورش عمل ومؤتمرات لبعض الجمعيات الأهلية الأخرى.

- تعمل حاليًا بالترجمة التتبعية مع مراسل جريدة ***The National*** فى القاهرة ، وهى جريدة تصدر فى الإمارات العربية باللغة الإنجليزية.

المراجعة فى سطور

د. سارة عناني

- تعمل مدرس فى القسم اللغة الإنجليزية وآدابها.
- حصلت على درجة الدكتوراه فى سميوطيقا المسرح المتعلقة بالدراما البريطانية والأمريكية، وكانت بعنوان "تحليل سميوطيقى لبعض مسرحيات الكاتبة الأمريكية الكوبية الأصل (ماريا آلوين فرناس)"
- سبق لها الحصول على منحة فولبرايت لأساتذة الجامعات المتميزين.
- تعمل مترجمة ولها خبرة فى هذا المجال لما يزيد عن ٢٠ عامًا، إذ قامت بترجمة العديد من الأعمال الأدبية والأوبرات والأفلام من تأليف أدباء مثل (يوسف إدريس) و(سيد حجاب) وآخرين.
- لها ترجمات فى مجال السينما آخرها فيلم "رسائل البحر" لداود عبد السيد.
- عملت مراجعة لعدد من الكتب والمنشورات منها سلسلة الأدب العربي المعاصر المترجم من اللغة الإنجليزية للهيئة العامة للكتاب.
- عملت مترجمة مع عدة سفارات لدول أجنبية مثل بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وهيئات مثل هيئة المعونة الأمريكية ووزارة الخارجية لنفس الدولة وهيئة الجزويت.
- عملت مترجمة لعدد من الهيئات المحلية مثل المجلس الأعلى للثقافة، ومركز الهناجر للفنون، ودار الأوبرا المصرية، ومكتبة الإسكندرية، وصندوق شباب المسرح العربى، واستوديو عماد الدين.

كاتبة المقدمة فى سطور

أ. د. هدى عبد المنعم زكريا لبيب

- أستاذ علم الاجتماع بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الزقازيق.
- العديد من تخصصاتها الأكاديمية علم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع القانونى والمذاهب والنظريات السياسية، والسياسية وقضايا المرأة والمجتمع فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى ، وعلم الاجتماع الدينى.
- كما شغلت منصب أستاذ مقيم بالولايات المتحدة فى جامعة ألفريد بولاية نيويورك فى إطار منح مؤسسة فولبرايت لتبادل الأساتذة، حيث قدمت مواد "العالم الإسلامى رؤية من الداخل" و"قضايا المرأة فى الشرق الأوسط"، والسياسية والمجتمع فى الشرق الأوسط".
- كما عملت مستشارة لعدة هيئات أجنبية، منها مستشار للتنمية الاجتماعية بالمركز الثقافى البريطانى فى القاهرة، لتنفيذ اتفاقية تعاون بين مصر وبريطانيا، والعمل فى مستشار لوكالة التعاون الفنى الألمانية، وكذلك لعدة هيئات محلية وقومية منها المجلس العربى للأمومة والطفولة، ومركز دراسات المرأة والهيئة الإنجابية.
- لها دراسات عدة منها "آليات التماسك البنائى المصرى وتطور مفهوم النحن" و"هل استطاعت العلوم أن تتجنب التحيز ضد النساء؟" والمرأة المصرية وفلسفة الاستدعاء والطرد"، و"الخلع دراسة فى علم الاجتماع القانونى" والقوى الاجتماعية الفاعلة فى صناعة القانون" والفتنة الطائفية والهموم البنائية" وغيرها.

التصحيح اللغوي: **عصـــام عبد الخـــالق**
الإشراف الفنى : **حـــســن كـــــامــل**

هذ ا الكتاب تجربة فريدة تقدمها أربع مؤلفات مختلفات القومية والديانة، يحاولن فيها كشف جذور التعصب والنعرات الدينية التى يرينها أس جميع الشرور.

المؤلفات، لا يجمع بينهن إلا وعيهن المرهف بإنسانيتهن المشتركة، وترحابهن بالجهر بهذا الوعى دفاعا عن قيم يعتززن باعتناقها، وشجبًا للنهج والممارسات التى يدركن أنها تنخر فى هذه القيم وتدمرها. لقد أتت المؤلفات الأربع من خلفيات شديدة التباين؛ فبينهن مسلمة من مصر، ومسيحية متصوفة من أمريكا، ويهودية أمريكية، ويهودية من إسرائيل (لكنها تعيش حاليا فى الولايات المتحدة الأمريكية).

الكتاب يتميز بقدر هائل من المعلومات الخاصة بالأديان المختلفة التى تسوقها الكاتبات فى محاولتهن النقدية لكشف أس الشرور الإنسانية، والذى يعرفنه فى الكتاب بأنه "أى تصرف محسوب يقصد به الحط من قدر إنسان أو إلحاق الأذى به"، ويضفن "أن اختلال موازين القوى بين الجنسين الناجم عن النسق الأبوى هو الذى تتسم به السلوكيات المتعصبة النابعة من الكبرياء بسبب علو المنزلة فى سلم التراتب الهرمى.

بعض الآراء التى وردت فى الكتاب خلافية، وبالذات التى تخص الصراع العربى الإسرائيلى. وقد ناقشت المؤلفات خلافاتهن، ووصلن أحيانا إلى اتفاق، لكنهن اتفقن أحيانا أخرى على أل يتفقن، ووصلن إلى خلاصة فحواها أن الكثير مما يعيب العال المحيط بنا يرجع إلى الأصولية، والتعصب، واختلال موازين القو بين الجنسين.

تصميم الغلاف: ديمة الحساني